د. أليس كوراني

اللُّغَةُ والمُجْتَمَعُ عِنْدَ العَرَبِ

(الجاحِظُ نَموذَجاً)



اللُّغَةُ والمُجْتَمَعُ عِنْدَ العَرَبِ
(الجاحِظُ نَموذَجاً)

د. أليس كوراني

اللُّغَةُ والمُجْتَمَعُ عِنْدَ العَرَبِ

(الجاحِظُ نَموذَجاً)

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
1434 هـ ـ 2013م

مجد المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع
بيروت - الحمراء - شارع إميل إده - بناية سلام - ص.ب: 113/6311
تلفون: 01/791123 - تلفاكس: 01/791124 بيروت - لبنان
بريد إلكتروني majdpub@terra.net.lb

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى الأَيْدي التي غَمَرَتْني عَطْفاً وَحُبّاً طِوالَ هَذِهِ السِّنينَ...

إلى أَبي وَأُمّي اللَّذَيْنِ عَبَّدا دَرْبَ مَعْرِفَتي...

إِلَيْهِما... أَرْفَعُ عَمَلي هَذا.

المُقَدِّمَةُ

يَنْطوي هَذا الكِتابُ عَلى دَعْوَةٍ إلى تَحْديثِ الدِّراساتِ اللُّغَوِيَّةِ العَرَبِيَّةِ، وَرَفْدِها بِما تَوَصَّلَ إِلَيْهِ عُلَماءُ اللُّغَةِ في العَصْرِ الحَديثِ مِنْ مَناهِجَ لُغَوِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ جَديدَةٍ، ساعَدَتْ وَتُساعِدُ في تَطويرِ دِراسَةِ العَرَبِيَّةِ.

فَمَعَ ظُهورِ عِلْمِ اللُّغَةِ الاجْتِماعِيِّ وَبَلْوَرَتِهِ في مُنْتَصَفِ القَرْنِ العِشْرينَ، ظَهَرَتْ أَطاريحُ لُغَوِيَّةٌ عَرَبِيَّةٌ لامَسَتْ هذا المَنْهَجَ، فَكانَتِ الكُتُبُ وَالأَبْحاثُ في ذَلِكَ الإطارِ، إِلَّا أَنَّها لَمْ تُوَفِّ النُّصوصَ الأَدَبِيَّةَ وَاللُّغَوِيَّةَ القَديمَةَ حَقَّها اسْتِقْراءً وَوَصْفاً إِلَّا فيما نَدَرَ. لِذَلِكَ ارْتَأَيْتُ أَنْ أَتَناوَلَ في هَذا الكِتابِ نُصوصاً للجاحِظِ تَنْدَرِجُ تَحْتَ إِطارِ عِلْمِ اللُّغَةِ الاجْتِماعِيِّ، مَدْعومَةً بِأَدِلَّةٍ وَشَواهِدَ مِنْ كِتاباتِ أَعْلامٍ آخَرينَ، تَخْدُمُ الهَدَفَ.

وَلا أَزْعُمُ أَنَّني أَحَطْتُ بِكُلِّ ما لَهُ صِلَةٌ بِهذا العِلْمِ في كِتابي هذا الذي رَكَّزْتُ فيهِ، بِشَكْلٍ بارِزٍ، عَلى رَصْدِ تَأْثيرِ المُعْطَياتِ الاجْتِماعِيَّةِ في اللُّغَةِ، مَعَ عَدَمِ إِغْفالِ جَوانِبَ اجْتِماعِيَّةٍ ـ لُغَوِيَّةٍ أُخَرَ تَظْهَرُ في سِياقِ الكِتابِ.

وَقَدْ تَوَزَّعَ هَذا الكِتابُ عَلى أَرْبَعَةَ عَشَرَ فَصْلاً وَمُقَدِّمَةٍ وَخاتِمَةٍ.

بَحَثْتُ في الفَصْلِ الأَوَّلِ: «اللُّغَةُ وَالمُجْتَمَعُ»، العَلاقَةَ المَتينَةَ بَيْنَهُما، مَعَ الإِشارَةِ إِلى نُشوءِ عِلْمِ اللُّغَةِ الاجْتِماعِيِّ، وَالْتِفاتِ العَرَبِ مِنْ قَبْلُ إِلى عَلاقَةِ اللُّغَةِ بِالمُجْتَمَعِ وَتَأْثيرِهِ فيها.

وَلَمّا كانَ عِلْمُ اللُّغَةِ الاجْتِماعِيُّ يَتَعَرَّضُ للإطارِ الحَضارِيِّ عِنْدَ دِراسَةِ النُّصوصِ اللُّغَوِيَّةِ وَالأَدَبِيَّةِ، فَقَدْ عَرَضْتُ في الفَصْلِ الثّاني: «الأَوْضاعُ العامَّةُ في العَصْرِ العَبّاسِيِّ الأَوَّلِ»، لَمْحَةً سَريعَةً عَنْ مُجْمَلِ تِلْكَ الأَوْضاعِ.

وَفي الفَصْلِ الثّالِثِ: «الجاحِظُ»، تَناوَلْتُ حَياةَ هذا الأَديبِ وَالظُّروفَ الاجْتِماعِيَّةَ وَالفِكْرِيَّةَ التي ساعَدَتْ عَلى تَكْوينِ شَخْصِيَّتِهِ.

وَمَعَ الفَصْلِ الرّابِعِ: «لُغَةُ أَهْلِ الأَمْصارِ»، باشَرْتُ بِمُعالَجَةِ الظَّواهِرِ اللُّغَوِيَّةِ ـ الاجْتِماعِيَّةِ، مِنْ خِلالِ النُّصوصِ التي أَظْهَرَتِ الاخْتِلافاتِ اللُّغَوِيَّةَ بِاخْتِلافِ الأَمْصارِ وَالبُلْدانِ حَضارِيّاً وَجُغْرافِيّاً.

وَأَفْرَدْتُ الفَصْلَ الخامِسَ: «لُغَةُ الأَعْرابِ» لِوَصْفِ لُغَتِهِمْ وَبَيانِ تَأْثيرِ بيئَتِهِمْ فيها.

بَعْدَ ذَلِكَ، قابَلْتُ بَيْنَ المُسْتَوَياتِ اللُّغَوِيَّةِ العائِدَةِ لِبَعْضِ الشَّرائِحِ الاجْتِماعِيَّةِ في المُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ، فَدَرَسْتُ في الفَصْلِ السّادِسِ: «لُغَةُ أَهْلِ الحُكْمِ»، لُغَةَ هَؤُلاءِ وَمُسايَرَتَها مَوْقِعَهُمُ السِّياسِيَّ ـ الاجْتِماعِيَّ.

أما في الفَصْلِ السّابِعِ: «لُغَةُ الأُدَباءِ وَالكُتّابِ»، فَقَدْ عالَجْتُ مَكانَةَ الكُتّابِ وَالكِتابَةِ في المُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ، وَكَيْفَ أَنَّ لُغَةَ الكُتّابِ خَضَعَتِ للواقِعِ الاجْتِماعِيِّ وَكَرَّسَتْهُ في آنٍ واحِدٍ.

وَفي الفَصْلِ الثّامِنِ: «لُغَةُ الفَلاسِفَةِ وَالمُتَكَلِّمينَ»، تَعَرَّضْتُ لِلُغَةِ أَهْلِ الفَلْسَفَةِ وَالكَلامِ، وَتَناوَلْتُ أَثَرَها في لُغَةِ الخَواصِّ وَالعَوامِّ آنَذاكَ.

وَبَيَّنْتُ في الفَصْلِ التّاسِعِ: «لُغَةُ الأَطِبّاءِ»، تَأَثُّرَ الأَطِبّاءِ بِمِهْنَتِهِمْ وَانْعِكاسَ ذَلِكَ عَلى لُغَتِهِمْ.

أَمّا في الفَصْلِ العاشِرِ: «لُغَةُ الشُّعَراءِ»، فَقَدْ عَرَجْتُ عَلى التَّأْثيرِ المُتَبادَلِ بَيْنَ لُغَةِ الشُّعَراءِ وَمُجْمَلِ الأَوْضاعِ في الحاضِرَةِ العَبّاسِيَّةِ.

ثُمَّ انْتَقَلْتُ في الفَصْلِ الحادي عَشَرَ: «لُغَةُ التُّجّارِ» إلى الحَديثِ عَنِ التُّجّارِ ـ أَبْناءِ الطَّبَقَةِ الوُسْطى ـ وَعَنْ لُغَتِهِمِ التي تَلَوَّنَتْ بِأَلْفاظٍ وَتَعابيرَ مِنْ مُحيطِهِمِ الدِّينيِّ وَالفَنِّيِّ وَالأَدَبِيِّ في نَشاطِهِمِ التِّجارِيِّ.

وفي الفَصْلِ الثّاني عَشَرَ: «لُغَةُ أَصْحابِ المِهَنِ وَالحِرَفِ»، عالَجْتُ قَضِيَّةً شَغَلَتْ بالَ الجاحِظِ، وَهِيَ تَأْثيرُ المِهَنِ في لُغَةِ أَرْبابِها.

ثُمَّ عَرَضْتُ في الفَصْلِ الثّالِثَ عَشَرَ: «لُغَةُ العَوامِّ»، ما آلَتْ إِلَيْهِ تِلْكَ اللُّغَةُ، وَكَيْفَ أَنَّ حُكْمَ الخاصَّةِ عَلَيْها كانَ عَلى أَساسٍ اجْتِماعِيٍّ لا لُغَوِيٍّ في أَغْلَبِ الأَحْيانِ.

وَفي الفَصْلِ الرّابِعَ عَشَرَ: «لُغَةُ الجَواري»، أَظْهَرْتُ تَبايُنَ مُسْتَوياتِ الجَواري اللُّغَوِيَّةِ بِحَسَبِ انْتِماءاتِهِنَّ الاجْتِماعِيَّةِ.

وَقَدِ اقْتَصَرْتُ في هَذا الكِتابِ عَلى دِراسَةِ هَذِهِ الشَّرائِحِ الاجْتِماعِيَّةِ وَمُسْتَوياتِها اللُّغَوِيَّةِ، وَأَعْرَضْتُ عَنْ شَرائِحَ أُخَرَ ذَكَرَها الجاحِظُ، لِنُدْرَةِ نُصوصٍ خاصَّةٍ بِلُغَتِها تَنْدَرِجُ تَحْتَ إِطارِ مَوْضوعِ البَحْثِ، وَلِمَنْعِ إِثْقالِ الكِتابِ بِنَماذِجَ جَديدَةٍ لا يَتَّسِعُ المَقامُ لَها.

وَقَدِ اعْتَمَدْتُ في شَرْحِ مَعاني المُفْرَداتِ عَلى مُعْجَمِ «لِسانِ العَرَبِ»[1] لابْنِ مَنْظورٍ بِشَكْلٍ أَساسِيٍّ.

---

(١) ابن منظور، محمّد بن مكرّم، **لسان العرب**، نسّقه وعلّق عليه ووضع فهارسه علي شيري، دار إحياء التراث العربيّ، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

وَفي تَرْجَمَةِ الأَعْلامِ اعْتَمَدْتُ عَلى كِتابِ «الأَعْلام»[1] لِخَيْرِ الدّينِ الزِّرِكْلِيِّ، دونَ الإحالةِ عَلَيْهِما كلَّ مَرَّةٍ لِكَثْرَةِ الرُّجوعِ إِلَيْهِما، وَأَشَرْتُ إِلى اسْمِ المَصْدَرِ أَوِ المَرْجَعِ عِنْدَ عَدَمِ وُجودِ الشَّرْحِ في «اللِّسانِ» أَوِ التَّرْجَمَةِ في «الأَعْلامِ».

وَقَدِ اعْتَرَضَتْ لي خِلالَ إِعْدادِ هَذا البَحْثِ صُعوباتٌ، أَهَمُّها حَداثَةُ هَذا العِلْمِ وَقِلَّةُ طارِقي بابِهِ مِنَ الباحِثينَ العَرَبِ مِنْ ناحِيَةِ الاشْتِغالِ عَلى نُصوصٍ لُغَوِيَّةٍ وَأَدَبِيَّةٍ قَديمَةٍ، الأَمْرُ الذي دَفَعَني في غالِبِ الأَحْيانِ إِلى التَّنْقيبِ عَنِ النُّصوصِ التي تَفي بِالغَرَضِ، وَالغَوْصِ فيها لاسْتِخْراجِ ما يُشَكِّلُ الرَّكيزَةَ في بِنْيَةِ هَذا الكِتابِ.

وَبِالنِّسْبَةِ إِلى الكُتُبِ المُتَرْجَمَةِ في العُلومِ اللُّغَوِيَّةِ الحَديثَةِ، فَهِيَ عَلى ضَآلَتِها، تَتَّصِفُ غالِباً بِرَداءَةِ التَّرْجَمَةِ ما يُؤَدّي إِلى اسْتِغْلاقِ فَهْمِها عَلى الباحِثِ.

---

(١) الزركلي، خير الدين، الأعلام ـ قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، الطبعة السادسة عشرة، بيروت، ٢٠٠٥م.

كَلِمَةُ شُكْرٍ

أَخُصُّ بِالشُّكْرِ الجَزيلِ وَالعِرْفانِ الدُّكْتورَ عبد الفتّاح الزّين عَلى ما بَذَلَهُ مِنْ مَعُونَةٍ في تَوْجيهي وَرِعايَتي مُنْذُ بِداياتِ هَذا البَحْثِ حَتّى اكْتِمالِهِ.

وَالشُّكْرُ لِلدُّكْتورِ ديزيره سَقّال عَلى طولِ أَناتِهِ في قِراءَةِ هَذا البَحْثِ وَعَلى المُلاحَظاتِ القَيِّمَةِ التي رَفَدَني بِها.

وَتَحِيَّةُ تَقْديرٍ وَوَفاءٍ للمَرْحومِ الدُّكْتورِ عفيف دمشقيّة، شَيْخِ النُّحاةِ في الجامِعَةِ اللُّبْنانِيَّةِ، الذي أَدْلى بِمُلاحَظاتِهِ القَيِّمَةِ عِنْدَما كانَ هَذا الكِتابُ عَلى صورَةِ رِسالَةٍ جامِعِيَّةٍ.

وَلِكُلِّ مَنْ آزَرَني في إِنْهاءِ عَمَلي هَذا، خالِصَ الشُّكْرِ وَالامْتِنانِ.

د. أليس كوراني

00961708312 64

Alice_Kourani@hotmail.com

الفَصْلُ الأَوَّلُ

اللُّغَةُ والمُجْتَمَعُ

تُعَدُّ اللُّغَةُ مِنْ أَسْمى مَظاهِرِ الحَضارَةِ، وَحَلْقَةً في سِلْسِلَةِ النَّشاطِ الإِنسانيِّ، وَتَبْرُزُ أَهَمِّيَتُها في ما تُؤَدِّيهِ مِنْ دَوْرٍ في حَرَكَةِ الحَياةِ وَالمُجْتَمَعِ، إِذْ لا يُمْكِنُ تَصَوُّرُ مُجْتَمَعٍ بِلا لُغَةٍ، وَلا لُغَةٍ بِلا مُجْتَمَعٍ، «فَلِكَي توجَدُ اللُّغَةُ لا بُدَّ مِنْ مَجموعَةٍ ناطِقَةٍ بِها، فَهِيَ وَأَيّاً كانَتْ لَحْظَتُها فَلا توجَدُ خارِجَ الواقِعَةِ الاجْتِماعِيَّةِ»[١]، وَلا يَتَحَقَّقُ وُجودُها إِلّا بِفَضْلِ نَوْعٍ مِنَ التَّعاقُدِ بَيْنَ أَعْضاءِ المَجْموعَةِ الواحِدَةِ[٢].

فَاللُّغَةُ عِبارَةٌ عَنْ نِظامٍ مِنَ الرُّموزِ الصَّوْتِيَّةِ الاعْتِباطِيَّةِ، يَتَفاعَلُ بِوِساطَتِها أَفْرادُ مَجْموعَةٍ اجْتِماعِيَّةٍ ما، وَيُقيمونَ عَلاقاتٍ فيما بَيْنَهُمْ[٣]. ثُمَّ إِنَّ المُتَكَلِّمَ الذي «يَسْتَعْمِلُ لُغَةَ المُجْتَمَعِ الذي نَشَأَ فيهِ يَسْتَعْمِلُ أَصواتَها،

---

(١) سوسر، فردينان: محاضرات في الألسنيّة العامّة، ترجمة يوسف غازي ومجيد النّصر، دار نعمان للثّقافة، الطّبعة الأولى، جونية، لبنان، ١٩٨٤، ص: ٩٩.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ص: ٢٦.

(٣) هذا النّص هو لـ STURTEVAUT وقد استشهد به LABOV.

W. LABOV, **Sociolinguistique**, Imprimerie Corbière et Jugain, Les éditions de Minuit, France, 1976, p. 356: «Une langue est un système de symboles vocaux arbitraires au moyen desquels les membres d'un groupe social coopèrent et entretiennent des relations».

وَصِيَغِها، وَمُفرداتِها، وَتَراكيبِها، حَسَبَ أُصولٍ اسْتِعْمالِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، يَحْذِقُها بِالمُشارَكَةِ في التَّخاطُبِ، وَيَمْرُنُ عَلَيْها..»[1].

وَبِاللُّغَةِ يُعَبِّرُ الأَفرادُ عَنْ حاجاتِهِمْ، وَهَذا ما أَشارَ إِلَيْهِ ابْنُ جِنِّيٍّ[2] حينَ حَدَّ اللُّغَةَ بِأَنَّها «أَصْواتٌ يُعَبِّرُ بِها كُلُّ قَوْمٍ عَنْ أَغْراضِهِمْ»[3].

كَما رَأى بَعْضُ الباحِثينَ، أَمْثالِ جوزيف فندريس Joseph Vendryes، أَنَّها إِحْدى أَقْوى الرَّوابِطِ التي تُوَحِّدُ أَوْ تَرْبِطُ المُجْتَمَعَ[4].

وَإِذا أَمْعَنّا النَّظَرَ في لُغَةٍ ما، أَكانَ ذَلِكَ عَبْرَ نُصوصِها القَديمَةِ، أَمْ عَبْرَ صورَتِها الحالِيَّةِ، وَجَدْنا أَنَّ مُفْرَداتِها «تَتَطابَقُ تَماماً مَعَ الحاجاتِ الاجْتِماعِيَّةِ لِلشَّعْبِ المُسْتَعْمِلِ لِتِلْكَ اللُّغَةِ»[5].

إِنَّ عَلاقَةَ اللُّغَةِ بِالمُجْتَمَعِ مَتينَةٌ وَمُتَداخِلَةٌ، فَالنُّظُمُ السِّياسِيَّةُ وَالاجْتِماعِيَّةُ، وَالتَّقاليدُ الثَّقافِيَّةُ، وَالقِيَمُ الأَخْلاقِيَّةُ تَتْرُكُ آثارَها في اللُّغَةِ التي تَتَغَذّى مِنْ صَميمِ التَّقاليدِ وَالأَعْرافِ وَالعَقائِدِ السّائِدَةِ فيهِ، لِذَلِكَ

---

(١) حسّان، تمام (دكتور): **اللّغة بين المعياريّة والوصفيّة**، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، د. ط. ١٩٥٨م، ص: ٩.

(٢) هو عثمان بن جنّيّ (ابن جنّيّ) أبو الفتح (ت ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢م): من أئمة الأدب والنّحو، وله شعر. ولد بالموصل وتوفّي ببغداد. من تصانيفه: «الخصائص»، و«المحتسب»، و«المذكّر والمؤنّث»، و«التنبيه» في شرح ديوان الحماسة، و«المصنّف» في شرح التصريف للمازني، و«المقتضب من كلام العرب».

(٣) ابن جنّيّ، أبو الفتح عثمان: **الخصائص**، تحقيق محمّد علي النّجار، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، الطّبعة الثالثة، القاهرة، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م، ج١: ٣٣.

(٤) ينظر: فندريس، جوزيف: **اللّغة**، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمّد القصّاص، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، د. ط. ١٩٥٠م، ص: ٣٥.

(٥) كوندراتوف، ألكسندر: **أصوات وإشارات**، ترجمة إدور يوحنّا، وزارة الثقافة ومديرية الثّقافة العامّة، بغداد، د. ط. ١٩٧١م، ص: ٨٢.

رَأى سوسُّر Saussure «أنَّ لِعاداتِ أُمَّةٍ ما تَأثيراً في لُغَتِها، فَضْلاً عَنْ أنَّ هَذِهِ اللُّغَةَ هِيَ التي تَصْنَعُ الأُمَّةَ إلى حَدٍّ كَبيرٍ»(١).

فَما يَمَسُّ المُجْتَمَعَ يَمَسُّ اللُّغَةَ أَيْضاً، لِأَنَّها «لَيْسَتْ واقِعاً ذِهْنِيّاً مُجَرَّداً لا رابِطَ يَرْبِطُهُ بِالواقِعِ الاجْتِماعِيِّ»(٢)، بَلْ إنَّها مَجْموعَةُ عاداتٍ، وَتَبَعاً لِهَذِهِ العاداتِ، فَإنَّ أَفْرادَ الأُمَّةِ يُواصِلونَ الاتِّصالَ فيما بَيْنَهُمْ(٣). وَيَمْتَدُّ تَأْثيرُ تِلْكَ العاداتِ عَلى مُسْتَوى الكَلِمَةِ وَالدَّلالَةِ وَالسِّياقِ اللُّغَوِيِّ.

وَالتَّطَوُّرُ الذي يُصيبُ المُجْتَمَعَ يُصيبُ اللُّغَةَ أَيْضاً، فَبَعْدَ ظُهورِ الإِسْلامِ ـ مَثَلاً ـ تَرَكَ النّاسُ كَلِماتٍ اسْتَعْمَلوها في الجاهِلِيَّةِ(٤)، مِنْها: أَبَيْتَ اللَّعْنَ، وَالإتاوَةُ، وَالمَكْسُ(٥)، وَاسْتَعْمَلوا أَسْماءً أَوْ كَلِماتٍ لِلدَّلالَةِ

---

(١) محاضرات في الألسنيّة العامّة، م. م. ص: ٣٥.

(٢) نهر، هادي (دكتور): علم اللّغة الاجتماعيّ عند العرب، دار الغصون، الطّبعة الأولى، بيروت ١٩٨٨م، ص: ٦٧.

(٣) W. LABOV, **Sociolinguistique**, p. 356: «La langue d'une nation est l'ensemble des habitudes en fonction desquelles les membres de cette nation ont contunue de communiquer entre eux».

(٤) عن بعض المستجدّات في الدلالات والألفاظ، ينظر:

ـ الجاحظ، عمرو بن بحر: كتاب الحيوان، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، دار الفكر للطباعة والنّشر والتوزيع ودار الجيل، الطّبعة الثانية، بيروت، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، ج١: ٣٢٧ ـ ٣٣٥.

ـ ابن فارس، أحمد: الصّاحبي في فقه اللّغة وسنن العرب في الكلام، تحقيق مصطفى الشويمي، المكتبة اللّغويّة العربيّة ومؤسسة أ. بلران للطباعة والنّشر، بيروت، د. ط. ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م، ص: ٧٩ ـ ٨١.

ـ السيوطيّ، عبد الرحمن (جلال الدّين): المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، تحقيق محمّد أحمد جاد المولى وعلي محمّد البجاوي ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، الطّبعة الرابعة، القاهرة، ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م، ج١: ٣٠٣ ـ ٣٩٤.

(٥) أبيت اللعن: من تحيّات الملوك في الجاهليّة. إتاوة: الرشوة والخراج. المكس: دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع في الأسواق في الجاهليّة.

عَلى أَوْضاعٍ جَديدَةٍ، كَكَلِمَةِ المُخَضْرَمِ وَالمُنافِقِ[1]، وَأَبْدَلوا مَعانِيَ كَلِماتٍ بِمعانٍ أُخَرَ كَالصَّلاةِ وَالصَّرورَةِ[2]، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الكَلِماتِ أَوِ المَعاني التي تَحْفِلُ بِها كُتُبُ اللُّغَةِ.

فَالأَفْكارُ وَالمُعْتَقَداتُ التي تَسودُ في مُجْتَمَعٍ ما، وَ«العَلاقاتُ الاجْتِماعِيَّةُ وَالصِّناعاتُ وَالعِدَدُ المُتَنَوِّعَةُ تَعْمَلُ عَلى تَغْييرِ المُفْرداتِ وَتَقْضي عَلى الكَلِماتِ القَديمَةِ أَوْ تُحَوِّرُ مَعْناها وَتَتَطَلَّبُ خَلْقَ كَلِماتٍ جَديدَةٍ»[3].

فَاللُّغَةُ، وَسيلَةُ التَّواصُلِ هَذِهِ، قَدْ واكَبَتِ التَّطَوُّرَ الإِنْسانِيَّ في مَراحِلِ اكْتِمالِها، وَلَمْ نَعْرِفْها عَلى حالِها إِلّا في مَرْحَلَةٍ مُتَقَدِّمَةٍ مِنْ هَذِهِ المَراحِلِ، وَتَكَوَّنَتْ في أَثْناءِ التَّطَوُّرِ الإِنْسانِيِّ[4]. إِنَّها تُسايِرُ الحَضارَةَ، وَتُواكِبُ حَرَكَةَ الحَياةِ في تَطَوُّرِها، وَلا تَقِفُ بِمَعْزِلٍ عَنِ الأَحْداثِ وَالأَوْضاعِ الحاضِرَةِ وَالمُسْتَجِدَّةِ؛ فَلَوْ نَظَرْنا إِلى كَلِمَةِ «قِطارٍ» في العَرَبِيَّةِ، لَوَجَدْنا مَعْناها: جِمالٌ يَسيرُ بَعْضُها خَلْفَ بَعْضٍ، لَكِنْ تَطَوَّرَ مَفْهومُها لِلدَّلالَةِ عَلى «القِطارِ» المَعْروفِ بِصورَتِهِ الحالِيَةِ بَعْدَ ظُهورِ السِّكَكِ

---

(١) المخضرم: الذي أدرك الجاهليّة والإسلام. المنافق: الذي راءى بالإسلام وأسرّ الكفر.

(٢) الصّلاة: كانت تعني الدّعاء، ثم دلّت على الصّلاة بصورتها الحالية. الصّرورة: كانت تعني في الجاهليّة من كان أرفع النّاس في مراتب العبادة، ثم أصبحت تقال ـ بعد الإسلام ـ للذي لم يحجّ بيت الله الحرام.

(٣) **اللغة**، م. م. ص: ٢٤٧.

(٤) cf. M. COHEN, **Materiaux pour une sociologie du langage**,V1, Maspéro, Imprimerie Corbière et Jugain, Paris,1978,P37: «Le langage, instrument de communication, que nous ne connaissons que dans un état très développé, s'est constitué au cours de l'evolution humaine».

الحَديديَّةِ. وَلا يَقْتَصِرُ الأَمْرُ عَلى هَذِهِ الكَلِمَةِ، بَلْ إِنَّ كَثيراً مِنَ الكَلِماتِ لَحِقَها التَّغْييرُ في مَفْهومِها وَدَلالَتِها أَيْضاً[1].

وَلَوْ قارَنّا لُغَةَ الآدابِ العَرَبِيَّةِ التي سادَتْ في القُرونِ الوُسْطى بِمَثيلَتِها في هذا العَصْرِ، لَرَأَيْنا الاخْتِلافَ بَيْنَهُما جَلِيّاً: فَفي الماضي ظَهَرَتِ الكُتُبُ المُسْهَبَةُ وَالمُطَوَّلَةُ كَقِصَصِ أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ، وَأَبي زَيْدٍ الهِلالِيِّ؛ وَكانَ يُؤَرِّخُ لِلْحَدَثِ التّاريخِيِّ بِكُلِّ تَفاصيلِهِ وَكَيْفِيّاتِهِ، كَنِهايَةِ الأَمَوِيّينَ، وَنَكْبَةِ البَرامِكَةِ... وَيَعودُ ذَلِكَ إِلى خُطى الحَياةِ البَطيئَةِ وَصُعوبَةِ المُواصَلاتِ، إِذْ كانَتِ الرِّحَلاتُ التِّجارِيَّةُ وَغَيْرُ التِّجارِيَّةِ تَسْتَغْرِقُ وَقْتاً طَويلاً، كَما أَنَّ مُعْظَمَ النّاسِ آنَذاكَ لَمْ يَرْتَبِطوا بِوَظائِفَ تُحَدِّدُ عَلَيْهِمْ أَوقاتَهُمْ، فَكانَتْ سَهَراتُ المُسامَرَةِ تَطولُ، وَلِقَطْعِ هَذِهِ الأَوْقاتِ الطِّوالِ في السَّفَرِ أَوِ الإِقامَةِ، ظَهَرَتْ مِثْلُ تِلْكَ الكُتُبِ التي تَفيضُ بِالأَحْداثِ وَالتَّفاصيلِ. أَمّا اليَوْمَ، فَلا يُمْكِنُ أَنْ يَنْجَحَ هَذا النَّهْجُ القَصَصِيُّ أَوِ الإِخْبارِيُّ، أَوْ أَنْ يَسْتَأْثِرَ بِاهْتِمامِ النّاسِ، فَآلِيَةُ العَمَلِ وَخُطى الحَياةِ المُتَسارِعَةِ، تَفْرِضُ ذاتَها عَلى اللُّغَةِ، حَتّى باتَ المُحَرِّرُ الإِخْبارِيُّ النّاجِحُ هُوَ الذي يُحَرِّرُ الخَبَرَ بِأَقَلِّ الجُمَلِ، بَلْ بِأَقَلِّ الكَلِماتِ في الجُمْلَةِ الواحِدَةِ[2].

وَفي خِضَمِّ التَّحَوُّلاتِ وَالتَّطَوُّراتِ الحَضارِيَّةِ، تَحْتاجُ اللُّغَةُ إِلى فَيْضٍ دائِمٍ مِنَ المُصْطَلَحاتِ لِتُواكِبَ عَجَلَةَ التَّقَدُّمِ، إِذْ «لا حَياةَ لِلُغَةٍ بِدونِ

---

(١) ينظر: أيّوب، عبد الرحمن (دكتور): محاضرات في اللّغة (القسم الأول)، مطبعة المعارف، بغداد، د. ط. ١٩٦٦م، ص: ٤٣.

(٢) ينظر: ظاظا، حسن (دكتور): اللسان والإنسان، مكتبة الدراسات اللّغويّة، القاهرة، د. ط. ١٩٧١م، ص: ١١١.

ابْتَكارِ أَلْفاظٍ جَديدَةٍ تُواجِهُ الزَّمَنَ وَمُسْتَحْدَثاتِ التَّطَوُّرِ»[١]. فَاللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ فَتَحَتْ مِصْراعَيْها وَما تَزالُ تَفْتَحُها لِأَلْفاظٍ أَوْ مُصْطَلَحاتٍ لَمْ تَكُنْ مَعْروفَةً مِنْ قَبْلُ في المُجْتَمَعاتِ العَرَبِيَّةِ، كَالتِّلِغْرافِ وَالتِّلْفازِ وَالإِنْتِرْنِتْ. وَهَذا ما فَعَلَتْهُ باقي اللُّغاتِ الحَيَّةِ، فَعَلى سَبيلِ المِثالِ، أَمَدَّ العالِمُ الرُّوسِيُّ «لومونوزوف» Lomonosov اللُّغَةَ الرّوسِيَّةَ بِفَيْضٍ مِنَ المُصْطَلَحاتِ التَّجْريدِيَّةِ، عِنْدَما لاحَظَ أَنَّ العِلْمَ الرّوسِيَّ يَفْتَقِرُ إِلى عَدَدٍ مِنَ الأَفْكارِ العَمَلِيَّةِ[٢].

ثُمَّ إِنَّ دَرَجَةَ تَفَوُّقِ المُجْتَمَعاتِ في الحَضارَةِ، «تُمَهِّدُ لِنُمُوِّ اللُّغاتِ الخاصَّةِ (اللُّغَةِ الحُقوقِيَّةِ، المُصْطَلَحاتِ العِلْمِيَّةِ إلخ..)»[٣]، فَنُمُوُّ مِثْلِ تِلْكَ اللُّغاتِ «ظاهِرَةٌ شائِعَةٌ في تاريخِ اللُّغَةِ. وَكُلَّما انْتَظَمَ النّاسُ في مَجْموعاتٍ لِأَغْراضٍ تَخَصُّصِيَّةٍ، جَنَحوا إِلى خَلْقِ لُغَةٍ غَريبَةٍ نَوْعاً ما عَنِ اللُّغَةِ التي يَتَكَلَّمُها المُجْتَمَعُ الأَكْبَرُ الذي يَحْيونَ فيهِ..»[٤].

وَمَعَ إِيمانِنا بِأَنَّ التَّغْييرَ الذي يَطْرَأُ عَلى بِنْيَةٍ اجْتِماعِيَّةٍ يُصيبُ أَيْضاً بِنْيَةَ اللُّغَةِ، إِلّا أَنَّ ذَلِكَ لا يَجْري بِسُرْعَةٍ وَفي فَتْرَةٍ زَمَنِيَّةٍ واحِدَةٍ، لِأَنَّ «البِنْياتِ الصَّرْفِيَّةَ لِلُغَةٍ مُعَيَّنَةٍ يُمْكِنُ أَنْ تَبْقى هِيَ هِيَ دونَ تَغْييرٍ، رُغْمَ التَّغْييراتِ الثَّوْرِيَّةِ التي تَحْدُثُ في البِنْياتِ الاجْتِماعِيَّةِ التي تَتَكَلَّمُ هَذِهِ اللُّغَةَ»[٥].

---

(١) مدكور، إبراهيم (دكتور): مجمع اللّغة العربيّة في ثلاثين عاماً ١٩٣٢ ـ ١٩٦٢ ـ ماضيه وحاضره ـ الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة، القاهرة، د. ط. ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م، ص: ٤٢.

(٢) ينظر: أصوات وإشارات، م. م. ص: ٨٣.

(٣) محاضرات في الألسنيّة العامّة، م. م. ص: ١٠٠.

(٤) لويس، م. م: اللّغة في المجتمع، ترجمة الدكتور تمام حسّان ومراجعة الدكتور إبراهيم أنيس، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، د. ط. ١٩٥٩م، ص: ٧٠.

(٥) هذا القول لـ سوميرفلت SOMMERFELT وقد استشهد به محمّد الحنّاش. ينظر: الحنّاش، محمّد (دكتور): البنائيّة في اللّسانيّات (الحلقة الأولى)، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، د. ط. ١٤٠١هـ ـ ١٩٨٠م، ص: ١٤٧.

وَيَرَى سوسّر Saussure أَنَّ الزَّمَنَ يُعْطي القِوَى الاجْتِماعِيَّةَ الاسْتِطاعَةَ كَيْ تُبَدِّلَ أَوْ تَفْرِضَ آثارَها في اللُّغَةِ، وَيَسْمَحُ لِتِلْكَ القِوَى بِتَطْويرِ تَأْثيراتِها(١).

فَاللُّغَةُ يُمْكِنُ أَنْ تُحافِظَ عَلى غالِبِيَّةِ أَلْفاظِها فَيَتَداوَلُها النّاسُ في كُلِّ الأَزْمِنَةِ في المُحيطِ الواحِدِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَعْتَرِيَها تَغْييرٌ وَفْقَ عَوامِلَ اجْتِماعِيَّةٍ أَوْ ثَقافِيَّةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ. وَالعامِلُ الوَحيدُ المُتَغَيِّرُ الذي يُمْكِنُ الاعْتِمادُ عَلَيْهِ في مُلاحَظَةِ التَّغَيُّراتِ اللُّغَوِيَّةِ، هُوَ التَّغَيُّرُ الاجْتِماعِيُّ الذي لا تَكونُ تَغَيُّراتُهُ اللُّغَوِيَّةُ سِوى نَتائِجَ لَهُ(٢).

وَاللّافِتُ أَنَّ اللَّفْظَ قَدْ يَكونُ «مَأْلوفاً مُتَداوَلَ الاسْتِعْمالِ عِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ في كُلِّ زَمَنٍ، وَقَدْ يَكونُ غَريباً مُتَوَحِّشاً في زَمَنٍ دونَ زَمَنٍ، وَقَدْ يَكونُ غَريباً مُتَوَحِّشاً عِنْدَ قَوْمٍ، مُسْتَعْمَلاً مَأْلوفاً عِنْدَ آخَرينَ»(٣)، وذَلِكَ بِحَسَبِ العاداتِ وَالأَعْرافِ الاجْتِماعِيَّةِ التي تَسودُ مَوْطِنَ اللُّغَةِ. كَما أَنَّ اسْتِخْدامَ اللُّغَةِ، وَالاسْتِعانَةَ بِأَلْفاظِها وَمَعانيها، يَجْري وَفْقَ تِلْكَ العاداتِ وَالأَعْرافِ، وَوَفْقَ الظُّروفِ الطَّبيعِيَّةِ وَالعَوامِلِ المُناخِيَّةِ أَيْضاً. وَهَذا ما نُلاحِظُهُ عِنْدَ الشُّعَراءِ الَّذينَ افْتَتَحُوا قَصائِدَهُمْ بِالنَّسيبِ مُتَأَثِّرينَ بِالمُحيطِ الذي عاشوا فيهِ، فَنَجِدُ أَنَّ نَسيبَ أَهْلِ البادِيَةِ «ذِكْرُ الرَّحيلِ وَالانْتِقالِ،

---

(١) ينظر: محاضرات في الألسنيّة العامّة، م. م. ص: ١٠٠.

(٢) cf. A. MELLET, **Linguistique historique et linguistique générale**, Champion, Paris, 1975, p. 17: «Le seul élément variable auquel on puisse recouvrir pour rendre compte du changement linguistique est le changement social dont les variations du langage ne sont que les consequences..».

(٣) القلقشندي، أحمد بن عليّ: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، نسخة مصوّرة عن مطبعة الأميريّة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي والمؤسّسة المصريّة العامّة للتأليف والترجمة والطّباعة، القاهرة، د. ط. د. ت. ج٢: ٢١٥.

وَتَوَقُّعُ البَيْنِ وَالإِشْفاقُ مِنْهُ، وَصِفَةُ الطُّلولِ وَالحُمولِ، وَالتَّشَوُّقُ بِحَنينِ الإِبِلِ وَلَمْعِ البُروقِ وَمَرِّ النَّسيمِ، وَذِكْرُ المِياهِ التي يَلْتَقونَ عَلَيْها وَالرِّياضِ التي يَحُلّونَ بِها مِنْ خُزامى، وَأُقْحُوانٍ، وَبَهارٍ، وَحَنْوَةٍ، وَظَيّانٍ، وَعَراعِرَ، وَما أَشْبَهَها مِنْ زَهْرِ البَرِّيَّةِ التي تَعْرِفُهُ العَرَبُ»[1]. بِالمُقابِلِ أَتى تَغَزُّلُ أَهْلِ الحاضِرَةِ «في ذِكْرِ الصُّدودِ، وَالهِجْرانِ، وَالواشينَ، وَالرُّقَباءِ، وَمِنْعَةِ الحَرَسِ وَالأَبْوابِ، وَفي ذِكْرِ الشَّرابِ وَالنَّدامى، وَالوَرْدِ وَالنِّسْرينِ وَالنَّيْلَوْفَرِ، وَما شاكَلَ ذَلِكَ مِنَ النَّواويرِ البَلَدِيَّةِ، وَالرَّياحينِ البُسْتانِيَّةِ، وَفي تَشْبيهِ التُّفّاحِ وَالتَّحِيَّةِ بِهِ، وَدَسِّ الكُتُبِ وَما شاكَلَ ذَلِكَ مِمّا هُمْ بِهِ مُنْفَرِدونَ»[2].

وَهَذا يَعْني أَيْضاً أَنَّنا نَسْتَطيعُ التَّعَرُّفَ إِلى مَلامِحِ المُجْتَمَعِ الذي حَلَّتْ بِهِ اللُّغَةُ، لِأَنَّها تَعْكِسُ صُوَراً مُهِمَّةً لِمُجْمَلِ الأَوْضاعِ التي سادَتْ وَتَسودُ فيهِ. «فَالمُعْجَمُ اللُّغَوِيُّ لِأُمَّةٍ ما، هُوَ في نَفْسِ الوَقْتِ صورَةٌ مُلَخَّصَةٌ لِما تَعْرِفُهُ هَذِهِ الأُمَّةُ في حَياتِها اليَوْمِيَّةِ، وَكَيانِها الاقْتِصادِيِّ وَالسِّياسِيِّ، وَسُلوكِها الدّينِيِّ وَالأَخْلاقِيِّ، وَتَقَدُّمِها العِلْمِيِّ وَالفَنِّيِّ»[3].

وَلا تَنْغَلِقُ اللُّغَةُ في دائِرَةٍ اجْتِماعِيَّةٍ ضَيِّقَةٍ، بَلْ تَسْتَطيعُ الاتِّصالَ بِلُغاتٍ أُخَرَ مِنْ خِلالِ التَّلاقي الحَضارِيِّ أَوِ العَلاقاتِ التِّجارِيَّةِ التي تُقامُ بَيْنَ الأُمَمِ وَالمُجْتَمَعاتِ، فَتَظْهَرُ أَلْفاظٌ في مُجْتَمَعٍ مِنْ غَيْرِ اللُّغَةِ السّائِدَةِ فيهِ، «كَاسْتِعْمالِ أَهْلِ البَصْرَةِ بَعْضَ كَلامِ أَهْلِ فارِسَ في أَشْعارِهِمْ وَنَوادِرِ

(١) ابن رشيق، الحسن: **العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده**، تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد، المكتبة التّجاريّة الكبرى، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م، ج١: ٢٢٥.

(٢) المرجع السابق، ج١: ٢٢٥.

(٣) **اللسان والإنسان**، م. م. ص: ٩٨.

حِكايَتِهِمْ»[1]. وَفي كِتابِ «البَيانِ وَالتَّبْيينِ»، ذَكَرَ الجاحِظُ عَدَداً مِنَ الألْفاظِ الأعْجَمِيَّةِ التي شاعَتْ في المَدينَةِ وَالكوفَةِ[2].

كَما أنَّ الاسْتِعْمارَ «يَنْقُلُ لُغَةً ما إلى أوْساطٍ مُخْتَلِفَةٍ، ما يُؤَدّي إلى تَغَيُّراتٍ فيها»[3]، وَلا سِيَّما إذا تَغَلَّبَتْ لُغَةُ الغالِبِ عَلى لُغَةِ المَغْلوبِ؛ مِنْ ذَلِكَ أنَّ الإنْكليزَ السَّكْسونِيّينَ، حينَما نَزَحوا مِنْ أواسِطِ أوروبا إلى إنْكِلْترا، لم تَلْبَثْ لُغَتُهُمْ أنْ تَغَلَّبَتْ عَلى اللُّغاتِ السَّلْتِيَّةِ التي كانَ يَتَكَلَّمُ بِها السُّكانُ الأصْلِيّونَ، وَكَذَلِكَ نَجَمَ عَنْ فُتوحِ الرّومانِ في وَسَطِ أوروبا وَجَنوبِها وَشَرْقِها أنْ تَغَلَّبَتْ لُغَتُهُمُ اللّاتينِيَّةُ عَلى اللُّغاتِ الأصْلِيَّةِ لإيطاليا وَإسْبانيا وَبِلادِ الجولِ La Gaule (فَرَنْسا وَما إلَيْها) وَالألْبِ الوُسْطى Alpes Centrales وَالإليريا Illyrie وَفي الوَقْتِ نَفْسِهِ، تَقْتَبِسُ اللُّغَةُ الغالِبَةُ مِنَ اللُّغَةِ المَغْلوبَةِ ألْفاظاً عَديدَةً، وَهَذِهِ الألْفاظُ يَنالُها كَثيرٌ مِنَ التَّحْريفِ في أصْواتِها وَدَلالاتِها وَطَريقَةِ نُطْقِها، فَتَبْعُدُ في جَميعِ هَذِهِ النَّواحي عَنْ صورَتِها القَديمَةِ[4].

وَفي عَصْرِنا هَذا، يَجْري اسْتِخْدامُ كَثيرٍ مِنَ الألْفاظِ الإنْكليزِيَّةِ وَالفَرَنْسِيَّةِ في المُجْتَمَعاتِ العَرَبِيَّةِ، مِثْلِ thank you, Hi, Good bye, Computer في الإنْكليزِيَّةِ. وRadio, Merci, Bonjour في الفَرَنْسِيَّةِ.

هَذا بِالنِّسْبَةِ إلى عَلاقَةِ اللُّغَةِ بِالمُجْتَمَعِ إجْمالاً، أمّا إذا أرَدْنا

---

(١) العمدة في محاسن الشّعر، م. م. ج١: ٩٣.

(٢) ينظر: الجاحظ، عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، دار الجيل، بيروت، د. ط. ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م، ج١: ١٩، ٢٠.

(٣) محاضرات في الألسنيّة العامّة، م. م. ص: ٣٥.

(٤) لمزيد من التفصيل والتوسع، ينظر: وافي، علي عبد الواحد (دكتور): علم اللّغة، مكتبة نهضة مصر، الطّبعة الرابعة، القاهرة، ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م، ص: ٢٠٨ ـ ٢١٤.

تَوْصيفَ أفْرادٍ في مُجْتَمَعٍ مُحَدَّدٍ، وَمَعْرِفَةَ طَبَقاتِهِم الاجْتِماعِيَّةِ، وَمَدى ثَقافَتِهِمْ، فَلا بُدَّ مِنَ العَوْدَةِ إلى لُغَتِهِمْ، إذْ إنَّ الإمْساكَ بِمَفاصِلِ الفَوارِقِ اللُّغَوِيَّةِ، أوْ دِراسَةَ المُسْتَوياتِ اللُّغَوِيَّةِ المُتَبايِنَةِ عِنْدَهُمْ، يُساعِدُنا عَلى الكَشْفِ عَنِ انْتِماءاتِهِم الاجْتِماعِيَّةِ، وَدَرَجَةِ ثَقافَتِهِمْ أوْ تَعَلُّمِهِمْ؛ «فَفي الجَماعَةِ الكَلامِيَّةِ الواحِدَةِ تَخْتَلِفُ لُغَةُ المُتَعَلِّمينَ عَنْ لُغَةِ الأُمِّيّينَ، وَالمُتَعَلِّمونَ يَخْتَلِفونَ فيما بَيْنَهُمْ بِاخْتِلافِ دَرَجَةِ تَعَلُّمِهِمْ، وَبِاخْتِلافِ مِهَنِهِمْ، وَبِاخْتِلافِ دَرَجَةِ ثَرائِهِمْ وَبِسِوى ذَلِكَ مِنَ الأسْبابِ»[1]. وَكَذا الحالُ بِالنِّسْبَةِ إلى لُغَةِ التُّجّارِ وَالصُّنّاعِ وَأصْحابِ المِهَنِ وَالمُوَظَّفينَ في الدَّوائِرِ الرَّسْمِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ في شَتّى القِطاعاتِ.

فَالفَلّاحُ الّذي يَعيشُ في بيئَةٍ مُنْعَزِلَةٍ، وَلَيْسَ لَدَيْهِ نَصيبٌ وافِرٌ مِنَ الثَّقافَةِ، تكونُ لُغَتُهُ غَنِيَّةً بِالمُفْرداتِ الّتي تُحاكي، عادَةً، الأرْضَ وَالطَّبيعَةَ وَالحَيَوانَ، وَيُوَظِّفُها في حَديثِهِ اليَوْمِيِّ. أمّا الفَيْلَسوفُ الّذي انْكَبَّ، طِوالَ حَياتِهِ، عَلى المُطالَعَةِ وَالمُناظَرَةِ، فَإنَّ لُغَتَهُ «المُتَخَصِّصَةَ» تَظْهَرُ في سِياقِ كَلامِهِ العادِيِّ دونَ قَصْدٍ. وَكَذَلِكَ المُتَسَوِّلُ الذي يَعيشُ عَلى ما يُقَدِّمُهُ الآخَرونَ، فَإنَّهُ يُغْني لُغَتَهُ بِالعِباراتِ أوِ الجُمَلِ التي تُثيرُ مَشاعِرَ الإحْسانِ وَالإشْفاقِ، وَهَكَذا دَوالَيْكَ...

وَإذا كانَ الاخْتِلافُ الطَّبَقِيُّ كَبيراً في المُجْتَمَعِ، عَكَسَ نَفْسَهُ عَلى لُغَةِ أفْرادِهِ بِحَسَبِ انْتِماءاتِهِم الطَّبَقِيَّةِ. فَعَلى سَبيلِ المِثالِ، اخْتَلَفَتْ لُغَةُ الأقاصيصِ التَّمْثيلِيَّةِ الهِنْدِيَّةِ القَديمَةِ «بِاخْتِلافِ الشَّخْصِيَّةِ التي تَدورُ عَلى لِسانِها، فَإنْ كانَ المُتَكَلِّمُ إلَهاً، أوْ مَلِكاً، أوْ أميراً، أوْ رَجُلاً مِنْ رِجالِ

---

(١) السّعران، محمود (دكتور): اللّغة والمجتمع - رأي ومنهج - دار المعارف، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٣م، ص: ٥٨.

الدّينِ، أَوْ أُسْتاذاً لِفَنِّ الرَّقْصِ، فَلُغَتُهُ السَّنْسِكْرِيتِيَّةُ Sanskrit، وَإِنْ كانَ رَبَّ حانوتٍ، أَوْ مُوَظَّفاً صَغيراً، أَوْ حارِسَ حَمَّامٍ، أَوْ صَيَّاداً، أَوِ امْرَأَةً، فَلُغَتُهُ الباراكرِيتِيَّةُ «Parakrit»[1].

وَفي اللُّغَةِ الفَرَنْسِيَّةِ تَخْتَلِفُ المُفْرَداتُ التي تُطْلَقُ عَلى أَنْواعِ الدَّخْلِ وَالأُجورِ بِحَسَبِ الوَظيفَةِ وَدَرَجَتِها في المُجْتَمَعِ، فَيُقالُ:

«Les secours d'un indigent; les gages d'un domestique; la paye d'un journalier; le salaire d'un ouvrier; les feux d'un acteur; les mensualités d'un journaliste; le cusuel d'un curé; le prêt d'un soldat; le solde d'un officier; les appointements d'un employé; le traitement d'un fonctionnaire; les honoraires d'un medecin ou d'un avocat; les rentes d'un rentier; les dividendes d'un actionnaire; l'indemnité d'un parlementaire... etc»[2].

وَبِالرُّغْمِ مِنْ وُجودِ الطَّبَقِيَّةِ في كُلِّ المُجْتَمَعاتِ في هذا العَصْرِ، فَإِنَّ العَلاقاتِ الاجْتِماعِيَّةَ بَيْنَ الطَّبقاتِ تُخَفِّفُ مِنْ حِدَّةِ الفُروقِ اللُّغَوِيَّةِ بَيْنَها[3].

وَقَدْ سَجَّلَ وليم لابوف William Labov عَدَداً مِنَ الفُروقِ اللُّغَوِيَّةِ في دِراسَةٍ أَجْراها عَلى اللُّغَةِ الإِنْكليزِيَّةِ المَحَلِّيَّةِ في القِسْمِ الجَنوبِيِّ لِوَسَطِ هارلم Harlem (في وِلايَةِ نيويورك) حَيْثُ يَقْطُنُ عَدَدٌ كَبيرٌ مِنَ السّودِ. مِنْ تِلْكَ الفُروقِ، أَوْ مِنَ الأُمورِ المَعْروفَةِ في لُغَتِهِمْ أَنَّ فِعْلَ «الكَوْنِ» «To Be» قَليلاً ما يَرِدُ في تَراكيبِهِم النَّحْوِيَّةِ[4].

---

(١) جسبرسن، أوتو: اللّغة بين الفرد والمجتمع، ترجمة وتعليق الدكتور عبد الرحمن محمّد أيّوب، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، د. ط. ١٩٥٤م، ص: ١٥٧.

(٢) وافي، علي عبد الواحد (دكتور): اللّغة والمجتمع، دار إحياء الكتب العربيّة، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م، ص: ١٤.

(٣) اللّغة بين الفرد والمجتمع، م. م. ص: ١٥٧.

(٤) W. LABOV, Le parler ordinaire, traduit de l'americain par ALAIN KIHM, les éditions de Minuit, Paris, 1978, pp. 10 - 11: «c'est un fait bien connu que be est souvent absent... dans toutes sortes d'environnements syntaxiques».

فَمِنَ المَعْلومِ أَنَّ السّودَ، أَفْراداً وَجماعاتٍ، تَعَرَّضوا لِأَشَدِّ أَنْواعِ الاضْطِهادِ وَالقَهْرِ وَالحِرْمانِ، وَسُحِقَتْ شَخْصِيَّتُهُمُ المَعْنَوِيَّةُ أَمامَ أَسْيادِهِمْ[١]. وَهَذا الإِرْثُ التّارِيخِيُّ وَالاجْتِماعِيُّ ما زالَ ماثِلاً أَمامَ الكَثيرينَ مِنْهُمْ، ولِهَذا تَخْتَفي «الكَيْنونَةُ» التي تُحَدِّدُ الذّاتَ وَالشَّخْصِيَّةَ، وَالتي يُعَبَّرُ بِها لُغَوِيّاً مِنْ خِلالِ فِعْلِ «الكَوْنِ».

وَإِذا كانَتِ اللُّغَةُ تَخْضَعُ لِتَأْثيرِ عَوامِلَ اجْتِماعِيَّةٍ أَوِ اقْتِصادِيَّةٍ، فَإِنَّ ثَقافَةَ الفَرْدِ تُساعِدُهُ عَلى القَفْزِ فَوْقَ طَبَقَتِهِ، فَتَتَحَرَّرُ لُغَتَهُ مِنْ ذَلِكَ التَّأْثيرِ، فَهَذا واصِلُ بْنُ عَطاءٍ[٢] ـ عَلى سَبيلِ المِثالِ ـ كانَ غَزّالاً في بادِئِ أَمْرِهِ، وَلَمْ تُؤَثِّرْ حِرْفَتُهُ في لُغَتِهِ، بَلْ أَصْبَحَ، بِفَضْلِ انْكِبابِهِ عَلى المُطالَعَةِ وَالمُناظَرَةِ، رَأْسَ مُتَكَلِّمي المُعْتَزِلَةِ. أَمّا شَيْخُنا الجاحِظُ، فَإِنَّهُ اسْتَطاعَ أَنْ يَرْقى بِعِلْمِهِ إِلى طَبَقَةِ الخاصَّةِ في العَصْرِ العَبّاسِيِّ، عَلى رُغْمِ مِنْ نَسَبِهِ الوَضيعِ وَفَقْرِهِ في مَطْلَعِ حَياتِهِ. وَاسْتَطاعَ الكَثيرونَ تَجاوُزَ مَواقِعِهِمُ المِهَنِيَّةِ وَالاجْتِماعِيَّةِ، وَساعَدَهُمْ عَلى ذَلِكَ عَدَمُ وُجودِ الحَواجِزِ الطَّبَقِيَّةِ في النِّظامِ الإِسْلامِيِّ الاجْتِماعِيِّ[٣].

فَاللُّغَةُ تَتَبايَنُ، إِذاً، بَيْنَ الأَفْرادِ بِحَسَبِ مَوْقِعِهِمْ وَثَقافَتِهِمْ، كَما أَنَّها تَتَبايَنُ وَفْقَ المَواقِفِ وَالأَحْداثِ، وَنَخْتَصِرُ ذَلِكَ بِالقَوْلِ المَشْهورِ: «لِكُلِّ

---

(١) على سبيل المثال، واجع: بروان، إيناكورين: **تاريخ الزنوج في أميركا**، ترجمة الدكتور م. عيسى، مؤسّسة سجّل العرب، القاهرة، د. ط. د. ت. ص: ٥ ـ ٧١.

(٢) **واصل بن عطاء الغزّال، أبو حذيفة** (ت ١٣١ هـ/ ٧٤٨ م): رأس المعتزلة، ومن أئمّة البلغاء والمتكلّمين. ولد بالمدينة، ونشأ بالبصرة. سمّي أصحابه بالمعتزلة لاعتزاله حلقة درس الحسن البصري. وهو الذي نشر مذهب «الاعتزال» في الآفاق. من تصانيفه: «أصناف المرجئة» و«المنزلة بين المنزلتين» و«معاني القرآن».

(٣) ينظر: النّجم، وديعة طه (دكتورة): **الجاحظ والحاضرة العبّاسيّة**، مطبعة الإرشاد، بغداد، د. ط. ١٩٦٥م، ص: ٥٩.

مَقامٍ مَقالٌ». فَالمَقامُ «لَيْسَ مُجَرَّدَ مَكانٍ يُلْقى فيهِ الكَلامُ، وَإِنَّما هُوَ إِطارٌ اجْتِماعِيٌّ ذو عَناصِرَ مُتَكامِلَةٍ آخِذٌ بَعْضُها بِجَرِّ بَعْضٍ. فَهُناكَ المَوْقِفُ كُلُّهُ بِمَنْ فيهِ مِنْ مُتَكَلِّمينَ وَسامِعينَ، وَعَلاقَتُهُمْ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَهُناكَ كَذَلِكَ ما في المَوْقِفِ مِنَ الأَشْياءِ وَالمَوْضوعاتِ المُخْتَلِفَةِ التي قَدْ تُفيدُ في فَهْمِ الكَلامِ وَالوُقوفِ عَلى خَواصِهِ. وَهُناكَ كَذَلِكَ الكَلامُ نَفْسُهُ، وَهَذا الكَلامُ في حَقيقَةِ الأَمْرِ لَيْسَ إِلّا عُنْصُراً واحِداً مِنْ عَناصِرِ المَسْرَحِ اللُّغَوِيِّ بِأَكْمَلِهِ، وَلا يَتِمُّ فَهْمُهُ إِلّا في هذا الإِطارِ العامِ»[1].

فَالإِحاطَةُ بِالمَقامِ تُساعِدُنا عَلى الكَشْفِ عَنِ المَعْنى الدَّلالِيِّ للنَّصِّ، فَلَوْ وَقَفْنا عَلى المُسْتَوى الوَظيفِيِّ للنَّصِّ (الصَّوْتِيِّ، وَالصَّرْفِيِّ، وَالنَّحْوِيِّ) وَعَلى المُسْتَوى المُعْجَمِيِّ، بِمَعْزِلٍ عَنْ كُلِّ ما يُحيطُ بِالنَّصِّ مِنْ قَرائِنَ اجْتِماعِيَّةٍ وَتاريخِيَّةٍ، لَظَهَرَ لَنا المَعْنى الحَرْفِيُّ أَوْ مَعْنى ظاهِرِ النَّصِّ للمَقالِ دونَ جَلاءِ المَعْنى الدَّلالِيِّ[2].

وَيَضْرِبُ الدُّكْتورُ تَمامُ حَسّانُ مَثَلاً عَلى ذَلِكَ جُمْلَةَ: «يا سَلام». فَيَقولُ: «كُلُّنا قَدْ تَعَلَّمَ أَنَّ «يا» مِنْ حُروفِ النِّداءِ وَأَنَّ كَلِمَةَ «سَلام» اسْمٌ مِنْ أَسْماءِ اللهِ تَعالى. وَهِيَ كَذَلِكَ ضِدُّ الحَرْبِ. فَإِذا أَخَذْنا المَعْنى الوَظيفِيَّ لأَداةِ النِّداءِ وَالمَعْنى المُعْجَمِيَّ لِكَلِمَةِ «سَلام» حينَ نُنادي «يا سَلام» .فَإِنَّ المَعْنى الحَرْفِيَّ أَوِ المَقالِيَّ أَوْ ظاهِرَ النَّصِ أَنَّنا نُنادي اللهَ سُبْحانَهُ وَتَعالى لا أَكْثَرَ وَلا أَقَلَّ. وَلَكِنَّ هَذِهِ العِبارَةَ صالِحَةٌ لِأَنْ تَدْخُلَ

---

(١) بشر، كمال محمّد (دكتور): دراسات في علم اللّغة (القسم الأوّل)، دار المعارف، القاهرة، د. ط. ١٩٦٩م، ص: ٦٥.

(٢) ينظر: حسّان، تمام (دكتور): اللّغة العربيّة ـ معناها ومبناها ـ الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، د. ط. ١٩٧٣م، ص: ٣٣٧، ٣٣٨.

في مَقاماتٍ اجْتِماعِيَّةٍ كَثيرَةٍ جِدّاً وَمَعَ كُلِّ مَقامٍ مِنْها تَخْتَلِفُ النَّغْمَةُ التي تَصْحَبُ نُطْقَ العِبارَةِ. فَمِنَ المُمْكِنِ أَنْ تُقالَ هذِهِ العِبارَةُ في مَقامِ التَّأَثُّرِ وَفي مَقامِ التَّشْكيكِ وَفي مَقامِ السَّخَطِ وَفي مَقامِ الطَّرَبِ وَفي مَقامِ التَّوْبيخِ وَفي مَقامِ الإِعْجابِ وَفي مَقامِ التَّلَذُّذِ وَفي مَقاماتٍ أُخرى كَثيرَةٍ غَيْرِ ذَلِكَ»[(١)].

كَذَلِكَ تَصْحَبُ المَقاماتُ المُتَبايِنَةُ أَساليبَ لُغَوِيَّةً خاصَّةً بِكُلٍّ مِنْها، «فَمَقامُ كُلٍّ مِنَ التَّنْكيرِ، وَالإِطْلاقِ، وَالتَّقْديمِ، وَالذِّكْرِ، يُبايِنُ مَقامَ خِلافِهِ، وَمَقامُ الفَصْلِ يُبايِنُ مَقامَ الوَصْلِ، وَمَقامُ الإِيجازِ يُبايِنُ مَقامَ خِلافِهِ؛ وَكَذا خِطابُ الذَّكِيِّ مَعَ خِطابِ الغَبِيِّ. وَلِكُلِّ كَلِمَةٍ مَعَ صاحِبَتِها مَقامٌ، وَارْتِفاعُ شَأْنِ الكَلامِ في الحُسْنِ وَالقَبولِ بِمُطابَقَتِهِ للاعْتِبارِ المُناسِبِ، وَانْحِطاطُهُ بِعَدَمِها؛ فَمُقْتَضى الحالِ هُوَ الاعْتِبارُ المُناسِبُ»[(٢)]. لِذَلِكَ نَجِدُ أَنَّ المَلِكَ، مَثَلاً، يَتَوَجَّهُ إِلى الرَّعِيَّةِ بِلُغَةٍ تُغايِرُ تِلْكَ التي يُخاطِبُ بِها أَهْلَهُ أَوْ حاشِيَتَهُ، إِنْ عَلى مُسْتَوى الكَلِماتِ أَوِ الدَّلالاتِ أَوْ طَرائِقِ التَّعْبيرِ. كَما «يَخْتارُ الكاتِبُ ـ وكَذَلِكَ المُتَحَدِّثُ ـ التَّوَجُّهَ إِلى مَجْموعِ النّاسِ، مُثَقَّفينَ، أَوْ ذَوي ثَقافَةٍ عادِيَةٍ، أَوْ حَتّى مُتَدَنِّيَةٍ؛ فَيَسْتَعْمِلُ مِنَ الصِّيَغِ وَالأَشْكالِ اللُّغَوِيَّةِ ما يُناسِبُ هَذا التَّوَجُّهَ»[(٣)].

وَكُلُّ هَذا يَعْني أَنَّ اللُّغَةَ مُرْتَبِطَةٌ ارْتِباطاً وَثيقاً بِالمُجْتَمَعِ، وَهَذِهِ

---

(١) اللّغة العربيّة ـ معناها ومبناها، م. م. ص: ٣٤٥.

(٢) القزويني، محمّد بن عبد الرحمن: التلخيص في علوم البلاغة، ضبطه وشرحه الأستاذ عبد الرحمن البرقوقيّ، المكتبة التّجاريّة، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٣٥٠هـ ـ ١٩٣٢م، ص: ٣٤، ٣٥.

(٣) لطفي مصطفى: اللّغة العربيّة في إطارها الاجتماعيّ، معهد الإنماء العربيّ، الطّبعة الأولى، بيروت، ١٩٧٦م، ص: ١٦٣.

العَلاقَةُ المُتَجاذِبَةُ بَيْنَهُما لَفَتَتْ أَنْظارَ الباحِثينَ في حَقْلِ اللُّغَةِ وَالاجْتِماعِ في العَصْرِ الحَديثِ، فَلاحَظوا أَنَّ الظَّواهِرَ اللُّغَوِيَّةَ وَالاجْتِماعِيَّةَ تَتَداخَلُ فيما بَيْنَها وَلا يُمْكِنُ فَصْلُها بِشَكْلٍ قاطِعٍ، فَازْدادَ «ارْتِباطُ عِلْمِ اللُّغَةِ بِالعُلومِ الاجْتِماعِيَّةِ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ. وُلِدَتْ هَذِهِ العُلومُ في المُجْتَمَعِ كَما وُلِدَتِ اللُّغَةُ أَيْضاً. فَالأخيرَةُ، إِذَنْ [إذاً]، وُجِدَتْ وَتَطَوَّرَتْ فيهِ وَلِأَجْلِهِ»[١]. وَتَبادَلَ عُلَماءُ اللُّغَةِ وَالاجْتِماعِ نَتائِجَ بُحوثِهِمْ، فَاسْتَفادَ «الباحِثونَ في العُلومِ الاجْتِماعِيَّةِ مِنْ نَتائِجِ البَحْثِ اللُّغَوِيِّ مِنْ عِدَّةِ جَوانِبَ، مِنْها أَنَّ اللُّغَةَ أَهَمُّ مَظاهِرِ السُّلوكِ الاجْتِماعِيِّ، وَأَوْضَحُ سِماتِ الانْتِماءِ الاجْتِماعِيِّ لِلفَرْدِ. وَأَفادَ اللُّغَوِيّونَ كَذَلِكَ مِنَ الدِّراساتِ الاجْتِماعِيَّةِ، فَدِراسَةُ الأَلْفاظِ وَدَلالاتِها عَلى نَحْوٍ دَقيقٍ لا تَتِمُّ إِلّا في إِطارِها الاجْتِماعِيِّ وَالحَضارِيِّ»[٢]. كَما أَنَّ الأَلْفاظَ لَيْسَتْ عَناصِرَ مُسْتَقِلَّةً، بَلْ هِيَ عَلاقاتٌ دائِمَةٌ، وَكُلُّ عَلاقَةٍ يَنْتَظِمُها «نِظامٌ»، ولا يُفْهَمُ ذَلِكَ النِّظامُ إِلّا مِنْ خِلالِ انْعِكاساتِهِ عَلى الأَنْظِمَةِ الأُخَرِ[٣].

وَقَدْ أَتاحَتْ جُهودُ الباحِثينَ وَآراؤُهُمْ في اللُّغَةِ أَمْثالِ سوسّر Saussure ومالينوفسكي Malinowski وفندريس Vendryes وجسبرسن Jespersen وفيرث Firth وهاريس Harris وكاردنر Kardiner وبواس Boas، الإِمْكانِيَّةَ لِبَلْوَرَةِ فَرْعٍ جَديدٍ يَهْتَمُّ بِدِراسَةِ اللُّغَةِ، أُطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمُ: «عِلْمُ اللُّغَةِ

---

(١) أصوات وإشارات، م. م. ص: ٨٢.

(٢) حجازي، محمود فهمي (دكتور): علم اللّغة العربيّة ـ مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللّغات السامية ـ وكالة المطبوعات، الطّبعة الأولى، الكويت، ١٩٧٣م، ص: ٥١.

(٣) ينظر: مندور، مصطفى (دكتور): اللّغة والحضارة، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، د. ط. ١٩٧٤م، ص: ٢١٨.

الاجْتِماعِيُّ» الذي شُيِّدَ بِناؤُهُ عَلى مَداميكِ تِلْكَ الآراءِ وَالجُهودِ، فَظَهَرَ في أوائِلِ السِّتيناتِ مِنَ القَرْنِ العِشْرينَ، وَكانَ قَدْ سَبَقَهُ عِلْمُ اللُّغَةِ النَّفْسِيُّ أوائِلَ الخَمْسيناتِ، وَعِلْمُ اللُّغَةِ الإثْنولوجِيُّ أواخِرَ الأرْبَعينات. «وَالحَقُّ إنَّ هَذِهِ الفُروعَ مِنَ البَحْثِ قَدْ ظَهَرَتْ مُتَدَرِّجَةً بَعْدَ دَعْوَةِ مالينوفسكي سَنَةَ ١٩٢٠م إلى ضَرورَةِ البَحْثِ عَنْ نَظَرِيَّةٍ تَجْمَعُ اللُّغَةَ وَالإثنوجْرافيا»[١].

وَمِمّا ساعَدَ عَلى ظُهورِ هذا العِلْمِ وَتَطَوُّرِهِ أيْضاً، «قَناعَةٌ تَكَوَّنَتْ لَدى عَدَدٍ مِنَ الباحِثينَ، وَمُؤَدّاها أنَّ لِلُّغَةِ اسْتِعْمالاتٍ مُتَنَوِّعَةً، فَهِيَ وَسيلَةُ تَعْبيرٍ عِلْمِيٍّ وَسِياسِيٍّ وَاقْتِصادِيٍّ وَاجْتِماعِيٍّ؛ ما يُحَتِّمُ دراسَةَ خَصائِصِ هَذِهِ الاسْتِعْمالاتِ المُخْتَلِفَةِ، وَمَعْرِفَةَ أبْعادِ التَّكَيُّفِ اللُّغَوِيِّ مَعَ مُخْتَلَفِ الأغْراضِ وَالمَواقِفِ»[٢].

وَيَتَناوَلُ عِلْمُ اللُّغَةِ الاجْتِماعِيُّ «مَدى تَأَثُّرِ الأشْكالِ وَالأساليبِ اللُّغَوِيَّةِ بِالمُعْطَياتِ الاجْتِماعِيَّةِ التي تَسْتَعْمِلُ اللُّغَةَ ضِمْنَها»[٣]، كَما يَهْتَمُّ هَذا العِلْمُ «بِالخُطوطِ العامَّةِ التي تُمَيِّزُ المَجْموعاتِ الاجْتِماعِيَّةَ مِنْ حَيْثُ أنَّها تَخْتَلِفُ وَتَدْخُلُ في تَناقُضاتٍ داخِلَ المَجْموعَةِ اللِّسانِيَّةِ العامَّةِ نَفْسِها، وَالوُقوفِ عَلى القَوانينِ التي تَخْضَعُ لَها الظّاهِرَةُ اللُّغَوِيَّةُ في حَياتِها وَتَطَوُّرِها»[٤].

وَالباحِثونَ في عِلْمِ اللُّغَةِ الاجْتِماعِيِّ لا يَهْتَمّونَ بِالكَلِمَةِ، كَما كانَ الحالُ عند سوسّر، وَلا بِالجُمْلَةِ كَما هُوَ الأمْرُ عند تشومسكي chomsku،

---

(١) الراجحي، عبده (دكتور): **اللّغة وعلوم المجتمع**، القاهرة، د. ط. ١٩٧٧م، ص: ٨.
(٢) **اللّغة العربيّة في إطارها الاجتماعيّ**، م. م. ص: ٤٤.
(٣) المرجع السابق.
(٤) **علم اللّغة الاجتماعيّ عند العرب**، م. م. ص: ٢٥.

بَلْ بِالحَدَثِ الكَلامِيّ[1]، لِأَنَّ ظاهِرَةَ الكَلامِ في عِلْمِ اللُّغَةِ الاجْتِماعِيِّ لا تَتَعَرَّضُ للمُعْطَياتِ اللِّسانِيَّةِ إِلّا كَوَسيلَةٍ اجْتِماعِيَّةٍ»[2].

وَفي خِضَمِّ الحَديثِ عَنْ هَذا العِلْمِ يَتَبادَرُ إِلى أَذْهانِنا السُّؤالُ التّالي: هَلْ لاحَظَ العَرَبُ قَديماً العَلاقَةَ القائِمَةَ بَيْنَ اللُّغَةِ وَالمُجْتَمَعِ؟ وَهَلْ تَحَدَّثوا عَنْها؟

في الواقِعِ إِنَّ العَرَبَ لَمَسوا تِلْكَ العَلاقَةَ وَإِنْ لَمْ يُدْرِجوها تَحْتَ مُصْطَلَحِ «عِلْمِ اللُّغَةِ الاجْتِماعِيِّ»، فَعَنْ رَسولُ اللهِ[3] ﷺ أَنَّهُ قالَ: «إِنّا مَعاشِرَ الأَنْبياءِ نُخاطِبُ النّاسَ عَلى قَدْرِ عُقولِهِمْ»[4].

فَكانَتْ لُغَتُهُ مَعَ زُعَماءِ القَبائِلِ وَالنّافِذينَ مِنْ قَوْمِهِ تُغايِرُ لُغَتَهُ مَعَ الأَفْرادِ العادِيّينَ الَّذينَ لا يَمْلِكونَ حَظّاً وافِراً مِنَ العِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ، وَكَذا بِالنِّسْبَةِ إِلى الوُفودِ التي كانَتْ تَفِدُ عَلَيْهِ مُسْتَفْسِرَةً عَنِ الدِّينِ الجَديدِ. وَاللُّغَةُ التي كانَ «يَتَكَلَّمُ بِها عَلى الدَّوامِ، وَيُخاطِبُ بِها الخاصَّ وَالعامَّ، لُغَةُ قُرَيْشٍ وَحاضِرَةِ الحِجازِ، إِلّا أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُوتِيَ جَوامِعَ

---

(١) اللّغة وعلوم المجتمع، م. م. ص: ١١.

(٢) علم اللّغة الاجتماعيّ عند العرب، م. م. ص: ٢٤.

(٣) محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب بن هاشم، من قريش، من عدنان، من أبناء إسماعيل بن إبراهيم الخليل (ت ١١ هـ/ ٦٣٣ م): النبي العربيّ، وبه ختمت الرسالات السماوية. ولد بمكّة، وبُعث نبيّاً في الثالثة والأربعين من عمره، فشرع بدعوة أهل مكّة إلى الإسلام. ولما اشتد أذى قريش لأصحابه، أذن لجماعة منهم بالهجرة إلى الحبشة، وهاجر إلى يثرب (المدينة)، ومن هناك انطلقت دعوته وغزواته، حتى استطاع فتح مكّة. بعث الرسل إلى الملوك والرؤساء في الشام وفارس ومصر وغيرها، يدعوهم إلى الإسلام. توفّي بالمدينة بعدما أسس دعائم الدولة الإسلاميّة.

(٤) المجلسي، محمّد باقر: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، الطّبعة الثانية، بيروت، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، ج١: ١٠٦.

الكَلِمِ، وَجَمَعَ إِلى سُهولَةِ الحاضِرَةِ جَزالَةَ البادِيَةِ، فَكانَ يُخاطِبُ أَهْلَ نَجْدٍ وَتِهامَةَ وَقَبائِلَ اليَمَنِ بِلُغَتِهِمْ، وَيُخاطِبُهُمْ في الكَلامِ الجَزْلِ عَلى قَدْرِ طَبَقَتِهِمْ»[1].

وَقَدْ مَرَّ مَعَنا أَنَّ ابْنَ جِنِّيٍّ حَدَّ اللُّغَةَ «بِأَنَّها أَصْواتٌ يُعَبِّرُ بِها كُلُّ قَوْمٍ عَنْ أَغْراضِهِمْ»[2]، وَما القَوْمُ إِلّا أَعْضاءُ المُجْتَمَعِ الواحِدِ.

أَمّا الجاحِظُ، فَقَدَ لَمَسَ تِلْكَ العَلاقَةَ المُتَجاذِبَةَ بَيْنَ اللُّغَةِ وَالمُجْتَمَعِ، وَأَشارَ إِلَيْها في طَيّاتِ كُتُبِهِ؛ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ:

«إِنَّ أَعْوَنَ الأَسْبابِ عَلى تَعَلُّمِ اللُّغَةِ فَرْطُ الحاجَةِ إِلى ذَلِكَ، وَعَلى قَدْرِ الضَّرورَةِ إِلَيْها في المُعامَلَةِ يَكونُ البُلوغُ فيها وَالتَّقْصيرُ عَنْها»[3]. فَهَذِهِ حَقيقَةٌ لُغَوِيَّةٌ اجْتِماعِيَّةٌ واضِحَةٌ، إِذْ إِنَّ حاجَةَ الإِنسانِ إِلى لُغَةٍ ما في حَياتِهِ اليَوْمِيَّةِ مِنْ تِجارَةٍ، وَسَفَرٍ، وَاطِّلاعٍ عَلى عُلومِ الآخَرينَ، تَدْفَعُهُ إِلى تَعَلُّمِ تِلْكَ اللُّغَةِ.

وَيَرى الجاحِظُ أَنَّ العَلاقاتِ الاجْتِماعِيَّةَ دَفَعَتِ الإِنْسانَ إِلى خَلْقِ اللُّغَةِ، وَفي هَذا يَقولُ: «وَلَوْلا حاجَةُ النّاسِ إِلى المَعاني، وَإِلى التَّعاوُنِ وَالتَّرافُدِ، لَما احْتاجوا إِلى الأَسْماءِ»[4].

كَذَلِكَ أَشارَ أَبو عُثْمانَ في غَيْرِ مَوْضِعٍ إِلى ضَرورَةِ سَوْقِ الكَلامِ وَفْقَ المَقامِ المُناسِبِ، مُراعاةً لِمُسْتَوى السّامِعِ وَمَنْزِلَتِهِ وَالمُناسَبَةِ التي مِنْ أَجْلِها يُقالُ الكَلامُ، مَدْحاً، وَهِجاءً، وَرِثاءً.

---

(١) **صبح الأعشى**، م. م. ج٢: ٢٤٣.

(٢) **الخصائص**، م. م. ج١: ٣٣.

(٣) **كتاب الحيوان**، م. م. ج٥: ٢٩٠.

(٤) المرجع السابق، ج٥: ٢٠١.

وَكَثيراً ما تَحَدَّثَ الجاحِظُ عَنِ الخَواصِّ وَالعَوامِّ، وَأشارَ إلى أساليبِهِمُ اللُّغَوِيَّةِ، مُقَرِّراً أَنَّ «كَلامَ النّاسِ في طَبقاتٍ كَما أَنَّ النّاسَ أَنْفُسَهُمْ في طَبقاتٍ»[1]. وَتَأَتّى لَهُ هَذا الإِقرارُ بَعْدَ مُعايَنَتِهِ فِئاتٍ مُتَنَوِّعَةً مِنَ النّاسِ في مُجْتَمَعِهِ يَنْتَمونَ إلى شَرائِحَ اجْتِماعِيَّةٍ مُتَبايِنَةٍ، لِكُلٍّ مِنْها تَقاليدُها وَأَعْرافُها وَمُسْتَواها اللُّغَوِيُّ.

وَقَبْلَ الشُّروعِ بِمُلاحَظاتِ الجاحِظِ الدَّقيقَةِ حَوْلَ قَضايا اللُّغَةِ وَالمُجْتَمَعِ، لا بُدَّ مِنَ الاطِّلاعِ عَلى الأَوْضاعِ العامَّةِ في العَصْرِ العَبّاسِيِّ الذي أَنْتَجَ الجاحِظُ فيهِ كُتُبَهُ، ثُمَّ الاطِّلاعِ عَلى سيرَةِ هَذا الأَديبِ.

(١) البيان والتبيين، م. م. ج١ : ١٤٤.

الفَصْلُ الثّاني

الأَوْضاعُ العامَّةُ
في العَصْرِ العَبّاسِيِّ الأَوَّلِ

لَمّا كانَتِ الأَوْضاعُ السِّياسِيَّةُ، وَالاقْتِصادِيَّةُ، وَالاجْتِماعِيَّةُ، وَالثَّقافِيَّةُ، وَالقِيَمُ الأَخْلاقِيَّةُ، في عَصْرٍ مُعَيَّنٍ وَبيئَةٍ مُحَدَّدَةٍ، تُلْقي بِظِلالِها عَلى اللُّغَةِ وَالأَدَبِ، كانَ لا بُدَّ مِنْ إِلْقاءِ الأَضْواءِ السَّريعَةِ عَلى أَحْوالِ الحاضِرَةِ العَبّاسِيَّةِ في العَصْرِ الذي عاشَ فيهِ الجاحِظُ وَأَنْتَجَ فيهِ كُتُبَهُ وَرَسائِلَهُ؛ وَهُوَ العَصْرُ الذَّهَبِيُّ لِخلافَةِ بَني العَبّاسِ مِنْ حَيْثُ القُوَّةُ وَالسَّيْطَرَةُ، وَازْدِهارُ الآدابِ وَأَلْوانِ الثَّقافاتِ. وَيَمْتَدُّ مِنْ خِلافَةِ أَبي جَعْفَرٍ المَنْصورِ[1] المُؤَسِّسِ الفِعْلِيِّ للدَّوْلَةِ العَبّاسِيَّةِ عامَ ١٣٦هـ/ ٧٥٤م، وَيَنْتَهي مَعَ مَقْتَلِ المُتَوَكِّلِ[2] عامَ ٢٤٧هـ/ ٨٦١م لِيَبْدَأَ بَعْدَهُ وَهْنُ أَوْصالِها، وَانْحِلالُها.

---

(١) هو عبد الله بن محمّد (المنصور) (ت ١٥٨ هـ/ ٧٧٥م): ثاني خلفاء بني العبّاس، ولي الخلافة بعد وفاة أخيه السّفاح سنة ١٣٦هـ بنى مدينة بغداد سنة ١٤٥ هـ وجعلها دار ملكه. مدّة خلافته اثنان وعشرون عاماً.

(٢) هو جعفر بن محمّد بن هارون الرشيد (ت ٢٤٧ هـ/ ٨٦١ م): خليفة عبّاسيّ، بويع بعد وفاة أخيه الواثق سنة ٢٣٢ هـ أمر بترك الجدل في القرآن. نقل مقرّه من بغداد إلى دمشق، وبعد شهرين عاد فأقام في سامرّاء إلى أن اغتيل فيها ليلاً بإغراء ابنه المنتصر.

فَمَعَ سُقوطِ الدَّوْلَةِ الأُمَوِيَّةِ وَقِيامِ الدَّوْلَةِ العَبّاسِيَّةِ[1]، وَانْتِقالِ العاصِمَةِ أَوْ دارِ الخِلافَةِ مِنْ دِمَشْقَ إِلى بَغْدادَ، بَدَأَ عَهْدٌ جَديدٌ لِلخِلافَةِ الإِسْلامِيَّةِ تَخْتَصِرُهُ مُقارَنَةُ الجاحِظِ لِلدَّوْلَتَيْنِ: فَدَوْلَةُ بَني العَبّاسِ «عَجَمِيَّةٌ خُراسانِيَّةٌ، وَدَوْلَةُ بَني مَرْوانَ عَرَبِيَّةٌ أَعْرابِيَّةٌ»[2].

فَقَدْ كانَ اعْتِمادُ العَبّاسِيّينَ في ثَوْرَتِهِمْ وَقِيامِ دَوْلَتِهِمْ، عَلى العُنْصُرِ الفارِسِيِّ، مُتَجَنِّبينَ في ذَلِكَ نِزاعاتِ القَبائِلِ العَرَبِيَّةِ وَالعَصَبِيّاتِ القَبَلِيَّةِ الَّتي أَجَّجَها الحُكْمُ الأُمَوِيُّ، فَرَجَّحَتْ كَفَّةُ الفُرْسِ في هَذا العَصْرِ، وَتَسَلَّموا مَناصِبَ مُهِمَّةً في الدَّوْلَةِ كَالوِزارَةِ - مَثَلاً - وَلَكِنَّ نُفوذَ العَرَبِ لَمْ تَنْعَدِمْ كَما يُخَيَّلُ لِبَعْضِ الدّارِسينَ، إِذْ كانَ لِلخَليفَةِ العَرَبِيِّ «قُوّادٌ مِنَ العَرَبِ كَما كانَ لَهُ قُوّادٌ مِنَ الفُرْسِ، وَكانَ لَهُ وُلاةٌ مِنَ العَرَبِ، وَوُلاةٌ مِنَ الفُرْسِ»[3].

وَكانَ لِتَلاقي الحَضارَتَيْنِ العَرَبِيَّةِ وَالفارِسِيَّةِ في ذَلِكَ العَصْرِ، الأَثَرُ الكَبيرُ في إِدْخالِ الذَّوْقِ الفارِسِيِّ في العاداتِ وَالتَّقاليدِ، مِنْ ذَلِكَ رَغْبَةُ الخُلَفاءِ في التَّعَرُّفِ إِلى «أُسْلوبِ التَّشْريفاتِ الَّذي كانَ مُعْتَمَداً عِنْدَ

---

(١) عن نهاية الدّولة الأموية وقيام الدّولة العبّاسيّة، ينظر:
- الطّبريّ، محمّد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبريّ)، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧٥م، ج٧: ٤٣٢ - ٤٧١.
- المسعوديّ، عليّ بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد، المكتبة التّجاريّة الكبرى، الطّبعة الثالثة، القاهرة، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م، ج٣: ٢٥٢ - ٢٦٦.
- ابن الأثير، عليّ بن محمّد: الكامل في التّاريخ، تحقيق عبدالله القاضي ومراجعة الدكتور محمد الدقاق، دار الكتب العلميّة، الطّبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧، ج٥: ٦٣ - ٩٩.

(٢) البيان والتبيين، م. م. ج٣: ٣٦٦.

(٣) أمين، أحمد، ضحى الإسلام، دار الكتاب العربيّ، الطّبعة العاشرة، بيروت، د. ت. ج١: ٣٥.

السّاسانِيّينَ رَغْبَةً في مُحاكاتِهِ وَتَقْليدِهِ»[1]. وَبِالفِعْلِ، فَإِنَّ كَثيراً مِنَ الأَساليبِ الفارِسِيَّةِ حوكِيَتْ وَاتُّبِعَتْ «في البَلاطِ الذي كانَ يَعِجُّ بِأَقارِبِ الخَليفَةِ وَعَبيدِهِ الطُّلَقاءِ، فَضْلاً عَنْ زَوْجاتِهِ وَجوارِيهِ، إِلى جَنْبِ صَفٍّ كَبيرٍ مِنَ المُوَظَّفينَ بِحُلَلِهِمُ الرَّسْمِيَّةِ»[2].

وَسارَ العَبّاسِيّونَ عَلى خُطى البيزَنْطِيّينَ وَالسّاسانِيّينَ في مَناهِجِ الإِدارَةِ التي كانَتْ تَتَأَلَّفُ مِنْ دَواوينَ مُتَلاصِقَةٍ، أَشْرَفَ عَلَيْها مُوَظَّفونَ إِدارِيّونَ، وَعَلى رَأْسِهِمْ جَميعاً الوَزيرُ الذي عُهِدَ إِلَيْهِ تَعْيينُ المُوَظَّفينَ وَالكَتَبَةِ وَالعُمّالِ، وَكانَ يَقومُ بِالمُراسَلاتِ الرَّسْمِيَّةِ بَعْدَ تَوْقيعِها بِخَتْمِ السُّلْطانِ، وَيَهْتَمُّ اهْتِماماً شَديداً بِدائِرَةِ جِبايَةِ الرُّسومِ وَالبَريدِ، وَبِديوانِ الرَّسائِلِ، وَكانَ لَهُ صَلاحِيّاتٌ واسِعَةٌ، أَثارَتْ هَواجِسَ بَعْضِ الخُلَفاءِ كَهارونِ الرَّشيدِ[3] الذي نَكَبَ البَرامِكَةَ[4] بَعْدَ ثُبوتِ قَدَمِهِمْ في الوِزارَةِ[5].

---

(١) بروكلمان، كارل: **تاريخ الشعوب الإسلاميّة**، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، الطّبعة الثامنة، بيروت، ١٩٧٩م، ص: ١٧٩.

(٢) نكلسن، نيولد (أستاذ): **تاريخ الأدب العبّاسيّ**، ترجمة وتحقيق الدكتور صفاء الخلوصي، المكتبة الأهلية، بغداد، د. ط. ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م، ص: ٢٥.

(٣) **هارون بن محمّد بن عبد الله (هارون الرشيد)، أبو جعفر، (ت ١٩٣هـ/ ٨٠٩م):** أشهر خلفاء بني العبّاس. بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي سنة ١٧٠هـ. ازدهرت الدولة في أيّامه ونشطت حركة العلوم والثقافة. كانت له وقائع كثيرة مع ملوك الروم. وكانت له علاقات بملك فرنسا كارلوس الملقب بشارلمان.

(٤) عن نكبة البرامكة، ينظر:
- **تاريخ الرسل والملوك**، م. م. ج٨: ٢٨٧ - ٣٠٠.
- **مروج الذهب**، م. م. ج٣: ٣٨٧ - ٣٨٩.
- **الكامل في التّاريخ**، م. م. ج٥: ٣٢٧ - ٣٣٠.

(٥) ينظر: بروى، إدوار (أستاذ): **تاريخ الحضارات العام (الجزء الثالث)**، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، منشورات عويدات، الطّبعة الثانية، بيروت - باريس، ١٩٨٦م، ج٣: ١٢٧، ١٢٨.

وَأُنْشِىءَ في هَذا العَصْرِ ديوانُ المَظالِم، وَعلى رِأسِهِ قاضٍ «يَنْظُرُ في أُمورِ التَّجاوُزاتِ عَلى حُقوقِ الآخَرينَ. أَمّا الفُقَهاءُ فَكانوا يَعْمَلونَ بِالتَّعاوُنِ مَعَ القُضاةِ في كُلِّ ما يُساعِدُ عَلى تَطْبيقِ أَحْكامِ الشَّريعَةِ»[1].

وَاسْتُحْدِثَتْ دَوائِرُ للشُّرْطَةِ في حَواضِرِ البِلادِ للسَّهَرِ عَلى الأَمْنِ[2]. وَتَسَنّى للخَليفَةِ أَنْ يُراقِبَ ما يَجْري في الإِدارَةِ وَالوِلاياتِ عَنْ طَريقِ نِظامِ البَريدِ الذي كانَ أَشْبَهَ بِجِهازِ اسْتِعْلاماتٍ أَمَدَّ الخَليفَةَ بِكُلِّ صَغيرَةٍ وَكَبيرَةٍ[3].

وَكانَتِ الحُرِيَّةُ السِّياسِيَّةُ مَعْدومَةً في الدَّوْلَةِ العَبّاسِيَّةِ، فَقَدْ بَطَشَ العَبّاسِيّونَ بِجَميعِ خُصومِهِمْ وَلا سِيَّما الأَمَوِيّين، وَقَضَوْا عَلى الخَوارِجِ، وَنَكَّلوا بِحُلَفائِهِمُ العَلَوِيّينَ، وَأَبْعَدوا مُعْظَمَ الَّذينَ مَدَحوا الأَمَوِيّينَ حَتّى قالَ أبو عَطاءِ السِّنْدِيُّ[4]: [الكامل]

فَلَيْتَ جَوْرَ بَني مَرْوانَ عادَ لَنا ... وَلَيْتَ عَدْلَ بَني العَبّاسِ في النّارِ[5]

وَقَدْ لاحَقوا كُلَّ مَنْ سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الاعْتِراضَ عَلى حُكْمِهِمْ، أكانَ

---

(١) تاريخ الحضارات العام، م. م. ج٣: ١٢٨.
(٢) ينظر: المرجع السابق، ج٣: ١٢٨.
(٣) ينظر: المرجع السابق، ج٣: ١٢٨؛ تاريخ الشعوب الإسلاميّة، م. م. ص: ١٨٠.
(٤) هو أفلح (أو مرزوق) بن يسار السّنديّ، أبو عطاء (ت بعد١٨٠هـ/٧٩٦م): شاعر من مخضرمي الدولتين الأمويّة والعبّاسيّة. كان جيد الشّعر مع عجمة فيه. انقطع إلى بني أميّة يمدحهم ويهجو أعداءهم.
(٥) ينظر: ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم: الشّعر والشّعراء، تحقيق وشرح أحمد محمّد شاكر، دار المعارف، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٦م، ج٢: ٧٦٩؛ الأصبهاني، عليّ بن الحسين، أبو الفرج: كتاب الأغاني، المؤسّسة المصريّة العامّة للتأليف والترجمة والطّباعة [مصوّر عن دار الكتب المصريّة]، القاهرة، د. ط. ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م، ج١٧: ٣٣٣.

هَذا الاعْتِراضُ طَمْعاً في السُّلْطَةِ أَوِ احْتِجاجاً عَلى مُمارَساتِ الحُكْمِ وَجَوْرِ الوُلاةِ. فَكانَ مِنَ السَّهْلِ عَلَيْهِمْ أَنْ يُلْصِقوا تُهْمَةَ الزَّنْدَقَةِ[١] بِالمُعارِضِ السِّياسِيِّ لِيَكونَ بَعْدَهُ مَصْلوباً فَوْقَ الجُسورِ، وَفي السَّاحاتِ العامَّةِ، أَوْ يَكونَ رَأْسُهُ في النِّطْعِ الحاضِرِ قُرْبَ العَرْشِ الذي أُعِدَّ لاسْتِقْبالِ الرُّؤوسِ المَغْضوبِ عَلَيْها[٢].

صَحيحٌ أَنَّ الخُلَفاءَ العَبّاسِيّينَ حارَبوا الزَّنادِقَةَ الَّذينَ اشْرَأَبَّتْ أَعْناقُهُمْ في ذَلِكَ العَصْرِ، إِلّا أَنَّ هَذِهِ التُّهْمَةَ أُلْصِقَتْ بِأُناسٍ مُسْلِمينَ لِمُخالَفَتِهِمْ أَهْلَ الحُكْمِ في المَذْهَبِ أَوِ الرَّأْيِ، وَلِتَعْبيرِهِمْ عَنْ آرائِهِمْ فيما يَتَّصِلُ بِالعَقيدَةِ وَالحَياةِ، أَمْثالِ والِدِ سَعيدِ بْنِ حَميدٍ[٣] الذي كانَ «وَجْهاً مِنْ وُجوهِ المُعْتَزِلَةِ، فَخالَفَ أَحْمَدَ بْنَ أَبي دُوادٍ[٤] في بَعْضِ مَذْهَبِهِ، فَأَغْرى بِهِ المُعْتَصِمَ[٥]، وَقالَ: إِنَّهُ شُعوبِيٌّ زِنْديقٌ، فَحَبَسَهُ مُدَّةً طَويلَةً»[٦].

---

(١) عن الزندقة، ينظر: ضحى الإسلام، م. م. ج١: ١٥٤.

(٢) ينظر: تاريخ الشعوب الإسلاميّة، م. م. ص: ١٧٩.

(٣) لم أقف على ترجمة الوالد، أما سعيد بن حميد، أبو عثمان (ت نحو ٢٥٠ هـ/ نحو ٨٦٤م): فهو كاتب مترسّل، من الشعراء. كان يتنقّل في السكن بين بغداد وسامراء. قلّده المستعين العبّاسيّ ديوان رسائله. شعره رقيق، أكثر أخباره مناقضات له مع فضل الشاعرة.

(٤) أحمد بن أبي دُواد بن جرير الإياديّ، أبو عبد الله: (ت٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) أحد القضاة الدعاة من المعتزلة، ورأس فتنة القول بخلق القرآن. اتصل بالمأمون، ثمّ جعله المعتصم قاضي قضاته، وكان يستشيره في أمور الدولة كلّها. ثمّ اعتمد الواثق على رأيه. توفّي مفلوجاً ببغداد في خلافة المتوكّل.

(٥) محمّد بن هارون الرشيد، أبو إسحاق (المعتصم العبّاسيّ) (ت ٢٢٧هـ/ ٨٤١م): خليفة عبّاسيّ. بويع بالخلافة سنة ٢١٨ هـ يوم وفاة أخيه المأمون. كره التّعليم في صغره، فنشأ ضعيف القراءة. هو فاتح عمورية من بلاد الروم الشرقية. بنى مدينة سامرّاء سنة ٢٢٢هـ اتسع ملكه جدّاً. خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر.

(٦) الأغاني، م. م. ج١٨ : ١٥٥.

وَاسْتَطاعَ العَبّاسِيّونَ أَنْ يُخْمِدوا كُلَّ الثَّوْراتِ في الدّاخِلِ. أَمّا في الخارِجِ، فَقَدْ حافَظوا عَلى حِمايَةِ حُدودِ دَوْلَتِهِم التي اتَّسَعَتْ بِفَضْلِ الفُتوحِ، وَقاموا بِحَمَلاتٍ ضِدَّ البيزَنْطِيّينَ وَالأَتْراكِ وَالدَّيْلَمِ وَالهُنودِ[1]. وَحاوَلوا إِيجادَ عَلاقاتٍ طَيِّبَةٍ بِالغَرْبِ المَسيحِيِّ، كَالعَلاقَةِ التي قامَتْ بَيْنَ الرَّشيدِ وَشارْلُمانِ Charlemagne[2].

أَمّا الأَوْضاعُ الاقْتِصادِيَّةُ وَالاجْتِماعِيَّةُ، فَقَدْ قَفَزَتْ قَفَزاتٍ سَريعَةً إِلى الأَمامِ؛ فَمَعَ انْتِظامِ إِدارَةِ الدَّوْلَةِ، امْتَلَأَتِ الخَزينَةُ بِالأَمْوالِ الطّائِلَةِ التي أَتَتْها بِوِساطَةِ نِظامِ الخَراجِ مِنَ الشّامِ، وَالعِراقِ، وَجَزيرَةِ العَرَبِ، وَفارِسَ، وَبِلادِ ما وَراءَ النَّهْرِ. وَيَكْفي أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ المَنْصورَ خَلَّفَ حينَ تُوُفِّيَ «سِتَّمائَةِ أَلْفِ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَأَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفِ أَلْفِ دينارٍ»[3]. وَأَنَّ المَحْمولَ إِلى بَيْتِ المالِ في عَهْدِ هارونِ الرَّشيدِ تَجاوَزَ سَبْعَةَ آلافِ قِنْطارٍ وَخَمْسَمائَةِ قِنْطارٍ في كُلِّ سَنَةٍ[4].

هَذا، وَإِنَّ احْتِكاكَ العَرَبِ بِشُعوبِ الأُمَمِ المَغْلوبَةِ في الحاضِرَةِ العَبّاسِيَّةِ، أَدّى إِلى اصْطِباغِ حَياتِهِم الاجْتِماعِيَّةِ بِكَثيرٍ مِنْ عاداتِ تِلْكَ الأُمَمِ وَتَقاليدِها في المَأْكَلِ، وَالمَلْبَسِ، وَالمَسْكَنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

---

(١) ينظر: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، م. م. ص: ١٨١.

(٢) راجع: الدوري، عبد العزيز (دكتور): **العصر العبّاسيّ الأوّل ـ دراسة في التاريخ السّياسيّ والإداريّ والماليّ** ـ منشورات دار المعلمين العالية ـ ١، بغداد، د. ط. ١٣٦٣هـ ـ ١٩٤٥م، ص: ١٤٩ ـ ١٥٦؛ الجومرد، عبد الجبّار (دكتور): **هارون الرّشيد ـ دراسة تاريخيّة اجتماعيّة سياسيّة** ـ مطبعة دار الكتب، بيروت، د. ط. ١٩٥٦م، ج٢: ٣٨١ ـ ٣٨٦.

(٣) **مروج الذهب**، م. م. ج٣: ٣١٨.

(٤) ينظر: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمّد: **المقدّمة**، تحقيق الأستاذ حجر عاصي، دار ومكتبة الهلال، د. ط. بيروت، ١٩٨٨م، ص: ١٢٥.

وَنَسْتَطيعُ أَنْ نَتَلَمَّسَ في ذَلِكَ العَصْرِ طَبَقاتٍ أَوْ شَرائِحَ اجْتِماعِيَّةً تَداخَلَتْ فيما بَيْنَها بِقَواسِمَ مُشْتَرِكَةٍ، وَتَمَيَّزَتْ أَيْضاً بِعاداتٍ وَحالاتٍ اجْتِماعِيَّةٍ أَوْ ثَقافِيَّةٍ، وَأَساليبَ لُغَوِيَّةٍ خاصَّةٍ بِكُلٍّ مِنْها.

وَأَوَّلُ تِلْكَ الطَّبقاتِ: الطَّبَقَةُ الحاكِمَةُ ذاتُ النُّفوذِ السِّياسِيِّ وَالاقْتِصادِيِّ، وَعَلى رَأْسِها الخُلَفاءُ الَّذينَ جَعَلوا أَمْوالَ الدَّوْلَةِ رَهْنَ أَهْوائِهِمْ، فَتَفَنَّنوا في التَّرَفِ وَأَحْكَموا الصَّنائِعَ المُسْتَعْمَلَةَ في وُجوهِهِ وَمَذاهِبِهِ مِنَ المَآكِلِ وَالمَلابِسِ وَالأَبْنِيَةِ وَسائِرِ عَوائِدِ المَنْزِلِ وَأَحْوالِهِ(١). وَغَرِقوا في نَعيمِ الدُّنْيا وَلَذّاتِها إِلى حَدِّ الإِسْرافِ وَالتَّبْذيرِ؛ وَنَظْرَةٌ في ما يَنْقُلُهُ الطَّبَرِيُّ(٢) وَالمَسْعودِيُّ(٣) في أَعْراسِ المَأْمونِ(٤) بِبورانَ بِنْتِ الحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ(٥)، تُعَرِّفُنا إِلى سَعَةِ هَؤُلاءِ الخُلَفاءِ في التَّصَرُّفِ

---

(١) ينظر: المقدّمة لابن خلدون، م. م. ص: ١١٩.

(٢) محمّد بن جرير، أبو جعفر (الطّبريّ) (ت ٣١٠ هـ/٩٢٣م): المؤرّخ المفسّر. ولد في آمل طبرستان، واستوطن بغداد وتوفيّ بها. من كتبه: «أخبار الرسل والملوك» يعرف بتاريخ الطّبريّ. و«جامع البيان في تفسير القرآن»، يعرف بتفسير الطّبريّ، و«اختلاف الفقهاء»، و«المسترشد».

(٣) عليّ بن الحسين، أبو الحسن (المسعوديّ) (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م): مؤرّخ، رحّالة، بحّاثة، من أهل بغداد. من تصانيفه: «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، و«التنبيه والإشراف»، و«أخبار الخوارج»، و«الاستذكار بما مرّ في سالف الأعصار»، و«أخبار الأمم من العرب والعجم».

(٤) عبد الله بن هارون أبو العبّاس (المأمون) (ت ٢١٨ هـ/٨٣٣م): خليفة عبّاسيّ، ولي الخلافة بعد خلع أخيه الأمين سنة ١٩٨هـ، اهتمّ بترجمة كتب العلم والفلسفة. وقرّب العلماء والفقهاء والمتكلّمين والمحدّثين. وأطلق حرية الكلام للباحثين وأهل الجدل والفلاسفة. ولايته عشرون سنة.

(٥) بوران بنت الحسن بن سهل (ت ٢٧١ هـ/ ٨٨٤ م): زوجة المأمون العبّاسيّ، كانت أديبة، عاقلة، توفّيت في بغداد. وليس في تاريخ العرب زفاف أنفق فيه ما أنفق في زفافها على المأمون سنة ٢٠٩ هـ. =

بِأَموالِ الدَّوْلَةِ وَمُقَدَّراتِها[1]، وَقَدِ امْتَدَّ هَذا الأَمْرُ إِلى أُمَّهاتِهِمْ وَزَوْجاتِهِمْ.

وَسارَ عَلى خُطاهُمْ في البَذْخِ وَالبَذْلِ، الوُزَراءُ وَكِبارُ الوُلاةِ وَالأُمَراءُ وَالقُوّادُ. وَيَحْفَظُ لَنا التّاريخُ ما بَذَلَهُ البَرامِكَةُ عَلى مُحِبِّيهِمْ وَالمُقَرَّبينَ مِنْهُمْ، حَتّى قيلَ إِنَّهُ «لَمْ يَكُنْ يُرى لِجَليسِ خالِدٍ[2] دارٌ إِلّا وَخالِدٌ بَناها لَهُ، وَلا ضَيْعَةٌ إِلّا وَخالِدٌ ابْتاعَها لَهُ، وَلا وَلَدٌ إِلّا وَخالِدٌ ابْتاعَ أُمَّهُ إِنْ كانَتْ أَمَةً، أَوْ أَدّى مَهْرَها إِنْ كانَتْ حُرَّةً، وَلا دابَّةٌ إِلّا وَخالِدٌ حَمَلَهُ عَلَيْها، إِمّا مِنْ نِتاجِهِ أَوْ مِنْ غَيْرِ نِتاجِهِ»[3].

ثُمَّ نَجِدُ طَبَقَةَ الكُتّابِ وَالعُلَماءِ وَالأُدَباءِ وَالأَطِبّاءِ مِنْ جِهَةٍ، وَطَبَقَةَ الشُّعَراءِ وَالمُغَنّينَ وَالنُّدَماءِ مِنْ جِهَةٍ أُخرى. وَأَصابَتِ الأَمْوالُ هَؤُلاءِ أَيْضاً حَتّى باتوا في غِنًى وَيُسْرٍ، إِذْ كانَ يَكْفي أَنْ يَطْرَبَ الخَليفَةُ لِمُغَنٍّ أَوْ يَنْتَشِيَ لِمَديحِ شاعِرٍ حَتّى يُقْطِعَهُ ضَيْعَةً أَوْ يَصِلَهُ بِآلافِ الدَّنانيرِ أَوِ الدَّراهِمِ[4].

= أمّا والدها الحسن بن سهل (ت ٢٣٦ هـ/ ٨٥١ م) فكان وزير المأمون، وأحد كبار القادة والولاة في عصره، وأخا ذي الرياستين الفضل بن سهل. اشتهر بالذكاء المفرط، والأدب والفصاحة وحسن التوقيعات والكرم.

(١) ينظر: تاريخ الرسل والملوك، م. م. ج٨: ٦٠٦؛ مروج الذهب، م. م. ج٤: ٣٠.

(٢) خالد بن برمك بن جاماس بن يشتاسف (ت ١٦٣ هـ/ ٧٨٠ م): أبو البرامكة، وأوّل من تمكّن منهم في دولة بني العبّاس. تقلّب في الأعمال والدواوين إلى زمن المهدي العبّاسيّ.

(٣) الجهشياريّ، محمّد بن عبدوس: كتاب الوزراء والكتّاب، تحقيق مصطفى السّقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطّبعة الأولى، القاهرة، ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م، ص: ١٥٠.

(٤) على سبيل المثال، ينظر عطايا الرشيد لمخارق التي ذكرها الأصفهانيّ في الأغاني، م. م. ج١٨: ٣٤٩، ٣٥٠.

وَما عَطايا ابْنِ الزَّيّاتِ[1] وَابْنِ أَبي دُوادٍ وَإِبْراهيمَ الصّولِيِّ[2] لِلجاحِظِ لِقاءَ ما أَهْداهُمْ مِنْ كُتُبٍ إِلّا رَمْزٌ لِلبُحْبوحَةِ الَّتي نَعِمَ بِها أَصْحابُ العِلْمِ وَالأَدَبِ.

وَظَهَرَتْ طَبَقَةٌ وُسْطى مِنَ التُّجّارِ وَالصُّنّاعِ قامَتْ عَلى تَلْبِيَةِ مَطالِبِ الأَغْنياءِ وَأَهْلِ اليَسارِ في الحاضِرَةِ العَبّاسِيَّةِ. فَكانَ التُّجّارُ يَجوبونَ البُلْدانَ لِجَلْبِ كُلِّ ما يَسْتَأْثِرُ بِاهْتِمامِهِمْ[3]، وَأَوْرَدَ الجاحِظُ في كِتابِهِ: «التَّبَصُّرُ بِالتِّجارَةِ» مُعْظَمَ الوارِداتِ الَّتي كانَتْ تُحْمَلُ إِلى المُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ آنَذاكَ، كَالأَحْجارِ الثَّمينَةِ، وَأَنْواعِ الجَواري، وَالأَمْتِعَةِ النَّفيسَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ[4].

وَكَذَلِكَ صاغَ الصُّنّاعُ التُّحَفَ وَالحُلِيَّ الثَّمينَةَ لِأَهْلِ الخاصَّةِ، «وَأَفْرِدَ أَهْلُ كُلِّ صَنْعَةٍ بِسوقٍ، وَكَذَلِكَ التُّجّارُ»[5]. كَما أَنَّ اليَهودَ وَالنَّصارى مِنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ تَعاطَوْا الرِّبا لِزِيادَةِ رَأْسِ مالِهِمْ[6].

---

(١) محمّد بن عبد الملك (ابن الزيّات) (ت ٢٣٣هـ/٨٤٧م): وزير المعتصم والواثق العبّاسيّين، وعالم باللّغة والأدب، ومن بلغاء الكتّاب والشّعراء. لمّا مرض الواثق، عمل ابن الزيات على تولية ابنه وحرمان المتوكّل، فلم يفلح، فما كان من المتوكّل إلا أن نكبه وعذبه إلى أن مات ببغداد. له ديوان شعر.

(٢) إبراهيم بن العبّاس بن محمّد بن صول (ت ٢٤٣ هـ/٨٥٧م): كاتب العراق في عصره. أصله من خراسان. نشأ في بغداد وتقرّب من الخلفاء، فكان كاتباً للمعتصم والواثق والمتوكّل. مات بسامرّاء. له ديوان رسائل، وديوان شعر، و«كتاب الدّولة»، و«كتاب العطر»، و«كتاب الطّبيخ».

(٣) ينظر: ضيف، شوقي (دكتور): **العصر العبّاسيّ الأوّل**، دار المعارف، الطّبعة السادسة، القاهرة، د. ت. ص: ٤٨.

(٤) لمزيد من التفصيل، ينظر: الجاحظ، عمرو بن بحر: **التبصّر بالتّجارة**، تحقيق حسن الحسني عبد الوهّاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، د. ط. ١٩٦٦م، ص: ٣٣ ـ ٤٣ (باب ما يجلب من البلدان من طرائف السلع والأمتعة والجواري والأحجار وغير ذلك).

(٥) **مروج الذهب**، م. م. ج٤: ٥٥.

(٦) ينظر: بلا، شارل: **الجاحظ في البصرة وبغداد وسامرّاء**، ترجمة إبراهيم الكيالي، دار اليقظة، دمشق، د. ط. ١٩٦١م، ص: ٣٢٩.

وَكَوَّنَتْ هَذِهِ الطَّبَقَةُ ثَرْوَةً لا بَأْسَ بِها قِياساً بِطَبَقَةِ العامَّةِ التي زاوَلَتِ المِهَنَ البَسيطَةَ «كَعَمارَةِ البُيوتِ وَقَضاءِ حاجاتِ السُّكّانِ مِنَ المُؤَنِ وَبَقِيَّةِ الصِّناعاتِ الثّانَوِيَّةِ في الإِدارَةِ المَحَلِّيَّةِ»[1].

وَنَجِدُ في صُفوفِ طَبَقَةِ العَوامِّ الحِرَفِيّينَ الَّذينَ تَخَصَّصوا بِحِرَفِهِمْ فَمَهَروا فيها، وَيُظْهِرُ تِلْكَ المَهارَةَ جِوارُ دارَ بَيْنِ الجاحِظِ وَنَجّارٍ دَعاهُ أَبو عُثْمانَ لِتَعْليقِ بابٍ ثَمينٍ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَثْقُبَ لَهُ مَوْضِعَ حَلْقَةٍ لِوَجْهِ البابِ إِذا أَرادَ تَصْفيقَهُ، فَلَمّا ثَقَبَهُ النَّجّارُ وَأَخَذَ حَقَّهُ وَأَرادَ الانْصِرافَ، الْتَفَتَ إِلى الجاحِظِ وَقالَ لَهُ: قَدْ جَوَّدْتُ الثَّقْبَ، وَلَكِنِ انْظُرْ أَيَّ نَجّارٍ يَدُقُّ فيهِ الزُّرَّةَ[2]، فَإِنَّهُ إِنْ أَخْطَأَ بِضَرْبَةٍ واحِدَةٍ شَقَّ البابَ، والشَّقُّ عَيْبٌ، فَعَلِمَ الجاحِظُ أَنَّ هَذا النَّجّارَ يَفْهَمُ صِناعَتَهُ فَهْماً تامّاً[3].

كَذَلِكَ نَجِدُ بَيْنَ صُفوفِ هَذِهِ الطَّبَقَةِ - وَلا سِيَّما في البَصْرَةِ - القَصّاصينَ، وَأَصْحابَ الكُدْيَةِ، وَالقَرّادينَ وَ«راضَةَ الإِبِلِ، وَالرِّعاءَ، وَرُوّاضَ الدَّوابِّ في المُروجِ، وَالسُّوّاسَ، وَأَصْحابَ القَنْصِ بِالكِلابِ وَالفُهودِ»[4]. وَنُسِبَ المُعَلِّمونَ إِلى هَذِهِ الطَّبَقَةِ، فَمِهْنَةُ التَّعْليمِ كانَتْ مِنْ أَشَدِّ المِهَنِ احْتِقاراً، لِذَلِكَ وُصِفَ المُعَلِّمونَ، في كَثيرٍ مِنَ الأَحْيانِ، بِالحُمْقِ وَالغَباوَةِ[5].

ثُمَّ نَجِدُ في نِهايَةِ الهَرَمِ الاجْتِماعِيِّ، الرَّقيقَ مِنَ الغِلْمانِ

---

(١) الجاحظ في البصرة وبغداد وسامرّاء، م. م. ص: ٣٢٧.
(٢) الزُّرَّة: الحديدة التي تجعل فيها الحلقة التي تضرب على وجه الباب لإصفاقه.
(٣) ينظر: كتاب الحيوان، م. م. ج٣: ٢٧٧.
(٤) المرجع السابق، ج٤: ٢٢.
(٥) ينظر: لغة المعلّمين في الفصل الثاني عشر، ص: ٢٠٥ - ٢١٢.

وَالجواري، وَكانَ لِهَؤُلاءِ دَوْرٌ كَبيرٌ في نَشْرِ شِعْرِ الخَلاعَةِ وَالمُجونِ، وَما صَحِبَهُ مِنِ انْتِشارٍ للغِناءِ وَاللَّهْوِ في القُصورِ، وَفي نَوادي الخاصَّةِ وَالعامَّةِ.

وَاللّافِتُ أَنَّ طَبَقاتِ المُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ لَمْ تَكُنْ كُلُّها في يُسْرٍ وَرَخاءٍ، فَالرَّغَدُ كانَ مِنْ نَصيبِ الطَّبَقَةِ الحاكِمَةِ وَحاشِيَتِها وَأَغْنِياءِ التُّجّارِ وَالصُّنّاعِ، أَمّا عامَّةُ الشَّعْبِ، فَقَدْ رَزَحَتْ تَحْتَ أَعْباءِ الفَقْرِ وَغَلاءِ الأَسْعارِ. وَيَخْتَصِرُ ضيقَ العامَّةِ قَوْلُ أَبي العَتاهِيَةِ[1] إِلى أَحَدِ الخُلَفاءِ:

[مجزوء الرمل]

«مَنْ مُبْلِغٌ عَنّي الإِما ... مَ نَصائِحاً مُتَوالِيَهْ
إِنّي أَرى الأَسْعارَ ... أَسْعارَ الرَّعِيَّةِ غالِيَهْ
وَأَرى المَكاسِبَ نَزْرَةً ... وَأَرى الضَّرورَةَ فاشِيَهْ
وَأَرى غُمومَ الدَّهْرِ را ... ئِحَةً تَمُرُّ وَغادِيَهْ
وَأَرى اليَتامى وَالأَرا ... مِلَ في البُيوتِ الخالِيَهْ»[2]

وَقَدْ أَنْتَجَتِ الأَوْضاعُ المُسْتَجِدَّةُ في المُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ تَيّارَيْنِ مُتَضادَّيْنِ: تَيّارَ المُجونِ وَاللَّهْوِ الذي تَرَأَّسَهُ الشُّعَراءُ المُجّانُ، وَالمُغَنّونَ، وَالجواري، وَكَذَلِكَ الغِلْمانُ الَّذينَ كانوا «مَوْضِعَ رَغْبَةِ أَرْبابِ الدَّعارَةِ وَالانْحِرافِ»[3]، وَساعَدَ عَلى ذَلِكَ مَيْلُ قِسْمٍ كَبيرٍ مِنَ الحُكّامِ إِلى حَياةِ

---

(١) إسماعيل بن القاسم العنزيّ بالولاء، أبو إسحاق، (أبو العتاهية) (ت ٢١١ هـ/ ٨٢٦ م): شاعر من طبقة بشّار وأبي نواس وأمثالهما. كان يجيد القول في الزّهد والمديح وأكثر أنواع الشّعر في عصره. اتّصل بالخلفاء العبّاسيّين وعلت مكانته عندهم.

(٢) شرح ديوان أبي العتاهية، (إسماعيل بن القاسم)، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، د. ط. د. ت. ص: ٢٥٨.

(٣) الجاحظ في البصرة وبغداد وسامرّاء، م. م. ص: ٣٢٩.

اللَّهْوِ وَالرَّخاءِ، وَإِحْياؤُهُمْ مَجالِسَها؛ وَتَيّارَ الزُّهْدِ وَالابْتِعادِ عَنِ المُحَرَّماتِ الذي نادى بِهِ كَثيرٌ مِنَ الوُعّاظِ وَعُلَماءِ الدّينِ وَالزُّهّادِ، ما أَدّى إِلى «ازْدِيادِ أَهَمِّيَّةِ الإِسْلامِ في حَياةِ العامَّةِ، وَتَسَرَّبَتْ روحٌ دينِيَّةٌ قَوِيَّةٌ في المُجْتَمَعِ عَلى نِطاقٍ واسِعٍ، تِلْكَ الرّوحُ التي وَصَلَتْ إِلى أَعْلى ما يُمْكِنُها مِنْ كَمالِ التَّعْبيرِ في شِعْرِ أَبي العَتاهِيَةِ التَّأَمُّلِيِّ وَالتَّعْليمِيِّ»[1].

وَنَسْتَطيعُ أَنْ نُجْمِلَ القَوْلَ بِأَنَّ المَدَنِيَّةَ العَبّاسِيَّةَ لَمْ تَكُنْ كُلُّها فُجوراً وَلَهْواً، بَلْ وُجِدَ فيها «كَكُلِّ المَدَنِيّاتِ، مَسْجِدٌ وَحانَةٌ، وَقارِئٌ وَزامِرٌ، وَمُتَهَجِّدٌ يَرْتَقِبُ الفَجْرَ، وَمُضْطَبِحٌ في الحَدائِقِ، وَساهِرٌ في تَهَجُّدٍ، وَساهِرٌ في طَرَبٍ. وَتُخْمَةٌ مِنْ غِنًى، وَمَسْكَنَةٌ مِنْ إِمْلاقٍ. وَشَكٌّ في دينٍ، وَإِيمانٌ في يَقينٍ»[2]. وَكانَ لِكُلِّ هَذا انْعِكاساتُهُ عَلى لُغَةِ الأَدَبِ وَالشِّعْرِ.

أَمّا الحَياةُ الفِكْرِيَّةُ وَالعَقْلِيَّةُ، فَقَدْ تَجَلَّتْ في تَزاوُجِ ثَقافاتِ الأُمَمِ المُتَبايِنَةِ في الحاضِرَةِ العَبّاسِيَّةِ، وَسَهَّلَ ذَلِكَ اهْتِمامُ الخُلَفاءِ العَبّاسِيِّينَ بِتَرْجَمَةِ مُؤَلَّفاتِ تِلْكَ الأُمَمِ؛ فَحَوى بَيْتُ الحِكْمَةِ في بَغْدادَ ـ الذي أَنْشَأَهُ الرَّشيدُ وَنَماهُ المَأْمونُ ـ آلافَ الكُتُبِ في مُخْتَلَفِ أَلْوانِ العُلومِ وَالفُنونِ. وَفي «الفِهْرِسْت» لابْنِ النَّديمِ[3] فَصْلٌ بِأَسْماءِ النَّقَلَةِ مِنَ اللُّغاتِ إِلى العَرَبِيَّةِ[4].

وَالحَقُّ، إِنَّ تَطَوُّرَ الحَضارَةِ، وَتَعْقيدَ أُمورِ الحَياةِ، وَحَثَّ الإِسْلامِ

---

(1) **تاريخ الأدب العبّاسيّ**، م. م. ص: ٦٣.

(2) **ضحى الإسلام**، م. م. ج١: ١٦٠، ١٦١.

(3) **محمّد بن إسحاق بن محمّد بن إسحاق (ابن النّديم)** (ت ٤٣٨ هـ/ ١٠٤٧م): من أهل بغداد، صاحب كتاب «الفهرست» الذي يعدّ من أقدم كتب التراجم ومن أفضلها. وله كتاب آخر سمّاه «التشبيهات».

(4) ينظر: ابن النّديم، محمّد بن إسحاق: **الفهرست**، المكتبة التّجاريّة الكبرى، القاهرة، د. ط. د. ت. ص: ٣٥٤ ـ ٣٥٦.

عَلى طَلَبِ العِلْمِ، أمورٌ دَفَعَتْ أَبْناءَ الحاضِرَةِ العَبّاسِيَّةِ إلى خَوْضِ لُجَجِ البَحْثِ عَنْ كُلِّ ما اتَّصَلَ بِأُمورِ دينِهِمْ وَدُنْياهُمْ؛ فَنَشِطَتِ العُلومُ العَقْلِيَّةُ مِنْ جِهَةٍ، وَعُلومُ الهَنْدَسَةِ وَالطِّبِّ وَالكِيمْياءِ وَالفَلَكِ وَأَشْباهِ ذَلِكَ مِنْ جِهَةٍ أُخرى. «فَتَفَهُّمُ الإِسْلامِ يَقومُ أَساساً عَلى تَفَهُّمِ القُرْآنِ، فَأَدَّتْ هَذِهِ الحَرَكَةُ إلى هَذا الفَيْضِ مِنَ التَّفْسيرِ وَالشَّرْحِ وَالتَّعْليقاتِ، وَتَعَدُّدُ مَجامِعِ الأَحاديثِ النَّبَوِيَّةِ، وَغَرْبَلَتُها وَنَخْلُها لانْتِقاءِ صِحاحِها، بَعْدَ أَنِ ارْتابَ كَثيرونَ في صِحَّةِ جانِبٍ كَبيرٍ مِنْها، ما اقْتَضى عَدَداً مِنَ الأَسانيدِ، التي، وَإِنْ لَمْ تُرْضِ النَّقْدَ الحَديثَ، تَشْهَدُ، أَقَلَّهُ، عَلى هَذا الاهْتِمامِ، وَعَلى هَذا الحِرْصِ لِتَمْييزِ الصَّحيحِ مِنَ المَدْخولِ أَوِ المَنْحولِ أَوِ المَدْسوسِ مِنْها...»[(1)].

وَنَشِطَتِ المَدارِسُ الفِقْهِيَّةُ عَلى اخْتِلافِ المَذاهِبِ، فَجَرَتِ المُناظَراتُ الفِقْهِيَّةُ في المَساجِدِ، وَفي دارِ الخِلافَةِ، حَيْثُ اخْتارَ الخَليفَةُ يَوْماً في الأُسْبوعِ لِتِلْكَ الغايَةِ، كَاخْتِيارِ المَأْمونِ يَوْمَ الثُّلاثاءِ لِلمُناظَرَةِ في الفِقْهِ[(2)].

وَفي ذَلِكَ العَصْرِ، أُطْلِقَ العِنانُ لِلفَلْسَفَةِ وَعِلْمِ الكَلامِ بَعْدَ تَرْجَمَةِ الكُتُبِ اليونانِيَّةِ في الفَلْسَفَةِ وَالمَنْطِقِ، وَلا سِيَّما مُؤَلَّفاتُ أَرُسْطو[(3)]، وَأَفْلاطونَ[(4)].

---

(١) **تاريخ الحضارات العام**، م. م. ج٣: ١٣١.

(٢) ينظر: **مروج الذهب**، م. م. ج٤: ١٩.

(٣) **أرسطو** (أرسطوطاليس كما يسمّيه العرب) (ت ٣٢٢ ق. م.): من أكبر فلاسفة اليونان. ترك أثراً عميقاً في الفكر اليونانيّ ثم الفكر المسيحيّ والفكر العربيّ الإسلاميّ. من مؤلفاته: «المقولات»، و«الجدل»، و«النفس». (راجع: **الموسوعة العربيّة**، الصادرة عن هيئة الموسوعة العربيّة في رئاسة الجمهوريّة العربيّة السوريّة، الطّبعة الأولى، دمشق، ٢٠٠٠م، مج١: ٨٧٧).

(٤) **أفلاطون** (ت ٣٤٧ ق. م.): فيسلوف يونانيّ شهير. تلميذ سقراط ومعلّم أرسطو. =

وَكانَتِ الفَلْسَفَةُ سِلاحاً قَوِيّاً لِرَدِّ شُبُهاتِ اليَهودِ وَالنَّصارى، وَلِصَدِّ البِدَعِ التي أَطَلَّتْ إِذْ ذاكَ[1].

وَاللّافِتُ أَنَّ الثَّقافَةَ اليونانِيَّةَ تَجَلَّتْ في المُؤَلَّفاتِ الفَلْسَفِيَّةِ وَالطِّبِّيَّةِ، وَاسْتَبْعَدَ المُتَرْجِمونَ القَضايا التّارِيخِيَّةَ وَالأَدَبِيَّةَ[2]، وَسَبَبُ ذَلِكَ «أَنَّ الأَدَبَ اليونانِيَّ وَثَنِيٌّ فيهِ آلِهَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ، وَفيهِ عِبادَةُ أَبْطالٍ، وَالذَّوْقُ العَرَبِيُّ، حينَ تُرْجِمَتِ العُلومِ، ذَوْقٌ مُسْلِمٌ، لَمْ يَسْتَسِغْ هَذا النَّوْعَ مِنَ الأَدَبِ الوَثَنِيِّ»[3]. إِلى جانِبِ الثَّقافَةِ اليونانِيَّةِ، انْتَشَرَتِ الثَّقافَةُ الفارِسِيَّةُ، فَتُرْجِمَتِ الكُتُبُ الفارِسِيَّةُ في الأَدَبِ وَالتّاريخِ وَالسِّياسَةِ وَالحُكْمِ. كَما انْتَشَرَتِ الثَّقافَةُ الهِنْدِيَّةُ في الفَلْسَفَةِ، وَالتَّعاليمِ الرِّياضِيَّةِ، وَالحِكَمِ الأَدَبِيَّةِ. وَانْتَشَرَ غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ ثَقافاتِ الأُمَمِ المَغْلوبَةِ[4].

وَهَذِهِ الثَّقافاتُ عُبِّرَ عَنْها بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ التي احْتَفَظَتْ «بِسُلْطانِها المُطْلَقِ في المُعامَلاتِ الرَّسْمِيَّةِ، وَفي مُجْمَلِ الحَياةِ الفِكْرِيَّةِ، وَفي الدّينِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ»[5].

وَقَدْ أَيْنَعَتْ هَذِهِ اللُّغَةُ وَنَمَتْ بِفَضْلِ حَيَوِيَّتِها وَلُيونَتِها وَقُدْرَتِها عَلى

= مؤسّس الخطاب الفلسفيّ الذي يعتمد على فكرة الخير. من مؤلّفاته: «الجمهورية»، و«المحاورات»، و«المأدبة» و«النواميس». (راجع: **الموسوعة العربيّة**، م. م. مج۲: ۹۲۹).

(۱) **تاريخ الحضارات العام**، م. م. ج۳: ١٣٤.

(۲) ينظر: المرجع السابق، ج۳: ١٣٤.

(۳) **ضحى الإسلام**، م. م. ج۱: ۲۸۱.

(٤) راجع: المرجع السابق، ج۱: ١٦٢ ـ ٣٧٢؛ وراجع أيضاً: الفاخوري، حنّا: **الجاحظ**، دار المعارف، بيروت، د. ط. ١٩٥٦م، ص: ١٣.

(٥) **تاريخ الشعوب الإسلامية**، م. م. ص: ١٧١.

اسْتيعابِ الألْفاظِ الدَّخيلَةِ بَعْدَ تَعْريبِها[1]، وَأَقْبَلَ المَوالي عَلى تَعَلُّمِها وَإِجادَتِها لِأَنَّها لُغَةُ الدّينِ وَالسُّلْطَةِ، فَأَجادَها مِنْهُمْ إِجادَةَ أَهْلِها أَمْثالُ سيبَوَيْهِ[2]، وَموسى بْنُ سَيّارٍ[3] الذي كانَ «يَقْرَأُ الآيَةَ مِنْ كِتابِ اللهِ وَيُفَسِّرُها للعَرَبِ بِالعَرَبِيَّةِ، ثُمَّ يُحَوِّلُ وَجْهَهُ إِلى الفُرْسِ فَيُفَسِّرُها لَهُمْ بِالفارِسِيَّةِ، فَلا يُدْرى بِأَيِّ لِسانٍ هُوَ أَبْيَنُ»[4].

وَإِلى جانِبِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحى، ظَهَرَتْ لُغَةُ «المُوَلَّدينَ وَالبَلَدِيّينَ» كَما يُسَمّيها الجاحِظُ، وَهِيَ العَرَبِيَّةُ العامِيَّةُ التي تَغَلْغَلَتْ بَيْنَ الطَّبَقاتِ الشَّعْبِيَّةِ وَلا سِيَّما بَيْنَ الجَماعاتِ اليونانِيَّةِ وَالقِبْطِيَّةِ وَالسُّرْيانِيَّةِ، بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَتِ اللَّهَجاتُ المَحَلِّيَّةُ مِنْ قَبْلُ لَدى هَذِهِ الطَّوائِفِ، لا يَفْهَمُها إِلّا رِجالُ الدّينِ[5].

وَبَعْدَ ظُهورِ اللَّحْنِ عَلى أَلْسُنِ الخَواصِّ وَالعَوامِّ، أَبْدى عُلَماءُ العَرَبِيَّةِ اهْتِماماً شَديداً بِحِفْظِ اللُّغَةِ، فَجَمَعوها وَقَعَّدوا قَواعِدَها[6]، وَبَرَزَ

---

(1) راجع: ضحى الإسلام، م. م. ج٢: ٢٥٠، ٢٥١.

(2) عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقّب بسيبويه (ت ١٨٠هـ/ ٧٩٦م): إمام النّحاة، وأوّل من بسط علم النّحو. ولد في إحدى قرى شيراز، وقدم البصرة، فلزم الخليل بن أحمد ففاقه. وصنّف كتابه المسمّى «كتاب سيبويه» في النّحو.

(3) موسى بن سيّار الأسواريّ (ت نحو ١٥٠هـ/نحو ٧٦٧م): أحد القصّاص من أهل البصرة. كان فصيحاً بالعربيّة والفارسيّة، له رواية ضعيفة للحديث. ويقال إنه كان قدريّاً.

(4) البيان والتبيين، م. م. ج١: ٣٦٨.

(5) ينظر: تاريخ الحضارات العام، م. م. ج٣: ١٣١.

(6) راجع: ضحى الإسلام، م. م. ج٢: ٢٦٣ ـ ٢٧٢.

مِنْ هَؤُلاءِ: أبو عُبَيْدَةَ(١) وَأبو زَيْدٍ(٢) وَالأَصْمَعِيُّ(٣) في اللُّغَةِ، وَسيبَوَيْهِ وَالأَخْفَشُ(٤) وَسِواهُما في النَّحْوِ، وَساعَدَتْ هَذِهِ الحَرَكَةُ عَلى شَرْحِ القُرْآنِ وَتَفْسيرِهِ. فَتَفْسيرُ القُرْآنِ «كانَ في بَدْءِ نَشْأَتِهِ يَدورُ عَلى أَلْسِنَةِ رِجالِ اللُّغَةِ. وَالقِراءاتُ كانَتِ الحَقْلَ الذي بَرَزَ فيهِ العَديدُ مِنَ اللُّغَوِيّينَ. وَالدِّراساتُ البَلاغِيَّةُ وَالبَيانِيَّةُ وَالنَّقْدِيَّةُ كانَتْ كُلُّها بَيْنَ أَيْدي اللُّغَوِيّينَ وَالأُدَباءِ مِنْ أَصْحابِ البَيانِ»(٥).

وَنَشِطَتِ المُناظَراتُ اللُّغَوِيَّةُ في ذَلِكَ العَصْرِ(٦)، كَمُناظَرةِ سِيبَوَيْهِ

(١) هو معمر بن المثنّى التيميّ بالولاء، البصريّ، أبو عبيدة (ت ٢٠٩هـ / ٨٢٤م): من أئمّة العلم بالأدب واللّغة. قال الجاحظ: لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه. له مؤلّفات عديدة، منها: «نقائض جرير والفرزدق»، و«مجاز القرآن»، و«ما تلحن فيه العامة»، و«مآثر العرب»، و«المثالب»، و«الإنسان».

(٢) هو سعيد بن أوس المعروف بأبي زيد الأنصاريّ (ت ٢١٥ هـ/ ٨٣٠م): أحد أئمّة الأدب واللغة. من أهل البصرة. من تصانيفه: «كتاب النّوادر» في اللغة، و«الهمز»، و«المطر»، و«المياه» و«لغات القرآن»، و«غريب الأسماء»، و«الشجر»، و«خلق الإنسان».

(٣) هو عبد الملك بن قريب الباهلي، المعروف بالأصمعيّ (ت ٢١٦هـ ـ ٨٣١م): أحد أئمة العلم باللغة والأخبار والشعر والملح والنوادر. توفّي بالبصرة. من مؤلّفاته: «الإبل»، و«الأضداد»، و«خلق الإنسان»، و«المترادف»، و«النّخيل»، و«النّبات والشجر».

(٤) هو سعيد بن مسعدة، أبو الحسن (الأخفش الأوسط) (ت ٢١٥ هـ/ ٨٣٠ م): نحوي، وعالم باللغة والأدب. من أهل بلخ. سكن البصرة، وأخذ العربيّة عن سيبويه. من مصنّفاته: «تفسير معاني القرآن»، و«شرح أبيات المعاني»، و«الاشتقاق»، و«معاني الشعر»، و«القوافي». زاد في العروض بحر الخبب.

(٥) مندور، مصطفى (دكتور): اللّغة بين العقل والمغامرة، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، د. ط. د. ت. ص: ٢٤.

(٦) ينظر: الزجّاجي، عبد الرحمن بن إسحاق: مجالس العلماء، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، وزارة الإرشاد والأنباء، الطبعة الأولى، الكويت، ١٩٦٢م، ص: ٩، ١٠.

وَالكِسائِيِّ[1] في مَجْلِسِ يَحْيى بْنِ خالِدٍ البَرْمَكِيِّ[2]. وَكانَتِ البَصْرَةُ أَوَّلَ مَدينَةٍ عُنِيَتْ بِتَدْوينِ اللُّغَةِ وَاسْتِنْباطِ القَواعِدِ لَها، ثُمَّ كانَتِ الكوفَةُ. أَمّا بَغْدادُ، فَقَدْ جَمَعَتْ آراءَ المَدْرَسَتَيْنِ البَصْرِيَّةِ وَالكوفِيَّةِ، وَصاغَتْ آراءً انْفَرَدَتْ بِها في النَّحْوِ وَاللُّغَةِ[3].

وَفي خِضَمِّ كُلِّ هَذِهِ التَّحَوُّلاتِ الهائِلَةِ وَالأَحْداثِ الَّتي شَهِدَها المُجْتَمَعُ العَبّاسِيُّ، لَمْ تَقِفِ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ مَكْتوفَةَ اليَدَيْنِ، بَلْ رافَقَتِ الحَدَثَ، وَنَزَلَتْ إِلى مُعْتَرَكِ الحَياةِ، فَعَكَسَتْ مُجْمَلَ تِلْكَ الأَوْضاعِ نَثْراً وَشِعْراً، وَقَدْ تَأَثَّرَتْ بِكُلِّ هَذِهِ التَّطَوُّراتِ السِّياسِيَّةِ وَالاجْتِماعِيَّةِ وَالثَّقافِيَّةِ، مَعَ البَقاءِ عَلى هَيْكَلِها العامِّ في الأُصولِ وَالجُذورِ، فَنَرى أَنَّها ارْتاضَتْ وَلانَتْ، وَ«اخْتارَ النّاسُ مِنَ الكَلامِ أَلْيَنَهُ وَأَسْهَلَهُ، وَعَمَدوا إِلى كُلِّ شَيْءٍ ذي أَسْماءٍ كَثيرَةٍ اخْتاروا أَحْسَنَها سَمْعاً، وَأَلْطَفَها مِنَ القَلْبِ مَوْقِعاً؛ وَإِلى ما لِلعَرَبِ فيهِ لُغاتٌ فَاقْتَصَروا عَلى أَسْلَسِها وَأَشْرَفِها»[4]؛ فَاخْتَصَروا ـ عَلى سَبيلِ المِثالِ ـ أَلْفاظَ الطَّويلِ بَعْدَ أَنْ «وَجَدوا لِلعَرَبِ فيهِ نَحْواً مِنْ سِتّينَ لَفْظَةٍ؛ أَكْثَرُها بَشِعٌ شَنِعٌ؛ كَالعَشَنَّطِ وَالعَنَطْنَطِ وَالعَشَنَّقِ، وَالجَسْرَبِ

---

(١) عليّ بن حمزة الأسديّ بالولاء، المعروف بالكسائيّ (ت ١٨٩هـ/ ٨٠٤م): إمام الكوفيين في النحو واللغة، وأحد القرّاء السبعة. استوطن بغداد، وأدّب ولد الرشيد العبّاسيّ. من مؤلفاته: «معاني القرآن»، و«الحروف»، و«النّوادر»، و«مختصر في النّحو»، و«المتشابه في القرآن»، و«ما يلحن فيه العوام».

(٢) يحيى بن خالد بن برمك، أبو الفضل (يحيى البرمكيّ) (ت ١٩٠هـ/ ٨٠٥م): سيّد من بني برمك. أدّب الرّشيد، ولما ولي الرشيد الخلافة استوزر يحيى، لكنّه سجنه بعد نكبة البرامكة. فمات في سجنه.

(٣) ينظر: ضحى الإسلام، م. م. ج٢: ٢٩٧، ٢٩٨.

(٤) الجرجاني، علي بن عبد العزيز: الوساطة بين المتنبيّ وخصومه، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمّد البجاوي، دار إحياء الكتب العربيّة، الطّبعة الثالثة، القاهرة، د. ت. ص: ١٨.

والشَّوْقَبِ وَالسَّلْهَبِ وَالشَّوْذَبِ، وَالطّاطِ وَالطّوطِ، وَالقاقِ وَالقُوقِ، فَنَبَذوا جَميعَ ذَلِكَ وَتَرَكوهُ، وَاكْتَفَوْا بِالطَّويلِ لِخِفَّتِهِ عَلى اللِّسانِ، وَقِلَّةِ نُبُوِّ السَّمْعِ عَنْهُ.

وَاحْتَذَوْا بِشِعْرِهِمْ هَذا المِثالَ، وَتَرَقَّقوا ما أَمْكَنَ، وَكَسَوْا مَعانِيَهُمْ أَلْطَفَ ما تَسْنَحُ مِنَ الأَلْفاظِ..»[1].

هَذِهِ لَمْحَةٌ سَريعَةٌ عَنْ مُجْمَلِ الأَوْضاعِ في العَصْرِ العَبّاسِيِّ، فَقَدْ رَأَيْنا أَنَّ إِدارَةَ الدَّوْلَةِ انْتَظَمَتْ، وَالحَياةَ الاقْتِصادِيَّةَ انْتَعَشَتْ، إِلّا أَنَّ سوءَ تَوْزيعِ الثَّرَواتِ وَالأَمْوالِ أَحْدَثَ خَلَلاً أَوْ عَدَمَ تَوازُنٍ اجْتِماعِيٍّ جَعَلَ فِئَةً تَنْعَمُ بِالمالِ وَأُخْرى تَشْقى بِفَقْرِها.

وَظَهَرَ في ذَلِكَ العَصْرِ تَيّاران: تَيّارُ المُجونِ وَاللَّهْوِ، وَقابَلَهُ تَيّارُ الإِيمانِ وَالزُّهْدِ، وَكانَ لِكُلٍّ مِنْهُما رِجالُهُ وَأَنْصارُهُ.

وَنَشِطَتِ الحَياةُ الفِكْرِيَّةُ بَعْدَ تَزاوُجِ الثَّقافاتِ المُخْتَلِفَةِ إِثْرَ تَرْجَمَةِ آدابِ الأُمَمِ المَغْلوبَةِ وَعُلومِها. وَكَذَلِكَ نَشِطَتِ الدِّراساتُ اللُّغَوِيَّةُ وَالنَّحْوِيَّةُ، وَأَصْبَحَتِ الكِتاباتُ الأَدَبِيَّةُ تَعْكِسُ أَحْوالَ المُجْتَمَعِ وَأَوْضاعَهُ، وَأَكْثَرُ ما نَرى ذَلِكَ في كِتاباتِ الجاحِظِ التي عَكَسَتْ صورَةَ مُجْتَمَعِهِ، لِذا كانَ لا بُدَّ مِنَ الوُقوفِ عَلى سيرَةِ الجاحِظِ وَالاطِّلاعِ عَلى مُحيطِهِ الذي نَشَأَ فيهِ وَكَوَّنَ أَبْعادَ شَخْصِيَّتِهِ الاجْتِماعِيَّةِ وَالفِكْرِيَّةِ وَالأَدَبِيَّةِ.

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه، م. م. ص: ١٨.

الفَصْلُ الثّالِثُ

الجاحِظُ

هُوَ عَمْرو بْنُ بَحْرِ بْنِ مَحْبوبٍ، كُنِّي بِأَبي عُثْمانَ، وَلُقِّبَ بِالجاحِظِ لِجُحوظِ عَيْنَيْهِ، وَلُقِّبَ أَيْضاً بِالحَدَقِيِّ لِنُتوءِ حَدَقَتَيْهِ. وَكانَتْ أَلْقابُهُ تُزْعِجُهُ في بادِئِ الأَمْرِ، إِلّا أَنَّهُ أَلِفَها وَاسْتَساغَها بَعْدَ أَنْ ذاعَ صيتُهُ، وَأَصْبَحَ يُعَرِّفُ عَنْ نَفْسِهِ بِها، وَلا سِيَّما بِلَقَبِ الجاحِظِ[1].

أَمّا أَصْلُهُ، فَقَدْ تَضارَبَتِ المَعْلوماتُ حَوْلَهُ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ مِنْ أَصْلٍ عَرَبِيٍّ أَصيلٍ يَنْتَسِبُ إِلى قَبيلَةٍ مُضَرِيَّةٍ مِنْ كِنانَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرى أَنَّهُ كانَ مَوْلًى لِهٰذِهِ القَبيلَةِ[2].

لا نَعْرُفُ شَيْئاً عَنْ أَبيهِ، وَلَمْ يَأْتِ الجاحِظُ عَلى ذِكْرِهِ، وَكَذٰلِكَ الأَمْرُ عَنْ أُمِّهِ وَإِخْوَتِهِ. «جَدُّهُ يُقالُ لَهُ فَزارَةُ، وَكانَ أَسْوَدَ اللَّوْنِ يَعْمَلُ جَمّالاً لِعَمْرِو بْنِ قَلْعٍ الكِنانِيِّ»[3]. وَلَمْ تُعْرَفْ لَهُ زَوْجَةٌ وَلا أَوْلادٌ.

وُلِدَ الجاحِظُ في البَصْرَةِ، وَاخْتَلَفَ الرُّواةُ في تاريخِ مَوْلِدِهِ، فَتَرَجَّحَ

---

(١) ينظر: الحموي، ياقوت بن عبدالله: معجم الأدباء، راجعته وزارة المعارف بمصر، دار المأمون، القاهرة، د. ط. د. ت. ج١٦: ٨٤.

(٢) ينظر: الجاحظ في البصرة وبغداد وسامرّاء، م. م. ص: ٩٣.

(٣) معجم الأدباء، م. م. ج١٦: ٧٤.

هَذا التّاريخُ ما بَيْنِ ١٥٠ و١٥٩، و١٦٠، و١٦٣، و١٦٥هـ[١]. وَيُنْسَبُ إِلى الجاحِظِ أَنَّهُ قالَ: «أَنا أَسَنُّ مِنْ أَبي نُواسٍ[٢] بِسَنَةٍ، وُلِدْتُ في أَوَّلِ خَمْسينَ وَمائَةٍ وَوُلِدَ في آخِرِها»[٣].

أَمّا وَفاتُهُ، فَكانَتْ عامَ ٢٥٥هـ بِإِجْماعِ مُعْظَمِ المُؤَرِّخينَ[٤].

يُحيطُ بِنَشْأَةِ الجاحِظِ الغُموضُ، إِذْ لَيْسَ سَهْلاً أَنْ نَتَحَدَّثَ عَنْ تِلْكَ النَّشْأَةِ وَعَنِ الظُّروفِ الّتي أَحاطَتْ بِطفولَتِهِ لِنُدْرَةِ المَعْلوماتِ التي بَيْنَ أَيْدينا؛ يُقالُ إِنَّهُ نَشَأَ فَقيراً في أَوَّلِ أَمْرِهِ، ما اضْطَرَّهُ ذَلِكَ إِلى بَيْعِ السَّمَكِ وَالخُبْزِ بِسَيْحانَ[٥]. وَكانَتْ إِطْلالَتُهُ الأُولى عَلى عالَمِ القِراءَةِ وَالكِتابَةِ في كُتّابِ حَيِّ بَني كِنانَةَ في البَصْرَةِ[٦].

فَفي الكُتّابِ كانَ الصَّبِيُّ يَتَعَلَّمُ «مَبادِئَ القِراءَةِ وَالكِتابَةِ، وَيَشْدو شَيْئاً مِنْ قَواعِدِ النَّحْوِ وَالصَّرْفِ، وَيَتَناوَلُ طَرَفاً مِنْ أُصولِ الحِسابِ، ثُمَّ

---

(١) الجاحظ في البصرة وبغداد وسامرّاء، م. م. ص: ٩٠.
(٢) هو الحسن بن هانئ الحكمي بالولاء (أبو نواس) (ت ١٩٨ هـ/ ٨١٤ م): شاعر العراق في عصره. ولد في الأهواز ونشأ بالبصرة، ورحل إلى بغداد، فاتصل بالخلفاء من بني العبّاس. هو أوّل من نهج للشّعر طريقته الحضريّة وأخرجه من اللهجة البدويّة. وقد نظم في جميع أنواع الشّعر. وأجود شعره خمريّاته.
(٣) معجم الأدباء، م. م. ج١٦: ٧٤.
(٤) ينظر: المرجع السابق، ج١٦: ٧٤؛ الجاحظ في البصرة وبغداد وسامرّاء، م. م. ص: ٩١.
(٥) معجم الأدباء، م. م. ج١٦: ٧٤. وسيحان نهر بالبصرة كان للبرامكة وهم سمّوه سيحان. وقد سمّت العرب كل ماء جار غير منقطع سيحان؛ ينظر: الحموي، ياقوت ابن عبدالله: معجم البلدان، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، ج٣: ٢٩٣.
(٦) ينظر: كتاب الحيوان، م. م. ج٢: ١٤ وفيه يذكر الجاحظ بعض الحوادث التي وقعت في الكتّاب.

يَسْتَظْهِرُ كِتابَ اللهِ الكَريـمَ اسْتِظْهاراً تامّاً مُجَوَّداً مُرتَّلاً؛ وَهُوَ في خِلالِ ذَلِكَ يَتَرَدَّدُ مَعَ أَتْرابِهِ عَلى القاصِّ فَيَسْمَعُ مِنْهُ أَحْداثَ الفُتوحِ، وَأَنْباءَ المَعارِكِ، وَأَخْبارَ الأَبْطالِ وَمَقاتِلَ الفُرْسانِ وَمُفاخَراتِ الشُّجْعانِ، وَسِيَرَ الغُزاةِ وَالفاتِحينَ، مَمْزوجاً ذَلِكَ بِالمَواعِظِ وَالعِبَرِ وَإيرادِ أَحْوالِ الصّالِحينَ وَأَطْوارِ الزُّهّادِ وَالنُّسّاكِ وَالمُتَّقينَ»[1].

وَقَدْ أَحَبَّ الجاحِظُ القِراءَةَ وَشَغَفَ بِها، فَقيلَ إِنَّهُ «لَمْ يَقَعْ بِيَدِهِ كِتابٌ قَطُّ إِلّا اسْتَوفى قِراءَتَهُ كائِناً ما كانَ، حَتّى إِنَّه كانَ يَكْتَري دَكاكينَ الوَرّاقينَ وَيَبِيْتُ فيها للنَّظَرِ»[2].

وَكانَ أَبو عُثْمانَ يَتَرَدَّدُ إِلى مَسْجِدِ البَصْرَةِ الذي عُدَّ مِنَ الأَماكِنِ المُهِمَّةِ التي اجْتَمَعَ فيها البَصْرِيّونَ؛ إِذ كانَ مُلْتَقى العُلَماءِ، وَالأُدَباءِ، وَالنُّحاةِ، وَالشُّعَراءِ، وَالمُتَكَلِّمينَ، والوُعّاظِ. وَكانَ كَثيرٌ مِنْ أَبْناءِ البَصْرَةِ يَجْتَمِعونَ فيهِ لِتَعَلُّمِ أُصولِ دينِهِمْ وَأَحْكامِهِ، فَكانوا يَنْتَقِلونَ ما بَيْنَ حَلَقاتِ التَّفْسيرِ وَالحَديثِ وَالوَعْظِ وَالأَخْبارِ، «وَيَتَجاذَبونَ أَطْرافَ الرَّأْيِ في مُخْتَلَفِ المَسائِلِ، مِمّا يَمَسُّ الأَدَبَ حيناً، وَيَمَسُّ مَظاهِرَ الاجْتماعِ حيناً آخَرَ...»[3].

وَقَدْ لازَمَتْ فِئَةٌ مِنْ هَؤلاءِ المَسْجِدَ فَلُقِّبوا بِالمَسْجِدِيِّينَ، وَكانوا بَعْدَ انْتِهاءِ الصَّلاةِ «يُفيضونَ في الحَديثِ، وَيَذْكُرونَ مِنَ الشِّعْرِ الشّاهِدَ

---

(١) السندوبيّ، حسن: أدب الجاحظ، المكتبة التجاريّة الكبرى، الطّبعة الأولى، القاهرة، ١٣٥٠هـ - ١٩٣١م، ص: ٢٦.

(٢) الفهرست، م. م. ص: ١٧٥.

(٣) الحاجريّ، طه: الجاحظ - حياته وآثاره - دار المعارف، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٩م، ص: ١١١.

وَالمَثَلَ، وَمِنَ الخَبَرِ الأيَّامَ وَالمَقاماتِ»[1].

وَمِنْهُمْ مَنْ كانَ «يَنْتَحِلُ الاقْتِصادَ في النَّفَقَةِ، وَالتَّثْميرَ للمالِ، مِنْ أَصْحابِ الجَمْعِ وَالمَنْعِ. وَقَدْ كانَ هَذا المَذْهَبُ عِنْدَهُمْ كَالنَّسَبِ الذي يَجْمَعُ عَلى التَّحابِ، وَكَالحِلْفِ الذي يَجْمَعُ عَلى التَّناصُرِ. وَكانوا إذا الْتَقَوْا في حَلَقِهِمْ تَذاكَروا هَذا البابَ وَتَطارَحوهُ وَتَدارَسوهُ»[2].

وَقَدْ أَمَّ هَذا المَسْجِدَ أَهْلُ الخاصَّةِ وَالعامَّةِ، فَالْتَقاهُمُ الجاحِظُ، وَاسْتَطاعَ تَسْجيلَ مُلاحَظاتٍ دَقيقَةٍ عَنْ عاداتِهِمْ، وَتَقاليدِهِمْ، وَمُسْتَوى ثَقافَتِهِمْ وَلُغَتِهِمْ، وَساهَمَ ذَلِكَ في إغْناءِ مَدارِكِ أَبي عُثْمانَ الفِكْرِيَّةِ وَالثَّقافِيَّةِ، وَبَلْوَرَةِ شَخْصِيَّتِهِ الاجْتِماعِيَّةِ. فَهُناكَ تَعَرَّفَ إلى كِبارِ المُعْتَزِلَةِ أَمْثالِ إبْراهيمَ بْنِ سَيَّارٍ النَّظّامِ[3]، وَتَأَثَّرَ بِآرائِهِ الكَلامِيَّةِ كَبيرَ التَّأَثُّرِ، إلّا أَنَّهُ اسْتَطاعَ أَنْ يُكَوِّنَ رَأْياً خاصّاً في الاعْتِزالِ، وَأَصْبَحَتْ تُنْسَبُ إلَيْهِ الفِرْقَةُ المَعْروفَةُ بِالجاحِظِيَّةِ مِنَ المُعْتَزِلَةِ. وَلَمْ يَمْنَعْهُ مَذْهَبُهُ الاعْتِزاليُّ مِنَ الانْغِماسِ في اللَّذاتِ وَسَماعِ القِيانِ وَالمُغَنّينَ، وَمُعاشَرَةِ الإماءِ وَالجَواري[4].

وَتَعَرَّفَ أَيْضاً إلى كِبارِ عُلَماءِ اللُّغَةِ، فَسَمِعَ مِنْ أَبي عُبَيْدَةَ وَالأَصْمَعِيِّ وَأَبي زَيْدٍ الأَنْصارِيِّ، وَأَخَذَ النَّحْوَ مِنْ أَبي الحَسَنِ

---

(١) الجاحظ، عمرو بن بحر: كتاب البخلاء، تحقيق طه الحاجريّ، دار المعارف، الطّبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٧١م، ص: ٢٠١.

(٢) المرجع السابق، ص: ٢٩.

(٣) إبراهيم بن سيّار البصريّ، أبو إسحاق (النّظّام) (ت٢٣١ هـ/ ٨٤٥م): من أئمّة المعتزلة. تبحّر في علوم الفلسفة، وانفرد بآراء خاصّة تابعته فيها فرقة من المعتزلة سُمّيت «النّظاميّة» نسبة إليه.

(٤) ينظر: البستاني، بطرس: أدباء العرب في الأعصر العبّاسيّة (القسم الثاني)، دار مارون عبّود، بيروت، د. ط. ١٩٧٩م، ج٢: ٢٦٥.

الأَخْفَشِ[1]. وَحَدَّثَ عَنْ جَماعَةٍ مِنَ الفُقَهاءِ[2].

كَما قَصَدَ المِرْبَدَ[3] لِتَلَقُّفِ الفَصاحَةِ مِنَ الأعْرابِ الأَقْحاحِ، بَعْدَ أَنْ فَشا اللَّحْنُ في الحَواضِرِ عَلى أَلْسُنِ الخَواصِّ وَالعوامِّ، إِثْرَ احْتِكاكِهِمُ المُسْتَمِرِّ بِالأعاجِمِ بَعْدَ الفُتوحِ الإِسْلامِيَّةِ الواسِعَةِ. فَكانَ المِرْبَدُ مَقْصِدَ عُلَماءِ اللُّغَةِ وَالأُدباءِ وَالشُّعَراءِ لامْتِلاكِ ناصِيَةِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحى، وَالوُقوفِ عَلى بَلاغَتِها نَثْراً وَشِعْراً.

وَلَمْ يَقْتَصِرِ اجْتِماعُ البَصْرِيّينَ عَلى المَسْجِدِ وَالمِرْبَدِ، بَلْ كانوا يَجْتَمِعونَ أَيْضاً في السّوقِ، وَفي الجَبّانَةِ لِيَتَحَدَّثوا في مَواضيعَ مُخْتَلِفَةٍ لا نِهايَةَ لَها[4].

عاشَ الجاحِظُ قِسْماً مُهِمّاً مِنْ حَياتِهِ في البَصْرَةِ قَبْلَ أَنْ يَنْتَقِلَ إِلى بَغْدادَ. وَقَدْ أَثَّرَتِ البَصْرَةُ في تَكْوينِ شَخْصِيَّتِهِ الفِكْرِيَّةِ وَالأَدَبِيَّةِ، فَفيها دَوَّنَ مَعارِفَهُ وَاسْتَكْمَلَها قَبْلَ شُروعِهِ في إِنْتاجِ كُتُبِهِ وَمُؤَلَّفاتِهِ، حَتّى قيلَ إِنَّ الجاحِظَ «إِنْتاجٌ صافٍ لِلْبَصْرَةِ»[5]، فَصِلَتُهُ بِهَذِهِ المَدينَةِ لَمْ تَنْقَطِعْ طِوالَ حَياتِهِ، وَقَدْ تَرَدَّدَ دَوْماً إِلَيْها وَفيها ماتَ. لِذَلِكَ كانَ لا بُدَّ مِنَ الوُقوفِ عَلى أَحْوالِ البَصْرَةِ قَبْلَ الحَديثِ عَنِ انْتِقالِ الجاحِظِ إِلى بَغْدادَ.

فَالبَصْرَةُ مَدينَةٌ تَقَعُ عَلى الخَليجِ الفارِسِيِّ، وَقَدْ قامَتْ عَلى مُفْتَرَقِ

---

(١) ينظر: معجم الأدباء، م. م. ج١٦: ٧٥.

(٢) ينظر: أدب الجاحظ، م. م. ص: ٢٨، ٢٩.

(٣) مربد البصرة من أشهر محالّها، كان فيه سوق الإبل قديماً، ثم صار محلّة عظيمة سكنها الناس وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء.. (معجم البلدان، م. م. ج٥: ٩٧).

(٤) ينظر: الجاحظ في البصرة وبغداد وسامرّاء، م. م. ص: ٣٤٤.

(٥) المرجع السابق، ص: ١١.

طُرُقِ المُواصَلاتِ البَحْرِيَّةِ وَالنَّهْرِيَّةِ وَالبَرِّيَّةِ. وَكانَتْ قَدْ أُنْشِئَتْ عامَ ١٤هـ أو ١٦هـ تَحْتَ إِمْرَةِ الخَليفَةِ الرّاشِدِيِّ عُمَرِ بْنِ الخَطّابِ[١]، أَوْ تَحْتَ إِمْرَةِ أَحَدِ وُلاتِهِ ـ سَعْدِ بْنِ أَبي وَقّاصٍ[٢] ـ لِأَهْدافٍ عَسْكَرِيَّةٍ، ثُمَّ مَصَّرَها عُتْبَةُ بْنُ غَزْوانَ[٣]، فَأَصْبَحَتْ حاضِرَةً قَطَنَها العَرَبُ الفاتِحونَ[٤]، وَكَذَلِكَ الفُرْسُ، وَالأَنْباطُ، وَالآرامِيُّونَ، وَالزُّنْجُ، وَالزُّطُّ، وَالهُنودُ، وَالسِّنْدُ، وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ جَذَبَهُمْ مَوْقِعُها التِّجارِيُّ، وَمِمَّنْ أَتَتْ بِهِمُ الفُتوحُ[٥]. وَكانَ لَها شُهْرَةٌ واسِعَةٌ قَبْلَ تَأْسيسِ بَغْدادَ، فَقَدْ «كانَتْ مَدينَةَ الدُّنْيا وَمَعْدِنَ

---

(١) عمر بن الخطّاب بن نفيل القرشي، أبو حفص (ت ٢٣هـ/ ٦٤٤م): ثاني الخلفاء الراشدين. أسلم قبل الهجرة بخمس سنين. بويع بالخلافة يوم وفاة أبي بكر سنة ١٣هـ ويعهد منه. في أيّامه افتتح العراق والشام، وافتتحت القدس والمدائن ومصر والجزيرة. في عهده وضع للعرب التاريخ الهجريّ. وهو أوّل من دوّن الدواوين في الإسلام على الطّريقة الفارسيّة. قتل غيلة.

(٢) سعد بن أبي وقاص القرشي الزهري، أبو إسحاق (ت٥٥ هـ/٦٧٥م): صحابي، أمير، فاتح العراق، ومدائن كسرى، وأحد الستة الذين عيّنهم عمر للخلافة. افتتح القادسيّة، ونزل أرض الكوفة فجعلها خططاً لقبائل العرب، وظلّ والياً عليها مدّة عمر بن الخطاب. وأقرّه عثمان زمناً، ثمّ عزله. مات في قصره بالعقيق (على عشرة أميال من المدينة) ودفن بالمدينة.

(٣) عتبة بن غزوان بن الحارثي المازني، أبو عبد الله: (ت ١٧ هـ/ ٦٣٨م): باني مدينة البصرة. صحابي، قديم الاسلام. شهد القادسية مع سعد بن أبي وقاص. وجّهه عمر إلى أرض البصرة والياً عليها، فاختطّها ومصّرها. مات وهو منصرف من المدينة إلى البصرة.

(٤) راجع: البلاذري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، تحقيق عبدالله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت، د.ط. ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م، ص: ٤٨٣ ـ ٥١٩؛ المقدسي، محمد بن أحمد: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وضع مقدّمته وهوامشه وفهارسه الدكتور محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربيّ، الطّبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، ص: ١٠٥؛ معجم البلدان، م. م. ج١: ٤٣٠ ـ ٤٣٣.

(٥) ينظر: الجاحظ في البصرة وبغداد وسامرّاء، م. م. ص: ٢٦.

تِجارَتِها وَأَمْوالِها»[1]. كَما كانَتْ «مَعْدِنَ اللآّلِىءِ وَالجواهِرِ وَفُرْضَةَ البَرِّ وَمَطْرَحَ البَحْرِ»[2]. وَاشْتَهَرَتْ بِتِجارَةِ التُّمورِ نَظَراً إلى جَوْدَتِها، حَتّى قالَ هارونُ الرَّشيدُ: «نَظَرْنا، فَإذا كُلُّ ذَهَبٍ وفِضَّةٍ عَلى وَجْهِ الأَرْضِ لا يَبْلُغُ ثَمَنَ نَخْلِ البَصْرَةِ»[3]. كَذلِكَ اشْتَهَرَتْ بِصِناعَةِ الرّاسَخْتْ[4] وَالزُّنْجُفْرِ[5] وَالزِّنْجارِ[6] وَالمُرْداسَنْجِ[7][8].

---

(١) اليعقوبي، أحمد بن إسحاق: كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربيّ، الطّبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، ص: ٨٤.

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، م. م. ص: ١١٤.

(٣) معجم البلدان، م. م. ج١: ٤٣٩.

(٤) الراسخت: الكحل. وقيل أيضاً: معدن يتولّد من النحاس تصنع منه الإبر والسكاكين؛ ينظر: الدمشقي، محمد بن أحمد (شيخ الربوة): نخبة الدهر في عجائب البرّ والبحر، مكتبة المثنى، بغداد، د. ط. د. ت. ص٥٤؛ لسترنج، كي: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوكيس عوّاد، مؤسسة الرسالة، الطّبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٥م، ص١٠٩.

(٥) الزُّنجُفر، بالضم: صبغ. وهو أحمرُ يُكتَب به ويُصْبَغ. وهو مَعْدَنِيّ ومَصْنُوعٌ. أما المَعْدنيّ فهو استِحالَة شَيْءٍ من الكِبْريت إلى مَعْدَنِ الزِّئبق، وأما المَصْنُوع فأنواعٌ. ينظر: الزبيدي، محمّد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس (الجزء الحادي عشر)، تحقيق عبد الكريم العزباوي ومراجعة عبد الستّار أحمد فرّاج، وزارة الإعلام، الكويت، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م، ج١١ : ٤٥٨. وهو معرّب شنجرف؛ ينظر: شير، أدّي: كتاب الألفاظ الفارسيّة المعرّبة، المطبعة الكاثوليكيّة للآباء اليسوعيين، بيروت، د. ط. ١٩٠٨م، ص: ٨٠.

(٦) الزِّنجار، بكسر الزاي: المتولّد في معادن النحاس. ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس، م. م. ج١١: ٤٥٧. وهو معرّب من زنكار؛ ينظر: كتاب الألفاظ الفارسيّة المعرّبة، م. م. ص: ٨٠.

(٧) ورد في بعض المعاجم أنه معروف دون شرح. و«المرداسنج يعمل من الرصاص، ومنه ما يعمل من الفضّة... وهو دواء يجفّف كما تجفّف جميع الأدوية المعدنية والحجرية والأرضية»؛ ينظر: يوسف بن عمر (الملك المظفّر): المعتمد في الأدوية المفردة، مطبعة الحلبي، د. ط. القاهرة، ١٣٢٧هـ، ص: ٣٤٢.

(٨) ينظر: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، م. م. ص: ١١٤.

وَكانَ سُكّانُ البَصْرَةِ يَنْدَرِجونَ تَحْتَ أَرْبَعِ طَبَقاتٍ أساسِيَّةٍ هِيَ:

«أ ـ الفاتِحونَ العَرَبُ وَمَواليهِمُ القُدامى.

ب ـ المُسْلِمونَ الجُدُدُ الذينَ اعْتَنَقُوا الإِسْلامَ.

ج ـ غَيْرُ المُسْلِمينَ.

د ـ الرَّقيقُ»[١].

وَمَعَ تَطَوُّرِ الأَوْضاعِ السِّياسِيَّةِ وَالاجْتِماعِيَّةِ في الحاضِرَةِ العَبّاسِيَّةِ، امْتَزَجَتْ هَذِهِ الطَّبَقاتُ في البَصْرَةِ، وَأَصْبَحَتْ تَضُمُّ:

- أَغْنِياءَ العَرَبِ الذينَ كانَ بِيَدِهِمْ مَقاليدُ الإِدارَةِ، وَالحِصَّةُ الكُبْرى مِنَ الغَنائِمِ وَأَمْوالِ الجِبايَةِ، بِالإِضافَةِ إِلى أَمْلاكِهِمْ.
- طَبَقَةً وُسطى مِنْ تُجّارٍ وَصُنّاعٍ، وَعَرَبٍ وَعَجَمٍ، مُسْلِمينَ وَغَيْرِ مُسْلِمينَ، كَاليَهودِ وَالنَّصارى.
- عامَّةَ الشَّعْبِ.
- الرَّقيقَ الذي غَصَّتْ بِهِ دورُ الأَغْنياءِ وَالمَيْسورينَ، وَلا سِيَّما دورُ الخُلَفاءِ[٢].

وَهَذا التَّطَوُّرُ الحَضارِيُّ الذي عَرَفَتْهُ البَصْرَةُ، ساعَدَ الفَرْدَ في «أَنْ يَتَحَلَّلَ مِنْ نِطاقِ القَبيلَةِ لِيَنْدَمِجَ في طَبَقَةٍ اجْتِماعِيَّةٍ أَوْسَعَ وَأَكْثَرَ مُرونَةً، مُتَنَقِّلاً مِنْ إِحْداها إِلى أُخرى تَبَعاً لِلتَّمَوُّجاتِ السِّياسِيَّةِ العامَّةِ وَالمَطامِعِ وَالمَصالِحِ أَوِ النَّجاحاتِ الفَرْدِيَّةِ»[٣].

---

(١) الجاحظ في البصرة وبغداد وسامرّاء، م. م. ص: ٣١٥.
(٢) ينظر: المرجع السابق، ص: ٣٢٧.
(٣) المرجع السابق، ص: ٣١٥.

وَقَدْ نَشِطَتْ في البَصْرَةِ الحَياةُ السِّياسِيَّةُ وَالفِكْرِيَّةُ، وَبَدَأَتِ اتِّجاهاتُها تَحُلُّ مَحَلَّ النِّزاعاتِ القَبَلِيَّةِ، «فَهُناكَ العُثْمانِيَّةُ، وَالشِّيعَةُ، وَبَقِيَّةُ الخَوارِجِ، وَالمُرْجِئَةُ، وَالدَّهْرِيّونَ، وَالمُعْتَزِلَةُ، وَالزَّنادِقَةُ، وَالنَّصارى وَاليَهودُ، يُقارِنونَ بَيْنَ مَذاهِبِهِمْ وَآرائِهِمْ في جَوٍّ مِنَ الحُرِّيَّةِ النِّسْبِيَّةِ فَيَخْلُقونَ بِذَلِكَ حَرَكَةً فِكْرِيَّةً ساعَدَتْ بِصورَةٍ خاصَّةٍ عَلى تَكوينِ الجاحِظِ»[1].

وَكانَ لامْتِزاجِ ثَقافاتِ الأَجْناسِ المُتَعَدِّدَةِ في البَصْرَةِ، أَنْ نَشِطَتِ الحَياةُ العَقْلِيَّةُ فيها نَشاطاً مُبْكِراً، وَأَخَذَ المُسْلِمونَ مِنْ تِلْكَ الثَّقافاتِ ما واءَمَ دينَهُمْ وَعَقيدَتَهُمْ. وَاسْتَطاعَتِ الثَّقافَةُ الإِسْلامِيَّةُ اسْتيعابَ تِلْكَ الثَّقافاتِ، وَمَزْجَها وَهَضْمَها داخِلَ مَنْظومَتِها الفِكْرِيَّةِ، بَعْدَ طَرْحِ ما خالَفَ أُصولَها. وَقَدْ أَتاحَتِ الحَرَكَةُ التِّجارِيَّةُ لِلبَصْرِيّينَ «أَنْ يَنْتَقِلوا بَيْنَ الأَقْطارِ المُخْتَلِفَةِ، فَيَتَّصِلوا بِشَتّى الثَّقافاتِ، وَيَشْهَدوا مُخْتَلَفَ الحَضاراتِ، فَتَتَأَثَّرُ بِذَلِكَ عُقولُهُمْ وَأَخْيِلَتُهُمْ، وَتَتَّسِعُ بِذَلِكَ مَدارِكُهُمْ وَمُثُلُهُمْ، وَبِذَلِكَ تَمَّ لِلبَصْرَةِ ذَلِكَ المَزيجُ العَقْلِيُّ الذي يَتَأَلَّفُ مِنْ سَعَةِ الأُفُقِ وَشِدَّةِ التَّطَلُّعِ وَحُرِّيَّةِ الرَّأْيِ وَسُرْعَةِ الذَّكاءِ وَصَفاءِ القَريحَةِ..»[2].

وَفي البَصْرَةِ بَرَزَتْ حَرَكَةُ الاعْتِزالِ[3]، وَاسْتَعانَ رِجالُها بِالفَلْسَفَةِ اليونانِيَّةِ في جِدالِهِمْ وَمُناقَشاتِهِمْ. وَ«أَشْهَرُ مَنِ اسْتَخْدَمَ الفَلْسَفَةَ في ذَلِكَ، أَبو الهُذَيْلِ العَلّافُ[4]،

---

(١) الجاحظ في البصرة وبغداد وسامرّاء، م. م. ص: ١٣.
(٢) الجاحظ ـ حياته وآثاره، م. م. ص: ٢٦، ٢٧.
(٣) عن الاعتزال، ينظر: مروج الذهب، م. م. ج٣: ٢٣٤؛ ضحى الإسلام، م. م. ج٣: ٢٠١ ـ ٢٠٧؛ أدب الجاحظ، م. م. ص: ٩٢ ـ ١٠٣.
(٤) هو محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدي، أبو الهذيل العلّاف (ت ٢٣٥هـ/ ٨٥٠م): من أئمّة المعتزلة. ولد بالبصرة واشتهر بعلم الكلام. له =

وَالنَّظَّامُ وَالجاحِظُ»[1].

وَسارَعَتِ البَصْرَةُ إِلى تَدْوينِ اللُّغَةِ وَسَنِّ القَواعِدِ لَها، وَانْبَرى لِهَذِهِ الغايَةِ عَدَدٌ مِنَ الرِّجالِ، مِنْهُمُ الخَليلُ بْنُ أَحْمَدَ[2]، وَسيبَوَيْهِ وَالأَخْفَشُ في النَّحْوِ، وَأَبو عُبَيْدَةَ وَالأَصْمَعِيُّ وَأَبو زَيْدٍ في اللُّغَةِ.

في هَذِهِ الأَجْواءِ، نَشَأَ الجاحِظُ، وَكَوَّنَ شَخْصِيَّتَهُ الفِكْرِيَّةَ وَالثَّقافِيَّةَ، ثُمَّ رَحَلَ إِلى بَغْدادَ عامَ ٢٠٤هـ في عَهْدِ المَأْمونِ الذي جَعَلَ هَذِهِ العاصِمَةَ قِبْلَةً لِلعُلومِ وَلِلعُلَماءِ الذينَ قَصَدوها لِطَلَبِ الرِّزْقِ وَالشُّهْرَةِ، فَاتَّصَلَ أَبو عُثْمانَ بِهِمْ، وَاتَّصَلَ أَيْضاً بِالمُتَرْجِمينَ الذينَ نَشِطوا في نَقْلِ العُلومِ وَالآدابِ إِلى اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَاسْتَطاعَ أَنْ يُكَوِّنَ لَهُ رَأْياً في التَّرْجَمَةِ[3].

وَفي بَغْدادَ، اشْتَغَلَ الجاحِظُ بِالكِتابَةِ وَالتَّأْليفِ، وَتَصَدَّرَ لِلمُناظَرَةِ حَتّى ذاعَ صيتُهُ، فَقَصَدَهُ العُلَماءُ وَالأُدَباءُ وَالطُّلابُ مِنْ كُلِّ حَدْبٍ وَصَوْبٍ، وَكانوا يَفْتَخِرونَ بِلِقائِهِ. وَفي هَذا قالَ سَلامُ بْنُ زيدٍ[4]، أَحَدُ

= مقالات في الاعتزال، ومجالس، ومناظرات. من كتبه، كتاب سمّاه «ميلاس» على اسم مجوسي أسلم على يده.

(١) أمين، أحمد: **فجر الإسلام**، دار الكتاب العربيّ، الطّبعة الحادية عشرة، بيروت، ١٩٧٩م، ص٢٩٩.
الجاحظ ـ حياته وآثاره، م. م. ص: ٢٦، ٢٧.

(٢) **الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدي، أبو عبد الرحمن** (ت ١٧٠هـ/٧٨٦م): من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض، أخذه من الموسيقى وكان عارفاً بها. وهو أستاذ سيبويه. له كتاب «العين» في اللغة، وكان قد رتّب أبوابه وتوفيّ قبل أن يحشوه. وله «معاني الحروف»، وكتاب «العروض»، و«النّقط والشكل»، و«النّغم»، و«جملة آلات العرب».

(٣) ينظر: **كتاب الحيوان**، م. م. ج١: ٧٥ ـ ٧٨؛ **أدب الجاحظ**، م. م. ص٨٥ ـ ٨٧.

(٤) في معجم الأدباء، ورد أنّ كنيته أبو خلف، وأنه كان تلميذاً للجاحظ؛ ينظر: **معجم الأدباء**، م. م. ج١٦: ١٩٧.

عُلَماءِ الأَنْدَلُسِ: «كانَ طالِبُ العِلْمِ بِالمَشْرِقِ يَشْرُفُ عِنْدَ مُلوكِنا بِلِقاءِ أَبي عُثْمانَ... فَخَرَجْتُ لا أَعْرُجُ عَلى شَيْءٍ حَتّى قَصَدْتُ بَغْدادَ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَقيلَ: هُوَ بِسُرَّ مَنْ رَأى، فَأَصْعَدْتُ إِلَيْها، فَقيلَ لي: قَدِ انْحَدَرَ إِلى البَصْرَةِ، فَانْحَدَرْتُ إِلَيْهِ وَسَأَلْتُ عَنْ مَنْزِلِهِ... فَأَقَمْتُ عَلَيْهِ عِشْرينَ سَنَةٍ»[١].

وَقَدْ طَبَّقَتْ شُهْرَتُهُ الآفاقَ، يَدُلُّنا عَلى ذَلِكَ ما أَجابَ عَنْهُ أَبو هَفّانَ[٢] عِنْدَما قيلَ لَهُ: «لِمَ لا تَهْجو الجاحِظَ، وَقَدْ نَدَّدَ بِكَ وَأَخَذَ بِمُخَنَّقِكَ؟ فَقالَ: أَمِثْلي يُخْدَعُ عَنْ عَقْلِهِ؟، وَاللهِ لَوْ وَضَعَ رِسالَةً في أَرْنَبَةِ أَنْفي، لَما أَمْسَتْ إِلّا بِالصّينِ شُهْرَةً، وَلَوْ قُلْتُ فيهِ أَلْفَ بَيْتٍ لَما طَنَّ مِنْها بَيْتٌ في أَلْفِ سَنَةٍ»[٣]. وَقَدْ أُعْجِبَ المَأْمونُ بِغَزارَةِ عِلْمِهِ وَأَدَبِهِ، فَاسْتَقْدَمَهُ إِلَيْهِ وَصَدَّرَهُ ديوانَ الرَّسائِلِ، غَيْرَ أَنَّ الجاحِظَ لَمْ يَمْكُثْ في ذَلِكَ المَنْصِبِ سِوى ثَلاثَةِ أَيّامٍ[٤]. وَكانَ يَتَقَلَّدُ خِلافَةَ إِبْراهيمَ بْنِ العَبّاسِ الصّوليِّ عَلى ذَلِكَ الدّيوانِ، عِنْدَما كانَ الصّوليُّ يَتَغَيَّبُ في شَأْنٍ مِنَ الشُّؤونِ الخاصَّةِ أَوِ العامَّةِ[٥].

وَبَعْدَ مَوْتِ المَأْمونِ وَانْتِقالِ الخِلافَةِ إِلى المُعْتَصِمِ، تَقَرَّبَ الجاحِظُ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ الزَّيّاتِ ـ وَزيرِ الخَليفَةِ ـ وَتَوَثَّقَتْ عَلاقَتُهُ بِهِ، فَأَقامَ مَعَهُ يَكْتُبُ لَهُ وَيَمْدَحُهُ، وَأَهْداهُ كِتابَ الحَيَوانِ[٦].

---

(١) معجم الأدباء، م. م. ج١٦: ١٩٧.
(٢) هو عبد الله بن أحمد بن المهزمي، أبو هفان المهزمي (ت ٢٥٧ هـ/ ٨٧١ م): رواية، عالم بالشعر والأدب، من الشعراء، من أهل البصرة، سكن بغداد. وأخذ عن الأصمعي وغيره. وكان متهتكاً، فقيراً. له «أخبار الشعراء»، و«صناعة الشعر»، و«أخبار أبي نواس».
(٣) معجم الأدباء، م. م. ج١٦: ٩٩.
(٤) ينظر: المرجع السابق، ج١٦: ٧٨، ٧٩.
(٥) ينظر: أدب الجاحظ، م. م. ص: ٣٥.
(٦) ينظر: معجم الأدباء، م. م. ج١٦: ١٠٦.

وَلَمّا تَوَلّى المُتَوَكِّلُ الخِلافَةَ، قُتِلَ ابْنُ الزَّياتِ، فَخافَ الجاحِظُ عَلى نَفْسِهِ، لِأَنَّ هَذا الخَليفَةَ يَكْرَهُ أَصْحابَ الاعْتِزالِ، وَلِأَنَّ القاضِيَ أَحْمَدَ بْنَ أَبي دُوادٍ جَدَّ في طَلَبِهِ لِتَقَرُّبِهِ مِنَ ابْنِ الزَّيّاتِ ـ عَدُوِّ القاضي ـ فَجيءَ بِهِ مَغْلولَ العُنُقِ بِسِلْسِلَةٍ، وَمُقَيَّدَ الرِّجْلَيْنِ، إِلّا أَنَّهُ اسْتَطاعَ بِذَكائِهِ، وَطَلاقَةِ لِسانِهِ، وَخِفَّةِ روحِهِ، أَنْ يَكْسِبَ وِدَّ القاضي[1]، فَانْقَطَعَ إِلَيْهِ، وَأَهْداهُ كِتابَ البَيانِ وَالتَّبيينِ[2].

وَبَعْدَ أَنْ فَلِجَ ابْنُ أَبي دُوادٍ، خَلَفَهُ في القَضاءِ ابْنُهُ أَبو الوَليدِ، فَتَقَرَّبَ مِنْهُ الجاحِظُ وَلَزِمَهُ، إِلّا أَنَّ المُتَوَكِّلَ سُرْعانَ ما صَرَفَ أَبا الوَليدِ لِتَوالي الشَّكاوى عَلَيْهِ. ثُمَّ اتَّصَلَ أَبو عُثْمانَ بِوَزيرِ المُتَوَكِّلِ، الفَتْحِ بْنِ خاقانَ[3]، وَقَدَّمَ لَهُ كِتاباً في مَناقِبِ التُّرْكِ وَعامَّةِ جُنْدِ الخِلافَةِ. وَحاوَلَ الفَتْحُ أَنْ يُقَرِّبَ الجاحِظَ مِنَ المُتَوَكِّلِ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ مُؤَدِّباً لِأَوْلادِهِ، وَلَكِنَّ المُتَوَكِّلَ لَمّا رَآهُ، اسْتَبْشَعَ مَنْظَرَهُ، فَصَرَفَهُ بَعْدَ أَنْ أَمَرَ لَهُ بِعَشَرَةِ آلافِ دِرْهَمٍ[4].

وَبِفَضْلِ مَكانَتِهِ الأَدَبِيَّةِ وَالعِلْمِيَّةِ، وَغَزارَةِ كُتُبِهِ وَمُؤَلَّفاتِهِ، اجْتَمَعَ لَهُ

---

(١) ينظر: **معجم الأدباء**، م. م. ج١٦: ٧٩.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ج١٦: ١٠٦.

(٣) **الفتح بن خاقان، أبو محمد** (ت٢٤٧ هـ/ ٨٦١م): أديب شاعر، فصيح، فارسي الأصل، كان في نهاية الفطنة والذكاء. اتخذه المتوكل أخاً له، واستوزره، وجعله على إمارة الشام على أن ينيب عنه. من كتبه: «اختلاف الملوك»، و«الصّيد والجوارح»، و«الروضة والزهر». قتل مع المتوكّل.

(٤) ينظر: **مروج الذهب**، م. م. ج٤: ١٠؛ ابن خلّكان، أحمد بن محمّد: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، د. ط. ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م، ج٣: ٤٧١.

المالُ الوَفيرُ، حَتّى سَأَلَهُ مَيمونُ بْنُ هارونَ[١]: «أَلَكَ بِالبَصْرَةِ ضَيْعَةٌ؟ فَتَبَسَّمَ وَقالَ: إِنّما أنا وَجارِيَةٌ، وَجارِيَةٌ تَخْدُمُها وَخادِمٌ وَحِمارٌ، أَهْدَيْتُ كِتابَ الحَيَوانَ إِلى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ الزَّيّاتِ فَأَعْطاني خَمْسَةَ آلافِ دينارٍ، وَأَهْدَيْتُ كِتابَ البَيانِ وَالتَّبيينِ إِلى ابْنِ أَبي دُوادٍ فَأَعْطاني خَمْسَةَ آلافِ دينارٍ، وَأَهْدَيْتُ كِتابَ الزَّرْعِ وَالنَّخيلِ إِلى إِبْراهيمِ بْنِ العَبّاسِ الصّوليِّ فَأَعْطاني خَمْسَةَ آلافِ دينارٍ، فَانْصَرَفْتُ إِلى البَصْرَةِ وَمَعي ضَيْعَةٌ لا تَحْتاجُ إِلى تَجْديدٍ وَلا تَسْميدٍ»[٢]. فَأَتاحَ لَهُ هَذا المالُ الوَفيرُ السَّفَرَ إِلى بَعْضِ المُدُنِ وَالبُلْدانِ، كَدِمَشْقَ وَأَنْطاكِيَةَ في سَبيلِ التَّحْقيقِ العِلْمِيِّ وَالبَحْثِ وَالاسْتِقْراءِ[٣].

كَما أَتاحَ لَهُ عُمْرُهُ المَديدُ اسْتِكْمالَ عُلومِهِ وَمعارِفِهِ، وَتَدوينَها، فَقَدْ عاشَ في خِلافَةِ المَهْدِيِّ[٤]، وَالهادي[٥]، وَالرَّشيدِ، وَالمَأْمونِ،

---

(١) ميمون بن هارون بن مخلد بن أبان، أبو الفضل (ت ٢٩٧هـ/ ٩١٠م): كاتب، صاحب أخبار وآداب وأشعار. من أهل بغداد. أخذ عن الجاحظ ومعاصريه، وأخذ عنه جعفر بن قدامة وآخرون.

(٢) ينظر: معجم الأدباء، م. م. ج١٦: ١٠٦.

(٣) ينظر: كتاب الحيوان، م. م. ج٥: ٣٧٣؛ أدب الجاحظ، م. م. ص: ٧٩.

(٤) هو محمد بن عبد الله (المنصور)، أبو عبد الله، (المهدي بالله العبّاسيّ) (ت١٦٩هـ/ ٧٨٥م): من خلفاء الدولة العبّاسيّة. ولي بعد وفاة أبيه ويعهد منه سنة ١٥٨هـ كان محبّاً للشعر. مات صريعاً عن دابّته في الصّيد، وقيل مسموماً. مدة خلافته عشر سنين وشهراً.

(٥) هو موسى بن محمّد بن أبي جعفر المنصور (الهادي العبّاسيّ) (ت ١٧٠هـ/ ٧٨٦م): خليفة عبّاسيّ ولي بعد وفاة أبيه سنة ١٦٩هـ وأراد خلع الرشيد من ولاية العهد وجعلها لابنه جعفر، فلم تر أمّه (الخيزران) ذلك، فزجرها، فأمرت جواريها أن يقتلنه فخنقنه. مدّة خلافته سنة وثلاثة أشهر.

وَالمُعْتَصِمِ، وَالواثِقِ[1]، وَالمُتَوَكِّلِ، وَالمُنْتَصِرِ[2]، وَالمُسْتَعينِ[3]، وَالمُعْتَزِّ[4].

وَفي أواخِرِ عُمُرِهِ فَلِجَ وَأُصيبَ بِداءِ عُضالٍ تَسَبَّبَ في مَوْتِهِ[5]. وَقيلَ إنَّ مَكْتَبَتَهُ وَقَعَتْ عَلَيْهِ فَماتَ[6].

أَهَمُّ كُتُبِ الجاحِظِ

لَمْ يَدَعِ الجاحِظُ باباً مِنْ أبْوابِ المَعْرِفَةِ إلّا وَطَرَقَهُ، وَكانَ أديباً بَليغاً، وَناقِداً مَوْضوعِيّاً لِما كانَ يَقْرَأُهُ مِنْ عُلومٍ وَمعارِفَ، وَكانَ كَثيرَ

---

(١) هو هارون بن محمّد بن هارون الرّشيد (الواثق بالله) (ت٢٣٢هـ/٨٤٧م): خليفة عبّاسيّ. ولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٢٢٧هـ، فامتحن النّاس في خلق القرآن، وسجن جماعة وقتل آخرين. كان عارفاً بالآداب والأنساب، طروباً عالماً بالموسيقى، خلافته خمس سنين وتسعة أيّام.

(٢) هو محمّد بن جعفر، أبو جعفر (المنتصر العبّاسيّ) (ت ٢٤٨هـ/ ٨٦٢م): من خلفاء الدولة العبّاسية. بويع بالخلافة بعد أن قتل أباه سنة ٢٤٧هـ في أيّامه قويت سلطة الغلمان، فحرّضوه على خلع أخويه المعتزّ والمؤيّد فخلعهما... قيل مات مسموماً بمبضع طبيب. مّدة خلافته ستة أشهر وأيام.

(٣) هو أحمد بن محمّد بن المعتصم، أبو العبّاس (المستعين بالله) (ت٢٥٢ هـ/ ٨٦٦ م): من خلفاء الدولة العبّاسيّة، بويع بالخلافة بعد وفاة المنتصر سنة ٢٤٨ هـ قامت الثورات في عصره وانتشرت الفوضى، فخلع نفسه واستسلم للمعتزّ الذي أطلق سراحه، ثم رحل بأمّه وأهله إلى واسط.

(٤) هو محمّد بن جعفر بن محمّد (المعتزّ العبّاسيّ) (ت٢٥٥هـ/ ٨٦٩م): خليفة عبّاسيّ. هو أخو المنتصر. عقد له أبوه البيعة بولاية العهد سنة ٢٣٥هـ سجنه المستعين بالله سنة ٢٤٨هـ، وأخرجه الأتراك بعد ثورتهم على المستعين، وبايعوا له سنة ٢٥١هـ، فكانت أيامه فتن وشغب. قتل على يد قوّاده. مدة خلافته ثلاث سنوات وستة أشهر وأربعة عشر يوماً.

(٥) ينظر: وفيات الأعيان، م. م. ج٣: ٤٧٣.

(٦) ينظر: أدب الجاحظ، م. م. ص: ١٨٧.

البَحْثِ وَالتَّأليفِ، حَتَّى عُدَّ مَوْسوعَةً مُتَنَوِّعَةً حَوَتْ مُعْظَمَ ثَقافاتِ عَصْرِهِ.

فَقَدْ عاشَ أبو عُثْمانَ في أَوْجِ أطْوارِ الدَّوْلَةِ العَبّاسِيَّةِ، وَسَمَحَتْ لَهُ الحُرِّيَّةُ النِّسْبِيَّةُ آنَذاكَ، وَلا سِيَّما في عَصْرِ المَأمونِ، أنْ يَكْتُبَ في كُلِّ شَيْءٍ، فَكَتَبَ في الإلهِيّاتِ وَالسِّياسَةِ، وَتَطَرَّقَ إلى المَوضوعاتِ السّاخِنَةِ في عَصْرِهِ، فَكانَ كِتابُ الإمامَةِ، وَكِتابُ العَرَبِ وَالعَجَمِ، وَرِسالَةٌ في فَضْلِ الأَتْراكِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ المُؤَلَّفاتِ القَيِّمَةِ[1].

فَكُتُبُ الجاحِظِ التي «تُعَلِّمُ العَقْلَ أَوَّلاً وَالأدَبَ ثانِياً»[2]، تَعْكِسُ جَوانِبَ مُهِمَّةً مِنَ الحَياةِ الاجْتِماعِيَّةِ وَالثَّقافِيَّةِ آنَذاكَ، فَعَلى سَبيلِ المِثالِ، نَرى أنَّ كِتابَ البُخَلاءِ يَعْكِسُ أخْلاقَ فِئَةٍ مِنَ النّاسِ وَعاداتِها في ظِلِّ تَطَوُّرِ الحَياةِ الاقْتِصادِيَّةِ وَتَعَقُّدِها آنَذاكَ، حَيْثُ باتَتِ الأَوْلَوِيَّةُ لِرَأسِ المالِ؛ وَيَعْكِسُ كِتابُ الحَيوانِ ثَقافَةَ العَصْرِ العَبّاسِيِّ المُتَعَدِّدَةَ الألْوانِ، فَفي هَذا الكِتابِ تَحَدَّثَ الجاحِظُ بِدِقَّةٍ وَمَوْضوعِيَّةٍ عَنِ الحَيَواناتِ التي عايَنَها مُشاهَدَةً أوْ عَلِمَ بِها سَماعاً، وَساعَدَتْهُ خِبْرَتُهُ الشَّخْصِيَّةُ عَلى سِبْرِ أغْوارِ الحَيَوانِ، فَقَدْ جالَسَ المَلّاحينَ وَصائِدي العَصافيرِ وَالحَوّائينَ[3] وَغَيْرَهُمْ مِمَّنْ لَهُمْ عَلاقَةٌ بِالحَيَوانِ. وَعَرَضَ أيْضاً في هَذا الكِتابِ عَدَداً مِنَ المَعارِفِ الطَّبيعِيَّةِ وَالطِّبِّيَّةِ وَالفَلْسَفِيَّةِ، وَعَدَداً آخَرَ مِنَ المَسائِلِ الفِقْهِيَّةِ، وَالكَلامِيَّةِ التي أخَذَتْ صورَةَ نِزاعٍ بَيْنَ صاحِبِ الكَلْبِ وَصاحِبِ الدِّيكِ[4]. كَذَلِكَ تَطَرَّقَ إلى بَعْضِ قَضايا التّاريخِ وَالجُغْرافِيا وَتَأثيرِ البيئَةِ في الإنْسانِ وَالحَيوانِ وَالنَّباتِ.

---

(١) ذكر ياقوت الحموي كلّ مؤلفات الجاحظ؛ راجع: **معجم الأدباء**، م. م. ج١٦: ١٠٦ ـ ١١٠.

(٢) **وفيات الأعيان**، م. م. ج٣: ٤٧٣.

(٣) ينظر: **كتاب الحيوان**، م. م. ج٢: ١٢٦، ٣٢٩.

(٤) ينظر: المرجع السابق، ج١: ٣٥٦، وج٢: ١٥٣.

وَقَدِ اعْتَمَدَ في تَأْليفِ هَذا الكِتابِ عَلى القُرْآنِ الكَريمِ، وَالأحاديثِ النَّبَوِيَّةِ، وَالشِّعْرِ العَرَبيِّ الذي يَزْخَرُ بِالكَلامِ عَلى الحَيوانِ، كَالإِبِلِ وَالغَزالِ وَالأَسَدِ وَالذِّئبِ وَالثَّعْلَبِ. كَما اسْتَعانَ بِكِتابِ الحَيوانِ لِأَرُسْطو مَعَ عَدَمِ قُبولِهِ كُلَّ ما ذَكَرَهُ أَرُسْطو[1].

أَمّا كِتابُ: «البَيان وَالتَّبيين»، فَهُوَ مِنْ أَجَلِّ كُتُبِهِ وَأَعْظَمِها نَفْعاً، فَقَدْ تَحَدَّثَ فيهِ أبو عُثْمانَ عَنِ البَيانِ وَالبَلاغَةِ، وَضَمَّنَهُ عَدَداً مِنَ الأَشْعارِ وَالخُطَبِ وَالرَّسائِلِ وَالوَصايا، مُبَيِّناً أُصولَ الخِطابَةِ، وَفُنونَ الكِتابَةِ، وَبَلاغَةَ الكَلامِ نَثْراً وَشِعْراً. وَعَرَضَ الجاحِظُ في هَذا الكِتابِ طائِفَةً مِنْ كَلامِ النُّسّاكِ، وَالقَصّاصينَ، وَالحَمْقى، وَالأَعْرابِ، ذاكِراً نَوادِرَهُمْ وَأَخْبارَهُمْ. كَما عَرَضَ فيهِ عَدَداً مِنَ الأُمورِ وَالقَضايا الأُخَرَ التي لا يَتَّسِعُ المَقامُ لِسَرْدِها كُلِّها.

وَفي كُلِّ كِتاباتِهِ، عَرَفَ الجاحِظُ «أَنْ يُوَفِّقَ بَيْنَ مَذْهَبِ البَصْرِيّينَ وَالكوفِيّينَ، كَذَلِكَ عَرَفَ أَنْ يُوائِمَ بَيْنَ تَعاليمِ المُعْتَزِلَةِ وَبَيْنَ ما تَمَّ لَهُ مِنْ ثَقافَةٍ عَريضَةٍ، مُتَنَوِّعَةٍ، كُلُّ ذَلِكَ في بَيانٍ عَرَبِيٍّ ناصِعٍ»[2].

وَمَعَ الجاحِظِ ارْتَقى النَّثْرُ العَرَبِيُّ وَتَطَوَّرَ حَتّى أَصْبَحَ مَدْرَسَةً قائِمَةً بِذاتِها، وَكانَتْ لَهُ طَريقَتُهُ الخاصَّةُ في الكِتابَةِ، فَقَدْ «مَزَجَ العِلْمَ بِالأَدَبِ، وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلى ذِكْرِ البَراهينِ النَّظَرِيَّةِ، بَلِ اسْتَعانَ بِالتّاريخِ وَبِالشِّعْرِ، وَبِما يَعْرِفُ مِنْ أَحْداثٍ، وَما جَرَّبَ هُوَ نَفْسُهُ مِنْ تَجاريبَ. وَمَزَجَ ما تَعَلَّمَ بِما قَرَأَ، بِما سَمِعَ، بِما شاهَدَ، بِما جَرَّبَ. كَما مَزَجَ الشِّعْرَ الجاهِلِيَّ

---

(١) ينظر: كتاب الحيوان، م.م. ج١: ١٨٥، وج٧: ٢٢٨.

(٢) تاريخ الحضارات العام، م.م. ج٣: ١٣٦.

بِالشِّعْرِ الإِسْلامِيِّ، بِعِلْمِ أَرُسْطو، بِطِبِّ جالنيوس[1]. كَما مَزَجَ آيَ القُرْآنِ الكَريمِ بِأَحاديثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَأْيِ الطَّبيعِيِّينَ وَالدَّهْرِيِّينَ، بِاليَهودِيَّةِ وَالنَّصْرانِيَّةِ، بِرَأْيِ الزَّرَدَشْتِيِّينَ وَالمانَوِيِّين. وَفي الحَقِّ، إِنَّ هَذا كُلَّهُ مَزيجٌ عَسِرُ الهَضْمِ، لَوْلا ما حَظِيَ بِهِ مِنْ أُسْلوبٍ سَمْحٍ فَضْفاضٍ، وَنَفْسٍ مَرِحَةٍ تُقَدِّرُ كُلَّ التَّقْديرِ النّادِرَةَ الحُلْوَةَ، وَالفُكاهَةَ العَذْبَةَ»[2].

وَلِبَعْضِ العُلَماءِ مَأْخَذٌ عَلى كِتابَةِ الجاحِظِ التي شابَها الاسْتِطْرادُ الذي يَبْعَثُ عَلى المَلَلِ أَحْياناً، وَوَصَلَ إِلى حَدِّ الثَّرْثَرَةِ، «وَلَكِنَّ هَذا بِعَيْنِهِ هُوَ ما كانَ مَوْضِعَ لَذَّةِ المُعْجَبينَ بِالجاحِظِ؛ وَكانَ يَشْعُرونَ بِأَنَّهُ إِنْقاذٌ لَهُمْ مِنْ طَريقَةِ العُلَماءِ السّائِدَةِ إِلى ذَلِكَ الحينِ والتي كانَتْ ثَقيلَةً لِكَثْرَةِ ما فيها مِنَ الجِدِّ وَإِظْهارِ العِلْمِ»[3]. فَالانْتِقالُ مِنْ مَوْضوعٍ إِلى آخَرَ أَضْحى مُحَبَّباً إِلى كِبارِ القُرّاءِ في العَصْرِ العَبّاسِيِّ.

أَمّا كِتاباتُهُ، فَلَمْ تَكُنْ «زُخْرُفاً خالِصاً... بَلْ هِيَ مَعانٍ تُؤَدّي في دِقَّةٍ، تُفَسِّرُ الواقِعَ وَالأَحْداثَ...»[4]. وَقَدِ ابْتَعَدَ ما أَمْكَنَ عَنِ التَّشْبيهاتِ

---

(١) جالينوس (ت ١٩٩م): طبيب يوناني من أشهر الأطباء المعلّمين القدماء. له كتب عديدة، من أهمّها «علاج التشريح» المعروف بالتشريح الكبير، الذي اعتمد في الحضارتين الغربيّة والشرق أوسطيّة. وظلّ ذا تأثير في ميدانه، حتى العصور الحديثة. توفّي في روما. (راجع: الموسوعة العربيّة، م. م. مج٧: ٤١٧).

(٢) ضحى الإسلام، م. م. ج١: ٣٩٠.

(٣) ميتز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الكتاب العربيّ ببيروت، الطّبعة الرابعة، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م، ج١: ٤٤٣.

(٤) ضيف، شوقي (دكتور): الفن ومذاهبه في النثر العربيّ، دار المعارف، الطّبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٧١م، ص: ١٦٤.

وَالاسْتِعاراتِ حَتّى قالَ بَديعُ الزَّمانِ الهَمَذانِيُّ[1] إِنَّ الجاحِظَ «بَعيدُ الإِشاراتِ، قَليلُ الاسْتِعاراتِ، قَريبُ العِباراتِ، مُنْقادٌ لِعُرْيانِ الكَلامِ يَسْتَعْمِلُهُ، نُفورٌ مِنْ مُعْتاصِهِ[2] يُهْمِلُهُ»[3].

وَنُجْمِلُ القَوْلَ إِنَّ الجاحِظَ يُعَدُّ شَيْخَ التَّرَسُّلِ وَالإِنْشاءِ في عَصْرِهِ[4].

وَبِالرَّغْمِ مِنَ انْقِطاعِ الجاحِظِ في الكِتابَةِ إِلى أَهْلِ الخاصَّةِ، فَإِنَّهُ أَشارَ في طَيّاتِ كُتُبِهِ وَمُؤَلَّفاتِهِ الكَثيرَةِ إِلى الفِئاتِ الشَّعْبِيَّةِ التي اتَّصَلَ بِها في مُجْتَمَعِهِ؛ وَتَظْهَرُ عَلاقَتُهُ بِالطَّبَقاتِ الاجْتِماعِيَّةِ المُخْتَلِفَةِ في ما قالَهُ ثابِتُ بْنُ قُرَّةَ[5] ـ وَهُوَ مِنَ الصابِئَةِ ـ في الجاحِظِ:

---

(١) هو أحمد بن الحسين الهمذاني، أبو الفضل (ت ٣٩٨ هـ/١٠٠٨م): أحد أئمة الكتّاب، ورتبته في الشعر دون النثر. ولد في همذان وانتقل إلى هراة سنة ٣٨٠هـ فسكنها. لم يدع بلدة من بلدان خراسان وسجستان وغزنة إلا دخلها، ولا ملكاً ولا أميراً إلا فاز بجوائزه. يضرب المثل بحفظه. مات ببغداد. له مقامات مشهورة.

(٢) عريان الكلام: ما كان بادياً لسامعه بجوهره لا تكسوه ثوب الصنعة ولا ينجلي في حلل التخييل من نسج القريحة. الكِلمةُ العَوصاءُ: الغريبة... وكلام عَويصٌ وكلمة عَويصةٌ وعوصاء. وقد اعْتاصَ وأَعْوَصَ في المَنْطِق: غَمَّضَه.

(٣) الهمذانيّ، أحمد بن الحسين (بديع الزمان): **مقامات الهمذانيّ**، تقديم وشرح العلّامة الشيخ محمد عبده، دار المشرق، الطّبعة السادسة، بيروت، ١٩٦٩م، ص: ٧٥، ٧٦.

(٤) عن أسلوب الجاحظ في الكتابة، ينظر على سبيل المثال:

ـ علي، محمد كرد: **أمراء البيان**، دار الأمانة، الطّبعة الثالثة، بيروت، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م، ص: ٣٠٨ ـ ٣٣٩.

ـ **الفن ومذاهبه في النثر العربيّ**، م. م. ص: ١٦٢ ـ ١٦٩.

ـ **ضحى الإسلام**، م. م. ج١: ٣٨٨ ـ ٤٠٣.

ـ البصير، محمّد مهدي: **في الأدب العبّاسيّ**، مطبعة النّعمان، الطّبعة الثالثة، النّجف الأشرف، ١٩٧٠م، ص: ٥٤ ـ ٥٧.

(٥) ثابت بن قرّة الحرّاني الصابئ، أبو الحسن (ت ٢٨٨ هـ/٩٠١م): طبيب فيلسوف، =

«الخُلَفاءُ تَعْرِفُهُ، وَالأُمَراءُ تُصافيهِ وَتُنادِمُهُ، وَالعُلَماءُ تَأْخُذُ عَنْهُ وَالخاصَّةُ تُسَلِّمُ لَهُ، وَالعامَّةُ تُحِبُّهُ»[1].

وَقالَ المَأْمونُ في كِتابِ العَبّاسِيَّةِ للجاحِظِ: «... جامِعٌ لاسْتِقْصاءِ المَعاني وَاسْتيفاءِ الحُقوقِ بِلَفْظٍ جَزْلٍ، وَمَخْرَجٍ سَهْلٍ، سوقِيٌّ مُلوكِيٌّ خاصِيٌّ عامِيٌّ»[2].

فَأَدَبُهُ كانَ أَدَباً واقِعِياً، اسْتَمَدَّ لَهُ مِنَ المُحيطِ الاجْتِماعِيِّ مادَّةً غَنِيَّةً، وَمَعْلوماتٍ مُهِمَّةً عَنْ طَبيعَةِ الحَياةِ الاجْتِماعِيَّةِ التي انْدَمَجَ بِها وَعايَنَها في آنٍ، وَاسْتَطاعَ أَنْ يُسَجِّلَ مُلاحَظاتٍ دَقيقَةً عَنْ كُلِّ ما أَحاطَ بِهِ، وَمِنْ جُمْلَتِها عَلاقَةُ اللُّغَةِ بِالواقِعِ الاجْتِماعِيِّ وَالثَّقافِيِّ، وَكَيْفَ أَنَّ انْتِماءَ الفَرْدِ لِطَبَقَةٍ سِياسِيَّةٍ أَوِ اجْتِماعِيَّةٍ، أَوْ مِقْدارَ ما تَأَتّى لَهُ مِنَ العِلْمِ وَالثَّقافَةِ يُؤَثِّرُ في انْتِقائِهِ مُفْرَداتٍ وَتَراكيبَ لُغَوِيَّةً تَظْهَرُ في سِياقِ كَلامِهِ، وَتُحاكي، عادَةً، روحَ تِلْكَ الطَّبَقَةِ.

وَأَكْثَرُ ما يُهِمُّنا في كِتاباتِ الجاحِظِ، هُوَ إِشاراتُ أَديبِنا إِلى الواقِعِ الاجْتِماعِيِّ - اللُّغَوِيِّ، وَأَوَّلُ المَحَطّاتِ في ذَلِكَ: «لُغَةُ أَهْلِ الأَمْصارِ» في الفَصْلِ القادِمِ.

= ولد ونشأ في حرّان (بين دجلة والفرات) قصد بغداد، فاشتغل بالفلسفة والطب. كان يحسن السريانيّة وأكثر اللغات الشائعة في عصره، فترجم عنها كثيراً إلى العربيّة. وصنّف نحو مائة وخمسين كتاباً، منها: «كتاب الهندسة»، و«الذخيرة في علم الطب»، و«مسائل في الموسيقى». توفّي في بغداد.

(١) معجم الأدباء، م. م. ج١٦: ٩٧، ٩٨.

(٢) ابن الفقيه، أحمد بن محمد: مختصر كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربيّ، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص١٨١.

الفَصْلُ الرّابِعُ

لُغَةُ أَهْلِ الأَمْصارِ

لَمّا انْضَوى تَحْتَ لِواءِ الخِلافَةِ الإِسْلامِيَّةِ في العَصْرِ العَبّاسِيِّ عَدَدٌ مِنَ الأَمْصارِ وَالبُلْدانِ، كانَ لا بُدَّ مِنْ إِلْقاءِ الضَّوْءِ عَلى لُغاتِها بِصِفَةٍ عامَّةٍ، تارِكينَ الإِشارَةَ إِلى تَعَدُّدِ المُسْتَوَياتِ اللُّغَوِيَّةِ في المُحيطِ الواحِدِ، عِنْدَ الحَديثِ عَنِ العَلاقَةِ المُتَجاذِبَةِ بَيْنَ الطَّبَقاتِ الاجْتِماعِيَّةِ وَلُغاتِ أَفْرادِها التي عايَنَها الجاحِظُ في المُدُنِ الكُبْرى في الحاضِرَةِ العَبّاسِيَّةِ - في العِراقِ خُصوصاً - كَالبَصْرَةِ وَالكوفَةِ وَبَغْدادَ وَسامَرّاءَ.

فَقَدْ غَلَبَتِ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ ما عَداها مِنَ اللُّغاتِ في الحاضِرَةِ العَبّاسِيَّةِ، وَأَقْبَلَتِ الشُّعوبُ عَلى تَعَلُّمِها وَإِجادَتِها لِأَنَّها لُغَةُ الدّينِ وَالسُّلْطَةِ.

وَهَذِهِ اللُّغَةُ اخْتَلَفَتْ «بِحَسَبِ اصْطِلاحاتِ أَهْلِ الآفاقِ، فَلِأَهْلِ الشَّرْقِ وَأَمْصارِهِ لُغَةٌ غَيْرُ لُغَةِ أَهْلِ المَغْرِبِ وَأَمْصارِهِ، وَتُخالِفُهُما أَيْضاً لُغَةُ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ وَأَمْصارِهِ»[1].

لَكِنَّ هَذا الاخْتِلافَ لَمْ يَكُنْ كَبيراً، فَهُوَ «لِقِلَّتِهِ وَنَزارَتِهِ، مُحْتَقَرٌ غَيْرُ

(١) المقدّمة لابن خلدون، م. م، ص: ٣٦١.

مُحْتَفَلٍ بِهِ، وَلا مَعيجٌ[١] عَلَيْهِ، وَإِنَّما هُوَ في شَيْءٍ مِنَ الفُروعِ يَسيرٌ. فَأَمّا الأُصولُ وَما عَلَيْهِ العامَّةُ وَالجُمْهورُ، فَلا خَوْفٌ فيهِ، وَلا مَذْهَبٌ للطّاعِنِ بِهِ»[٢].

وَأَكْثَرُ ما ظَهَرَ هَذا الخِلافُ في تَعَدُّدِ لَهَجاتِ القَبائِلِ العَرَبِيَّةِ التي تَوَزَّعَتْ في الأَمْصارِ وَالبُلْدانِ. وَتَعَدُّدُ اللَّهَجاتِ في أيِّ لُغَةٍ يَنْجُمُ عَنِ انْخِفاضِ الاحتِكاكِ بَيْنَ الجَماعاتِ بِسَبَبِ التَّباعُدِ الجُغْرافِيِّ، أَوِ التَّغايُرِ الاجْتِماعِيِّ. فَمِنَ البَديهِيِّ إِذاً، أَنَّ التَّباعُدَ الجُغْرافِيَّ وَالتَّغايُرَ الاجْتِماعِيَّ يُشَكِّلانَ عامِلَيْ تَغْييرٍ لُغَوِيٍّ، مُسْتَقِلٌّ أَحَدُهُما عَنِ الآخَرِ اسْتِقْلالاً تامّاً[٣]، أَوْ مُتَّحِدٌ مَعَهُ.

وَكُلَّما كانَتْ حَياةُ الجَماعاتِ بِدائِيَّةً أَيْضاً، تَعَدَّدَتِ اللَّهَجاتُ فيها[٤]، فَعَلى سَبيلِ المِثالِ، «ذَكَرَ الأُسْتاذانِ جابلنتز «Gabelentz» وميير «Meyer» في كِتابِهِما عَنِ اللُّغَةِ الميلانيزِيَّةِ «Melanesian Language» أَنَّ كُلَّ قَرْيَةٍ مِنْ قُرى ساحِلِ ماكلاي (شَمالَ شَرْقِيِّ نيو غينيا) تَتَكَلَّمُ لَهْجَةً خاصَّةً... وَلِهَذا اضْطَرَّ هَذانِ المُؤَلِّفانِ أَنْ يَسْتَخْدِما ثَلاثَةً مِنَ المُتَرْجِمينَ في رِحْلَةٍ اسْتَمَرَّتْ يَوْماً واحِداً، وَيَرى كيير «Curr» أَنَّ سُكّانَ أُسْتراليا البِدائِيِّينَ، الَّذينَ لا يَزيدونَ عَدَداً عَنْ مِئَتَيْ أَلْفِ نَسَمَةٍ، يَتَكَلَّمونَ نَحْواً مِنْ مِئَةِ لَهْجَةٍ»[٥].

---

(١) من قولهم: ما عجت من كلامه بشيء أي ما باليت ولا انتفعت.

(٢) الخصائص، م. م. ج١: ٢٤٥.

(٣) GARMADI, JULIETTE, la sociolinguistique, PUF, Paris, 1981, p. 27: «Il serait cependant simpliste de croire que distance géographique et differenciation social puissent être des facteurs de différenciation linguistique tout a fait indépendants l'un de l'autre».

(٤) راجع: اللّغة بين الفرد والمجتمع، م. م. ص: ٥٥.

(٥) المرجع السابق، ص: ٥٥، ٥٦.

وَإذا ما ارْتَقَتِ الجَماعاتُ وَانْدَرَجَتْ تَحْتَ نِظامٍ سِياسِيٍّ وَاجْتِماعِيٍّ وَثَقافِيٍّ مُوَحَّدٍ، فَإنَّ حِدَّةَ الفُروقِ الاجْتِماعِيَّةِ وَالثَّقافِيَّةِ وَغَيْرِها تَنْحَسِرُ بَيْنَ الأَفْرادِ أَوْ تَضيقُ، وَبِالتّالي تَنْحَسِرُ الفُروقُ اللُّغَوِيَّةُ أَوْ تَقْصُرُ المَسافَةُ بَيْنَها.

وَالقُرْآنُ الكَريمُ، بِالرُّغْمِ مِنِ احْتِوائِهِ عَلى كَثيرٍ مِنْ أَلْفاظِ القَبائِلِ العَرَبِيَّةِ[1]، إلّا أَنَّ الغالِبَ عَلَيْهِ لُغَةُ قُرَيْشٍ، وَأَضْحَتْ لُغَةُ المِصْرِ أَوِ الجَماعَةِ التي حاكَتْ لُغَةَ القُرْآنِ أَفْصَحَ مِنْ تِلْكَ التي خالَفَتْها. وَعَنْ ذَلِكَ قالَ الجاحِظُ:

«حَدَّثَني أَبو سَعيدٍ عَبْدُ الكَريمِ بْنُ رَوْحٍ[2] قالَ: قالَ أَهْلُ مَكَّةَ لِمُحَمَّدِ بْنِ المُناذِرِ الشّاعِرِ[3]: لَيْسَتْ لَكُمْ مَعاشِرَ أَهْلِ البَصْرَةِ لُغَةٌ فَصيحَةٌ، إنَّما الفَصاحَةُ لَنا أَهْلَ مَكَّةَ. فَقالَ ابْنُ المُناذِرِ: أَمّا أَلْفاظُنا فَأَحْكى الأَلْفاظِ لِلقُرْآنِ، وَأَكْثَرُها لَهُ مُوافِقَةٌ، فَضَعوا القُرْآنَ بَعْدَ هَذا حَيْثُ شِئْتُمْ، أَنْتُمْ تُسَمّونَ القِدْرَ بُرْمَةً وَتَجْمَعونَ البُرْمَةَ عَلى بِرامٍ، وَنَحْنُ نَقولُ قِدْرٌ وَنَجْمَعُها عَلى قُدورٍ، وَقالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾[4] وَأَنْتُمْ تُسَمّونَ البَيْتَ إذا كانَ فَوْقَ البَيْتِ عِلِّيَّةً، وَتَجْمَعونَ هَذا

---

(١) لمزيد من التفصيل، ينظر: ابن سلّام، أبو عبيد القاسم: لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم، تحقيق الدكتور عبد الحميد السيّد طلب، مطبوعات جامعة الكويت، د. ط. ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

(٢) لم أقف على ترجمته.

(٣) محمّد بن مناذر، (ت ١٩٨هـ/ ٨١٣م): شاعر كثير الأخبار والنّوادر، ومن العلماء بالأدب واللغة. تفقّه وروى الحديث، ثم تزندق، فغلب عليه اللهو والمجون. واتصل بالبرامكة ومدحهم. أُخرج من البصرة لهجائه أهلها، فذهب إلى مكّة فتنسك ثمّ تهتّك ومات فيها.

(٤) سورة سبأ: ١٣.

الاسْمَ عَلى عَلالِيّ، وَنَحْنُ نُسَمّيها غُرْفَةً وَنَجْمَعُها عَلى غُرُفاتٍ وَغُرَفٍ. وَقالَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالى ﴿غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾[1]، وَقالَ: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾[2]. وَأَنْتُمْ تُسَمّونَ الطَّلْعَ الكافورَ وَالإِغْريضَ، وَنَحْنُ نُسَمّيهِ الطَّلْعَ. وَقالَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالى: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾[3]. فَعَدَّ عَشْرَ كَلِماتٍ لَمْ أَحْفَظْ مِنْها إِلّا هَذا»[4].

يَتَبَيَّنُ لَنا أَنَّ القِياسَ البَصْرِيَّ أَثْبَتَهُ القُرْآنُ، خِلافاً لِما اعْتَقَدَهُ أَهْلُ مَكَّةَ في أَنَّ القُرْآنَ أَقَرَّ لُغَتَهُمْ دون سِواها. وَنُشيرُ إِلى ذَلِكَ بِوِساطَةِ المُخَطَّطِ التّالي:

الأَلْفاظُ المَكِّيَّةُ	الأَلْفاظُ البَصْرِيَّةُ	الأَلْفاظُ القُرْآنِيَّةُ
بِرامٌ جَمْعُ بُرْمَةٍ	قُدورٌ جَمْعُ قِدْرٍ	قُدور
عَلالِيٌّ جَمْعُ عِلِّيَّةٍ	غُرُفاتٌ وَغُرَفٌ جَمْعُ غُرْفَةٍ	غُرَفٌ؛ غُرُفاتٌ
الكافورُ	الطَّلْعُ	طَلْعُها

وَلَمْ تَقْتَصِرِ الاخْتِلافاتُ اللُّغَوِيَّةُ عَلى البَصْرَةِ وَمَكَّةَ، بَلِ امْتَدَّ ذَلِكَ إِلى الأَمْصارِ التي اخْتَلَفَتْ لُغاتُها بِاخْتِلافِ لُغَةِ القَبائِلِ العَرَبِيَّةِ التي حَلَّتْ فيها، وَيُؤَكِّدُ الجاحِظُ هَذا الأَمْرَ بِقَوْلِهِ: «وَأَهْلُ الأَمْصارِ إِنَّما يَتَكَلَّمونَ عَلى لُغَةِ النّازِلَةِ فيهِمْ مِنَ العَرَبِ، وَلِذَلِكَ تَجِدُ الاخْتِلافَ في أَلْفاظٍ مِنْ أَلْفاظِ أَهْلِ الكوفَةِ وَالبَصْرَةِ وَالشّامِ وَمِصْرَ»[5]. مِنْ ذَلِكَ اخْتِلافُ أَهْلِ

---

(١) سورة الزمر: ٢٠.
(٢) سورة سبأ: ٣٧.
(٣) سورة الشعراء: ١٤٨.
(٤) البيان والتبيين، م. م. ج١: ١٨، ١٩.
(٥) المرجع السابق، ج١: ١٨.

الكوفَةِ وَالشّامِ في البُرّ؛ فَالكوفَةُ قالَتْ فيهِ: الحِنْطَةُ، أَمّا الشّامُ، فَقالَتِ: القَمْحُ[1].

إلى جانِبِ الاخْتِلافاتِ الدَّلالِيَّةِ، وُجِدَتِ الاخْتِلافاتُ الصَّرْفِيَّةُ وَالصَّوْتِيَّةُ التي أَشارَتْ إِلَيْها كُتُبُ اللُّغَةِ، مِنْها عَلى سَبيلِ المِثالِ، قَوْلُ أَهْلِ مَكَّةَ: هَذانٌ وَاللَّذانٌ وَهاتَيْنٌ (بالشَّدَّة)[2]. وَقَوْلُ بَرابِرِها وَسودانِها: الشُّجْرَةُ في الشَّجَرَةِ[3]. كَذَلِكَ اقْتَبَسَ العَرَبُ عَدَداً مِنْ أَلْفاظِ الجَماعاتِ الأَعْجَمِيَّةِ التي نَزَلَتْ في المُدُنِ وَالحَواضِرِ العَرَبِيَّةِ، فَتَرَى «أَنَّ أَهْلَ المَدينَةِ لَمّا نَزَلَ فيهِمْ ناسٌ مِنَ الفُرْسِ في قَديمِ الدَّهْرِ عَلِقوا بِأَلْفاظٍ مِنْ أَلْفاظِهِمْ، وَلِذَلِكَ يُسَمّونَ البِطّيخَ: الخِرْبِزَ، وَيُسَمّونَ السَّميطَ: الرَّزْدَقَ[4]، وَيُسَمّونَ المَصوصَ[5]: المَزورَ، وَيُسَمّونَ الشِّطْرَنْجَ: الأَشْتَرَنْجَ، في غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَسْماءِ. وَكَذَلِكَ أَهْلُ الكوفَةِ فَإِنَّهُمْ يُسَمّونَ المِسْحاةَ: بالْ، وَبالْ بِالفارِسِيَّةِ»[6]. فَأَهْلُ الكوفَةِ اقْتَبَسوا كَثيراً مِنَ الكَلِماتِ الأَعْجَمِيَّةِ، وَيَذْكُرُ

---

(١) ينظر: البيان والتبيين، م. م. ج١: ١٧.

(٢) ينظر: ابن خالويه، الحسين بن أحمد: ليس في كلام العرب، تحقيق أحمد عبد الغفور عطّار، دار مصر للطباعة، القاهرة، د. ط. ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م، ص: ١٧٠.

(٣) ابن جنّي، عثمان: المحتسب في تبيين وجوه شواذّ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق على النّجدي ناصيف والدكتور عبد الحليم النّجار والدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، القاهرة، د. ط. ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م، ج١: ٧٣.

(٤) السميط: الآجر القائم بعضه فوق بعض. الرزدق، فارسي معرّب، وأصله بالفارسيّة رسته ومعناه السطر الممدود والصّف من النّخل وغيره؛ ينظر: الجواليقي، موهوب ابن أحمد: المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تحقيق أحمد محمّد شاكر، دار الكتب المصريّة، القاهرة، ط. د. ١٣٦١هـ، ص: ١٥٧.

(٥) المصوص: لحم ينقع في الخل ويطبخ.

(٦) البيان والتبيين، م. م. ج١: ١٩.

الجاحِظُ بَعْضَ تِلْكَ الكَلِماتِ أيْضاً، فَيَقولُ: «... يُسَمّي أهْلُ الكوفَةِ الحَوْكَ[1]: الباذَروجَ، وَالباذَروجُ بِالفارِسِيَّةِ، وَالحَوْكُ كَلِمَةٌ عَرَبِيَّةٌ. وَأَهْلُ البَصْرَةِ إذا الْتَقَتِ أرْبَعُ طُرُقٍ يُسَمّونَها: مُرَبَّعَةً، وَيُسَمّيها أهْلُ الكوفَةِ: الجَهارسوك. والجَهارسوك بِالفارِسِيَّةِ. وَيُسَمّونَ السّوقَ وَالسُّويقَةَ: وازار، وَالوَزارُ بِالفارِسِيَّةِ. وَيُسَمّونَ القِثّاءَ: خِياراً، وَالخِيارُ بِالفارِسِيَّةِ، وَيُسَمّونَ المَجْذومَ: ويذي، بِالفارِسِيَّةِ»[2].

وَيُبَيِّنُ المُخَطَّطُ التّالي الكَلِماتِ الأعْجَمِيَّةَ التي تَداوَلَها أهْلُ المَدينَةِ وَما قابَلَها مِنَ الكَلِماتِ العَرَبِيَّةِ:

الكَلِماتُ الأعْجَمِيَّةُ	الكَلِماتُ العَرَبِيَّةُ
الخِرْبِزُ	البِطّيخُ
الرَّزْدَقُ	السِّميطُ
المَزورُ	المَصوصُ
الأشْتَرَنْجُ	الشِّطْرَنْجُ[3]

وَهذا مُخَطَّطٌ آخَرُ لِلْكَلِماتِ الأعْجَمِيَّةِ التي تَداوَلَها أهْلُ الكوفَةِ، وَما قابَلَها مِنَ الكَلِماتِ العَرَبِيَّةِ:

(١) الحوك: بقلة.
(٢) البيان والتبيين، م. م. ج١: ٢٠.
(٣) الشطرنج وإن كان معرباً فليس تعرف له العرب اسماً غيره، فقد صار عربياً.

الكَلِماتُ الأعْجَمِيَّةُ	الكَلِماتُ العَرَبِيَّةُ
بال	المِسْحاةُ
البانَروجُ	الحَوْكُ
الجهارسوك	مُرَبَّعَةٌ
وازار	السُّوقُ وَالسُّوَيْقَةُ
الخِيارُ	القِثّاءُ
ويذي	المَجْذومُ

وَيَرى الجاحِظُ أَنَّ هَذا الاقْتِباسَ كانَ نَتيجَةً طَبيعِيَّةً لاحْتِكاكِ أَهْلِ الكوفَةِ بِالأعاجِمِ، بِسَبَبِ القُرْبِ الجُغْرافِيِّ لِلْكوفَةِ مِنْ بِلادِ النَّبَطِ، وَبِالتّالي نُشوءُ العَلاقاتِ التِّجارِيَّةِ أَوِ الاجْتِماعِيَّةِ بَيْنَهُما، وَالشَّيْءُ نَفْسُهُ يَكونُ لِأَهْلِ البَصْرَةِ لَوِ ابْتَعَدوا عَنِ الدِّيارِ العَرَبِيَّةِ، وَهَذا ما أَكَّدَهُ الجاحِظُ بِقَوْلِهِ: «وَلَوْ عَلِقَ ذَلِكَ لُغَةَ أَهْلِ البَصْرَةِ إِذا نَزَلوا بِأَدْنى بِلادِ فارِسَ وَأَقْصى بِلادِ العَرَبِ كانَ ذَلِكَ أَشْبَهَ، إِذْ كانَ أَهْلُ الكوفَةِ قَدْ نَزَلوا بِأَدْنى بِلادِ النَّبَطِ وَأَقْصى بِلادِ العَرَبِ»[1].

وَقَدْ نَشِطَتْ حَرَكَةُ الاقْتِباسِ مِنْ لُغاتِ الأعاجِمِ بَعْدَ الفُتوحِ الإِسْلامِيَّةِ، وَتَرْجَمَةِ عُلومِ الأُمَمِ المَغْلوبَةِ وَآدابِها، وَبَعْدَ الاحْتِكاكِ وَالامْتِزاجِ الكَبيرَيْنِ بَيْنَ العَرَبِ وَتِلْكَ الأُمَمِ داخِلَ المُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ. وَأَدّى ذَلِكَ أَيْضاً إِلى تَفَشّي اللَّحْنِ في الحَواضِرِ، فَكانَ «.. لِأَهْلِ المَدينَةِ أَلْسُنٌ ذَلِقَةٌ، وَأَلْفاظٌ حَسَنَةٌ، وَعِبارَةٌ جَيِّدَةٌ، وَاللَّحْنُ في عَوامِّهِمْ فاشٍ، وَعَلى مَنْ لَمْ يَنْظُرْ في النَّحْوِ مِنْهُمْ غالِبٌ»[2].

---

(١) البيان والتبيين، م. م. ج١: ١٩.
(٢) المرجع السابق، ج١: ١٤٦.

وَأَضْحَتْ لُغَةُ الحَواضِرِ آنَذاكَ مَوْسومَةً بِاللَّحْنِ الذي لَمْ يَنْجُ مِنْهُ النُّحاةُ أَيْضاً، فَقَدْ حُكِيَ «أَنَّ الفَرّاءَ[1] عَلى جَلالَةِ قَدْرِهِ وَعُلُوِّ مَرْتَبَتِهِ في النَّحْوِ دَخَلَ عَلى الرَّشيدِ فَتَكَلَّمَ بِكَلامٍ لَحَنَ فيهِ؛ فَقالَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيى[2]: يا أَميرَ المُؤْمِنينَ إِنَّهُ قَدْ لَحَنَ. فَقالَ الرَّشيدُ لِلفَرّاءِ: أَتَلْحَنُ يا يَحْيى؟ فَقالَ: يا أَميرَ المُؤْمِنينَ! إِنَّ طِباعَ أَهْلِ البَدْوِ الإِعْرابُ، وَطِباعَ أَهْلِ الحَضَرِ اللَّحْنُ، فَإِذا حَفِظْتُ أَوْ كَتَبْتُ لَمْ أَلْحَنْ، وَإِذا رَجَعْتُ إِلى الطَّبْعِ لَحَنْتُ، فَاسْتَحْسَنَ الرَّشيدُ كَلامَهُ»[3].

وَبِالرَّغْمِ مِنِ اسْتِطاعَةِ عَدَدٍ كَبيرٍ مِنَ الأَعاجِمِ إِجادَةَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ إِجادَةً صَحيحَةً نُطْقاً وَكِتابَةً، أَمْثالِ سيبَوَيْهِ وَموسى بْنِ سَيّارٍ في الحَواضِرِ الإِسْلامِيَّةِ، فَإِنَّ كَثيراً مِنْهُمْ لَمْ يَتَحَرَّروا مِنَ الصِّفاتِ الصَّوْتِيَّةِ لِلُغَتِهِمُ السّابِقَةِ؛ فَالسِّنْدِيُّ ـ مَثَلاً ـ «إِذا جُلِبَ كَبيراً فَإِنَّهُ لا يَسْتَطيعُ إِلّا أَنْ يَجْعَلَ الجيمَ زاياً وَلَوْ أَقامَ في عُلْيا تَميمٍ، وَفي سُفْلى قَيْسٍ، وَبَيْنَ عَجُزِ هَوازِنَ، خَمْسينَ عاماً، وَكَذَلِكَ النَّبَطِيُّ القُحُّ، خِلافَ المِغْلاقِ[4]، الذي نَشَأَ في بِلادِ النَّبَطِ، لِأَنَّ النَّبَطِيَّ القُحَّ يَجْعَلُ الزّايَ سيناً، فَإِذا أَرادَ أَنْ يَقولَ زَوْرَقٌ قالَ: سَوْرَقٌ، وَيَجْعَلُ العَيْنَ هَمْزَةً، فَإِذا أَرادَ أَنْ يَقولَ مُشْمَعِلٌّ، قالَ:

---

(١) يحيى بن زياد بن عبد الله الديلميّ، المعروف بالفرّاء (ت ٢٠٧هـ/ ٧٢٢م): إمام الكوفيين، وأعلمهم بالنّحو واللغة وفنون الأدب، أدّب أولاد المأمون. من كتبه: «المقصور والممدود»، و«المذكر والمؤنث»، و«كتاب اللّغات»، و«الفاخر في الأمثال»، و«ما تلحن فيه العامّة».

(٢) جعفر بن يحيى بن خالد البرمكيّ، أبو الفضل (ت ١٨٧ هـ/ ٨٠٣م): كاتب بليغ. وصف بفصاحة المنطق وبلاغة القول وكرم اليد والنّفس. استوزره هارون الرشيد، فكان يحكم بما يشاء إلى أن نقم الرشيد على البرامكة، فقتله في مقدّمتهم.

(٣) صبح الأعشى، م. م. ج١: ١٧٣.

(٤) المغلاق: الذي يستعصي عليه الكلام.

(٥) البيان والتبيين، م. م. ج١: ٧٠.

مُشْمَئِلٌ»[١].

يَظْهَرُ أَنَّ الجيمَ لَيْسَتْ مَوجودَةً في لُغَةِ السِّنْدِيِّ، وَعِنْدَما تَكَلَّمَ بِالعَرَبِيَّةِ، أَبْدَلَها بِالزّاي لِقُرْبِ مَخْرَجِها مِنْ مَخْرَجِ الجيمِ[٢]، فَالجيمُ أَدْنى حَنَكِيَّةٌ، وَالزّايُ أَسْنانِيَّةٌ.

وَهَٰذِهِ الزّايُ أَبْدَلَها النَّبَطِيُّ بِالسّينِ لِقُرْبِ أَوِ اتِّحادِ مَخْرَجَيْهِما، فَالسّينُ أَسْنانِيَّةٌ أَيْضاً. وَكَذَٰلِكَ وَجَدَ صُعوبَةً في نُطْقِ العَيْنِ العَرَبِيَّةِ، فَأَبْدَلَها بِالهَمْزَةِ لِتَقارُبِ مَخْرَجَيْهِما، فَالعَيْنُ حَلْقِيَّةٌ وُسْطى، وَالهاءُ حَنْجَرِيَّةٌ.

وَيُشيرُ المُخَطَّطُ التّالي إِلى انْقِلابِ الصَّوْتِ إِلى آخَرَ يُجاوِرُهُ عِنْدَ السِّنْدِيِّ وَالنَّبَطِيِّ:

المُتَكَلِّمُ	الصَّوْتُ	انْقَلَبَ إِلى
السِّنْدِيُّ	الجيمُ	الزّاي
النَّبَطِيُّ	الزّايُ	السّينِ
النَّبَطِيُّ	العَيْنُ	الهَمْزَةِ

فَهَٰذِهِ العاداتُ الصَّوْتِيَّةُ لَمْ يَتَحَرَّزْ مِنْها مِثْلُ أولَئِكَ الأعاجِمِ، حَتّى باتَتْ تُعْرَفُ هُوِيَّتُهُمْ عِنْدَما يَتَكَلَّمونَ؛ وَفي هذا قالَ الجاحِظُ: «وَقَدْ يَتَكَلَّمُ المِغْلاقُ الذي نَشَأَ في سَوادِ الكوفَةِ بِالعَرَبِيَّةِ المَعْروفَةِ، وَيَكونُ لَفْظُهُ مُتَخَيَّراً فاخِراً، وَمَعْناهُ شَريفاً كَريماً، وَيَعْلَمُ مَعَ ذَٰلِكَ السّامِعُ لِكَلامِهِ وَمَخارِجِ حُروفِهِ أَنَّهُ نَبَطِيٌّ. وَكَذَٰلِكَ إِذا تَكَلَّمَ الخُراسانِيُّ عَلى هَٰذِهِ الصِّفَةِ،

(١) اعتمدنا في كلامنا على مخارج الحروف وصفاتها كتاب الدكتور صبحي الصّالح: دراسات في فقه اللّغة، دار العلم للملايين، الطّبعة العاشرة، بيروت، ١٩٨٣م، ص: ٢٧٥ ـ ٢٨٤.

فَإِنَّكَ تَعْلَمُ مَعَ إِعْرابِهِ وَتَخَيُّرِ أَلْفاظِهِ في مَخْرَجِ كَلامِهِ، أَنَّهُ خُراسانِيٌّ، وَكَذَلِكَ إِنْ كانَ مِنْ كُتّابِ الأَهْوازِ»[1] .

وَاعْتَرَتِ الانْحِرافاتُ الصَّوْتِيَّةُ مَنْ نُشُوءَ مِنَ العَرَبِ مَعَ العَجَمِ[2]. فَالعاداتُ الصَّوْتِيَّةُ تُصْبِحُ عِنْدَ بَعْضِ المُتَكَلِّمينَ مِنْ طَبيعَتِهِ، وَيَصْعُبُ عَلَيْهِ الانْتِقالُ إِلى عاداتٍ صَوْتِيَّةٍ أُخَرَ، أَوِ التَّخَلُّصُ مِمّا أَلِفَهُ وَاسْتَساغَهُ في لُغَتِهِ الأُمِّ.

وَاسْتِعْصامُ الأَفْرادِ بِلُغَةِ مِصْرِهِمْ أَوْ قَوْمِهِمْ، لَمْ يَقْتَصِرْ عَلى الأَعاجِمِ، بَلْ تَعَدّى العَرَبَ أَيْضاً. مِنْ ذَلِكَ ما رَواهُ أَبو حاتِمٍ[3] بِقَوْلِهِ: «قَرَأَ عَلَيَّ أَعْرابِيٌّ بِالحَرَمِ: طيبى ﴿لَهُمْ وَحُسْنُ مَئَابٍ﴾[4]. فَقُلْتُ: طوبى، فَقالَ: طيبى، قُلْتُ: طوبى، قالَ: طيبى. فَلَمّا طالَ عَلَيَّ قُلْتُ طوطو، فَقالَ طي طي»[5].

وَقَدْ تَسْتَغْلِقُ لُغَةُ قَوْمٍ عَلى آخَرينَ، مَعَ القُرْبِ الشَّديدِ بَيْنَ اللُّغَتَيْنِ، في هَذا قيلَ إِنَّهُ «اجْتَمَعَ أَبو عَبْدِاللهِ ابْنُ الأَعْرابِيِّ[6] وَأَبو

---

(١) البيان والتبيين، م. م. ج١: ٦٩.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ج١: ٧١.

(٣) هو سهل بن محمّد بن عثمان (أبو حاتم السجستاني) (ت٢٤٨ هـ/ ٨٦٢ م): من كبار العلماء باللغة والشعر. من أهل البصرة من كتبه: «المعمّرون»، و«النّخلة»، و«ما تلحن فيه العامة»، و«الأضداد»، و«الوحوش»، و«الحشرات»، و«المختصر» في النّحو على مذهب الأخفش وسيبويه.

(٤) سورة الرعد: ٢٩ وفيها طوبى بدل طيبى.

(٥) الخصائص، م. م. ج١: ٣٨٥.

(٦) محمّد بن زياد، أبو عبدالله (ابن الأعرابي) (ت ٢٣١هـ/ ٨٤٥م): راوية، ناسب، علامة باللّغة، من أهل الكوفة. لم يُرَ أحد من علم الشعر أغزر منه. له تصانيف كثيرة منها: «أسماء الخيل وفرسانها»، و«تاريخ القبائل» و«النّوادر» في الأدب، و«شعر الأخطل»، و«تفسير الأمثال»، و«معاني الشعر».

زِيادٍ الكِلابِيُّ[1] عَلى الجِسْرِ بِبَغْدادَ، فَسَأَلَ أبو زِيادٍ أَبا عَبْدِ اللهِ عَنْ قَوْلِ النَّابِغَةِ الذُّبْيانِيِّ[2]:

عَلى ظَهْرِ مِبْناةٍ[3]...

فَقالَ أبو عَبْدِ اللهِ: النَّطْعُ، فَقالَ أبو زِيادٍ: لا أَعْرِفُهُ، فَقالَ: النِّطَعُ، فَقالَ أبو زِيادٍ: نَعَمْ. أَفَلا تَرى كَيْفَ أَنْكَرَ غَيْرَ لُغَتِهِ عَلى قُرْبِ بَيْنَهُما»[4].

وَهَذِهِ القَضِيَّةُ نُعايِنُها في هذا العَصْرِ، فَأَهْلُ المُدُنِ يَصْعُبُ عَلَيْهِمْ مَعْرِفَةُ دَلالَةِ كَثيرٍ مِنَ الكَلماتِ العامِيَّةِ المُتَداوَلَةِ في الأَرْيافِ عَلى قُرْبِها مِنَ المُدُنِ في بَلَدٍ صَغيرٍ كَلُبْنانَ، مَثَلاً، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ أَهْلِ ياطَر[5]: «بِنْت بِشّوشَه»، يَقْصِدونَ بِذَلِكَ فَتاةً مَكْشوفَةَ الرَّأْسِ أَوْ قَوْلُهُمْ: «شْريدُنْ دَخَلْ» أَيْ كُلُّ مَنْ دَخَلَ.

---

(١) يزيد بن عبد الله من بني كلاب بن ربيعة (أبو زياد الكلابيّ) (ت نحو ٢٠٠هـ/ نحو ٨١٥م) عالم بالأدب، له شعر جيد. دخل بغداد في أيام المهديّ العبّاسيّ آتياً من بادية العراق. من كتبه: «النّوادر»، و«الفروق»، و«الإبل» و«خلق الإنسان».

(٢) زياد بن معاوية الذبيانيّ الغطفانيّ، أبو أمامة، (النّابغة الذبيانيّ) (ت نحو ١٨ ق. هـ/ نحو ٦٠٤م): شاعر جاهلي، من الطّبقة الأولى. قصده الشعراء في سوق عكاظ وعرضوا عليه أشعارهم. وكان حظياً عند النّعمان بن المنذر. وكان أحسن شعراء العرب ديباجة. جمع ما وجد من شعره في ديوان.

(٣) ينظر: **ديوان النابغة الذبيانيّ**، تحقيق وشرح كرم البستاني، دار صادر ودار بيروت، بيروت، د. ط. ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م، ص: ٧٩. وهو من قوله: [الطويل]

كَأَنَّ مَجَرَّ الرّامِساتِ ذُيولَها، عَلَيْهِ، حَصيرٌ، نَمَّقَتْهُ الصَّوانِعُ
عَلَى ظَهْرِ مِبْناةٍ جَديدٍ سُيورُها، يَطوفُ بِها، وَسْطَ اللَّطيمَةِ، بائِعُ

والمبناة، بفتح الميم وكسرها: تتخذ من الجلد يضع عليه التاجر أمتعته.

(٤) **الخصائص**، م. م. ج١: ٣٨٤.

(٥) ياطر: قرية في جنوب لبنان، تابعة لقضاء بنت جبيل.

وَاخْتَلَفَتِ اللُّغَةُ ضِمْنَ الجَماعَةِ الواحِدَةِ في المُحيطِ نَفْسِهِ، فَقَدْ رَوى ابْنُ السِّكّيتِ[1] في إِصْلاحِ المَنْطِقِ قائِلاً: «... حَضَرَني أَعْرابِيّانِ مِنْ بَني كِلابٍ، فَقالَ أَحَدُهُما إِنْفَحَةٌ، وَقالَ الآخَرُ مَنْفَحَةٌ[2]، ثُمَّ افْتَرَقا عَلى أَنْ يَسْأَلا جَماعَةَ الأَشْياخِ مِنْ بَني كِلابٍ، فَاتَّفَقَ جَماعَةٌ عَلى قَوْلِ ذا، وَجَماعَةٌ عَلى قَوْلِ ذا...»[3].

كَذَلِكَ وُجِدَتْ كَلِماتٌ في الأَمْصارِ، اشْتَرَكَتْ في المَعْنى، وَاخْتَلَفَتْ في اللَّفْظِ عَلى مُسْتَوى الحُروفِ إِطْباقاً أَوْ هَمْساً أَوْ جَهْراً، مِنْ ذَلِكَ ما يُروى مِنْ أَنَّهُ «اخْتَلَفَ رَجُلانِ في الصَّقْرِ، فَقالَ أَحَدُهُما الصَّقْرُ بِالصّادِ [المُطْبَقَةِ]، وَقالَ الآخَرُ: السَّقْرُ بِالسّينِ [المُرَقَّقَةِ المَهْموسَةِ]؛ فَتَراضَيا بِأَوَّلِ وارِدٍ عَلَيْهِما، فَحَكَيا لَهُ ما هُما فيهِ. فَقالَ: لا أَقولُ كَما قُلْتُما، إِنَّما هُوَ الزَّقْرُ [بِالزّايِ المَجْهورَةِ]»[4].

في حينِ اشْتَرَكَتْ بَعْضُ الكَلِماتِ في اللَّفْظِ دونَ المَعْنى. وَأَبْيَنُ مِثالٍ عَلى ذَلِكَ ما رَواهُ ابْنُ جِنِّيٍّ عَنِ الأَصْمَعِيِّ مِنْ «أَنَّ رَجُلاً دَخَلَ عَلى مَلِكِ ظَفارِ ـ وَهِيَ مَدينَةٌ لَهُمْ يَجيءُ مِنْها الجَزْعُ الظَّفارِيُّ ـ فَقالَ لَهُ المَلِكُ: ثِبْ، وَثِبْ بِالحِمْيَرِيَّةِ، اجْلِسْ، فَوَثَبَ الرَّجُلُ فَانْدَقَّتْ رِجْلاهُ،

---

(١) يعقوب بن إسحاق، أبو يوسف (ابن السّكّيت) (ت ٢٤٤هـ/ ٨٥٨م): إمام في اللغة والأدب. أصله من خوزستان. أدّب أولاد المتوكّل، وكان من ندمائه ثم قتله، من كتبه «إصلاح المنطق»، و«الألفاظ»، و«الأضداد»، و«القلب والإبدال»، و«شرح ديوان عروة بن الورد»، و«الأجناس»، و«سرقات الشعراء».

(٢) أنفحة ومنفحة: كرش الحمل أو الجدي ما لم يأكل.

(٣) ابن السّكّيت، يعقوب بن إسحاق: إصلاح المنطق، شرح وتحقيق أحمد محمّد شاكر وعبد السّلام محمّد هارون، دار المعارف، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م، ص: ١٧٥، ١٧٦.

(٤) الخصائص، م. م. ج١ : ٣٧٥.

فَضَحِكَ المَلِكُ، وَقالَ: لَيسَ عِنْدَنا عَرَبِيَّتْ[١] مَنْ دَخَلَ ظَفارِ حَمَّرَ، أيْ تَكَلَّمَ بِكَلامِ حِمْيَرَ»[٢].

وَكانَ كَلامُ أَهْلِ حَضْرَمَوْتَ وَما جاوَرَها مِنَ اليَمَنِ وَمَخاليفِ الحِجازِ، يُخالِفُ كَلامَ أَهْلِ مَكَّةَ وَكَلامَ قُرَيْشٍ الَّذينَ نَزَلَ القُرْآنُ بِلُغَتِهِم[٣].

وَبَعْضُ الكَلِماتِ اسْتُعْمِلَتْ في مِصْرٍ دونَ آخَرَ، أَوْ تَداوَلَتْها جَماعَةٌ دونَ أُخرى، مِنْ ذَلِكَ قَوْل حِمْيَرَ للذِّئْبِ: القِلَّوْبُ؛ وَللصَّديقِ: الخِلْمُ[٤].

وَيُسَمّى وَلَدُ الضَّبُعِ الهِنْبِرَ في لُغَةِ بَني فَزارَةَ[٥].

وَما تَساقَطَ مِنَ الكَرْمِ مِنْ رَديءِ العِنَبِ يُسَمّى الهَرْهورَ، وَالهَرْهورُ لَفْظَةٌ يَمانِيَةٌ[٦].

وَلَمْ يَمْنَعْ هَذا مِنْ تَعَرُّفِ أَهْلِ كُلِّ مِصْرٍ إلى لُغَةِ غَيْرِهِمْ وَاسْتِعْمالِها، وَلا سِيَّما بَعْدَ الاحْتِكاكِ الاجْتِماعِيِّ وَالاقْتِصادِيِّ بَيْنَ

---

(١) في لسان العرب، (مادة وثب)، ج١٥: ٢١٠ «... وقوله: عربيت، يريد العربيّة، فوقف على الهاء بالتاء. وكذلك لغتهم، ورواه بعضهم: ليس عندنا عربيّة كعربيتكم. قال ابن سيده: وهو الصّواب عندي، لأن الملك لم يكن ليخرج نفسه من العرب، والفعل كالفعل، والوثاب: الفراش، بلغتهم».

(٢) **الخصائص**، م. م. ج٢: ٣٠.

(٣) **صبح الأعشى**، م. م. ج٢: ٢٤٣.

(٤) ينظر: **الصّاحبي في فقه اللغة**، م. م. ص: ٥٥.

(٥) ينظر: الصّفديّ، خليل بن أيبك: **غوامض الصّحاح**، تحقيق عبد الإله نبهان، منشورات معهد المخطوطات العربيّة، الطّبعة الأولى، القاهرة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م، ص: ٢٢٥.

(٦) ينظر: ابن دريد، محمّد بن الحسن: **الاشتقاق**، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، مؤسسة الخانجي، د. ط. مصر، ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨م، ص: ٥٠٣.

الأمْصارِ، وَانْضوائِها تَحْتَ الخِلافَةِ الإسْلامِيَّةِ. كَما أَنَّ القُرْآنَ الكَريمَ لَمْ يُلْغِ لُغاتِ القَبائِلِ أَوِ الأمْصارِ، مَعَ أَنَّ السِّمَةَ البارِزَةَ فيهِ هِيَ لُغَةُ قُرَيْشٍ.

وَهُنا لا بَأْسَ بِإيرادِ جُمْلَةٍ مِنَ الأَلْفاظِ التي وَرَدَتْ فيهِ، وَالتي لا تَعودُ إلى لُغَةِ قُرَيْشٍ.

الآيَةُ	السُّورَةُ وَرَقْمُ الآيَةِ	مَعْناها
﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾	البقرة: ١٣	السُّفَهاءُ: الجُهَلاءُ، بِلُغَةِ كِنانَةَ
﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾	البقرة: ٥٥	المَوْتَةُ، بِلُغَةِ عُمانَ
﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾	البقرة: ٧١	لا وَضَحَ، بِلُغَةِ أَزْدِشَنوءَةَ
﴿فَبَآءُو﴾	البقرة: ٩٠	اسْتَوْجَبوا، بِلُغَةِ جُرْهُم
﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾	آل عمران: ٣٩	السَّيِّدُ: الحَليمُ بِلُغَةِ حِمْيَرَ. وَالحَصورُ الذي لا حاجَةَ لَهُ في النِّساءِ، بِلُغَةِ كِنانَةَ
﴿رِبِّيُّونَ﴾	آل عمران: ١٤٦	رِجالٌ، بِلُغَةِ حَضْرَمَوْتَ
﴿تَمِيلُواْ مَيۡلًا﴾	النساء: ٢٧	تُخْطِئوا خَطَأً بَيِّناً، بِلُغَةِ سَبَأ
﴿حَصِرَتۡ﴾	النساء: ٩٠	ضاقَتْ، بِلُغَةِ اليَمامَةِ
﴿وَطَفِقَا﴾	الأعراف: ٢٢	عَمَدا، بِلُغَةِ غَسّانَ(١)

بَقِيَ أَنْ نُشيرَ إلى أَنَّ لُغاتِ الأمْصارِ تَأَثَّرَتْ بِالبيئَةِ الحَضارِيَّةِ وَالمُعْطَياتِ الاجْتِماعِيَّةِ الجَديدَةِ. فَكانَ أَهْلُ الحَضَرِ يَأْلَفونَ «السَّهْلَ مِنَ

(١) ينظر: لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم، م. م. ص: ٤٥ ـ ١٠١.

الكَلامِ، وَيَسْتَعْمِلونَ الألفاظَ الرَّقيقَةَ، وَلا يَسْتَعْمِلونَ الغَريبَ إلّا في النّادِرِ»[1].

وَكَذلِكَ كانوا يَعتَنونَ بِنُطْقِ «كُلِّ صَوْتٍ دونَ التَّداخُلِ بَيْنَ الأصْواتِ، فَالمَجْهورُ يَظَلُّ مَجهوراً، وَالمَهْموسُ يُحافِظُ عَلى هَمْسِهِ، لِأنَّ مِنْ مَظاهِرِ التَّحَضُّرِ اللَّباقَةَ في القَوْلِ وَحُسْنَ النُّطْقِ وَمُراعاةَ قَواعِدِهِ»[2].

في حينٍ، كانَ أَهْلُ البَوادي «يَألَفونَ اللَّفْظَ الجَزْلَ وَيَميلونَ إلى اسْتِعْمالِ الغَريبِ»[3]، وَمالوا أَيْضاً إلى الأصْواتِ المَجْهورَةِ وَالشَّديدَةِ لِمُلاءَمَتِها طَبيعَةَ عَيْشِهِمْ وَخُشونَةَ حَياتِهِمْ.

وَكَثيراً ما أتى كَلامُ الأفرادِ مُنْسَجِماً مَعَ طَبيعَةِ المِصْرِ، أوْ مَعَ أعْرافِهِ وَتَقاليدِهِ. يَظْهَرُ ذَلِكَ في وَصْفِ أَشْخاصٍ المَطَرَ وَما سَبَّبَهُ؛ فَقَدْ «سَأَلَ الحَجّاجُ[4] رَجُلاً قَدِمَ مِنَ الحِجازِ عَنِ المَطَرِ، فَقالَ: تَتابَعَتْ عَلَيْنا الأسْمِيَةُ[5] حَتّى مَنَعَتِ السُّفّارَ[6]، وَتَظالَمَتِ المِعْزى[7]، وَاخْتُلِبَتِ الدِّرَّةُ بِالجِرَّةِ[8]»[9].

---

(1) صبح الأعشى، م. م. ج٢: ٢٤٣.
(2) أنيس، إبراهيم (دكتور): في اللّهجات العربيّة، لجنة البيان العربيّ، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٩٥٢م، ص: ٢٥.
(3) صبح الأعشى، م. م. ج ٢: ٢٤٣.
(4) الحجّاج بن يوسف بن الحكم (الحجّاج الثقفيّ) (ت ٩٥ هـ/ ٧١٤م): قائد، داهية، سفّاك، خطيب. ولّاه عبد الملك بن مروان مكّة والمدينة والطّائف، ثمّ أضاف إليه العراق، فقمع الثورة فيه. وثبتت له الإمارة عشرين سنة.
(5) الأسمية: جمع سماء، وهو المطر.
(6) السُّفّار: جمع سافر، وهو المسافر.
(7) تظالمت المعزى: سمنت وأشرت فتظالمت.
(8) أي أن المواشي تتملأ ثم تبرك أو تربض فلا تزال تجترّ حتى تحلب.
(9) البيان والتبيين، م. م. ج٢: ١٦٢؛ وينظر: ثعلب، أحمد بن يحيى: مجالس

وسَألَ الحَجّاجُ رَجُلاً مِنْ بَني سُلَيْم عَنِ المَطَرِ فَقالَ: «أصابَتْنا سَحائِبُ ثَلاثٌ: سَحابَةٌ بِحَوْرانَ[1] بِقَطْرٍ صِغارٍ وَقَطْرٍ كِبارٍ، فَكانَ الصِّغارُ لِلْكِبارِ لُحْمَةً. ثُمَّ أصابَتْنا الثّانِيَةُ بِسُواءٍ[2] فَلَبَّدَتِ الدِّماثَ[3] وَدَحَضَتِ العَزازَ[4] وَصَدَعَتِ الكَمْأَةَ عَنْ أماكِنِها. ثُمَّ أصابَتْنا الثّالِثَةُ بِالقَرْيَتَيْنِ[5] فَمَلأَتِ الإِخاذَ[6]، وَأَفْعَمَتْ كُلَّ وادٍ، وَأَقْبَلْنا في ماءٍ يَجُرُّ الضَّبُعَ وَيَسْتَخْرِجُها مِنْ وِجارِها[7]»[8].

وَسَأَلَ الحَجّاجُ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الشّامِ عَنِ المَطَرِ أيْضاً، فَقالَ: «... أصابَتْني مَطَرٌ أَسالَ الإِكامَ[9]، وَأَدْحَضَ التِّلاعَ[10]، وَخَرَّقَ الرَّجْعَ[11]، فَجِئْتُكَ في مِثْلِ مَجَرِّ الضَّبُعِ[12]»[13].

= ثعلب، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، دار المعارف، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٠م، ص: ٢٨١. «وفيه «سقتني» بدل «تتابعت علينا»؛ «فغيبت الشفار» بدل «منعت السُّفّار»»؛ ويزيادة «أطفئت النّار، وتشكّت النّساء».

(١) حوران: كُورة واسعة من أعمال دمشق. (معجم البلدان، م. م. ج٢: ٣١٧).

(٢) سُواء، بالضم والمدّ واد بالحجاز... وقد ذكر في سُواء اسم ماء لبهراء من ناحية السماوة (معجم البلدان، م. م. ج٣: ٢٧١).

(٣) الدّماث، جمع دمث: السهول من الأرض.

(٤) العزاز: ما غلظ من الأرض وأسرع سيل مطره. دحضته: جعلته مزلقة.

(٥) القريتان: هما قرية عبدالله بن عامر بن كريز، وجعفر بن سليمان، قريبتان من النّباج، في طريق مكّة من البصرة. وقيل: القريتان: قرية كبيرة من أعمال حمص. (راجع: معجم البلدان، م. م. ج٤: ٣٣٦).

(٦) الإخاذ، بالكسر، جمع إخذ وإخذة: ما حفرته كهيئة الحوض.

(٧) الوجار، بفتح الواو وكسرها: حجر الضبع.

(٨) البيان والتبيين، م. م. ج٢: ١٦٤، ١٦٥.

(٩) الإكام: الروابي.

(١٠) التلاع: جمع تلعة: مجرى الماء من أعلى الوادي إلى بطون الأرض.

(١١) الرجع: ممسك الماء وفوق التلعة.

(١٢) يقصد أن السيل خرق الأرض فكأن الضبع جرت فيه.

(١٣) مجالس ثعلب، م. م. ص: ٢٨١.

أجْمَلْنا في هَذا الفَصْلِ الحَديثَ عَنْ لُغاتِ الأمْصارِ في العَصْرِ العَبّاسِيِّ، فَرَأيْنا أنَّ الفَصاحَةَ قيسَتْ بِلُغَةِ القُرْآنِ، وَبِالرَّغْمِ مِنْ أنَّ العَرَبِيَّةَ سادَتْ آنَذاكَ، فَإنَّ اقْتِباسَ أهْلِ الأمْصارِ مِنْ لُغاتِ الأعاجِمِ لَمْ يَتَوَقَّفْ بِسَبَبِ التَّزاوُجِ الثَّقافيِّ وَالاجْتِماعِيِّ في الحاضِرَةِ العَبّاسِيَّةِ. وَرَأيْنا أنَّ بَعْضَ الأعاجِمِ وَالأعْرابِ لَمْ يَتَحَرَّرُوا مِنْ عاداتٍ صَوْتِيَّةٍ اكْتَسَبوها مِنْ لُغَتِهِمُ الأمِّ في مَواطِنِهِمْ، وأنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ اخْتَلَفَتْ بِاخْتِلافِ الأقْوامِ أوِ الأمْصارِ، وَأحْياناً اخْتَلَفَتْ في المُحيطِ نَفْسِهِ وَبَيْنَ الجَماعَةِ ذاتِها، كَما أنَّها وافَقَتْ طَبيعَةَ المِصْرِ الذي حَلَّتْ فيهِ، وَوافَقَتْ عاداتِ أهْلِهِ وَتَقاليدَهُمْ.

وَوَقَفَ العَرَبُ عَلى الاخْتِلافاتِ اللُّغَوِيَّةِ في لُغَتِهِمْ بَعْدَ الاحْتِكاكِ الكَبيرِ بَيْنَهُمْ إثْرَ قِيامِ الخِلافَةِ الإسْلامِيَّةِ. وَلَمّا فَشا اللَّحْنُ في الحَواضِرِ، سارَعَ المُهْتَمّونَ بِاللُّغَةِ وَالأدَبِ وَالشِّعْرِ إلى الأعْرابِ ـ أهْلِ الفَصاحَةِ ـ وَقَدِ اعْتَنى الجاحِظُ بِالحَديثِ عَنْهُمْ، لِأنَّهُمْ شَريحَةٌ اجْتِماعِيَّةٌ مُهِمَّةٌ حافَظَتْ عَلى اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، كَما يَتَبَيَّنُ لَنا في الفَصْلِ التّالي.

الفَصْلُ الخامِسُ

لُغَةُ الأَعْرابِ

كانَ الأَعْرابُ مَقْصَدَ عُلَماءِ العَرَبِيَّةِ وَالأُدَباءِ، وَالشُّعَراءِ، يَتَلَقَّفونَ الفَصاحَةَ مِنْهُمْ، وَيُدَوِّنونَ ما يَنْطِقونَ.

وَأَوْلى هَؤلاءِ العُلَماءُ لُغَتَهُمْ عِنايَةً كَبيرَةً، لِبُعْدِهِمْ عَنِ الحَواضِرِ التي عَجَّتْ بِالمَوالي وَالأَعاجِمِ الَّذينَ فَشا اللَّحْنُ عَلى أَلْسِنَتِهِمْ. وَالجاحِظُ نَفْسُهُ ذَهَبَ إِلى المِرْبَدِ لِمُحادَثَتِهِمْ وَالاسْتِماعِ إِلَيْهِمْ، وَسَجَّلَ إِعْجابَهُ بِلُغَتِهِمْ، وَقَرَّرَ أَنَّهُ «لَيْسَ في الأَرْضِ كَلامٌ هُوَ أَمْتَعُ وَلا آنَقُ، وَلا أَلَذُّ في الأَسْماعِ، وَلا أَشَدُّ اتِّصالاً بِالعُقولِ السَّليمَةِ، وَلا أَفْتَقُ لِلِّسانِ، وَلا أَجْوَدُ تَقْويماً لِلْبَيانِ، مِنْ طولِ اسْتِماعِ حَديثِ الأَعْرابِ العُقَلاءِ الفُصَحاءِ، وَالعُلَماءِ البُلَغاءِ...»[1].

وَكانَتْ خُطَبُ الأَعْرابِ مَوْضِعَ إِعْجابِ أَهْلِ الخاصَّةِ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَجِدوا فيها «أَلْفاظاً مَسْخوطَةً، وَلا مَعانِيَ مَدْخولَةً، وَلا طَبْعاً رَديئاً وَلا قَوْلاً مُسْتَكْرَهاً»[2].

---

(١) البيان والتبيين، م. م. ج١ : ١٤٥.
(٢) المرجع السابق، ج٢ : ٨.

وَأُعْجِبوا أَيْضاً بِدُعائِهِمْ لِحَلاوَةِ كَلِماتِهِ وَسَلاسَةِ أُسْلوبِهِ، حَتّى قيلَ: «إِذا أَرَدْتَ أَنْ تَتَعَلَّمَ الدُّعاءَ فَاسْمَعْ دُعاءَ الأَعْرابِ»[1].

وَالْتَذَّ القَوْمُ بِذِكْرِ نَوادِرِهِمْ وَمُلَحِهِمْ، فَأَوْصاهُمُ الجاحِظُ بِأَلّا يَلْحَنوا في إِعْرابِها، لِأَنَّها صَدَرَتْ عَنِ الأَعْرابِ مُعْرَبَةً؛ فَقالَ: «... مَتى سَمِعْتَ - حَفِظَكَ اللهُ - بِنادِرَةٍ مِنْ كَلامِ الأَعْرابِ، فَإِيّاكَ أَنْ تَحْكِيَها إِلّا مَعَ إِعْرابِها وَمَخارِجِ أَلْفاظِها؛ فَإِنَّكَ إِنْ غَيَّرْتَها بِأَنْ تَلْحَنَ في إِعْرابِها وَأَخْرَجْتَها مَخارِجَ كَلامِ المُوَلَّدينَ وَالبَلَدِيّينَ، خَرَجْتَ مِنْ تِلْكَ الحِكايَةِ وَعَلَيْكَ فَضْلٌ كَبيرٌ»[2].

فَقَدْ رَأى الجاحِظُ ضَرورَةَ مُراعاةِ الإِعْرابِ في رِوايَةِ نَوادِرِ الأَعْرابِ وَمُلَحِهِمْ، خِلافاً لِما أَوْصى بِهِ في سَرْدِ نَوادِرِ العَوامِّ وَمُلَحِهِمْ[3]، لِأَنَّ الإِعْرابَ كانَ سِمَةً بارِزَةً في لُغَةِ الأَعْرابِ، بَيْنَما تَحَرَّرَتْ لُغَةُ العَوامِّ مِنْ تِلْكَ الظّاهِرَةِ في زَمَنٍ باكِرٍ مِنِ اسْتِقْرارِ النّاسِ في الحَواضِرِ[4]، وَنَسْتَشِفُّ ذَلِكَ مِنْ حَديثِ الجاحِظِ عَنْ مَهْدِيِّ بْنِ هُلَيْلٍ الذي كانَ يَقولُ: «حَدَّثَنا هِشامْ، مَجْزومَةً؛ ثُمَّ يَقولُ ابنْ وَيَجْزِمُهُ؛ ثُمَّ يَقولُ حَسّانْ وَيَجْزِمُهُ؛ لِأَنَّهُ حينَ لَمْ يَكُنْ نَحْوِيّاً رَأى السَّلامَةَ في الوَقْفِ»[5].

وَكانَ الأَعْرابُ يَتَكَلَّمونَ بِالكَلامِ العَرَبِيِّ الفَصيحِ عَلى السَّليقَةِ وَالدُّرْبَةِ، وَعَجِبوا مِنْ تَعْقيداتِ النَّحْوِيّينَ وَشُروحِ اللُّغَوِيّينَ؛ في هَذا قيلَ إِنَّ أَعْرابِيّاً «وَقَفَ عَلى مَجْلِسِ الأَخْفَشِ فَسَمِعَ كَلامَ أَهْلِهِ في النَّحْوِ وَما

---

(١) البيان والتبيين، م. م. ج٢: ١٦٤.
(٢) المرجع السابق، ج١: ١٤٥، ١٤٦.
(٣) ينظر: المرجع السابق، ج١: ١٤٦.
(٤) ينظر: الجاحظ والحاضرة العبّاسيّة، م. م. ص: ٢٠٤.
(٥) البيان والتبيين، م. م. ج٢: ٢٢١.

يَدْخُلُ مَعَهُ، فَحارَ وَعَجِبَ، وَأَطْرَقَ وَوَسْوَسَ، فَقالَ لَهُ الأَخْفَشُ: ما تَسْمَعُ يا أَخا العَرَبِ؟ قالَ: أَراكُمْ تَتَكَلَّمونَ بِكَلامِنا في كَلامِنا بِما لَيْسَ مِنْ كَلامِنا»[1].

وَعَنْ مَدَى تَمَكُّنِهِمْ مِنَ العَرَبِيَّةِ الفُصْحى، قيلَ إِنَّ أَعْرابِيّاً سَمِعَ رَجُلاً يَقْرَأُ: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۞ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾[2]، قالَها بِفَتْحِ الكافِ، فَقالَ الأَعْرابِيُّ: لا يَكونُ. فَقَرَأَ عَلَيْهِ بِضَمِّ الكافِ وَكَسْرِ الفاءِ. فَقالَ الأَعْرابِيُّ يَكونُ»[3].

فَهَذا الأَعْرابِيُّ اكْتَشَفَ الخَطَأَ في قِراءَةِ الرَّجُلِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْظُرَ في القُرْآنِ، أَوْ يَعودَ إِلى كُتُبِ النَّحْوِ. وَفي هَذا أَيْضاً قيلَ إِنَّ أَعْرابِيّاً «سَمِعَ مُؤَذِّناً يَقولُ: «أَشْهَدُ أَنّ مُحَمَّداً رَسولَ اللهِ. قالَ: يَفْعَلُ ماذا؟»[4]، ذَلِكَ لِأَنَّ الجُمْلَةَ بِحاجَةٍ إِلى خَبَرٍ لِيَكْتَمِلَ مَعْناها، إِلّا أَنَّ المُؤَذِّنَ نَصَبَ «رَسولَ»، فَاخْتَلَّ المَعْنى.

وَرُبَّما تَعَذَّرَ عَلى الأَعْرابِ فَهْمُ كَلامِ البَلَدِيّينَ وَالقَرَوِيّينَ الَّذينَ غَلَبَ اللَّحْنُ عَلى لُغَتِهِمْ، فَقَدْ رَوَى الجاحِظُ «أَنَّ رَجُلاً مِنَ البَلَدِيّينَ قالَ لِأَعْرابِيٍّ: «كَيْفَ أَهْلِكْ» قالَها بِكَسْرِ اللّامِ. قالَ الأَعْرابِيُّ: صَلْباً. لِأَنَّهُ أَجابَهُ عَلى فَهْمِهِ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ أَرادَ المَسْأَلَةَ عَنْ أَهْلِهِ وَعِيالِهِ»[5].

---

(١) التوحيديّ، أبو حيّان، علي بن محمّد: **الإمتاع والمؤانسة**، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، المكتبة العصريّة، بيروت ـ صيدا، د. ط. ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣م، ج٢: ١٩٣.

(٢) سورة القمر: ١٣، ١٤.

(٣) **البيان والتبيين**، م. م. ج٢: ٣٢٧.

(٤) المرجع السابق، ج٢: ٣٣٩.

(٥) المرجع السابق، ج١: ١٦٣.

وَبِالمُقابِلِ عَرَفوا الغَريبَ وَالوَحْشِيَّ[١] مِنَ الكَلامِ، وَرَأى الجاحِظُ تَجَنُّبَ ذَلِكَ إِلّا أَنْ يَكونَ بَيْنَ الأَعْرابِ البُداةِ، لِأَنَّ «الوَحْشِيَّ مِنَ الكَلامِ يَفْهَمُهُ الوَحْشِيُّ مِنَ النّاسِ»[٢]، وَيَسْتَعْصي فَهْمُهُ عَلى العامَّةِ.

فَالكَلِماتُ العَرَبِيَّةُ الوَحْشِيَّةُ التي كانَتْ بَعيدَةً عَنِ الاسْتِعْمالِ اليَوْمِيِّ في المُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ، اقْتَصَرَ مَعْرِفَتُها عَلى الأَعْرابِ الأَقْحاحِ وَعُلَماءِ اللُّغَةِ الَّذينَ دَأَبُوا عَلى جَمْعِها مِنْ أَفْواهِهِمْ. فَالأَعْرابُ هُمْ أَكْثَرُ مَنْ أَحاطَ بِمَعاني الكَلِماتِ العَرَبِيَّةِ وَدَلالاتِها، لِذَلِكَ اسْتُعينَ بِهِمْ لِمَعْرِفَةِ ما تَعَسَّرَ مِنْها. فَعِنْدَما تَأَخَّرَ الخَليفَةُ العَبّاسِيُّ «الهادي» عَنِ المَظالِمِ ثَلاثَةَ أَيّامٍ قيلَ لَهُ: «يا أَميرَ المُؤْمِنينَ إِنَّ العامَّةَ لا تَحْتَمِلُ هَذا. فَقالَ لِعَلِيِّ بْنِ صالِحٍ[٣]: إيذَنْ للنّاسِ عَلَيَّ بِالجَفَلى، لا بِالنَّقَرى[٤]، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ وَلَمْ يَفْهَمْ قَوْلَهُ، وَلَمْ يَجْسُرْ عَلى مُراجَعَتِهِ، فَأَحْضَرَ أَعْرابِيّاً فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقالَ: الجَفَلى أَنْ تَأْذَنَ لِعامَّةِ النّاسِ، فَأَذِنَ لَهُمْ»[٥].

وَكانَ عُلَماءُ اللُّغَةِ، وَحَتّى الأُدَباءُ أَيْضاً، أَمْثالُ الجاحِظِ، يَشْرَحونَ لُغَةَ الأَعْرابِ بَعْدَ أَنِ اسْتَعْصى فَهْمُها عَلى الخَواصِّ وَالعَوامِّ، بِالرَّغْمِ مِنْ قُرْبِ المَسافَةِ المَكانِيَّةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الأَعْرابِ قِياساً بِالعُصورِ اللّاحِقَةِ.

فَعَلى سَبيلِ المِثالِ، أَوْرَدَ الجاحِظُ في البَيانِ والتَّبْيينِ أَنَّ أَعْرابِيّاً

---

(١) (إذا كانت اللّفظة حسنة مستغربة لا يعلمها إلا العالم المبرّز والأعرابيّ القحّ فتلك وحشيّة). ينظر: **المزهر في علوم اللغة**، م. م. ج١: ٢٣٣، ٢٣٤.

(٢) **البيان والتبيين**، م. م. ج١: ١٤٤.

(٣) لم أقف على ترجمته.

(٤) النّقرى: يقصد هنا أهل الخاصّة. في اللسان يقال: «دعاهم النّقرى إذا دعا بعضاً دون بعض؛ ودعوتهم النّقرى: أي دعوة خاصة».

(٥) **الكامل في التاريخ**، م. م. ج٥: ٢٧٤.

وَصَفَ أَرْضاً أَحْمَدَها فَقالَ: «خَلَعَ شِيحُها، وَأَبْقَلَ رِمْثُها، وَخَضَبَ عَرْفَجُها، وَاتَّسَقَ نَبْتُها، وَاخْضَرَّتْ قُرْيانُها[1]، وَأَخْوَصَتْ بُطْنانُها[2]، وَاسْتَحْلَسَتْ آكامُها[3]، وَاعْتَمَّ نَبْتُ جَراثيمِها[4]، وَأَجْرَتْ بَقْلَتُها وذُرَقَتُهَا وَخُبَّازَتُها، وَاخْوَرَّتْ خَواصِرُ إِبِلِها، وَشكَرَتْ حَلوبَتُها، وَسَمِنَتْ قَتوبَتُها وَعَمِدَ ثَرَاهَا، وَعَقِدَتْ تَناهيها، وَأماهَتْ ثِمادُهَا[5]، وَوَثِقَ النّاسُ بِصَائِرَتِها»[6].

ثُمَّ شَرَحَ الجاحِظُ ما جاءَ في ذَلِكَ الوَصْفِ فَقالَ:

«يُقالُ: خَلَعَ الشِّيحُ، إذا أَوْرَقَ. وَالخالِعُ مِنَ العِضاهِ: الذي لا يَسْقُطُ وَرَقُهُ أَبَداً كَالسِّدْرِ، فَإِنَّهُ لا يَتَجَرَّدُ، وَكُلُّ شَجَرٍ لَهُ شَوْكٌ فَهُو عِضاهٌ، وَالوَاحِدُ عَضَةٌ، إِلّا القَتَادَ، وَلا يُغْبِلُ إِلّا الأَرْطى. وَأَخْوَصَتْ بُطْنانُها، إذا نَبَتَ فيه قُضْبانٌ دِقاقٌ. وَخَضَبَ عَرْفَجُها، يَقولُ: اسْوَدَّ. وَأَخْوَصَ الشَّجَرُ، وَهُوَ الذي لا شَوْكَ لَهُ. وَمِنَ العِضَاهِ قِشْرُهُ وَقَصَدُهُ. فَإِذا يَبِسَتْ فَهِيَ عُودٌ. وَاتَّسَقَ نَبْتُها، أَيْ تَامٌّ. وَأَجْرَتْ بَقْلَتُها، أَيْ نَبَتَ فيها مِثْلُ الجِراءِ. وَالعُلَّفَةُ ثَمَرَةُ الطَّلْحِ، وَالحُبْلَةُ للسَّلَمِ. وَاخْوَرَّتْ خَواصِرُ إِبِلِها، يَقولُ: اسْتَرْخَتْ عَنْ كَثْرةِ الرَّعْيِ. وشكَرَتْ حَلوبَتُها، يَقولُ غَزُرَتْ، يُقالُ: شَكَرَتِ الإِبِلُ وَالغَنَمُ، إذا تَمَلَّأَتْ مِنَ الرَّبيعِ، وَهِيَ إِبِلٌ شَكارَى، وَيُقالُ ضَرَّةٌ شَكْرى

(١) القريان، بضم القاف، جمع قَرِيّ: مجرى الماء في الروض.

(٢) البطنان، بضم الباء، جمع بطن: ما غمض من الأرض واطمأن. وقيل قراز الماء ومستنقعه في بطون الأرض.

(٣) استحلست: اخضرّت واستوى نبتها.

(٤) اعتم النّبت: التف. الجراثيم: أماكن مرتفعة عن الأرض متجمّدة، من تراب وطين.

(٥) الذرق، جمع ذرقة: نبت مثل الكراث الجبلي.

(٦) البيان والتبيين، م. م. ج٢: ١٥٣، ١٥٤.

إذا امْتَلَأَتْ مِنَ اللَّبَنِ، وَالضَّرَّةُ: أَصْلُ الضَّرْعِ. وَقَوْلُهُ: عَمِدَ ثَرَاها، وَذَلِكَ إذا قَبَضْتَ مِنْهُ عَلى شَيْءٍ فَتَعَقَّدَ وَاجْتَمَعَ مِنْ نُدُوَّتِهِ. يُقالُ عَمِدَ الثَّرى يَعمَدُ عَمَداً، وَهُوَ ثَرًى عَمِدٌ. فَالعَمَدُ: أَنْ يُجاوِزَ الثَّرى المَنْكِبَ، وَهُوَ أَنْ يَقيسَ السَّماءَ بِالمِرْفَقِ فَيَقولَ: بَلَغَتْ وَضَحَ الكَفِّ، ثُمَّ الرُّسْغَ، ثُمَّ العَظْمَةَ[1]، ثُمَّ المِرْفَقَ، ثُمَّ يَنْصُفُ العَضُدَ، ثُمَّ يَبْلُغُ المَنْكِبَ. فَإِذا بَلَغَ المَنْكِبَ قيلَ عَمِدَ الثَّرى، فَيُقالُ إِنَّ ذَلِكَ حَيًا سِنينَ. وَالتَّناهي، واحِدَتُها تَنْهِيَةٌ، وَهِيَ مُسْتَقَرُّ السَّيْلِ وَحَيْثُ يَنْتَهي الماءُ. وَعَقَدُها: أَنْ يَمُرَّ السَّيْلُ مُقْبِلاً حَتَّى إِذا انْتَهى مُنْتَهاهُ دارَ بِالأَباطِحِ، حَتّى يَلْتَقِيَ طَرَفا السَّيْلِ. وَالصّائِرَةُ: الكَلأُ وَالماءُ»[2].

فَهَذا النَّصُّ يَكْشِفُ عَنْ مَدى تَمَكُّنِ الأَعْرابِ مِنَ العَرَبِيَّةِ، وَاسْتِعانَتِهِمْ بِأَلْفاظٍ وَمَعانٍ لَها صِلَةٌ وَثيقَةٌ بِمُحيطِهِمْ، كَما يَكْشِفُ عَنْ دَأْبِ العُلَماءِ وَالأُدَباءِ عَلى شَرْحِ ما غَمُضَ مِنْ لُغَتِهِمْ وَصَعُبَ فَهْمُهُ.

فَالأَعْرابُ طُبِعوا عَلى العَرَبِيَّةِ الفُصْحى نَثْراً وَشِعْراً، وَلَكِنَّ بَعْضَهُمْ أَدْخَلَ مُفْرَداتٍ فارِسِيَّةً في شِعْرِهِ عَلى وَجْهِ التَّمَلُّحِ، وَهَؤُلاءِ هُمُ الَّذينَ عاشوا في المُدُنِ وَاحْتَكّوا بِأَهْلِها، فَوَقَعُوا عَلى تِلْكَ المُفْرَداتِ، وَوَظَّفُوها في أَشْعارِهِمْ اسْتِمْلاحاً لَها، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ العُمانِيِّ[3] لِلرَّشيدِ في قَصيدَةٍ مَدَحَهُ فيها: [الرجز]

---

(١) المعروف أن العظمة ما يلي المرفق الذي فيه العضلة، فحقّه التأخير من المرفق. (هامش البيان والتبيين، م. م. ج٢: ١٥٥).

(٢) البيان والتبيين، م. م. ج٢: ١٥٤، ١٥٥.

(٣) هو محمّد بن ذؤيب أبو العبّاس، (العمانيّ) (ت نحو ٢٢٨هـ / نحو ٨٤٣م): راجز من بني تميم ثمّ من بني فقيم. من شعراء الدولة العبّاسيّة له أخبار مع المهديّ والرّشيد. كان شاعراً راجزاً متوسّطاً. أفاد بشعره أموالاً كثيرة.

مَنْ يَلْقَهُ مِنْ بَطَلٍ مُسْرَنْدِ[1] فِي زَغْفَةٍ مُحْكَمَةٍ بالسَّرْدِ[2]
تَجُولُ بَيْنَ رَأْسِهِ وَالكَرْدِ[3]

يَعْني العُنُقَ. وَفيها يَقولُ أَيْضاً: [الرجز]

لَمّا هَوَى بَيْنَ غِياضِ الأُسْدِ وَصارَ في كَفِّ الهِزَبْرِ الوَرْدِ[4]
آلى يَذوقُ الدَّهْرَ آبِ سَرْدِ[5]

وَكَقَوْلِ الآخَرِ: [الطَّويل]

وَدَلَّهَني وَقْعُ الأَسِنَّةِ والقَنا وكافِر كوباتٍ لَها عُجَرٌ قُفْدُ[6]
بِأَيْدي رِجالٍ ما كَلامي كَلامُهُمْ يَسومُونَني مَرْداً وَمَا أَنا وَالمَرْدُ[7][8]

فَإِدْخالُ مِثْلِ هَذِهِ الأَلْفاظِ في أَشْعارِهِمْ كانَ عَلى سَبيلِ التَّظَرُّفِ وَالتَّمَلُّحِ، كَما رَأَيْنا، أَمّا عامَّةُ كَلامِهِمْ فَكانَ عَرَبِيّاً فَصيحاً، اخْتاروا لَهُ الأَلْفاظَ الجَزْلَةَ وَالمَعانِيَ الفَخْمَةَ. وَهَذا نَموذَجٌ مِنْ كَلامِهِمْ، يَصِفُ فيهِ أَعْرابِيٌّ بَنيهِ، بَعْدَ ما سُئِلَ عَنْهُمْ، وهم: جَهْمٌ وَغَشَمْشَمٌ وَعَشْرَبٌ:

---

(١) المسرندي: الذي يغلب ويعلو.
(٢) الزغفة: الدرع اللينة الواسعة المحكمة. والسرد: الحَلَق، وقيل هو أن لا يجعل المسمار غليظاً والثقب دقيقاً فيفصم الحَلَق.
(٣) الكرد هو بالفارسيّة كردن. ينظر: المعرّب من الكلام الأعجمي، م. م. ص: ٢٧٩.
(٤) الهزَبْر: من أسماء الأسد.
(٥) آب سرد: آب: الماء؛ ينظر: كتاب الألفاظ الفارسيّة المعرّبة، م. م. ص: ١٠٧.
(٦) المدله: الساهي القلب الذاهب العقل. كافر كوبات: المقرعة (هامش البيان والتبيين، م. م. ج١: ١٤٢) والعجر، جمع عجرة: العقدة في الخشبة ونحوها. والقفد، جمع أقفد: وهو في أصله الغليظ العنق.
(٧) سامه الشيء: كلّفه إيّاه، وجشمه وأراده عليه. المرد: رجل. ينظر: المعرّب من الكلام الأعجمي، م. م. ص: ١٦٩.
(٨) البيان والتبيين، م. م. ج١: ١٤٢.

«جَهْمٌ وَما جَهْمٌ! يُنْضي الوَهْمَ[١]. وَيَصُدُّ الدَّهْمَ[٢]، ويَفْري[٣] الصُّفوفَ، وَيَعُلُّ السُّيوفَ[٤]؛... غَشَمْشَمٌ وَما غَشَمْشَمٌ! مالُهُ مُقَسَّمٌ، وَقِرْنُهُ مُجَرْجَمٌ[٥]؛ جِذْلُ حِكاكٍ[٦]، وَمِدْرَهُ لِكاكٍ[٧]؛... عَشَرَّبٌ وَما عَشَرَّبٌ! لَيْثٌ مُحَرَّبٌ[٨]، وسِمامٌ مُقَشَّبٌ[٩]؛ ذِكْرُهُ باهِرٌ[١٠]، وَخَصْمُهُ عاثِرٌ؛ وَفِناؤُهُ رُحابٌ، وَداعيهِ مُجابٌ»[١١].

ثُمَّ وَصَفَ نَفْسَهُ فَقالَ: «لَيْثٌ أبو رَيابِلَ[١٢]، رَكّابُ مَعاضِلَ[١٣]، عَسّافُ[١٤] مَجاهِلَ، حَمّالُ أعْباءٍ، نَهّاضٌ بِبَزْلاءَ[١٥]»[١٦].

---

(١) ينضي: يهزل، والنّضو: المهزول. الوهم: الضخم العظيم من الإبل.

(٢) الدهم: العدد الكثير.

(٣) يفري: يشق. يقال فريت الشيء إذا شققته للإصلاح. وأفريته إذا قطعته للإفساد.

(٤) يعلّ: يوردها الدماء ثانية. مأخوذ من العَلَل في الشرب.

(٥) القرن، بكسر القاف: الكفء والنّظير في الشجاعة والحرب. المجرجم: المصروع.

(٦) الجّذل: أصل الشجرة، وذلك لأن الإبل الجرب تحتك به فتجد له لذّة. وإنما قال: جذل حكاك، أي إنّه ممن يستشفى به في الأمور بمنزلة ذاك الجزل الذي يستشفي به الإبل.

(٧) المِدْرَهُ: هو رأس القوم والدافع عنهم. لكاك: زحام. يقال التك القوم على الماء إذا ازدحموا.

(٨) المحرّب: المغضب الذي قد اشتد غضبه واحتدّ.

(٩) سمام، جمع سُمّ. ويُسمى كلّ مسموم مقشّب، فالقشب خلط السمّ وإصلاحه حتى ينجع في البدن ويعمل.

(١٠) باهر: غالب.

(١١) القالي، إسماعيل بن القاسم: كتاب الأمالي، المكتبة التّجاريّة الكبرى، الطّبعة الثالثة، القاهرة، ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٣م، ج١: ٥١، ٥٢.

(١٢) ريابل، جمع ريبال، وهو الأسد.

(١٣) المعاضل: الدواهي.

(١٤) العسّاف: الذي يركب الطّريق على غير هداية.

(١٥) نهاض ببزلاء: أي مطيق على الشدائد ضابط لها.

(١٦) كتاب الأمالي، م. م. ج١: ٥٣. وينظر في المصدر نفسه، ج١: ١١٣ (كلام أعرابيّ في المسجد الحرام).

فَالأَلْفاظُ في لُغَةِ الأَعْرابِ وافَقَتِ المَعانِيَ المُسْتَمَدَّةَ مِنْ حَياتِهِمْ وَقِيَمِهِمْ وَمُثُلِهِمْ، كَالقُوَّةِ وَالشَّجاعَةِ وَالفَخْرِ، وَبَذْلِ المالِ وَسَفْكِ الدِّماءِ عِنْدَ الضَّرورَةِ. وَفي مُعْظَمِ الأَحْيانِ كانَتْ مُفْرَداتُهُمُ اللُّغَوِيَّةُ تَنْطَلِقُ مِنْ مُحيطِهِمِ الّذي أَرْفَدَهُمْ بِأَلْفاظٍ أَوْ مَعانٍ حاكَتْ بيئَتَهَمُ الحَيَوانِيَّةَ، وَالنَّباتِيَّةَ، وَالمُناخِيَّةَ، بِالإِضافَةِ إِلى الأَعْرافِ الاجْتِماعِيَّةِ السّائِدَةِ بَيْنَهُمْ، وَقَدْ أَشارَ الجاحِظُ في البَيانِ وَالتَّبيينِ إِلى مِثْلِ هَذا الأَمْرِ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَهُنا نَماذِجُ مِنْ ذَلِكَ:

- «قالَ الأَصْمَعِيُّ: سَمِعْتُ أَعْرابِيّاً يَقولُ: مَنْ وَلَّدَ الخَيْرَ نَتَجَ لَهُ فِراخاً تَطيرُ بِالسُّرورِ، وَمَنْ وَلَّدَ الشَّرَّ أَنْبَتَ لَهُ نَباتاً مُرّاً مَذاقُهُ، قُضْبانُهُ الغَيْظُ، وَثَمَرُهُ النَّدَمُ»[1].

فَفي هَذِهِ المُقابَلَةِ بَيْنَ الخَيْرِ وَالشَّرِّ، اسْتَعارَ الأَعْرابِيُّ صُوَراً مِنْ بادِيَتِهِ، هِيَ الفِراخُ، وَالنَّباتُ المُرُّ المَذاقِ.

- قالَ أَعْرابِيٌّ لِخَصْمِهِ: «لَئِنْ هَمْلَجْتَ إِلى الباطِلِ إِنَّكَ لَقَطوفٌ إِلى الحَقِّ»[2].

فَالهَمْلَجَةُ، حُسْنُ سَيْرِ الدّابَّةِ في سُرْعَةٍ، وَالقِطافُ، بِالكَسْرِ: تَقارُبُ الخَطْوِ في بُطْءٍ.

نَجِدُ هُنا اسْتِعانَةَ الأَعْرابِيِّ بِحَرَكَةِ الدَّوابِّ عَلى وَصْفِ الخَصْمِ أَوِ التَّعَرُّضِ لَهُ. ذَلِكَ لِأَنَّها ـ أَيِ الدَّوابَّ ـ كانَتْ عُنْصراً أَساسِيّاً في حَياةِ الأَعْرابِ، فَجَرى ذِكْرُها في غَيْرِ مَقامٍ. وَقَدْ رَوى أَبو حَيّانِ

(١) البيان والتبيين، م. م. ج٢: ٣٠٤.
(٢) المرجع السابق، م. م. ج٢: ٢٩٧.

التَّوْحيدِيُّ[1] أَنَّهُ قِيلَ لِأَعْرابِيٍّ: «صِفِ الزَّلْزَلَةَ؟ فَقالَ: كَأَنَّها فَرَسٌ انْتَفَضَ ثُمَّ تَراجَعَ»[2]. فَالأَعْرابِيُّ لازَمَ الخَيْلَ في السِّلْمِ وَالحَرْبِ، وَفي الإِقامَةِ وَالسَّفَرِ حَتّى باتَ يَعْلَمُ جَميعَ ما يَتَعَلَّقُ بِسُلوكِها، وَمِنْ هُنا جاءَ وَصْفُ الزَّلْزَلَةِ بِحَرَكَةٍ مِنْ حَرَكاتِها.

• قِيلَ إِنَّ أَعْرابِيَّةً حَجَّتْ، «فَلَمّا صارَتْ بِالمَوْقِفِ قالَتْ: أَسْأَلُكَ الصُّحْبَةَ، يا كَريمَ الصُّحْبَةِ، وَأَسْأَلُكَ سِتْرَكَ الذي لا تُزيلُهُ الرِّياحُ، وَلا تُخَرِّقُهُ الرِّماحُ»[3].

لَيْسَ غَريباً أَنْ تَدْعُوَ هَذِهِ الأَعْرابِيَّةُ مِثْلَ هَذا الدُّعاءِ، فَلَطالَما عانى الأَعْرابُ في الصَّحْراءِ هُبوبَ الرِّياحِ الَّتي آذَتْهُمْ، كَتَهْديدِها إِيّاهُمْ بِقَلْعِ خِيامِهِمْ، وَعانَوْا نَسْفَ الرِّمالِ الَّتي أَرْبَكَتْ حَرَكَتَهُمْ. أَمّا الرِّماحُ، فَكانَتْ سِلاحاً، بِها قاتَلوا وَقوتِلوا، وَكَثيراً ما كانَتْ سَبَباً في هَتْكِ أَسْتارِ النِّساءِ المادِيَّةِ وَالمَعْنَوِيَّةِ، مِنْ خِلالِ انْكِشافِهِنَّ عَلى الغُرَباءِ وَالأَعْداءِ بَعْدَ تَمْزيقِ الخِيامِ وَتَعَرُّضِهِنَّ لِلسَّبْيِ.

هَذا عَلى مُسْتَوى الدَّلالاتِ في لُغَةِ الأَعْرابِ، أَمّا عَلى مُسْتَوى

---

(1) عليّ بن محمّد بن العبّاس (أبو حيّان التّوحيديّ) (ت نحو ٤٠٠هـ / نحو ١٠١٠م): فيلسوف، متصوّف معتزليّ. ولد في شيراز (أو نيسابور) وأقام مدة في بغداد وانتقل إلى الريّ، فصحب ابن العميد والصّاحب بن عبّاد، فلم يحمد ولاءهما. ووشي به إلى الوزير المهلبي فطلبه، فاستتر منه ومات في استتاره. من كتبه: «البصائر والذخائر»، و«الإمتاع والمؤانسة»، و«مثالب الوزيرين ابن العميد وابن عبّاد».

(2) التوحيديّ، علي بن محمّد، (أبو حيّان التوحيديّ): البصائر والذخائر، تحقيق الدكتور إبراهيم الكيالي، مكتبة أطلس ومطبعة الإنشاء، دمشق، د. ط. ١٩٦٤م، ج٢: ٢٩.

(3) البيان والتبيين، م. م. ج٣: ٢٧٤.

صِفاتِها، فَاللّافِتُ أَنَّ لُغَةَ الأَعْرابِ الفُصَحاءِ الَّذينَ عاشوا في صَحْراءِ الجَزيرَةِ وَبادِيَتِها، وَلَمْ يَدْخُلوا الحَواضِرَ إِلّا لِحاجَةٍ، خالَفَتْ في بَعْضِ صِفاتِها لُغَةَ الأَعْرابِ الَّذينَ اتَّصَلوا بِالبيئَةِ الحَضَرِيَّةِ وَعاشوا في المُدُنِ الكُبْرى في الحِجازِ وَاليَمَنِ وَالعِراقِ أَوْ بِالقُرْبِ مِنْها.

فَفي لُغَةِ الأَعْرابِ البُداةِ، شاعَتِ الأَصْواتُ الشَّديدَةُ، انْسِجاماً مَعَ خُشونَةِ حَياتِهِمْ، وَرُبَّما قُلِبَتِ الأَصْواتُ الرِّخْوَةُ أَصْواتاً شَديدَةً[1]، مِثْلُ قَوْلِ بَني خَفاجَةَ مِنْ بَني عُقَيْلٍ: عُكوبُ الطَّيْرِ في عُكوفِ الطَّيْرِ؛ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ مُزاحِمٍ العُقَيْلِيِّ[2]: [الطَّويل]

تَظَلُّ نُسورٌ مِنْ شَمامٍ عَلَيْهِمُ عُكُوباً مَعَ العِقْبانِ، عِقْبانِ يَذْبُلِ[3]

فَالباءُ صَوْتٌ مَجْهورٌ وَشَديدٌ، بَيْنَما الفاءُ صَوْتٌ مَهْموسٌ وَرِخْوٌ، فَقَبيلَةُ عُقَيْلٍ مِنْ قَبائِلِ البَدْوِ التي عاشَتْ بِالقُرْبِ مِنْ تَميمٍ، التي آثَرَتِ الأَصْواتَ المَجْهورَةَ[4] وَالشَّديدَةَ، فَتَأَثَّرَتْ بِها[5]. فَالأَصْواتُ المَجْهورَةُ ظَهَرَتْ في لُغَتِهِمْ، لِحاجَتِهِمْ إِلى تَوْضيحِ الأَصْواتِ في أُذُنِ السّامِعِ نَظَراً

---

(١) الأصوات الرخوة: ث، ح، خ، ذ، ز، س، ش، ص:، ض، ظ، ع، ف، هـ، و، ي، أ.
الأصوات الشّديدة: أ، ب، ت، ج، د، ط، ق، ك.

(٢) مزاحم بن الحاوث، (أو مزاحم بن عمرو) العقيلي (ت نحو ١٢٠ هـ/نحو ٧٣٨ م): شاعر غزل، بدوي، من الشجعان. كان في زمن جرير والفرزدق اللذين أقرّا بجودة شعره، وأورد البغدادي والجمحي بعض محاسن شعره.

(٣) شعر مزاحم العقيلي، تحقيق الدكتور نوري حمودي القيسي وحاتم صالح الضامن، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، د. ط. د. ت. ص: ١١٥.

(٤) الأصوات المجهورة: أ، ب، ج، د، ذ، ر، ز، ض، ط، ظ، ع، غ، ق، ل، م، ن، و، ي.

(٥) ينظر: في اللّهجات العربيّة، م. م. ص: ٩٠.

إلى بُعْدِ المَسافاتِ في الصَّحاري وَالبَوادي. وَلَعَلَّ العَنْعَنَةَ (قَوْلُ: «عن» في «أن») عِنْدَ قَبائِلِ تَميمٍ وَقَيْسِ عَيْلانَ، هِيَ المَيْلُ إلى الجَهْرِ بِالصَّوْتِ[1]. فَالعَيْنُ صَوْتٌ مَجْهورٌ، بَيْنَما هَمْزَةُ القَطْعِ لا هِيَ بِالمَجْهورَةِ وَلا هِيَ بِالمَهْموسَةِ[2]، وَقَدْ عَدَّها القُدَماءُ صَوْتاً مَجْهوراً.

كَذَلِكَ شاعَتْ أَحْرُفُ الإِطْباقِ[3]، في لُغَةِ الأَعْرابِ البُداةِ، وَهِيَ أَصْواتٌ مُفَخَّمَةٌ تُلائِمُ غِلْظَةَ البَدْوِ، كَقَوْلِهِمْ «صَخَّرَ لَكُمْ» في «سَخَّرَ لَكُمْ». وَ«الصّاقُ» في «السّاقِ». فَالصّادُ صَوْتٌ مَجْهورٌ وَمُطْبَقٌ وَمُسْتَعْلٍ، بَيْنَما السّينُ صَوْتٌ مَهْموسٌ وَمُنْفَتِحٌ وَمُسْتَفِلٌ. وَما العَجْعَجَةُ (قَلْبُ الياءِ جيماً في آخِرِ الكَلِمَةِ) عِنْدَ جُهَيْنَةَ وَجُرْمٍ البَدَوِيَّتَيْنِ إلّا المَيْلُ إلى أَصْواتِ التَّفْخيمِ. فَالياءُ صَوْتٌ مُتَوَسِّطٌ لَيْسَ شَديداً وَلا رِخْواً، وَعِنْدَ انْقِلابِها إلى الجيمِ القَديمَةِ «g»، تَنْقَلِبُ إلى صَوْتٍ أَمْيَلَ إلى الشِّدَّةِ مِنْهُ إلى الرَّخاوَةِ، وَإلى الاسْتِعْلاءِ مِنْهُ إلى الاسْتِفالِ[4].

وَظَهَرَ عِنْدَ القَبائِلِ البَدَوِيَّةِ المَيْلُ إلى الضَّمِّ لِأَنَّهُ مَظْهَرٌ مِنْ مَظاهِرِ الخُشونَةِ البَدَوِيَّةِ[5]. في حينِ نَجِدُ أَنَّ أَعْرابَ البيئَةِ الحَضَرِيَّةِ تَأَثَّروا بِتِلْكَ البيئَةِ الَّتي مالَ قاطِنوها إلى «الكَسْرِ»، لِما تُمَثِّلُهُ الكَسْرَةُ مِنْ رِقَّةٍ وَسَلاسَةٍ. وَمالوا أَيْضاً إلى الأَصْواتِ الرِّخْوَةِ، كَقَوْلِهِمْ: عَذوقَةٌ في عَدوقَةٍ. في هذا

(١) ينظر: **في اللّهجات العربيّة**، م. م. ، ص: ٩٦.
(٢) السعران، محمود (دكتور): **علم اللّغة ـ مقدمة للقارئ العربيّ**، دار النّهضة العربيّة، بيروت، د. ط. د. ت. ص: ١٥٧.
(٣) أحرف الإطباق: ص، ض، ط، ظ.
(٤) ينظر: **في اللّهجات العربيّة**، م. م. ص: ١١٤.
(٥) ينظر: المرجع السابق، ص: ٨١.

قيلَ إنَّ أبا عَمْرٍو الشَّيْبانِيَّ(١) كانَ عِنْدَ يَزيدَ بْنِ مَزْيَدٍ(٢) فَأَنْشَدَهُ بَيْتَ قَيْسِ ابْنِ زُهَيْرٍ(٣): [الكامل]

وَمُجَنَّباتٍ ما يَذُقْنَ عَدُوفَةً　　يَقْذِفْنَ بِالمُهَراتِ وَالأَمْهارِ(٤)

فَقالَ لَهُ يَزيدُ: صَحَّفْتَ أبا عَمْرٍو، إِنَّما هِيَ عَذوفَةٌ بِالذّالِ، فَقالَ لَهُ: لَمْ أُصَحِّفْ أنا وَلا أَنْتَ، تَقولُ رَبيعَةُ هَذا الحَرْفَ بِالذّالِ وَسائِرُ العَرَبِ بِالدّالِ(٥).

فَالذّالُ صَوْتٌ رِخْوٌ، بَيْنَما الدّالُ صَوْتٌ شَديدٌ. فَقَبيلَةُ رَبيعَةُ البَدَوِيَّةُ وُجِدَ فيها مَنْ تَأَثَّرَ بِحَضَرِ الحِيرَةِ كَإِيادٍ وَالنَّمِرِ(٦).

وَشاعَتْ في البيئاتِ الحَضَرِيَّةِ الأَصْواتُ المَهْموسَةُ(٧)، بَعْدَ أَنْ دَعَتْ آدابُ الإِسْلامِ إِلى خَفْضِ الأَصْواتِ(٨).

---

(١) إسحاق بن مرار الشّيبانيّ بالولاء، المعروف بأبي عمرو الشّيبانيّ (ت ٢٠٦ هـ/ ٨٢١ م): لغويّ أديب من الكوفة. سكن بغداد ومات بها. جمع أشعار نيف وثمانين قبيلة في مجلّد وجعلها في مسجد الكوفة. من تصانيفه: «كتاب اللّغات»، و«كتاب الخيل»، و«النّوادر» المعروف بـ كتاب الجيم، و«غريب الحديث».

(٢) يزيد بن مزيد بن زائدة الشيبانيّ (ت ١٨٥هـ/ ٨٠١م): أمير، من القادة الشجعان. كان والياً بأرمينية وأذربيجان. أخبار شجاعته كثيرة. توفّي في بردعة (من بلاد أذربيجان) ورثاه شعراء كثيرون.

(٣) قيس بن زهير بن جليمة بن رواحة العبسيّ، أبو هند (ت ١٠هـ/ ٦٣١م): أمير عبس، وداهيتها، وأحد السادة القادة في عرب العراق، كان خطيباً وشاعراً، وحكمته في مأثور الكلام مستفيضة. وخطبه غير قليلة وشعره جيد فحل. رحل زاهداً إلى عمان وفيها مات.

(٤) شعر قيس بن زهير، تحقيق عادل البيّاتي، مطبعة الآداب، النجف، ١٩٧٢م، ص: ٣٢ وينسب إلى الربيع بن زياد؛ راجع: الأغاني، م. م. ج١٧: ١٩٧.

(٥) ينظر: لسان العرب، (مادة عدف)، ج٩: ٨٢.

(٦) ينظر: في اللّهجات العربيّة، م. م. ص: ٩٠.

(٧) الأصوات المهموسة: ت، ث، ح، خ، س، ش، ص، ف، ك، هـ.

(٨) ينظر: في اللّهجات العربيّة، م. م. ص: ٩٦. ولمزيد من التوسّع في لهجات القبائل العربيّة ينظر المرجع نفسه، ص: ٨٠ ـ ١٤٤.

كَما شاعَ فيها اللَّحْنُ لِوُجودِ الأعاجِمِ، فَكانَ لا يُحْتَفَلُ بِلُغَةِ الأعاريبِ النّازلينَ عَلى طَريقِ السّابِلَةِ وَبِقُرْبِ مَجامِعِ الأسْواقِ لِقُبْحِ لَحْنِهِمْ[1]. وَكذلِكَ لَمْ يُحْتَفَلْ بِلُغَةِ الأعْرابِ الَّذينَ أوْطَنوا الحَواضِرَ. فَعِنْدَما أجازَ الأعْرابِيُّ أبو خَيْرَةَ ـ نَهْشَلُ بْنُ زَيْدٍ ـ قَوْلَ اسْتَأْصَلَ اللهُ عِرْقاتَهُمْ[2] (بفتح التاء) قالَ لَهُ أبو عَمْرِو بْنُ العَلاءِ[3]: لانَ جِلْدُكَ يا أبا خَيْرَةَ، ظَنّاً مِنْهُ أنَّ لُغَتَهُ أصابَها اللَّحْنُ لِوُجودِهِ بَيْنَ الحَضَرِ[4].

نَخْلُصُ إلى القَوْلِ إنَّ الأعْرابَ شَكَّلوا شَريحَةً اجْتِماعِيَّةً أدَّتْ خِدْمَةً جَليلَةً إلى العَرَبِيَّةِ الفُصْحى، وَذلِكَ بِمُحافَظَتِها عَلَيْها مِنْ خِلالِ رَفْدِ عُلَماءِ اللُّغَةِ وَالمُهْتَمّينَ بِشُؤونِها بِكُلِّ ما اتَّصَلَ بِها عَلى مُسْتَوى الألْفاظِ وَالمَعاني وَالاخْتِلافاتِ اللُّغَوِيَّةِ بَيْنَ القَبائِلِ العَرَبِيَّةِ.

وَأوَّلُ سِماتِ لُغَتِهِمْ ظاهِرَةُ الإعْرابِ، خِلافاً لِلُغَةِ العَوامِّ التي أصابَها اللَّحْنُ، ثُمَّ مَعْرِفَتُهُمُ الوَحْشِيَّ أوِ الغَريبَ مِنَ الكَلامِ لاتِّصالِهِ بِبيئَتِهِمُ البَدَوِيَّةِ، وَاخْتِيارُهُمُ الألْفاظَ الجَزْلَةَ وَالمَعانِيَ الفَخْمَةَ التي حاكَتْ مُحيطَهُمُ الطَّبيعِيَّ وَالاجْتِماعِيَّ.

---

(١) ينظر: البيان والتبيين، م. م. ج١: ١٤٦.

(٢) من قال عرقاتهم بالكسر، جعله جمع عِرق، ومن نصبه جعله بمنزلة سعلاة وعلقاة. ينظر: مجالس العلماء، م. م. ص: ٦.

(٣) زبّان بن عمّار التّميميّ البصريّ المعروف بأبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ/ ٧٧١ م): من أئمّة اللغة والأدب، وأحد القرّاء السبعة. ولد بمكّة، ونشأ بالبصرة، ومات بالكوفة. له أخبار وكلمات مأثورة. وكانت عامّة أخباره عن أعراب أدركوا الجاهليّة.

(٤) ينظر: مجالس العلماء، م. م. ص: ٥، ٦.
أبو خيرة، نهشل بن زيد: من الأعراب الفصحاء الذين أخذ عنهم علماء اللغة.

كَما اتَّصَفَتْ لُغَةُ الأعْرابِ بِصِفاتٍ صَوْتِيَّةٍ خاصَّةٍ بِها، كَالمَيْلِ إلى الضَّمِّ وَالأصْواتِ المَجْهورَةِ وَالشَّديدَةِ وَالمُطْبَقَةِ وَالمُسْتَعْلِيَةِ.

وَنُظِرَ إلى لُغَةِ الأعْرابِ بِلِحاظِ بُعْدِهِمْ عَنِ الحَواضِرِ أَوْ قُرْبِهِمْ مِنها، فَكانَ يُعْتَدُّ بِلُغَةِ الأباعِدِ مِنْهُمْ لِسلامَتِها مِنَ اللَّحْنِ الذي شاعَ في الحَواضِرِ.

أخيراً، نُشيرُ إلى أَنَّ مَكانَةَ الأعْرابِ الاجْتِماعِيَّةَ وَالاقْتِصادِيَّةَ كَانَتْ مُتَواضِعَةً بِالنَّظَرِ إلى طَبقاتِ المُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ المَيْسورَةِ، وَلا سَيِّما طَبَقَةُ أَهْلِ الحُكْمِ الَّذينَ سَنَتَناوَلُ لُغَتَهُمْ في الفَصْلِ التّالي.

الفَصْلُ السّادِسُ

لُغَةُ أَهْلِ الحُكْمِ

كانَ الحُكْمُ العَبّاسِيُّ أَشْبَهَ بِالحُكْمِ المَلَكِيِّ مِنْ حَيْثُ تَداوُلُ بَني العَبّاسِ السُّلْطَةَ، ومِنْ حَيْثُ مُحاكاتُهُمُ الأَساليبَ وَالتَّقاليدَ التي كانَتْ لِمُلوكِ الأُمَمِ الأُخرى وَلا سِيَّما الفُرْسُ.

وَقَدْ أَسْهَبَ التّاريخُ في الحَديثِ عَنْهُمْ، وَعَنِ الوُزَراءِ، وَالأُمَراءِ، وَالقُوّادِ، لِأَنَّهُمْ أَصْحابُ السُّلْطَةِ وَالنُّفوذِ، كَما أَنَّ كَثيراً مِنَ الأَعْمالِ الكِتابِيَّةِ، مِنْ أَدَبٍ وَشِعْرٍ، راعَتْ أَذْواقَهَمْ عَلى مُسْتَوى اللَّفْظِ وَالمَعْنى، وَهَذا يُساعِدُنا في الكَشْفِ عَنْ مَدى تَأَثُّرِ لُغَتِهِمْ بِمَوْقِعِهِم السِّياسِيِّ وَالاجْتِماعِيِّ.

وَلَمّا كانَ الخُلَفاءُ العَبّاسِيّونَ رَمْزاً لِأَهْلِ الحُكْمِ، كانَ عِمادُنا الأَبْرَزُ، في هَذا الفَصْلِ، تَسْليطَ الضَّوْءِ على شُؤونِهِمْ لِتِبْيانِ أَحْوالِهِمْ وَتَصَرُّفاتِهِمْ، وَعَلاقَتِها بِأَساليبِهِمُ اللُّغَوِيَّةِ.

فَقَدْ حَكَمَ هَؤلاءِ بِاسْمِ الدّينِ، وعَدُّوا أَنْفُسَهُمْ خُلَفاءَ اللهِ عَلى الأَرْضِ، لِذا كانَ لا بُدَّ لَهُمْ مِنَ الاهْتِمامِ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ ـ لُغَةِ القُرْآنِ ـ الّتي لا تَنْفَصِلُ عَنِ الإِسْلامِ وَشَعائِرِهِ، فَاجْتَنَبوا ما اسْتَطاعوا اللَّحْنَ وَالخَطَأَ في المَحافِلِ الخاصَّةِ وَالعامَّةِ، حِفاظاً عَلى هَيْبَتِهِمْ وَشَرْعِيَّةِ

مَنْصِبِهِمْ، وَلِذَلِكَ «قالَ المَأمونُ لِأحَدِ أوْلادِهِ ـ وَقَدْ سَمِعَ مِنْهُ لَحْناً ـ ما عَلى أَحَدِكُمْ أنْ يَتَعَلَّمَ العَرَبِيَّةَ فَيُقيمَ بِها أوَدَهُ، وَيُزَيِّنَ بِها مَشْهَدَهُ، وَيَفُلَّ بِها حُجَجَ خَصْمِهِ بِمُسْكِتاتِ حِكَمِهِ، وَيَمْلِكَ مَجْلِسَ سُلْطانِهِ بِظاهِرِ بَيانِهِ. أَوَيَسُرُّ أَحَدُكُمْ أنْ يَكونَ لِسانُهُ كَلِسانِ عَبْدِهِ أَوْ أَمَتِهِ، فَلا يَزالُ الدَّهْرَ أَسيرَ كَلِمَتِهِ...»[1].

فَكانَتِ اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ الفُصْحى إِحْدى دَعائِمِ الحُكْمِ، وَأَداةً لِرَسْمِ حُدودِ تَفْصِلُهُمْ عَنِ العَوامِّ أَوِ الطَّبَقاتِ الدُّنيا، الأَمْرُ الذي حَداهُمْ أنْ يَعْهَدوا بِتَأديبِ أَوْلادِهِمْ إِلى كِبارِ اللُّغَوِيّينَ وَالنَّحْوِيّينَ، كَالكِسائِيِّ وَاليَزيدِيِّ[2] وَسيبَوَيْهِ، لِيَضْمَنوا سَلامَةَ لُغَتِهِمْ، وَتَأَلُّقَ مَوْقِعِهِم الاجْتِماعِيِّ، إِذْ كانَ «اللَّحْنُ هُجْنَةً عَلى الشَّريفِ»[3]، كَما كانَ «أَقْبَحَ مِنْ آثارِ الجُدَرِيِّ في الوَجْهِ»[4].

وَقَدْ كَرِهَ الخُلَفاءُ الاسْتِماعَ إِلى لُغَةٍ عَرَبِيَّةٍ مَلْحونَةٍ، لِأَنَّ ذَلِكَ يُفْسِدُ ذائِقَتَهُمُ اللُّغَوِيَّةَ. فَالرَّشيدُ ـ مَثَلاً ـ وَعَلى الرَّغْمِ مِنْ إِعْجابِهِ بِغِناءِ المَلّاحينَ

---

(١) القرطبي، يوسف بن عبد الله: **بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس**، تحقيق محمّد مرسي الخولي ومراجعة الدكتور عبد القادر قطّ، الدار المصريّة للتأليف والترجمة، ودار الكتاب العربيّ، القاهرة، د. ط. د. ت. ج١: ٦٤. وينظر أيضاً: **صبح الأعشى**، م. م. ج١: ١٦٨ وفيه: «قال الرشيد يوماً لبنيه ما ضرّ أحدكم لو تعلّم من العربيّة ما يصلح به لسانه أيسرّ أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده أو أمته».

(٢) يحيى بن المبارك العدوي (اليزيديّ) (ت ٢٠٢هـ/٨١٨م): عالم بالعربيّة والأدب. صحب يزيد بن منصور الحميريّ في بغداد، فنسب إليه. أدّب المأمون. من كتبه: «النّوادر» في اللغة، و«المقصور والممدود»، و«مناقب بني العبّاس». له نظم جيّد في ديوان.

(٣) **البيان والتبيين**، م. م. ج٢: ٢١٦.

(٤) المرجع السابق، ج٢: ٢١٦.

عِنْدَما كانَ يَرْكَبُ السُّفُنَ وَالحَرّاقاتِ(١)، فَإِنَّهُ كانَ يَتَأَذّى بِلُغَتِهِم المَلْحونَةِ، فَكانَ يَطْلُبُ مِمَّنْ مَعَهُ مِنَ الشُّعَراءِ أَنْ يَعْمَلوا لِهَؤُلاءِ شِعْراً يُغَنُّونَ فيهِ(٢).

وَكانَ المُغَنّي يُعَنَّفُ إِذا لَحَنَ بَيْنَ يَدَي الخَليفَةِ، وَهَذا ما حَدَثَ لِمُخارِقٍ(٣) حينَ غَنّى بَيْنَ يَدَي الرَّشيدِ أَبْياتاً مِنْ قَصيدَةِ النّابِغَةِ الذُّبْيانِيِّ «يا دارَ مَيَّةَ»:

سَرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الجَوْزاءِ سارِيَةٌ

فَلَمّا بَلَغَ إِلى قَوْلِهِ:

فَارْتاعَ مِنْ صَوْتِ كَلّابٍ فَباتَ لَهُ(٤)

قالَ: فَارتاعُ (بِضَمِّ العَيْنِ)؛ فَقيلَ لَهُ: وَيْلَكَ يا مُخارِقُ! أَتُغَنّي بِمِثْلِ هَذا الخَطَأِ القَبيحِ لِسُوقَةٍ فَضْلاً عَنِ المُلوكِ!(٥).

وَقَدْ تَوَجَّهَ الخُلَفاءُ إِلى الرَّعِيَّةِ في خُطَبِهِمْ بِلُغَةٍ عَرَبِيَّةٍ جَميلَةٍ،

---

(١) الحَرّاقة بالفتح والتشديد: ضرب من السفن فيها مرامي نيران يُرمى بها العدوّ في البحر.

(٢) ينظر: الأغاني، م. م. ج٤: ١٠٢.

(٣) مخارق، أبو المهنأ ابن يحيى الجزّار (ت ٢٣١ هـ/ ٨٤٥ م): إمام عصره في فنّ الغناء. كان مملوكاً لعاتكة بنت شهدة بالكوفة، وهي التي علمته الغناء والضرب على العود. وباعته، فصار إلى الرشيد، واتصل بعد ذلك بالمأمون. توفّي بسرّ من رأى. أخباره كثيرة جداً.

(٤) ينظر: ديوانه، ص: ٣١، ٣٢ وهو من قوله: [البسيط]

سَرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الجَوْزاءِ سارِيَةٌ ... تُزْجي عَلَيْهِ الشَّمالُ جامِدَ البَرَدِ

فَارْتاعَ مِنْ صوْتِ كَلّابٍ فَباتَ لَهُ ... طَوْعَ الشَّوامِتِ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ صَرَدِ

(٥) ينظر: الأغاني، م. م. ج١١: ٣٥.

تَتَخَلَّلُها الحِكَمُ وَالمَواعِظُ الدّينِيَّةُ وَالآياتُ القُرْآنِيَّةُ، مِنْ تِلْكَ الخُطَبِ، خُطْبَةٌ لِلْمَأمونِ بِمُناسَبَةِ عيدِ الفِطْرِ أَلْقاها في جَمْعٍ غَفيرٍ في إِحْدى سَنَواتِ حُكْمِهِ، وَمِمّا جاءَ فيها:

«إِنَّ يَوْمَكُمْ هَذا يَوْمُ عيدٍ وَسُنَّةٍ وَابْتِهالٍ وَرَغْبَةٍ، يَوْمٌ خَتَمَ اللهُ بِهِ صِيامَ شَهْرِ رَمَضانَ، وَافْتَتَحَ بِهِ حَجَّ بَيْتِهِ الحَرامِ، فَجَعَلَهُ خاتِمَةَ الشَّهْرِ وَأَوَّلَ أَيّامِ شُهورِ الحَجِّ، وَجَعَلَهُ مُعَقِّباً لِمَفْروضِ صِيامِكُمْ وَمُتَنَفَّلِ قِيامِكُمْ، أَحَلَّ فيهِ الطَّعامَ لَكُمْ وَحَرَّمَ فيهِ الصِّيامَ عَلَيْكُمْ، فَاطْلُبوا إِلى اللهِ حَوائِجَكُمْ وَاسْتَغْفِروهُ لِتَفْريطِكُمْ، فَإِنَّهُ يُقالُ: لا كَبيرَ مَعَ اسْتِغْفارٍ، وَلا صَغيرَ مَعَ إِصْرارٍ...»[1]، ثُمَّ يُتابِعُ الخُطْبَةَ وَيَسْتَشْهِدُ فيها بِآياتٍ قُرْآنِيَّةٍ، مِنْها: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾[2]، ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[3]، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[4]، ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[5][6].

يَتَبَدّى الأُسْلوبُ الجَميلُ في هَذِهِ الخُطْبَةِ مِنْ خِلالِ المُوازاةِ بَيْنَ الجُمَلِ وَتَقْطيعِها تَقْطيعاً مُتَساوِياً، وَاعْتِمادِ السَّجْعِ مِنْ دونِ إيغالٍ فيهِ، وَهُوَ أُسْلوبٌ واضِحٌ تَأَثُّرُهُ بِالبَيانِ القُرْآنِيِّ.

أَمّا مَضامينُ تِلْكَ الخُطَبِ، فَقَدْ خالَفَتِ الكَثيرَ أَوِ الأَعَمَّ مِنْ

---

(١) ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم: عيون الأخبار، نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القوميّ والمؤسّسة المصريّة العامّة للتأليف والترجمة والطباعة والنّشر، القاهرة، د. ط. ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م، ج٢: ٢٥٥.

(٢) سورة الكهف: ٤٩.

(٣) سورة الأنبياء: ٤٧.

(٤) سورة لقمان: ٣٣؛ سورة فاطر: ٥.

(٥) سورة محمّد: ٣٦.

(٦) ينظر: عيون الأخبار، م. م. ج٢: ٢٥٥.

سيرَتِهِمْ، إِذْ إِنَّهُمْ انْغَمَسوا في مَلاذِّ الحَياةِ، وَلَمْ يَتَوَرَّعوا عَنِ انْتِهاكِ الحُرَمِ، وَانْحَرَفُوا عَنْ تَعاليمِ الإِسْلامِ في المُساواةِ وَالتَّواضُعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، الأَمْرُ الّذي أدّى إِلى انْحِرافِ أساليبِهِمُ اللُّغَوِيَّةِ أَيْضاً، فَظَهَرَ فيها خِطابُ المُفْرَدِ بِضَميرِ الجَمْعِ، وَأُجْرِيَ الخِطابُ في صيغَةِ الإِخْبارِ عَنِ الغائِبِ وَما إِلى ذَلِكَ[1].

فَالمُلوكُ في ذَلِكَ العَصْرِ لَمْ تَعُدْ تُخاطَبُ بِأَسْمائِها «إِعْظاماً لَها؛ إِذْ كانَ الاسْمُ دَليلَ المَعْنى، وَجارِياً في أَكْثَرِ الاسْتِعْمالِ مَجْراهُ، حَتّى دَعا ذاكَ قَوْماً إِلى أَنْ زَعَمُوا أَنَّ الاسْمَ هُوَ المُسَمَّى، فَلَمّا أرادوا إِعْظامَ المُلوكِ وَإِكْبارَهُمْ تَجافَوْا وَتَجانَفُوا عَنِ ابْتِذالِ أَسْمائِهِم الّتي هِيَ شَواهِدُهُمْ، وَأَدِلَّةٌ عَلَيْهِمْ، إِلى الكِنايَةِ بِلَفْظِ الغَيْبَةِ، فَقالوا: إِنْ رَأى المَلِكُ أَدامَ اللهُ عُلُوَّهُ، وَنَسْأَلُهُ، حَرَسَ اللهُ مُلْكَهُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ»[2].

وَهَذا الأَمْرُ لا نَجِدُهُ في لُغَةِ القُرْآنِ الكَريمِ، فَاللهُ تَعالى ـ عَلى عُلُوِّ شَأْنِهِ، وَبَسْطَةِ مُلْكِهِ، وَقُدْرَتِهِ عَلى جَميعِ خَلْقِهِ ـ يُواجَهُ بِالتّاءِ وَالكافِ، وَلَوْ كانَ في الكِنايَةِ بِالهاءِ رِفْعَةٌ وَجلالٌ وَقَدْرٌ وَرُتْبَةٌ وَتَقْديسٌ وَتَمْجيدٌ لَكانَ اللهُ أَحَقَّ بِذَلِكَ وَمُقَدَّماً فيهِ، وَكَذَلِكَ رَسولُهُ ـ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَالأَنْبِياءُ قَبْلَهُ ـ عَلَيْهِمُ السَّلامُ ـ وَأَصْحابُهُ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ـ وَالتّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسانٍ ـ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ ـ وَهَكَذا الخُلَفاءُ، فَقَدْ كانَ يُقالُ لِلْخَليفَةِ: يا أَميرَ المُؤْمِنينَ أَعَزَّكَ اللهُ، وَيا عُمَرُ أَصْلَحَكَ اللهُ؛ وَما عابَ هَذا أَحَدٌ، وَما أَنِفَ مِنْهُ حَسيبٌ وَلا نَسيبٌ، وَلا أَباهُ كَبيرٌ وَلا شَريفٌ»[3].

فَهَذا التَّبْجيلُ أَوِ التَّعْظيمُ لِلسّادَةِ وَالكُبَراءِ نَجِدُهُ في آدابِ الأُمَمِ

---

(١) ينظر: اللّغة والمجتمع، م. م. ص: ١٢، ١٣.
(٢) الخصائص، م. م. ج٢: ١٩٠.
(٣) الإمتاع والمؤانسة، م. م. ج١: ٢١.

الأُخرى آنَذاكَ، فَالخطيبُ عِنْدَ الهُنودِ ـ مَثَلاً ـ كانَ «لا يُكَلِّمُ سَيِّدَ الأُمَّةِ بِكلامِ الأَمَةِ، وَلا المُلوكَ بِكلامِ السّوقَةِ»[1]. فَكانَتِ اللُّغَةُ الواحِدَةُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلافِ المُتَكَلِّمِ وَمُسْتَواهُ العَقْلِيِّ وَالاجْتِماعِيِّ، كَما كانَتْ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلافِ المُسْتَوى العَقْلِيِّ وَالاجْتِماعِيِّ للسّامِعِ أَيْضاً[2].

وَقَدْ روعِيَتْ عِدَّةُ قَواعِدَ اجْتِماعِيَّةٍ ـ لُغَوِيَّةٍ عِنْدَ مُخاطَبَةِ الحُكّامِ وَالكُبَراءِ، كَعَدَمِ السُّؤالِ عَنْ حالِهِمْ، لِأَنَّ «مَسْأَلَةَ المُلوكِ عَنْ حالِهِمْ مِنْ تَحِيَّةِ النَّوْكى وَتَقَرُّبِ الحَمْقى»[3].

فَكانَ السُّؤالُ عَنْهُمْ يَنْقَلِبُ مِنْ مَعْنى الاسْتِفْهامِ إِلى مَعْنى الدُّعاءِ، وَفي هَذا قالَ الفَضْلُ بْنُ الرَّبيعِ[4]: «إِذا أَرَدْتَ أَنْ تَقولَ: كَيْفَ أَصْبَحَ الأَميرُ، فَقُلْ: صَبَّحَ اللهُ الأَميرَ بِالكَرامَةِ وَالنِّعْمَةِ! وَإِذا أَرَدْتَ أَنْ تَقولَ: كَيْفَ يَجِدُ الأَميرُ نَفْسَهُ، فَقُلْ: أَنْزَلَ اللهُ عَلى الأَميرِ الشِّفاءَ وَالرَّحْمَةَ! وَالمَسْأَلَةُ تُوجِبُ الجَوابَ، فَإِنْ لَمْ يُجِبْكَ اشْتَدَّ عَلَيْكَ، وَإِنْ أَجابَكَ اشْتَدَّ عَلَيْهِ»[5].

وَكَرِهَ الحُكّامُ تَكْليفَهُمْ جَوابَ التَّشْميتِ[6]، وَالتَّهْنِئَةِ، وَالسُّؤالِ وَالتَّعْزِيَةِ[7]. وَفي هذا أَنْشَدَ يَحْيى بْنُ خالِدٍ البَرْمَكِيُّ: [الرَّجز]

---

(١) البيان والتبيين، م. م. ج١: ٩٢.
(٢) ينظر: اللغة بين الفرد والمجتمع، م. م. ص: ١٥٨.
(٣) البيان والتبيين، م. م. ج٣: ٢٧٥.
(٤) الفضل بن الربيع (ت ٢٠٨هـ/٨٢٤م): وزير، أديب، حازم. استحجبه المنصور. كان من كبار خصوم البرامكة، حتى قيل إن نكبتهم كانت على يديه. وقد ولي الوزارة من بعدهم، وأقرّه الأمين على ذلك، فعمل على مقاومة المأمون الذي عفا عنه بعد انتصاره على الأمين، ولكنه أهمله بقية حياته.
(٥) البيان والتبيين، م. م. ج٢: ٢٥٦.
(٦) تشميت العاطس: الدّعاء له بالخير.
(٧) ينظر: عيون الأخبار، م. م. ج١: ٢١.

إنَّ المُلوكَ لا يُخاطَبُونا وَلا إذا مَلّوا يُعاتَبونا
وَفي المَقالِ لا يُنازَعونا وَفي العُطاسِ لا يُشَمَّتونا
وَفي الخِطابِ لا يُكيِّفونا يُثْنى عَلَيْهِمْ وَيُبَجَّلونا
فَافْهَمْ وَصاتي لا تَكُنْ مَجْنونا[1]

وَكانَ عَلى مَنْ دَخَلَ عَلى الخُلَفاءِ وَالأُمَراءِ وَالسّادَةِ، أَنْ يُخَفِّفَ السَّلامَ، وَيُقَلِّلَ الكَلامَ، وَيُعَجِّلَ القِيامَ[2] .

وَاقْتُصِرَ السَّلامُ عَلى الخَليفَةِ دونَ الحاضِرينَ في مَجْلِسِهِ مَهْما كانَتْ مَكانَتُهُمْ وَمَنْزِلَتُهُمْ، فَعِنْدَما دَخَلَ أَبو مُسْلِمٍ الخُرَسانِيُّ[3] عَلى أَبي العَبّاسِ السَّفاحِ[4]، وَعِنْدَهُ أَبو جَعْفَرٍ المَنْصورُ، سَلَّمَ عَلى أَبي العَبّاسِ الذي سُرْعانَ ما قال لَهُ: يا أَبا مُسْلِمٍ، هَذا أَبو جَعْفَرٍ! فقالَ: يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، هَذا مَوْضِعٌ لا يُقْضى فيهِ إِلّا حَقُّكَ[5].

---

(١) ابن عبد ربّه، أحمد بن محمّد: العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياريّ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنّشر، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م، ج٢: ١٢٤.

(٢) ينظر: الثعالبيّ، عبد الملك بن محمّد: لطائف اللّطف، تحقيق الدكتور عمر الأسعد، دار المسيرة، الطّبعة الثانية، بيروت، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م، ص: ٧٢.

(٣) عبد الرحمن بن مسلم (أبو مسلم الخراساني) (ت ١٣٧هـ/ ٧٥٥م): قائد داهية مهّد لقيام الدّولة العبّاسيّة. أقام في خراسان، واستمال أهلها. وقد رأى المنصور العبّاسيّ منه ما أخافه أن يطمع بالملك، فقتله. وكان أبو مسلم فصيحاً بالعربيّة والفارسيّة.

(٤) عبد الله بن محمّد (أبو العبّاس السّفاح) (ت ١٣٦ هـ/ ٧٥٤م): أوّل خلفاء الدولة العبّاسيّة، وأحد الدهاة من ملوك العرب. بويع بالخلافة جهراً في الكوفة سنة ١٣٢ هـ لُقّب بالسفاح لكثرة ما سفح من دماء الأمويّين. بنى مدينة الهاشميّة وجعلها مقرّ خلافته. وصف بالفصاحة والعلم والأدب. توفّي شاباً بالأنبار.

(٥) ينظر: عيون الأخبار، م. م. ج١: ٢١؛ العقد الفريد، م. م. ج١: ١٧.

فَهِذِهُ السُّنَّةُ لَمْ تَكُنْ مَعْروفَةً مِنْ قَبْلُ، وَإِنَّما اسْتَنَّها زِيادُ ابْنُ أَبيهِ[1] الّذي لَمْ يُسَلِّمْ عَلى عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبّاسٍ[2] الوافِدِ على مُعاوِيَةَ[3]، فَاسْتَغْرَبَ ابْنُ عَبّاسٍ الأَمْرَ، وَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقالَ لَهُ زِيادٌ: لا يُسَلِّمُ عَلى قادِمٍ بَيْنَ يَدَيْ أَميرِ المُؤْمِنينَ! فَأَنْكَرَ ذَلِكَ ابْنُ عَبّاسٍ لِأَنَّ النّاسَ ما تَرَكوا التَّحِيَّةَ بَيْنَ يَدَيْ أُمَرائِهِمْ[4].

وَبِالإِضافَةِ إِلى اقْتِصارِ السَّلامِ عَلى الخَليفَةِ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يُكْنى في مَجْلِسِهِ، بِلِحاظِ أَنَّ الكُنْيَةَ دَليلُ الاحْتِرامِ وَالتَّبْجيلِ، وَهَذا لا يَكونُ إِلّا لِلخَليفَةِ وَنُظَرائِهِ وِفاقَ القَواعِدِ الاجْتِماعِيَّةِ التي اصْطَنَعَتْها الطَّبَقَةُ الحاكِمَةُ؛ فَفي هذا رُوِيَ أَنَّ الشَّعْبِيَّ[5] قالَ: «أَخْطَأْتُ عِنْدَ عَبْدِ المَلِكِ ابْنِ مَرْوانَ[6] في أَرْبَعٍ: حَدَّثَني بِحَديثٍ يَوْماً فَقُلْتُ: أَعِدْهُ عَلَيَّ. فَقالَ:

---

(١) زياد ابن أبيه (ت ٥٣ هـ/ ٦٧٣ م): أمير، من الدهاة، والقادة الفاتحين. اختلفوا في اسم أبيه. أمّه سميّة. أسلم في عهد أبي بكر. وألحقه معاوية بنسبه سنة ٤٤ هـ، فكان عضده الأقوى، وولّاه البصرة والكوفة وسائر العراق، فلم يزل في ولايته إلى أن توفّي.

(٢) عبد الله بن عبّاس القرشيّ (ت ٦٨هـ/ ٦٨٧م): صحابيّ لازم الرسول(ص) وروى عنه الأحاديث الصّحيحة. كان ناس يأتونه في الشعر والأنساب، وناس يأتونه لأيّام العرب ووقائعهم، وناس يأتونه للفقه والعلم. ينسب إليه كتاب في «تفسير القرآن». أخباره كثيرة.

(٣) معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب القرشي: (ت ٦٠هـ/ ٦٨٠م): مؤسّس الدّولة الأمويّة في الشّام وأحد دهاة العرب. جعله عمر والياً على الأردن ثم دمشق، وجمع له عثمان الدّيار الشّاميّة كلها. ولمّا ولي عليّ أمر بعزله، فنشبت الحروب بينهما وانتهى الأمر بإمامة عليّ في العراق وولاية معاوية في الشّام.

(٤) ينظر: العقد الفريد، م. م. ج١: ١٦، ١٧.

(٥) عامر بن شراحيل الشّعبيّ، أبو عمرو (ت ١٠٣هـ/ ٧٢٤م): راوية، من التابعين، كان فقيهاً وشاعراً وافر العلم وضرب المثل بحفظه. ولد بالكوفة وتوفّي فيها. كان نديم عبد الملك بن مروان ورسوله إلى ملك الروم. خرج مع ابن الأشعث على الحجّاج وشهد دير الجماجم، ثم عفا عنه الحجّاج.

(٦) عبد الملك بن مروان بن الحكم (ت ٨٦ هـ/ ٧٠٥م): من أعاظم الخلفاء الأمويّين =

أما عَلِمْتَ أنَّ أميرَ المُؤمِنينَ لا يُسْتَعادُ. وَقُلْتُ لَهُ حينَ أذِنَ لي عَلَيْهِ: أنا الشَّعْبِيُّ. فَقالَ: ما أدْخَلْناكَ حَتّى عَرَفْناكَ. وَكَنَيْتُ عِنْدَهُ رَجُلاً، فَقالَ: أما عَلِمْتَ أنَّهُ لا يُكْنى أحَدٌ عِنْدَ أميرِ المُؤْمِنينَ. وَحَدَّثَني بَحَديثٍ فَسَأَلْتُهُ أنْ يَكْتُبَهُ. فَقالَ: إنّا نُكَتِّبُ وَلا نَكْتُبُ»[1].

والمُلاحَظُ في هَذا الحِوارِ أيْضاً، أنَّ لُغَةَ الحُكّامِ اتَّصَفَتْ بِالتَّعالي، فَبَرَزَ فيها اسْتِعْمالِ «نا» الضَّميرِ، وَنونِ المُضارِعِ الدّالَّيْنِ على الجَمْعِ، كَقَوْلِهِ: عَرَفْناكَ؛ أدْخَلْناكَ؛ نُكَتِّبُ، لا نَكْتُبُ.

وَكَذَلِكَ اسْتُقْبِحَ الدُّعاءُ لِغَيْرِهِ في حَضْرَتِهِ؛ يَظْهَرُ ذَلِكَ فيما رَواهُ الجاحِظُ بِقَوْلِهِ: «حَدَّثَني إبْراهيمُ بْنُ السِّنْدِيِّ[2] عَنْ أبيهِ قالَ: دَخَلَ شابٌّ مِنْ بَني هاشِمٍ عَلى المَنْصورِ، فَسَألَهُ عَنْ وَفاةِ أبيهِ فَقالَ: مَرِضَ أبي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَوْمَ كَذا، وَماتَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَوْمَ كَذا، وَتَرَكَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنَ المالِ كَذا، وَمِنَ الوَلَدِ كَذا. فَانْتَهَرَهُ الرَّبيعُ[3] وَقالَ: بَيْنَ يَدَيْ أميرِ المُؤْمِنينَ تُوالي بِالدُّعاءِ لِأبيكَ؟»[4].

وَلَمْ تَكُنْ تِلْكَ القَواعِدُ واجِبَةً عَلى فِئَةٍ دونَ أُخْرى في المُجْتَمَعِ

= ودهاتهم. انتقلت إليه الخلافة بموت أبيه (سنة ٦٥ هـ) فضبط أمورها وظهر بمظهر القوّة. نقلت في أيّامه الدواوين من الفارسيّة والروميّة إلى العربيّة. هو أوّل صك الدّنانير في الإسلام، وأوّل من نقش بالعربيّة على الدّراهم.

(١) بهجة المجالس، م. م. ج١: ٣٤٢.

(٢) إبراهيم السّنديّ: (... ـ ...) أبوه السّندي بن شاهك، كان يلي الجسرين ببغداد للرشيد. كان إبراهيم من المتكلمين المعتزلة، روى عنه الجاحظ غير مرّة.

(٣) الربيع بن يونس بن محمّد بن أبي فروة كيسان، من موالي بني العبّاس (ت ١٦٩ هـ/ ٧٨٦م): وزير، من العقلاء الموصوفين بالحزم. اتخذه المنصور العبّاسيّ حاجباً ثم استوزره، فأحسن إدارة الشؤون. عاش إلى خلافة المهدي وحظي عنده، ثمّ صرفه الهادي عن الوزارة وأقرّه على دواوين الأزمّة، حتى وفاته.

(٤) البيان والتبيين، م. م. ج٢: ٣٢٨، ٣٢٩.

العَبّاسِيُّ، بَلِ اتَّبَعَها أَيْضاً المُقَرَّبونَ مِنَ الحُكّامِ، وَراعَوْا مَسائِلَ عَديدَةً في عَلاقَتِهِمْ بِهِمْ. فَكانَ عَلى المُقَرَّبِ مِنَ السُّلْطانِ أَلّا يَلْزَمَ الدُّعاءَ لَهُ في كُلِّ كَلِمَةٍ، لِأَنَّ ذَلِكَ الأَمْرَ يُشْعِرُهُمْ بِالوَحْشَةِ وَالانْقِباضِ[1]، وَأَلّا يَرُدَّ عَلَيْهِ الخَطَأَ في مَجْلِسِهِ، فَإِذا أَرادَ مُناصَحَتَهُ فَعَلَيْهِ أَنْ يُرْفِقَهُ بِكَلامِهِ، وَلا يُواجِهَهُ بِعَيْبِهِ، بَلْ يُخْبِرُهُ بِعَيْبِ غَيْرِهِ وَيَضْرِبُ لَهُ الأَمْثالَ حَتّى يَتَنَبَّهَ لِخَطَئِهِ وَعَيْبِهِ[2]. وَهَذا ما كانَ يَفْعَلُهُ يَحْيى البَرْمَكِيُّ، فَإِنْ رَأى مِنَ الرَّشيدِ «شَيْئاً يُنْكِرُهُ لَمْ يَسْتَقْبِلْهُ بِالإِنْكارِ، وَضَرَبَ لَهُ أَمْثالاً، وَحَكى لَهُ عَنِ المُلوكِ وَالخُلَفاءِ ما يوجِبُ مُفارَقَةَ ما أَنْكَرَهُ، وَيَقولُ في النَّهْيِ إِغْراءٌ، وَهُوَ مِنَ الخُلَفاءِ أَحْرى، إِنْ لَمْ تَقْصِدْ إِغْراءَهُ، إِذا نَهَيْتَهُ أَغْرَيْتَهُ»[3].

وَوَجَبَ عَلى المُقَرَّبِ مِنَ السُّلْطانِ أَيْضاً أَنْ يُكَلِّمَهُ في المَجالِسِ العامَّةِ بِما يَفْهَمُهُ حَتّى لا تَهْتَزَّ صورَتُهُ أَمامَ الرَّعِيَّةِ، وَفي هَذا قيلَ إِنَّ الأَصْمَعِيَّ دَخَلَ عَلى الرَّشيدِ بَعْدَ غَيْبَةٍ، فَقالَ لَهُ الرَّشيدُ: «يا أَصْمَعِيُّ كَيْفَ كُنْتَ بَعْدي؟ فَقالَ: ما لاقَتْني بَعْدَكَ أَرْضٌ. فَتَبَسَّمَ الرَّشيدُ. فَلَمّا خَرَجَ النّاسُ قالَ لَهُ: ما مَعْنى قَوْلِكَ ما لاقَتْني أَرْضٌ؟ قالَ: ما اسْتَقَرَّتْ بي أَرْضٌ، كَما يُقالُ فُلانٌ لا يَليقُ شَيْئاً أَيْ لا يَسْتَقِرُّ مَعَهُ شَيْءٌ. فَقالَ لَهُ: هَذا حَسَنٌ، وَلَكِنْ لا يَنْبَغي أَنْ تُكَلِّمَني بَيْنَ يَدَيِ النّاسِ إِلّا بِما أَفْهَمُهُ، فَإِذا خَلَوْتُ فَعَلِّمْني، فَإِنَّهُ يَقْبُحُ بِالسُّلْطانِ أَنْ لا يَكونَ عالِماً، إِمّا أَنْ

---

(١) ينظر: العقد الفريد، م. م. ج١: ١٢؛ وينظر أيضاً: الأبشيهيّ، محمّد بن أحمد: المستطرف في كلّ فنّ مستظرف، دار الأمم، بيروت، د. ط. د. ت. ج١: ٨٩ وفيه: «ولا تكثر الدّعاء له عند كل كلمة فإن ذَلِكَ شبيه بالوحشة والغربة».

(٢) ينظر: العقد الفريد، م. م. ج١: ١٧.

(٣) كتاب الوزراء والكُتّاب، م. م. ص: ٢٠٣.

أَسْكُتَ فَيَعْلَمَ النّاسُ إِنّي لا أَفْهَمُ إِذا لَمْ أُجِبْ، وَإِمّا أَنْ أُجيبَ بِغَيْرِ جَوابٍ فَيَعْلَمَ مَنْ حَوْلي أَنّي لَمْ أَفْهَمْ ما قُلْتَ»[1].

وَقَدِ الْتَفَتَ قُدامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ[2] إِلى ذَلِكَ فَأَكَّدَ حاجَةَ المُلوكِ إِلى التَّمَهُّرِ في العُلومِ، وَمُجالَسَةِ أَهْلِ الآدابِ وَالحُلومِ وَالحِذْقِ بِالمُحاجَةِ، وَمُقاوَمَةِ ذَوِي الجَدَلِ عِنْدَ المُخاصَمَةِ[3]. لأنّ ذَلِكَ يَزيدُ في قُوَّتِهِمْ وهَيْبَتِهِمْ، فَكُلَّما ازْدادَ الخُلَفاءُ مَعْرِفَةً، ازْدادوا مَهابَةً في أَعْيُنِ النّاسِ، وَلا سِيَّما إِذا كانَ الأَمْرُ مُتَعَلِّقاً بِمَعْرِفَةِ أَلْفاظِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَمَعانيها، نَظَراً إِلى سُلْطانِها آنَذاكَ. فَفي هَذا يُرْوى أَنَّ الرَّشيدَ سَأَلَ عَبْدَ المَلِكِ بْنَ صالِحٍ[4] بِحُضورِ سُلَيْمانَ بْنِ أَبي جَعْفَرٍ[5] وَعيسى بْنِ جَعْفَرٍ[6]: كَيْفَ رَأَيْتَ أَرْضَ كَذا وَكَذا؟ قالَ: مَسافي ريحٍ، وَمنابِتُ شيحٍ. قالَ: فَأَرْضُ

---

(١) السّيرافيّ، الحسن بن عبد الله: كتاب أخبار النّحويّين البصريّين، تحقيق فريتس كرنكو، نشرات معهد المباحث الشّرقيّة بالجزائر، المطبعة الكاثوليكيّة في بيروت وبول كتز في باريس، د. ط. ١٩٣٦م، ص: ٦٣، ٦٤.

(٢) قدامة بن جعفر البغداديّ (ت ٣٣٧هـ/٩٤٨م): كاتب من البلغاء الفصحاء المتقدّمين في علم المنطق والفلسفة، يضرب به المثل في البلاغة. من كتبه: «نقد الشّعر» و«الخراج»، و«جوهر الألفاظ»، و«السّياسة»، و«نزهة القلوب».

(٣) ينظر: ابن جعفر، قدامة: السّياسة من كتاب الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق الدكتور مصطفى الحيارى، الجامعة العمّانية، الطّبعة الأولى، الأردن، ١٩٨١م، ص: ٩٢.

(٤) عبد الملك بن صالح بن علي (ت ١٩٦ هـ/ ٨١١م): أمير من بني العبّاس، كان من أفصح النّاس وأخطبهم. تقلّب في ولاية دمشق والشّام والجزيرة زمن الهادي والرشيد والأمين. توفّي بالرّقّة.

(٥) سليمان بن أبي جعفر المنصور العبّاسيّ (ت ١٩٩ هـ/ ٨١٤ م): أمير دمشق. وليها للرّشيد ثمّ للأمين، مرّتين، وولي إمرة البصرة مرّتين أيضاً. كان حازماً عاقلاً جواداً.

(٦) عيسى بن جعفر بن المنصور العبّاسيّ (ت نحو ١٨٥هـ/ نحو ٨٠٠م): أمير عبّاسي وهو أخو زبيدة. بعثه الرشيد عاملاً على عُمان، فقاتله إمام الأزد الوارث الخروصي، فأسر ثم قُتل في السجن.

كَذا وَكَذا؟ قالَ: هِضابٌ حُمرٌ وَبِراثٌ عُفرٌ[1]. حَتّى أتى عَلى جَميعِ ما أرادَ. فَقال عيسى لِسُلَيْمانَ: وَاللهِ ما يَنْبَغي لَنا أَنْ نَرْضى لِأَنْفُسِنا بِالدُّونِ مِنَ الكَلامِ[2].

وَقَدِ اهْتَمَّ الخُلَفاءُ بِالأَدَبِ، وَاخْتَلَفَتْ رَغْبَتُهُمْ في جَوانِبِهِ وَفُنونِهِ، فَنَشَطَ طالِبو الحُظْوَةِ عِنْدَهُمْ في امْتِلاكِ نَواصيهِ بِحَسَبِ رَغْبَتِهِمْ تِلْكَ، وَهَذا ما أَكَّدَهُ أُسامَةُ بْنُ مَعْقِلٍ[3] بِقَوْلِهِ: «كانَ السَّفّاحُ راغِباً في الخُطَبِ وَالرَّسائِلِ، يَصْطَنِعُ أَهْلَها وَيُثيبُهُمْ عَلَيْها، فَحَفِظْتُ أَلْفَ رِسالَةٍ وَأَلْفَ خُطْبَةٍ طَلَباً لِلْحُظْوَةِ عِنْدَهُ فَنِلْتُها؛ وَكانَ المَنْصورُ بَعْدَهُ مَعْنِيّاً بِالأَسْمارِ وَالأَخْبارِ وَأَيّامِ العَرَبِ، يُدْني أَهْلَها وَيُجيزُهُمْ عَلَيْها. فَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ مِنَ الأَسْمارِ وَالأَخْبارِ إِلّا حَفِظْتُهُ طَلَباً لِلْقُرْبَةِ مِنْهُ، فَظَفِرْتُ بِها، وَكانَ موسى [الهادي العَبّاسِيُّ] مُغْرَماً بِالشِّعْرِ يَسْتَخْلِصُ أَهْلَهُ، فَما تَرَكْتُ بَيْتاً نادِراً، وَلا شِعْراً فاخِراً وَلا نَسيباً إِلّا حَفِظْتُهُ، وَأَعانَني عَلى ذَلِكَ طَلَبُ الهِمَّةِ في عُلُوِّ الحالِ، وَلَم أَرَ شيئاً أَدْعى إِلى تَعَلُّمِ الآدابِ مِنْ رَغْبَةِ المُلوكِ في أَهْلِها وَصِلاتِهِمْ عَلَيْها، ثُمَّ زَهِدَ هارونُ الرَّشيدُ في هَذِهِ الأَرْبَعَةِ وَأَنْسَيْتُها حَتّى كَأَنّي لَمْ أَحْفَظْ مِنْها شَيْئاً»[4].

وَكُلُّ تِلْكَ الآدابِ تُلِيَتْ بَيْنَ يَدَيِ الخَليفَةِ بِلُغَةٍ سَليمَةٍ غايَرَتْ لُغَةَ العَوامِّ عَلى مُسْتَوى اللَّفْظِ وَالمَعْنى. فَأَهْلُ الخاصَّةِ، وَلا سِيَّما الحُكّامُ، نَظَروا بِهَوانٍ إِلى العَوامِّ، وَإِلى أَساليبِهِمُ اللُّغَوِيَّةِ الَّتي رَفَضوها في

---

(١) البراث: جمع برث: الأماكن اللينة السهلة. وقوله عفر، أي حمرتها كحمرة التراب.

(٢) ينظر: البيان والتبيين، م. م. ج١: ٣٣٤.

(٣) لم أقف على ترجمته.

(٤) مختصر كتاب البلدان، م. م. ص: ٥ ، ٦.

مَجالِسِهِمْ؛ في ذَلِكَ قيلَ إنَّ إِبْراهيمَ بْنَ السِّنْدِيِّ قالَ: «بَيْنا الحَسَنُ اللُّؤْلُؤِيُّ(١) يُحَدِّثُ المَأمونَ لَيْلاً وَهُوَ بِالرَّقَّةِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ وَليُّ عَهْدٍ، وَأَطالَ الحَسَنُ الحَديثَ حَتّى نَعَسَ المَأمونَ، فَقالَ الحَسَنُ: نَعَسْتَ أَيُّها الأَميرُ! فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ وَقالَ: سوقِيٌّ وَرَبِّ الكَعْبَةِ! يا غُلامُ خُذْ بِيَدِهِ»(٢).

فَمُخاطَبَةُ أَهْلِ الخاصَّةِ، وَلا سَيِّما الخُلَفاءُ وَالوُزَراءُ وَأَشْباهُهُمُ ارْتَبَطَتْ بِمَعاييرَ اجْتِماعِيَّةٍ فَرَضَتْ نَفْسَها عَلى اللُّغَةِ، وَأَكْثَرُ ما يُظْهِرُ ذَلِكَ، رِوايَةٌ أُخرى لِإِبْراهيمَ بْنِ السِّنْدِيِّ قالَ فيها: «... كُنّا يَوْماً عِنْدَ زِيادِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَنْصورِ بْنِ زِيادٍ(٣)، وَقَدْ هَيَّأَ لَنا الفَضْلُ بْنُ مُحَمَّدٍ(٤) طَعاماً، وَمَعَنا في المَجْلِسِ خادِمٌ كانَ لِأَبيهِمْ، فَجاءَ رَسولُ الفَضْلِ إِلى زِيادٍ فَقالَ: يَقولُ لَكَ أَخوكَ: قَدْ أَدْرَكَ طَعامُنا فَتَحَوَّلوا، وَمَعَنا في المَجْلِسِ إِبْراهيمُ النَّظّامُ، وَأَحْمَدُ بْنُ يوسُفَ(٥)، وَقُطْرُبٌ النَّحْوِيُّ(٦)، في رِجالٍ مِنْ

---

(١) الحسن بن زياد الكوفيّ (الحسن اللؤلؤي) (ت٢٠٤ هـ/٨١٩ م): قاض، فقيه، من أصحاب أبي حنيفة. ولي القضاء بالكوفة سنة ١٩٤ هـ ثم استعفى. علماء الحديث يطعنون في روايته. من كتبه: «أدب القاضي»، و«معاني الإيمان»، و«النّفقات»، و«الخراج».

(٢) البيان والتبيين، م. م. ج٣: ٣٧٨. والخبر موجود في المصدر ذاته، ج٢: ٣٣٠ «... فقال اللؤلؤي: نمت أيها الأمير؟ ففتح المأمون عينيه وقال: سوقي والله، خذ يا غلام بيده».

(٣) لم أقف على ترجمته، أمّا أبوه فكان كاتباً عند البرامكة.

(٤) هو أخو زياد بن محمّد.

(٥) أحمد بن يوسف العجليّ بالولاء، المعروف بالكاتب (ت٢١٣ هـ/٨٢٨ م): وزير من كبار الكتّاب، ولي ديوان الرّسائل للمأمون، ثمّ استوزره بعد أحمد بن أبي خالد الأحول. له شعر جيّد ورسائل مدوّنة.

(٦) محمّد بن المستنير بن أحمد، المعروف بقطرب (ت ٢٠٦هـ/٨٢١م) نحوي عالم بالأدب واللغة، من أهل البصرة. أدّب أولاد أبي دلف العجليّ. من كتبه: «معاني القرآن»، و«النّوادر في اللغة»، و«الأزمنة»، و«الأضداد»، و«خلق الإنسان».

أدباءِ النّاسِ وَعُلَمائِهِمْ، فَما مِنّا أَحَدٌ فَطَنَ لِخَطَإِ الرَّسولِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ مُبَشِّرٌ الخادِمُ، فَقالَ: يا بْنَ اللَّخْناءِ، تَقِفُ عَلى رَأْسِ سَيِّدِكَ فَتَسْتَفْتِحُ الكَلامَ كَما تَسْتَفْتِحُهُ لِرَجُلٍ مِنْ عُرْضِ النّاسِ، أَلا تَقولُ: يا سَيِّدي، يَقولُ لَكَ أَخوكَ: تَرى أَنْ تَصيرَ إِلَيْنا بِإِخْوانِكَ فَقَدْ تَهَيَّأَ أَمْرُنا؟»[1].

فَلَوْ قابَلْنا بَيْنَ جُمْلَةِ رَسولِ الفَضْلِ «يَقولُ لَكَ أَخوكَ: قَدْ أَدْرَكَ طَعامُنا فَتَحَوَّلوا»، وَبَيْنَ جُمْلَةِ مُبَشِّرٍ الخادِمِ: «يا سَيِّدي، يَقولُ لَكَ أَخوكَ: تَرَى أَنْ تَصيرَ إِلَيْنا بِإِخْوانِكَ فَقَدْ تَهَيَّأَ أَمْرُنا؟» لَوَجَدْنا أَنَّ الأُولى جاءَتْ بِصيغَةِ الأَمْرِ عَلى وَجْهِ الاسْتِعْلاءِ وَالإِلْزامِ، بَيْنَما جاءَتِ الثّانِيَةُ بِصيغَةِ الاسْتِفْهامِ عَلى وَجْهِ الالْتِماسِ الرَّقيقِ، فَمُبَشِّرٌ هَذا كانَ قَدِ اعْتادَ كَلامَ أَهْلِ الخاصَّةِ، وَطَرائِقَ تَعابيرِهِمْ، وَوَسائِلَ مُخاطَبَتِهِمْ، فَمِنْ غَيْرِ المَعْقولِ أَنْ يُؤْمَروا وَهُمُ السّادَةُ الآمِرونَ.

وَقَدْ تَنَبَّهَ الشُّعَراءُ لِتِلْكَ المَعاييرِ الاجْتِماعِيَّةِ ـ اللُّغَوِيَّةِ، فَتَجَنَّبوا الأَلْفاظَ المُبْتَذَلَةَ وَالسّوقِيَّةَ عِنْدَ مَدْحِ الخُلَفاءِ، وَجَعَلوا مَعانِيَهُمْ جَزْلَةً وَأَلْفاظَهُمْ نَقِيَّةً[2]. وَتَجَنَّبوا أَيْضاً ذِكْرَ المَوْتِ عِنْدَ الخُلَفاءِ، لِأَنَّهُ لا يُوافِقُ حَياةَ التَّرَفِ وَاللَّهْوِ الَتي أَحَبُّوها؛ في هَذا قيلَ إِنَّ «بَعْضَ المُلوكِ قالَ لِأَحَدِ الشُّعَراءِ وَقَدْ أَوْرَدَ بَيْتاً ذَكَرَ فيهِ «لَوْ خُلِّدَ أَحَدُكُمْ بِكَرَمٍ لَكُنْتَ مُخَلَّداً بِكَرَمِكَ» وَقالَ كَلاماً نَحْوَ هَذا، فَقالَ المَلِكُ: إِنَّ المَوْتَ حَقٌّ، وَإِنَّ لَنا مِنْهُ نَصيباً، غَيْرَ أَنَّ المُلوكَ تَكْرَهُ ذِكْرَ ما يُنَكِّدُ عَيْشَها، وَيُنَغِّصُ لَذَّتَها، فَلا تَأْتِنا بِشَيْءٍ مِمّا نَكْرَهُ ذِكْرَهُ»[3].

---

(١) البيان والتبيين، م. م. ج٢: ٣٣٠.

(٢) ينظر: العمدة، م. م. ج٢: ١٢٨.

(٣) المرجع السابق، ج١: ٣٢٢.

وَقيلَ إِنَّ أَبا العَتاهِيَةِ كانَ في السِّجْنِ، فَأَرادَ أَنْ يُغيظَ الرَّشيدَ لِأَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْ بِإِطْلاقِهِ، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْهِ أَنْ يَعْمَلَ شِعْراً يُغَنّيهِ المَلّاحونَ حينَ يَرْكَبُ السُّفُنَ، فَنَظَّمَ لَهُ شِعْراً، ضَمَّنَهُ ذِكْرَ المَوْتِ وَغَدْرَ الدَّهْرِ. وَمِمّا جاءَ فيهِ: [مجزوء الرمل]

كَمْ رَأَيْنا مِنْ عَزيزٍ   طُوِيَتْ عَنْهُ الكُشوحُ
صاحَ مِنْهُ بِرَحيلٍ   صائِحُ الدَّهْرِ الصَّدُوحُ
مَوْتُ بَعْضِ النّاسِ في الأَرْ   ضِ عَلى قَوْمٍ فُتُوحُ
سَيَصيرُ المَرْءُ يَوْماً   جَسَداً ما فيهِ روحُ
بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ حَيٍّ   عَلَمُ المَوْتِ يَلوحُ
كُلُّنا في غَفْلَةٍ وَالْـ   ـمَوْتُ يَغْدُو وَيَروحُ
لِبَني الدُّنْيا مِنَ الدُّنْـ   ـيا غَبوقٌ وَصَبوحُ[1]
رُحْنَ في الوَشْيِ وَأَصْبَحْـ   ـنَ عَلَيْهِنَّ المُسُوحُ
كُلُّ نَطّاحٍ مِنَ الدَّ   هْرِ لَهُ يَوْمٌ نَطوحُ
نُحْ عَلى نَفْسِكَ يا مِسْـ   ـكينُ إِنْ كُنْتَ تَنوحُ
لَتَموتَنَّ وإِنْ عُمِّرْتَ ما عُمِّرَ نُوحُ[2]

وَما إِنْ سَمِعَ الرَّشيدُ هَذِهِ الأَبْياتَ في غِناءِ المَلّاحينَ حَتّى جَعَلَ يَبْكي وَيَنْتَحِبُ[3].

(١) الغبوق: ما شرب أو أكل آخر النّهار، ويقابله الصّبوح وهو ما أكل أو شرب أوّل النّهار.

(٢) ديوانه، ص: ٦٠ (وفيه «البعض» بدل «قوم»؛ «لست بالباقي ولو» بدل «لتموتن وإن» مع الإشارة إلى رواية «لتموتن» في الهامش) وسقطت عبارة: «من الدنيا» في البيت السابع علماً أن رواية هذه القصيدة في الديوان أسندت إلى كتاب الأغاني.

(٣) ينظر: الأغاني، م.م. ج٤: ١٠٣، ١٠٤.

وَكَرِهَ الخُلَفاءُ تَذْكيرَهُمْ بِما مَضى مِنْ مُدَّةِ خِلافَتِهِمْ، «لِأَنَّ فيهِ نَعْياً لَهُمْ إِلى أَنْفُسِهِمْ، وَإِنْذاراً إِيّاهُمْ لِمَجيءِ آجالِهِمْ»[1]؛ ذُكِرَ أَنَّ الرَّشيدَ عادَ الفَضْلَ بْنَ الرَّبيعِ، فَرَآهُ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ هِلالٍ[2] وَقالَ لَهُ: «الحَمْدُ للهِ يا أَميرَ المُؤْمِنينَ إِذْ خَصَّكَ بِطُولِ البَقاءِ، وَأَجازَكَ مَيْدانَ الخُلَفاءِ[3]. فَتَغَيَّرَ وَجْهُ الرَّشيدِ وَدَخَلَ، فَخَرَجَ بِعَقِبِ ذَلِكَ القاسِمُ بْنُ الرَّبيعِ يَشْتُمُ عَبْدَ المَلِكِ بْنَ هِلالٍ وَيَقولُ لَهُ: مَنْ حَمَلَكَ أَنْ تَذْكُرَ لِأَميرِ المُؤْمِنينَ ما مَضى مِنْ مُدَّةِ خِلافَتِهِ! وَاللهِ لَيَعيشَنَّ بَعْدَها أَرْبَعينَ سَنَةٍ، فَما عاشَ بَعْدَها إِلّا أَقَلَّ مِنْ سَنَةٍ»[4].

فَمِنْ أَجْلِ إِرْضاءِ رَغْبَةِ الخُلَفاءِ في العُمْرِ المَديدِ وَالعَيْشِ الهَنيءِ، أَكْثَرَ الشُّعَراءُ وَالوافِدونَ عَلَيْهِمْ مِنَ الدُّعاءِ لَهُمْ، فَكانَ يُقالُ لِلخَليفَةِ: «عِشْ أَبَداً، وَاسْلَمْ مَدَى الدَّهْرِ، وَابْقَ بَقاءَ الزَّمانِ وَدُمْ مُدَّةَ الأَيّامِ»[5]، وَأَشْباهُ ذَلِكَ مِنَ الدُّعاءِ بِطولِ العُمْرِ وَالخُلودِ!.

وَغالِباً ما رَفَضَ الخُلَفاءُ لُغَةَ المُزاحِ، لِأَنَّ «المُزاحَ يُذْهِبُ المَهابَةَ وَيورِثُ الضَّغينَةَ وَالمَهانَةَ»[6]، وَلِأَنَّهُ يَمْحو الحُدودَ القائِمَةَ بَيْنَ الحاكِمِ

---

(١) الثعالبيّ، عبد الملك بن محمّد: **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة، د. ط. ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م، ص: ١٨٨.

(٢) لم أقف على ترجمته.

(٣) ميدان الخلفاء: هو عند أصحاب الأخبار عشرون سنة إلى أربع وعشرين، وهي دوران المشتري، فكأنّها كناية عن أتم مدّة الخلافة؛ ينظر: **ثمار القلوب**، م. م. ص: ١٨٧.

(٤) المرجع السابق، م. م. ص: ١٨٧.

(٥) **العمدة**، م. م. ج١: ٢٢٤.

(٦) الثعالبيّ، عبد الملك بن محمّد: **اللطائف والظرائف في الأضداد واليواقيت في بعض المواقيت**، جمعهما أحمد بن عبد الرزاق المقدسي، المطبعة العامرة الشرفية، القاهرة، د. ط. ١٣٢٥هـ، ص: ٥٩.

وَالرَّعِيَّةِ؛ فَعَنْ رَفْضِهِمْ تِلْكَ اللُّغَةَ، قيلَ إنَّ الواثِقَ كانَ قَدْ أَذِنَ لِجُلَسائِهِ ألّا يَرُدَّ أَحَدٌ نادِرَةً عَنْ أَحَدٍ يُلاعِبُهُ، فَغَنّى الواثِقُ يَوْماً: [الطّويل]

نَظَرْتُ كَأَنِّي مِنْ وَراءِ زُجاجَةٍ   إلى الدّارِ مِنْ ماءِ الصَّبابَةِ أَنْظُرُ[1]

وَكانَ النَّبيذُ قَدْ عَمِلَ فيهِ وَفي الجُلَساءِ، فَانْبَعَثَ إِلَيْهِ المَسْدودُ[2] فَقالَ: أَنْتَ تَنْظُرُ أَبَداً مِنْ وَراءِ زُجاجَةٍ، إنْ كانَ في عَيْنَيْكَ ماءُ صَبابَةٍ أَوْ لَمْ يَكُنْ، فَغَضِبَ الواثِقُ من ذَلِكَ وَكانَ في عَيْنَيْهِ بَياضٌ، فَنَفاهُ إِلى عُمانَ، وَبَعْدَ سَنَةٍ اشْتاقَ إِلَيْهِ فَأَرْسَلَ في طَلَبِهِ، وَلَمّا وَصَلَ اعْتَذَرَ مِنْ هَفْوَتِهِ، فَقالَ لَهُ الواثِقُ: قَبَّحَكَ اللهُ ما أَجْهَلَكَ! وَيْلَكَ! لا تُعاوِدْ بَعْدَها مُمازَحَةَ خَليفَةٍ وَإِنْ أَذِنَ لَكَ في ذَلِكَ، فَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يَحْضُرُهُ حِلْمُهُ كَما حَضَرَني فيكَ[3].

يُسْتَشَفُّ مِنْ هَذا النَّصِّ، إِلى جانِبِ ما تَقَدَّمَ، مَجْموعَةٌ مِنَ الضَّوابِطِ الاجْتِماعِيَّةِ الّتي حَكَمَتْ لُغَةَ مُخاطَبَةِ الحُكّامِ، مِنْها احْتِرامُ المَوْقِعِ السِّياسِيِّ وَالاجْتِماعِيِّ لِأُولَئِكَ الحُكّامِ، وَعَدَمُ تَجاوُزِهِ حَتّى في

---

(١) البيت لأبي حيّة النميريّ وقيل لغيره؛ ينظر: أبو عبيد البكريّ، عبد الله بن عبد العزيز: **سمط اللآلي في شرح أمالي القالي**، تحقيق عبد العزيز الميمني، [مصوّر عن الطّبعة المصرية ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٦م]، دار الكتب العلميّة، د. ط. د. ت. مج١: ٢٦٥. وهو في ديوانه، ينظر: **شعر أبي حيّة النميريّ**، جمعه وحقّقه الدكتور يحيى الجبّوري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الطّبعة الأولى، دمشق، ١٩٧٥م، ص: ١٤٧.

(٢) المسدود (... ـ ...) مغن من أهل بغداد، كان من أشجى النّاس صوتاً وأحضرهم نادرة. قيل إنّ اسمه الحسن، وكنيته أبو عليّ. كان مسدود فرد منخر ومفتوح الآخر، وكان يقول: لو كان منخري الآخر مفتوحاً لأذهلت بغنائي أهل الحلوم وذوي الألباب، بوشغلت من سمعه عن أمر دينه ودنياه ومعاشه ومعاده.

(٣) ينظر: **الأغاني**، م. م. ج٢٠: ٢٨٩، ٢٩٠.

مَجالِسِ اللَّهْوِ، وَالامْتِناعُ عَنْ مُمازَحَتِهِمُ الَّتي قَدْ تُخْسِرُ الفاعِلَ حَياتَهُ؛ وَلِذا كانَ أَهْلُ العَقْلِ وَالحِكْمَةِ يُوصونَ قائِلينَ: «لا تُمازِحْ لَبيباً أَوْ سَفيهاً، فَإِنَّ اللَّبيبَ يَحْقِدُ عَلَيْكَ وَالسَّفيهَ يَتَجَرَّأُ عَلَيْكَ»[1].

نَسْتَنْتِجُ مِمّا مَرَّ أَنَّ لُغَةَ القَوْمِ في مُقابِلِ لُغَةِ السَّلاطينَ كانَتْ لُغَةً سالِبَةً، إِنْ صَحَّ التَّعْبيرُ، ومَحْكومَةً بِأَذْواقِ الطَّبَقَةِ الحاكِمَةِ وَأَعْرافِها، خاضِعَةً لَها بِخُضوعِ مُتَكَلِّميها لِلْحُكّامِ، وَمَعَ هَذا اسْتَطاعَ عَدَدٌ كَبيرٌ مِنَ الأَفْرادِ أَنْ يَكْسِروا القُيودَ المَفْروضَةَ عَلى لُغَتِهِمْ، فَحَرَّروها مِنْ غِلِّ الأَعْرافِ وَالتَّقاليدِ الَّتي فُرِضَتْ عَلَيْها، فَانْطَلَقوا يُجابِهونَ الخُلَفاءَ وَنُظَراءَهُمْ بِلُغَةٍ جَريئَةٍ خالَفَتِ المُتَعارَفَ عَلَيْهِ مِنَ الأَساليبِ اللُّغَوِيَّةِ الَّتي سادَت في مَجالِسِهِمْ. وَظَهَرَ جَلِيّاً اسْتِعانَتُهُمْ بِلُغَةِ القُرْآنِ الكَريمِ الَّتي تَغَلْغَلَتْ بَيْنَ كُلِّ الطَّبَقاتِ وَالفِئاتِ الاجْتِماعِيَّةِ، وَهُنا نَماذِجُ لِمِثْلِ هَؤُلاءِ الأَفْرادِ وَمُخاطَبَتِهِمُ السَّلاطينَ:

قيلَ إِنَّ هارونَ الرَّشيدَ كانَ يَخْطُبُ بِمَكَّةَ، فَقامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ وَقالَ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[2].

فَهَذا الرَّجُلُ لَمْ يَقُلْ شَيْئاً سِوَى آيَةٍ مِنْ كِتابِ اللهِ، وَلَكِنَّ الرَّشيدَ فَهِمَ مَغْزَى كَلامِهِ، وَهُوَ التَّعْريضُ بِأَفْعالِ الخَليفَةِ الَّتي خالَفَتْ أَقْوالَهُ؛ وَلَمّا كانَ الحُكْمُ جائِراً أَمِرَ بِالرَّجُلِ فضُرِبَ مِئَةَ سَوْطٍ[3].

وَيُرْوى أَنَّهُ «وُصِفَ لِلْمَأْمونِ عُلَيّانُ المَجْنونُ فَأَمَرَ بِإِحْضارِهِ، فَلَمّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ ازْدَراهُ وَأَمَرَ أَنْ يَجْلِسَ في مَجْلِسِ العامَّةِ ثُمَّ قالَ لَهُ: ما

---

(١) ينظر: المستطرف، م. م. ج١: ١٢٢.

(٢) سورة الصّف: ٣.

(٣) العقد الفريد، م. م. ج١: ٥٣؛ وينظر في المصدر نفسه، ج١: ٥٤، ٥٥ (ما دار بين المنصور وابن طاووس).

اسْمُكَ؟ قالَ: اسْمي عُلَيّانُ. فَضَحِكَ مِنْهُ، فَقالَ لَهُ عُلَيّانُ: يا أَميرَ المُؤْمِنينَ! قالَ اللهُ في كِتابِهِ العَزيزِ: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾(١). فَهابَهُ المَأْمونُ وَرَفَعَ مَنْزِلَتَهُ»(٢).

وَقيلَ إِنَّ عَقيلَ بْنَ أَبي طالِبٍ(٣) كانَ عِنْدَ مُعاوِيَةَ، فَقالَ مُعاوِيَةُ: «يا أَهْلَ الشّامِ، هَلْ سَمِعْتُمْ قَوْلَ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالى في كِتابِهِ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾(٤)؟ قالوا: نَعَمْ. قال: فَإِنَّ أَبا لَهَبٍ(٥) عَمُّهُ. فَقالَ عَقيلٌ: فَهَلْ سَمِعْتُمْ قَوْلَ اللهِ: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾(٦)؟ قالوا: نَعَمْ. قالَ: فَإِنَّها عَمَّتُهُ(٧)»(٨).

وَيُرْوى أَنَّ رَجُلاً وَرَدَ عَلى الحَجّاجِ بْنِ يوسُفَ وَقالَ لَهُ: «أَصْلَحَ اللهُ الأَميرَ، أَرْعِني سَمْعَكَ، وَاغْضُضْ عَنّي بَصَرَكَ، وَاكْفُفْ عَنّي غَرْبَكَ، فَإِنْ سَمِعْتَ خَطَأً أَوْ زَلَلاً فَدونَكَ والعُقوبَةَ. قالَ: قُلْ. فَقالَ: عَصى عاصٍ مِنْ عُرْضِ العَشيرَةِ فَحُلِّقَ عَنِ اسْمي، وَهُدِمَ مَنْزِلي، وَحُرِمْتُ عَطائي. قالَ: هَيْهاتَ! أَوَ ما سَمِعْتَ قَوْلَ الشّاعِرِ: [الكامل]

---

(١) سورة هود: ٣٨، ٣٩.

(٢) المكّيّ، عبّاس بن علي: نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس، منشورات المطبعة الحيدريّة في النّجف، العراق، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م، ج١: ٥٩١.

(٣) عقيل بن أبي طالب (عبد مناف) بن عبد المطّلب (ت ٦٠هـ/ ٥٨٠م): أخو الإمام عليّ وجعفر لأبيهما. كان أعلم قريش بأيّامها ومآثرها ومثالبها وأنسابها. فارق أخاه عليّاً في خلافته، فوفد إلى معاوية في دَيْن لحقه. توفّي أيّام يزيد بن معاوية.

(٤) سورة المسد: ١.

(٥) هو عبد العزّى بن عبد المطّلب (ت ٢هـ/ ٦٢٤م) كان من أشدّ النّاس عداوة للمسلمين مات بعد وقعة بدر بأيام ولم يشهدها. (كان أحمر الوجه مشرقاً، فلقب في الجاهليّة بأبي لهب).

(٦) سورة المسد: ٤.

(٧) أي عمّة معاوية أمّ جميل بنت حرب بن أميّة.

(٨) البيان والتبيين، م. م. ج٢: ٣٢٦، ٣٢٧.

جَانيكَ مَنْ يَجْنِي عَلَيْكَ وَقَدْ ... تُعْدي الصِّحَاحَ مَبَارِكَ الجَرَبْ
وَلَرُبَّ مَأْخوذٍ بِذَنْبِ عَشيرَةٍ ... وَنَجا المُقارِفُ صاحِبُ الذَّنْبِ[1]

فَقالَ: أَصْلَحَ اللهُ الأَميرَ، إنّي سَمِعْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقولُ غَيْرَ هَذا. قالَ: وَما ذاكَ؟ قالَ: قالَ اللهُ تَعالى: ﴿قَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾[2].

قالَ الحَجّاجُ: عَلَيَّ بِيَزيدَ بْنِ أَبي مُسْلِمٍ[3] فَمَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ. فَقالَ افْكُكْ لِهَذا عَنِ اسْمِهِ، وَاصْكُكْ لَهُ بِعَطائِهِ، وَابْنِ لَهُ مَنْزِلَهُ، وَمُرْ مُنادِياً يُنادي: صَدَقَ اللهُ وَكَذَبَ الشّاعِرُ[4].

يَتَّضِحُ لَنا أَنَّ الخُلَفاءَ وَنُظَراءَهُمْ في الحُكْمِ حَرَصوا عَلى سَلامَةِ لُغَتِهِمْ مِنَ اللَّحْنِ لِأَسْبابٍ اجْتِماعِيَّةٍ وَسِياسِيَّةٍ، أَبْرَزُها تَمْييزُ أَنْفُسِهِمْ عَنْ سائِرِ الطَّبَقاتِ، وَلا سِيَّما الطَّبَقاتُ الدُّنْيا، وَتَكْريسُ مَهابَتِهِمْ وَسُلْطانِهِمْ.

---

(1) من أبيات قالها ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم، وتمثّل بهما الحجّاج؛ راجع: المفضّل بن محمّد الضبيّ: أمثال العرب، قدّم له وعلّق عليه الدكتور إحسان عبّاس، دار الرائد العربيّ، الطّبعة الأولى، بيروت، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م، ص: ٨١ (باختلاف). وجاء مباركَ بالنصب على التمييز، ويروى مباركُ الجربِ على الإقواء.

(2) سورة يوسف: ٧٨، ٧٩.

(3) هو يزيد بن دينار الثّقفيّ، أبو العلاء (ت ١٠٢ هـ/ ٧٢٠ م): وال من الدهاة، جعله الحجّاج كاتباً له، واستخلفه على الخراج بالعراق. ولي إمارة إفريقية سنة ١٠١هـ ليزيد بن عبد الملك، فقتله جماعة من أهلها بعدما عزم أن يسير بهم بسيرة الحجّاج. (تاريخ الرسل والملوك، م. م. ج٦: ٦١٧، أحداث سنة ١٠٢هـ).

(4) العقد الفريد، م. م. ج١: ٣٠، ٣١.

وَاتَّصَفَتْ أساليبُهُمُ اللُّغَوِيَّةُ بِالتَّعالي مُنْسَجِمَةً في ذَلِكَ مَعَ ما أَدْخَلَتْهُ الأُمَمُ المَغْلوبَةُ مِنْ عاداتٍ وَتَقاليدَ كَرَّسَتْ تَبْجيلَ الخَليفَةِ وَتَعْظيمَهُ، فَاسْتَجابَ لِهَذا الواقِعِ اللُّغَوِيِّ ـ الاجْتِماعِيِّ جُمْهورٌ مِنَ النّاسِ، في حينِ عارَضَهُ آخَرونَ.

وَمِثْلَما كانَ لِأَهْلِ الحُكْمِ لُغَةٌ خاصَّةٌ، كانَ لِلْكُتّابِ لُغَةٌ لَها ضَوابِطُها وَأَوْصافُها كَما سَيَتَبَيَّنُ لَنا في الفَصْلِ الآتي.

الفَصْلُ السّابِعُ

لُغَةُ الكُتّابِ وَالأُدَباءِ

عُدَّ الكتَّابُ وَالأُدَباءُ مِنْ أَهْلِ الخاصَّةِ في العَصْرِ العَبّاسِيِّ، وَكانَتْ لَهُمْ مَكانَةٌ مَرْموقَةٌ أَشارَ إِلَيْها الجاحِظُ في سِياقِ حَديثِهِ عَنْ خادِمٍ «كانَ قَدْ خَدَمَ أَهْلَ الثَّرْوَةِ وَاليَسارِ، وَأَشْباهَ المُلوكِ، فَمَرَّ بِهِ خادِمٌ مِنْ مَعارِفِهِ مِمَّنْ قَدْ خَدَمَ المُلوكَ فَقالَ لَهُ: إِنَّ الأَديبَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَلِكاً فَقَدْ يَجِبُ عَلى الخادِمِ أَنْ يَخْدُمَهُ خِدْمَةَ المُلوكِ، فَانْظُرْ أَنْ تَخْدُمَهُ خِدْمَةً تامَّةً»[1].

وَقَدْ أَطْلَقَ الأُدَباءُ أَعِنَّةَ أَقْلامِهِمْ في الكِتابَةِ وَالتَّأْليفِ، بَعْدَ أَنْ أَخَذوا طَرَفاً مِنْ كُلِّ فَنٍّ[2]، فَباتوا أَشْبَهَ بِمَوْسوعَةٍ تَعْكِسُ مُجْمَلَ الأَوْضاعِ في العَصْرِ العَبّاسِيِّ، وَأَفْضَلُ كاتِبٍ انْبَرى لِلْكِتابَةِ الواقِعِيَّةِ وَالمَوْضوعِيَّةِ، هُوَ الجاحِظُ الذي تُعَدُّ مُؤَلَّفاتُهُ مَصْدَراً مُهِمّاً يُضيءُ لَنا أَحْوالَ ذَلِكَ العَصْرِ.

---

(١) البيان والتبيين، م. م. ج٢: ٣٣١.

(٢) ينظر: الأصبهاني، الحسين بن محمّد (الراغب): محاضرات الأدباء ومحاورات الشّعراء والبلغاء، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ط. ١٩٦١م، ج١: ٥١ «... إذا أردت أن تكون عالماً فاقصد فنّاً واحداً، وإذا أردت أن تكون أديباً فخذ طرفاً من كل فن».

وَقَدْ أشارَ الجاحِظُ إلى أهَمِيَّةِ القَلَمِ، وَهُوَ مِنْ عُدَّةِ الكاتِبِ، وَإلى مَنافِعِ الكِتابِ، فَقالَ: «فَمِمّا ذَكَرَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالى في كِتابِهِ مِنْ فَضيلَةِ الخَطِّ وَالإِنْعامِ بِمَنافِعِ الكِتابِ قَوْلُهُ لِنَبِيِّهِ ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1] وَأَقْسَمَ بِهِ في كِتابِهِ المُنْزَلِ عَلى نَبِيِّهِ المُرْسَلِ حَيْثُ قالَ: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[2]. وَلِذَلِكَ قالوا: القَلَمُ أَحَدُ اللِّسانَيْنِ... وَقالوا القَلَمُ أَبْقى أَثَراً وَاللِّسانُ أَكْثَرُ هَذَراً... وَقالوا اللِّسانُ مَقْصورٌ عَلى القَريبِ الحاضِرِ، وَالقَلَمُ مُطْلَقٌ في الشّاهِدِ وَالغائِبِ، وَهُوَ للغابِرِ الحائِنِ[3] مِثْلُهُ لِلْقائِمِ الرّاهِنِ.

وَالكِتابُ يُقْرَأُ بِكُلِّ مَكانٍ، وَيُدْرَسُ في كُلِّ زَمانٍ، وَاللِّسانُ لا يَعْدو سامِعَهُ وَلا يَتَجاوَزُهُ إلى غَيْرِهِ»[4].

وَقَلَّما نَجِدُ أديباً لَمْ يَتَوَلَّ الكِتابَةَ الرَّسْمِيَّةَ في دَواوينِ الدَّوْلَةِ العَبّاسِيَّةِ. فَقَدْ كانَتْ هَذِهِ الوَظيفَةُ جَليلَةً وَخَطيرَةً، وَوُصِفَتْ بِأَنَّها «أُسُّ المُلْكِ، وَعِمادُ المَمْلَكَةِ، وَأَغْصانٌ مُتَفَرِّعَةٌ مِنْ شَجَرَةٍ واحِدَةٍ، وَهِيَ قُطْبُ الأَدَبِ، وَفَلَكُ الحِكْمَةِ، وَلِسانٌ ناطِقٌ، وَهِيَ نورُ العِلْمِ، وَتَذْكِيَةُ العُقولِ، وَمَيْدانُ الفَضْلِ وَالعَدْلِ، وَهِيَ زينَةٌ وَحِلْيَةٌ، وَلَبوسٌ وَجَمالٌ وَهَيْئَةٌ، وَرُوحٌ جارٍ في أَحْكامٍ مُتَفَرِّقَةٍ»[5].

---

(١) سورة العلق: ٣، ٤، ٥.

(٢) سورة القلم: ١.

(٣) الحائن: الهالك.

(٤) البيان والتبيين، م. م. ج١: ٧٩، ٨٠.

(٥) النّحّاس، أحمد بن محمّد: صناعة الكُتّاب، تحقيق الدكتور أحمد ضيف، دار العلوم العربيّة، الطّبعة الأولى، بيروت، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م، ص: ٢٧٠.

فَالكِتابَةُ عُدَّتْ «مِنْ أعْلى الصِّناعاتِ وَأكْرَمِها وَأسْمَقِها بِأصْحابِها إلى مَعالي الأمورِ وَشَرائِفِ الرُّتَبِ»[1].

وَكانَ جُلُّ كُتَّابِ الدَّوْلَةِ العَبّاسِيَّةِ مِنْ أصْلٍ فارِسِيٍّ، وَتَوَلّى كَثيرٌ مِنَ الوُزَراءِ الكِتابَةَ بِأنْفُسِهِمْ لِأنَّ «مِنْ شُروطِ الوَزيرِ أنْ يَكونَ عالِماً مُطَّلِعاً كاتِباً بَليغاً»[2].

وَمَعَ تَنْظيمِ إدارَةِ الدَّوْلَةِ وَسَعَةِ أراضيها، أضْحى الكُتّابُ عَلى خَمْسَةِ أصْنافٍ: «فَكاتِبُ رَسائِلَ يَحْتاجُ إلى أنْ يَعْرِفَ الفَصْلَ مِنَ الوَصْلِ، وَالصُّدورَ، وَالتَّهانِيَ، وَالتَّعازِيَ، وَالتَّرْغيبَ، وَالتَّرْهيبَ، وَالمَقْصورَ وَالمَمْدودَ، وَجُمَلاً مِنَ العَرَبِيَّةِ؛ وَكاتِبُ خَراجٍ يَحْتاجُ إلى أنْ يَعْرِفَ الزَّرْعَ وَالمِساحَةَ، وَالأشْوالَ[3] وَالطَّسوقَ[4]، وَالتَّقْسيطَ، وَالحِسابَ؛ وَكاتِبُ جُنْدٍ يَحْتاجُ إلى أنْ يَعْرِفَ مَعَ الحِسابِ الأطْماعَ[5]، وَشِياتِ الدَّوابِ، وَحُلِيَّ[6] النّاسِ؛ وَكاتِبُ قاضٍ يَحْتاجُ إلى أنْ يَكونَ عالِماً بِالشُّروطِ وَالأحْكامِ وَالفُروعِ وَالنّاسِخِ وَالمَنْسوخِ وَالحَلالِ وَالحَرامِ وَالمَواريثِ؛

---

(١) الهمذانيّ، عبد الرحمن بن عيسى: كتاب **الألفاظ الكتابيّة**، ضبطه الأب لويس شيخو اليسوعي، مطبعة الآباء اليسوعيين، الطبعة الثامنة، بيروت، ١٩١١م، مقدّمة الكتاب، ص: ٤. وعن مكانة الكتّاب أيضاً، ينظر: **العقد الفريد**، م. م. ج٤: ٧٩.

(٢) **ضحى الإسلام**، م. م. ج١: ١٦٦.

(٣) الشول: بقيّة الماء في السّقاء والدّلو، وقيل: هو الماء القليل الذي يكون في أسفل القربة والمزادة، والجمع أشوال.

(٤) الطّسوق، جمع طسق: ما يوضع من الوظيفة على الجربان من الخراج المقرّر على الأرض. وقيل مكيال أعجميّ معرّب؛ ينظر: **كتاب الألفاظ الفارسيّة المعرّبة**، م. م. ص: ١١٣.

(٥) الأطماع: الرواتب الجارية على الجند في الأوقات التي يستحقّونها على ما يقتضيه كل زمن.

(٦) حليّ، بضم الحاء وكسر اللام وتشديد الياء، جمع حلية: الصّنعة.

وَكاتِبُ شُرْطَةٍ يَحْتاجُ إِلى أَنْ يَكونَ عالِماً بِالجُروحِ وَالقِصاصِ وَالعُقولِ[1] وَالدِّياتِ»[2]، وَكانوا جَميعاً يُؤَلِّفونَ وَحْدَةً عَلى رَأْسِها الوَزيرُ[3].

وَلِديوانِ الرَّسائِلِ أَهَمِّيَّةٌ بالِغَةٌ لِأَنَّهُ «مِنْ أَهَمِّ ما يَدورُ عَلَيْهِ مِحْوَرُ السِّياسَةِ العامَّةِ للدَّوْلَةِ»[4]، وَقَدْ أُسْنِدَ هَذا الدّيوانُ إِلى الجاحِظِ بَعْدَ أَنْ رَأى المَأْمونُ غَزارَةَ عِلْمِهِ وَبَلاغَةَ كِتاباتِهِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَمْكُثْ فيهِ سِوَى ثَلاثَةِ أَيّامٍ، وَآثَرَ الكِتابَةَ وَالتَّأْليفَ دونَ التَّقَيُّدِ بِوَظيفَةٍ رَسْمِيَّةٍ تُحَدِّدُ لَهُ طَبيعَةَ المُكاتَباتِ.

عَلى أَنَّ الكُتّابَ تَنافَسوا في تَوَلّي هَذا المَنْصِبِ، لِمَوْقِعِهِ الاجْتِماعِيِّ المُتَقَدِّمِ، فَكانوا «يَتَبارَوْنَ عَلى اقْتِناءِ الفَضيلَةِ. وَيَتَرَفَّعونَ عَلى أَنْ يَعْلَقَ بِهِمْ مِنَ الجَهْلِ أَدنى رَذيلَةٍ. وَيَجْهَدونَ في مَعْرِفَةِ ما يُحَسِّنُ أَلْفاظَهُمْ، وَيُزَيِّنُ مُكاتَباتِهِمْ، لِيَنالوا بِذَلِكَ أَرْفَعَ رُتْبَةٍ، وَيَفوزوا بِأَعْظَمِ مَنْزِلَةٍ»[5]، أَيْ أَنَّ الخُلُقَ القَويمَ، وَالكَمَّ المَعْرِفِيَّ، وَاللُّغَةَ السَّليمَةَ مُقَوِّماتٌ شَكَّلَتْ مِعْراجاً عَرَجَ فيهِ الكاتِبُ لِيَصِلَ إِلى مَكانَةٍ اجْتِماعِيَّةٍ عُلْيا، وَقَدْ نَجَحَ كَثيرٌ مِنَ الكُتّابِ في ذَلِكَ، حَتّى قالَتِ المُلوكُ فيهِمْ: «هُمْ نِظامُ الأُمورِ، وَكَمالُ المُلْكِ، وَبَهاءُ السُّلْطانِ، وَهُمُ الأَلْسِنَةُ النّاطِقَةُ عَنِ المُلوكِ، وَخُزّانُ أَمْوالِهِمْ، وَأُمَناؤُهُمْ عَلى رَعِيَّتِهِمْ وَبِلادِهِمْ»[6].

---

(١) العقول، جمع عقال: صدقة عام.
(٢) العقد الفريد، م. م. ج٤: ١٧٦، ١٧٧؛ صبح الأعشى، م. م. ج١: ١٤٢، ١٤٣ (مع اختلاف فيه).
(٣) ينظر: ضحى الإسلام، م. م. ج١: ١٦٨.
(٤) أدب الجاحظ، م. م. ص: ٣٥.
(٥) صبح الأعشى، م. م. ج١: ٥٠.
(٦) كتاب الوزراء والكتّاب، م. م. ص: ٤.

وَأَشْهَرُ هَؤلاءِ في العَصْرِ العَبّاسِيِّ، عَبْدُ اللهِ بْنُ المُقَفَّعِ[1]، وَيَحْيى ابْنُ خالِدٍ، وَجَعْفَرُ بْنُ يَحْيى، وَالفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ[2]، وَالحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ، وَأَحْمَدُ بْنُ يوسُفَ، وَعَمْرو بْنُ مَسْعَدَةَ[3]، وابنُ الزَّيّاتِ، وَالحَسَنُ بْنُ وَهَبٍ[4]، وَإبْراهيمُ بْنُ العَبّاسِ الصّولِيُّ.

وَكانَتْ كِتاباتُ الكُتّابِ الحُذّاقِ مِثالاً للبَلاغَةِ، وَقُدْوَةً للمُبْتَدِئينَ في هَذِهِ الصِّناعَةِ، حَتّى قالَ الجاحِظُ إنَّهُ لَمْ يَرَ «أَمْثَلَ طَريقَةٍ في البَلاغَةِ مِنَ الكُتّابِ؛ فَإنَّهُمُ الْتَمَسُوا مِنَ الأَلْفاظِ ما لَمْ يَكُنْ مُتَوَعِّراً وَحْشِيّاً، وَلا ساقِطاً سُوقِيّاً»[5].

فَجَعْفَرُ بْنُ يَحْيى ـ عَلى سَبيلِ المِثالِ ـ «كانَ أَنْطَقَ النّاسِ، قَدْ جَمَعَ الهُدوءَ وَالتَّمَهُّلَ، وَالجَزالَةَ وَالحَلاوَةَ، وَإفْهاماً يُغْنيهِ عَنِ الإعادَةِ»[6]، وَكانَتْ كِتاباتُهُ مِثالاً للبَلاغَةِ حَتّى إنَّ تَوقيعاتِهِ نُسِخَتْ وَبَلاغاتِهِ دُرِسَتْ[7]،

---

(١) **عبد الله بن المقفّع** (ت١٤٢ هـ/٧٥٩م): من أئمّة الكتّاب، فارسيّ الأصل، أوّل من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق. ولي كتابة الدّيوان للمنصور وترجم له كتباً في المنطق، وترجم كتاب كليلة ودمنة. وله رسائل غاية في الإبداع، منها «الأدب الصّغير والأدب الكبير»، و«رسالة الصّحابة». اتهم بالزندقة فقتل.

(٢) **الفضل بن سهل السرخسيّ** (ت ٢٠٢ هـ/٨١٨م): وزير المأمون وقائد جيشه، وكان يلقب بذي الرياستين (الحرب والسّياسة). كان حازماً فصيحاً. مولده ووفاته في سرخس (بخراسان) قتل غيلة.

(٣) **عمرو بن مسعدة، أبو الفضل الصوليّ** (ت ٢١٧ هـ/ ٨٣٢ م): وزير المأمون الذي رفع مكانته وأغناه، وأحد الكتّاب البلغاء، وفي كتب الأدب كثير من رسائله وتوقيعاته. وكان جواداً نبيلاً. توفّي في أذنة (أطنه) بتركية.

(٤) **الحسن بن وهب الحارثيّ** (ت نحو٢٥٠هـ/ نحو ٨٦٥ م): كاتب من الشّعراء. استكتبه الخلفاء العبّاسيّون، مدحه أبو تمّام، ولما مات رثاه البحتريّ.

(٥) **البيان والتبيين**، م. م. ج١: ١٣٧.

(٦) المرجع السابق، ج١: ١٠٥، ١٠٦.

(٧) ينظر: **كتاب الوزراء والكُتّاب**، م. م. ص: ٢٠٤.

وَعِنْدَما سُئِلَ عَنِ البَيانِ قالَ: أَنْ يَكونَ الاسْمُ يُحيطُ بِمَعْناكَ، وَيُجَلّي عَنْ مَغْزاكَ، وَتُخْرِجُهُ مِنَ الشَّرِكَةِ، وَلا تَسْتَعينُ عَلَيْهِ بِالفِكْرَةِ. وَالذي لا بُدَّ مِنْهُ أَنْ يَكونَ سَليماً مِنَ التَّكَلُّفِ، بعيداً مِنَ الصَّنْعَةِ، بَريئاً مِنَ التَّعَقُّدِ، غَنِيّاً عَنِ التَّأويلِ»[1].

وَفي مُقابِلِ هَؤُلاءِ الكُتّابِ، وُجِدَ مَنْ تَصَدَّرَ لِلكِتابَةِ وَلَمْ يَكُنْ أَهْلاً لِذَلِكَ، فلازَمَهُمْ هِجاءُ الشُّعَراءِ وَسُخْرِيَةُ الأُدَباءِ[2].

وَللجاحِظِ رِسالَةٌ في «ذَمِّ أَخْلاقِ الكُتّابِ» تَعَرَّضَ فيها لِلّذينَ قَصَّروا في صِناعَتِهِمْ، فَانْتَقَدَ الكاتِبَ الذي لَمْ يَجْعَلِ «القُرْآنَ سَميرَهُ، وَلا عِلْمَهُ تَفْسيرَهُ، وَلا التَّفَقُّهَ في الدِّينِ شِعارَهُ، وَلا الحِفْظَ لِلسُّنَنِ وَالآثارِ عِمادَهُ، فَإِنْ وُجِدَ الواحِدُ مِنْهُمْ ذاكِراً شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِدَوَرانِ فَكَّيْهِ بِهِ طَلاقَةٌ، وَلا لِمَجيئِهِ مِنْ حَلاوَةٍ»[3]. وَكَذَلِكَ انْتَقَدَ الكاتِبَ الذي «رَجَعَ بِذِكْرِ السُّنَنِ إلى المَعْقولِ، وَمُحْكَمِ القُرْآنِ إلى المَنْسوخِ، وَنَفى ما لا يُدْرَكُ بِالعِيانِ، وَشَبَّهَ بِالشّاهِدِ الغائِبَ، لا يَرْتَضي مِنَ الكُتُبِ إِلّا المَنْطِقَ»[4].

مِنْ خِلالِ ما قالَهُ الجاحِظُ في الكُتّابِ، نَسْتَطيعُ أَنْ نَسْتَشِفَّ مَداميكَ الثَّقافَةِ الّتي وَجَبَ عَلى الكاتِبِ أَنْ يَبْنِيَ عَلَيْها بُنْيانَ كِتاباتِهِ، وَهِيَ: عُلومُ القُرْآنِ، وَالفِقْهُ، وَحِفْظُ الأَحاديثِ النَّبَوِيَّةِ وَالأَحْداثِ

---

(١) البيان والتبيين، م. م. ج١: ١٠٦.

(٢) على سبيل المثال، ينظر: صبح الأعشى، م. م. ج١: ٤٧؛ أيضاً: العقد الفريد، م. م. ج٤: ١٧١.

(٣) الجاحظ، عمرو بن بحر: رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، د. ط. ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤م، ج١: ١٩٤.

(٤) المرجع السابق، ج١: ١٩٤.

التّارِيخيَّةِ، ثُمَّ صِياغَةُ كُلِّ ذَلِكَ بِأُسْلوبٍ بَليغٍ. وَكانَتِ اللُّغَةُ السّليمَةُ تَرْجُمانَ تِلْكَ العُلومِ، وَقَدْ قَصَّرَ جَماعَةٌ مِنَ الكُتّابِ في ذَلِكَ، الأَمْرُ الّذي دَفَعَ بِبَعْضِ الأُدَباءِ أَنْ يُصَنِّفوا كُتُباً وَرَسائِلَ حَوْلَ صِناعَةِ الكِتابَةِ، كَابْنِ قُتَيْبَةَ[1] الّذي أَلَّفَ كِتاباً عُنْوانُهُ: «أَدَبُ الكاتِبِ» لإِعانَةِ الكُتّابِ في صِناعَتِهِمْ.

بَعْدَ ذَلِكَ تَوَسَّعَ الأُدَباءُ في تَفْصيلِ ما يَحْتاجُ إِلَيْهِ الكاتِبُ مِنْ عُلومٍ وَآدابٍ[2]، كَما تَطَرَّقوا إِلى صِفاتِ الكاتِبِ الجِسْمانِيَّةِ وَشِيَمِهِ الأَخْلاقِيَّةِ، وَإِلى عِدَّةِ الكِتابَةِ مِنْ أَقْلامٍ وَأَوْراقٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ[3].

وَلَمْ يَكْتَفِ الكُتّابُ في العَصْرِ العَبّاسِيِّ بِنَصائِحِ الأُدَباءِ وَأَهْلِ الخِبْرَةِ في الكِتابَةِ في زَمانِهِمْ، بَلِ احْتَذَوْا حَذْوَ السّابِقينَ أَيْضاً، إِذْ كانَ «... لا غِنَى بِالكاتِبِ البَليغِ وَلا الشّاعِرِ المُفْلِقِ وَلا الخَطيبِ المِصْقَعِ عَنِ الاقْتِداءِ بِالأَوَّلينَ، وَالاقْتِباسِ مِنَ المُتَقَدِّمينَ، وَاحْتِذاءِ مِثالِ السّابِقينَ فيما اخْتَرَعوهُ مِنْ مَعانيهِمْ وَسَلَكوهُ مِنْ طُرُقِهِمْ»[4].

---

(١) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوريّ (ابن قتيبة) (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م): من أئمّة الأدب، ومن المصنفين المكثرين. ولد ببغداد وسكن الكوفة. ولي قضاء دينور مدّة فنسب إليها. من كتبه: «أدب الكاتب»، و«عيون الأخبار» و«الشّعر والشعراء»، و«تفسير غريب القرآن».

(٢) على سبيل المثال، ينظر: صناعة الكُتّاب، م. م. ص: ٣١٥ ـ ٣٢٢؛ صبح الأعشى، م. م. ج١: ١٧٣ ـ ٤١١؛ النّويريّ، أحمد بن عبد الوهّاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، طبعة دار الكتب المصريّة، الطّبعة الأولى، القاهرة، ١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٣م، ج٧: ٢٧ ـ ٣٧. (الجزء السابع صدر ١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٩م).

(٣) العقد الفريد، م. م. ج٤: ١٧١ ـ ١٧٥؛ صبح الأعشى، م. م. ج١: ٦١ ـ ٨٩.

(٤) كتاب الألفاظ الكتابيّة، م. م. مقدّمة الكتاب، ص: ٨، ٩.

فَكانَتْ رَسائِلُ عَبْدِ الحَميدِ الكاتِبِ[1] وَوَصِيَّتُهُ لِلكُتّابِ أَساساً مُهِمّاً انْطَلَقَ مِنْها الكُتّابُ في صِناعَتِهِمْ. وَمِمّا جاءَ في تِلْكَ الوَصِيَّةِ «... فَإِنَّ الكاتِبَ يَحْتاجُ مِنْ نَفْسِهِ وَيَحْتاجُ مِنْ صاحِبِهِ الّذي يَثِقُ بِهِ في مُهِمّاتِ أُمورِهِ، أَنْ يَكونَ حَليماً في مَوْضِعِ الحِلْمِ، فَقيهاً في مَوْضِعِ الحُكْمِ، مِقْداماً في مَوْضِعِ الإِقْدامِ، مُحْجِماً في مَوْضِعِ الإِحْجامِ، لَيِّناً في مَوْضِعِ اللِّينِ، شَديداً في مَوْضِعِ الشِّدَّةِ، مُؤْثِراً لِلعَفافِ وَالعَدْلِ وَالإِنْصافِ، كَتوماً لِلأَسْرارِ، وَفِيّاً عِنْدَ الشَّدائِدِ، عالِماً بِما يَأْتي وَيَذَرُ، وَيَضَعُ الأُمورَ في مَواضِعِها، قَدْ نَظَرَ في كُلِّ صِنْفٍ مِنْ صُنوفِ العِلْمِ فَأَحْكَمَهُ، فَإِنْ لَمْ يُحْكِمْهُ شَدا مِنْهُ شَدْواً يَكْتَفي بِهِ...»[2].

ثُمَّ حَدَّدَ لَهُمُ العُلومَ اللّازِمَةَ في صِناعَةِ الكِتابَةِ، فَقالَ: «... فَنافِسُوا مَعْشَرَ الكُتّابِ في صُنوفِ العِلْمِ وَالأَدَبِ، وَتَفَقَّهوا في الدِّينِ، وَابْدَأُوا بِعِلْمِ كِتابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالفَرائِضِ، ثُمَّ العَرَبِيَّةِ فَإِنَّها ثِقافُ أَلْسِنَتِكُمْ، وَأَجيدوا الخَطَّ فَإِنَّهُ حِلْيَةُ كُتُبِكُمْ، وَارْوُوا الأَشْعارَ وَاعْرِفوا غَريبَها وَمَعانِيَها، وَأَيّامَ العَرَبِ وَالعَجَمِ وَأَحاديثَها وَسِيَرَها، فَإِنَّ ذَلِكَ مُعينٌ لَكُمْ عَلى ما تَسْمُونَ إِلَيْهِ بِهِمَمِكُمْ، وَلا يَضْعُفَنَّ نَظَرُكُمْ في الحِسابِ، فَإِنَّهُ قِوامُ كُتّابِ الخَراجِ مِنْكُمْ...»[3].

---

(١) عبد الحميد بن يحيى العامريّ بالولاء، المعروف بالكاتب (ت١٣٢ هـ/ ٧٥٠م): عالم بالأدب، من أئمّة الكتّاب. عنه أخذ المترسّلون. اختصّ بمروان بن محمّد آخر ملوك بني أميّة في المشرق وقُتل معه في بوصير بمصر. له رسائل تقع في نحو ألف ورقة. طبع بعضها.

(٢) ابن حمدون، محمّد بن الحسن: التذكرة الحمدونيّة، تحقيق إحسان عبّاس وبكر عبّاس، دار صادر، الطّبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٦م، ج١ : ٣٤٣.

(٣) المصدر السابق، م. م. ج١ : ٣٤٣.

وَقَدْ دَأَبَ الكُتّابُ عَلى حِفْظِ القُرْآنِ وَمَعْرِفَةِ عُلومِهِ مُنْذُ عُهودِهِمْ في الكَتاتيبِ، وَدَأَبوا أَيْضاً عَلى حِفْظِ الأَشْعارِ وَبَرَعُوا في ذَلِكَ، حَتّى قالَ الجاحِظُ: «طَلَبْتُ عِلْمَ الشِّعْرِ عِنْدَ الأَصْمَعِيِّ فَوَجَدْتُهُ لا يَعْرِفُ إِلّا غَريبَهُ، فَسَأَلْتُ الأَخْفَشَ فَلَمْ يَعْرِفْ إِلّا إِعْرابَهُ، فَسَأَلْتُ أَبا عُبَيْدَةَ فَرَأَيْتُهُ لا يَنْفُذُ إِلّا فيما اتَّصَلَ بِالأَخْبارِ، وَلَمْ أَظْفَرْ بِما أَرَدْتُ إِلّا عِنْدَ أُدَباءِ الكُتّابِ كَالحَسَنِ بْنِ وَهَبٍ[1]»[2].

وَقَدْ راعتْ لُغَةُ الأُدَباءِ وَالكُتّابِ الأَعْرافَ وَالقَواعِدَ الاجْتِماعِيَّةَ آنَذاكَ، فَكانَتْ مَقولَةُ الجاحِظِ: «يَنْبَغي للكاتِبِ أَنْ يَكونَ رَقيقَ حَواشي اللِّسانِ، عَذْبَ يَنابيعِ البَيانِ، إِذا حاوَرَ سَدَّدَ سَهْمَ الصَّوابِ إِلى غَرَضِ المَعْنى، لا يُكَلِّمُ العامَّةَ بِكَلامِ الخاصَّةِ، وَلا الخاصَّةَ بِكَلامِ العامَّةِ»[3]، أَساساً في كِتاباتِ الكُتّابِ، وَظَهَرَ ذَلِكَ جَلِيّاً في رَسائِلِهِمْ وَمُؤَلَّفاتِهِمْ وَفي وَصايا كِبارِ الكُتّابِ وَالأُدَباءِ؛ مِنْ ذَلِكَ وَصِيَّةُ ابْنِ قُتَيْبَةَ للكاتِبِ بِأَنْ «يُنَزِّلَ أَلْفاظَهُ في كُتُبِهِ؛ فَيَجْعَلَها عَلى قَدْرِ الكاتِبِ وَالمَكْتوبِ إِلَيْهِ، وَأَنْ لا يُعْطِيَ خَسيسَ النّاسِ رَفيعَ الكَلامِ، وَلا رَفيعَ النّاسِ وَضيعَ الكَلامِ»[4].

---

(١) الحسن بن وهب، أبو علي (ت نحو ٢٥٠هـ/ ٨٦٥م) كاتب من الشعراء استكتبه الخلفاء، وهو أخو سليمان (وزير المعتزّ والمهتدي).

(٢) عبد البديع، لطفي (دكتور): التركيب اللّغويّ للأدب ـ بحث في فلسفة اللّغة والإستطيقا ـ مكتبة النّهضة المصريّة، الطّبعة الأولى، القاهرة، ١٩٧٠م، ص: ٢، ٣. (لم أجد رأيه هذا في كتبه التي بين يدي).

(٣) لم أجد العبارة بألفاظها في كتب الجاحظ، وقد وردت في علّة مصادر منها: أمالي المرتضى، للمرتضى، علي بن الحسين، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربيّ، الطّبعة الثانية، بيروت، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م، ج١: ١٩٦؛ معجم الأدباء، م. م. ج١٦: ٨٧.

(٤) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم: أدب الكاتب، تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد، المكتبة التّجاريّة الكبرى، الطّبعة الثالثة، القاهرة، ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٨م، ص: ١٤.

وَتَظْهَرُ تِلْكَ القَواعِدُ الاجْتِماعِيَّةُ ـ اللُّغَوِيَّةُ أَيْضاً في وَصِيَّةِ إبْراهيمَ ابْنِ مُحَمَّدٍ الشَّيْبانِيِّ[1]، حَيْثُ يَقولُ: «... إذا احْتَجْتَ إلى مُخاطَبَةِ المُلوكِ وَالوُزَراءِ وَالعُلَماءِ وَالكُتّابِ وَالخُطَباءِ وَالشُّعَراءِ وَأَوْساطِ النّاسِ وَسُوقَتِهِمْ، فَخاطِبْ كُلّاً عَلى قَدْرِ أُبَّهَتِهِ وَجَلالَتِهِ، وَعُلُوِّهِ وَارْتِفاعِهِ، وَفِطْنَتِهِ وَانْتِباهِهِ»[2].

وَفي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقولُ:

«وَلِكُلِّ طَبَقَةٍ مِنْ هَذِهِ الطَّبَقاتِ مَعانٍ وَمَذاهِبُ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَرْعاها في مُراسَلَتِكَ إيّاهُمْ في كُتُبِكَ، فَتَزِنَ كَلامَكَ في مُخاطَبَتِهِم بِميزانِهِ، وَتُعْطِيَهُ قِسْمَتَهُ وَتُوَفِّيَهُ نَصيبَهُ»[3].

كَما أَنَّ لُغَةَ الكُتّابِ سايَرَتْ مَكانَةَ المُخاطَبِ داخِلَ الطَّبَقَةِ الواحِدَةِ، مِنْ ذَلِكَ مُخاطَبَةُ كُلٍّ مِنْ أُمَراءِ ثُغورِ الخُلَفاءِ وَقُوّادِ عَسْكَرِهِمْ، «عَلى قَدْرِهِ وَمَوْضِعِهِ وَحَظِّهِ وَغِنائِهِ وَإِجْزائِهِ، وَاضْطِلاعِهِ بِما حَمَلَ مِنْ أَعْباءِ أُمورِهِمْ وَجَلائِلِ أَعْمالِهِمْ»[4].

وَتَجَنَّبَ الكُتّابُ في مُكاتَبَةِ أَهْلِ الخاصَّةِ الأَلْفاظَ السّوقِيَّةَ وَالكَلِماتِ المُبْتَذَلَةَ، وَنَزَلوا عِنْدَ رَغْبَتِهِمْ في أَنْ تَخْتَلِفَ رَسائِلُهُمْ عَنْ تِلْكَ الَّتي

---

(١) إبراهيم بن محمّد الشيبانيّ: ويعرف بالرّياضيّ الكاتب (ت ٢٩٨ هـ/ ٩١١ م): أديب، أصله من بغداد، استقرّ في القيروان، فترأس ديوان الإنشاء لبني الأغلب ثمّ للفاطميّين إلى أن توفّي. من كتبه «سراج الهدى» في معاني القرآن وإعرابه، و«قطب الأدب»، و«القط المرجان» في الأدب.

(٢) العقد الفريد، م. م ج٤: ١٨٠.

(٣) المرجع السابق، ج٤: ١٨٠.

(٤) المرجع السابق، ج٤: ١٨٠.

للعَوامِّ، وَكانَ الوَليدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ[1] قَدْ أَمَرَ أَلّا يُكاتِبَهُ النّاسُ بِمِثْلِ ما يُكاتِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَنَهَجَ خُلَفاءُ بَني العَبّاسِ وَكُبَراءُ القَوْمِ هَذا المِنْهاجَ أَيْضاً[2].

فَكانَ عَلى الكاتِبِ أَنْ يَنْتَقِيَ الأَلْفاظَ الَّتي تُناسِبُ المَعانِيَ اللّائِقَةَ بِأَهْلِ الخاصَّةِ، لِأَنَّ إِلْباسَ «المَعْنى، وَإِنْ صَحَّ وَشَرُفَ، لَفْظاً مُتَخَلِّفاً عَنْ قَدْرِ المَكْتوبِ إِلَيْهِ، نَقْصٌ مِمّا يَجِبُ لَهُ»[3].

وَهَذا كُلُّهُ يَعْني إِخْضاعَ اللُّغَةِ لِلواقِعِ الاجْتِماعِيِّ ـ الطَّبَقِيِّ، وَتَكْريسَها إِيّاهُ في آنٍ واحِدٍ. فَالكُتّابُ أُلْزِموا مُلاحَظَةَ الفَوارِقِ الاجْتِماعِيَّةِ وَالاقْتِصادِيَّةِ وَالثَّقافِيَّةِ في مُخاطَبَتِهِمْ أَوْ مُراسَلَتِهِم الفِئاتِ الشَّعْبِيَّةَ المُتَنَوِّعَةَ في مُجْتَمَعِهِمْ. مِثالاً عَلى ذَلِكَ، وَجَبَ عَلَيْهِمُ التَّفْريقُ «بَيْنَ مَنْ يُكْتَبُ إِلَيْهِ «فَرَأْيَكَ في كَذا» وبَيْنَ مَنْ يُكْتَبُ إِلَيْهِ «فَإِنْ رَأَيْتَ كَذا»، وَ«رَأْيَكَ» إِنَّما يُكْتَبُ بِها إِلى الأَكْفاءِ وَالمُساوِينَ، لا يَجوزُ أَنْ يُكْتَبَ بِها إِلى الرُّؤَساءِ وَالأَسْتاذينَ؛ لِأَنَّ فيها مَعْنى الأَمْرِ وَلِذَلِكَ نُصِبَتْ»[4].

وَوَجَبَ التَّفْريقُ «بَيْنَ مَنْ يُكْتَبُ إِلَيْهِ «وَأَنا فَعَلْتُ ذَلِكَ» وَبَيْنَ مَنْ يُكْتَبُ إِلَيْهِ «وَنَحْنُ فَعَلْنا ذَلِكَ»، وَ«نَحْنُ» لا يُكْتَبُ بِها عَنْ نَفْسِهِ إِلّا آمِرٌ أَوْ ناهٍ، لِأَنَّها مِنْ كَلامِ المُلوكِ وَالعُظَماءِ»[5].

---

(١) الوليد بن عبد الملك، أبو العبّاس (ت ٩٦هـ/ ٧١٥م): خليفة أمويّ. ولي بعد وفاة أبيه سنة ٨٦هـ كان ولوعاً بالبناء والعمران. بنى مسجد دمشق الكبير المعروف بالجامع الأمويّ، وأتمّه أخوه سليمان. مدّة خلافته تسع سنين وثمانية أشهر.

(٢) ينظر: العقد الفريد، ج٤: ١٥٨.

(٣) المصدر السابق، ج٤: ١٨١.

(٤) أدب الكاتب، م. م. ص: ١٤، ١٥.

(٥) المرجع السابق، ص: ١٥.

كذَلِكَ «لا يَنْبَغي في الرَّسائِلِ أَنْ يُصَغَّرَ الاسْمُ في مَوْضِعِ التَّعْظيمِ، وَإِنْ كانَ ذَلِكَ جائِزاً، مِثْلُ قَوْلِهِمْ: دُوَيْهِيَةٌ، تَصْغيرُ داهِيَةٍ. وَجُذَيْلٌ، تَصْغيرُ جِذْلٍ. وَعُذَيْقٌ، تَصْغيرُ عَذْقٍ»[1].

وَكَرِهَ الخاصَّةُ عِباراتٍ مِثْلَ: أَبْقاكَ اللهُ، وَأَمْتَعَ بِكَ، مَعَ أَنَّ الجاحِظَ افْتَتَحَ رِسالَتَهُ في ذَمِّ أَخْلاقِ الكُتّابِ بِقَوْلِ: «حَفِظَكُ اللهُ وَأَبْقاكَ وَأَمْتَعَ بِكَ»؛ وَرَأَوْا أَنَّهُ يَنْبَغي اسْتِخْدامُ ذَلِكَ في الابْنِ وَالخادِمِ المُنْقَطِعِ لِسَيِّدِهِ. وَلِذَلِكَ عاتَبَ عَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ المُعَذَّلِ[2] صَديقاً لَهُ لاسْتِخْدامِهِ تِلْكَ العِبارَةَ في رِسالَةٍ وَجَّهَها إِلَيْهِ، فَقالَ لَهُ: [المنسرح]

أَحُلْتَ عَمَّا عَهِدْتُ مِنْ أَدَبِكْ ... أَمْ نِلْتَ مُلْكاً فَتِهْتَ في كُتُبِكْ؟
أَمْ هَلْ تَرَى أَنَّ في مُكاتَبَةِ الـ ... إِخْوانِ نَقْصاً عَلَيْكَ في حَسَبِكْ؟
إِنَّ جَفاءً كِتابُ ذي أَدَبٍ ... يَكُونُ في صَدْرِهِ وَأَمْتَعَ بِكْ
أَتْعَبْتَ كَفَّيْكَ في مُكاتَبَتي ... حَسْبُكَ مِمَّا يَزيدُ في تَعَبِكْ![3]

فَأَجابَهُ صَديقُهُ: [المنسرح]

كَيْفَ يَحُولُ الإِخاءُ يا أَمَلي ... وَكُلُّ خَيْرٍ أَنالُ في سَبَبِكْ

(١) العقد الفريد، م. م. ج٤ : ١٨٥.

(٢) عبد الصّمد بن المعذّل، من بني عبد القيس (ت نحو ٢٤٠هـ/ نحو ٨٥٤م): من شعراء العصر العبّاسيّ. ولد ونشأ في البصرة. كان هجّاءً شديد العارضة.

(٣) راجع: الأغاني، م. م. ج١٣ : ٢٣٩. وفي بعض المصادر، الأبيات لعبد الله بن الطاهر يرد على يحيى بن سليمان بن معاذ؛ راجع: الزجّاجي، عبد الرحمن بن إسحاق: أخبار أبي القاسم الزجّاجي، تحقيق الدكتور عبد الحسين بن المبارك، دار الرشيد، [الطّبعة الأولى]، بغداد، ١٩٨٠، ص: ٢٣ (ببعض الاختلاف)، وقيل يردّ فيها على عبد الملك الزيات؛ راجع: العقد الفريد، م. م. ج٤ : ١٨٢ (ببعض الاختلاف).

إنْ كـانَ ذَنْـباً جَـنَـاهُ ذو ثِـقَـةٍ   فَـمُـدَّ بِفَضْـلٍ عَـلَـيْـكَ مِنْ أدَبِـكْ
فَـاعْـفُ فَـدَتْكَ النُّفوسُ عَنْ رَجُلٍ   يَعيشُ حَتّى المَمَاتِ فِي كَنَفِكْ[1]

وَعِنْدَ مُكاتَبَةِ الأُمَراءِ، كانَ الكُتّابُ يَكْتَفونَ في عُنْوانِ الرَّسائِلِ بِذِكْرِ الاسْمِ وَالتَّأميرِ بِغَيْرِ دُعاءٍ وَكُنْيَةٍ، تَشْبيهاً بِمُكاتَبَةِ الخُلَفاءِ، إذْ كانَ الاسْمُ مَعَ التَّأميرِ أجَلَّ مِنَ الكُنْيَةِ[2]. وَمِنْ أجْلِ أنْ يُفَرِّقوا بَيْنَ الإمامِ وَوَليِّ العَهْدِ، كَتَبُوا «في التَّصْديرِ للإمامِ «لِعَبْدِاللهِ فُلانٍ الإمامِ أميرِ المُؤْمِنينَ» وَلِوَليِّ العَهْدِ «لِلأميرِ أبي فُلانٍ فُلانِ بْنِ فُلانٍ...»[3].

وَفَرَّقَ بَعْضُ الكُتّابِ بَيْنَ اللّامِ الدّاخِلَةِ عَلى الاسْمِ، كَقَوْلِهِمْ «لِفُلانٍ»، وَبَيْنَ «إلى» حَرْفِ الجَرِّ، كَقَوْلِهِمْ «إلى فُلانٍ»، وَعَلَّلوا ذَلِكَ بِأنَّ «اللّامَ» لِمُخاطَبَةِ الجَليلِ، وَ«إلى» لِمُخاطَبَةِ الأدْنى، فَالأجَلُّ يَكْتُبُ مِنْ فُلانِ بْنِ فُلانٍ إلى فُلانِ بْنِ فُلانٍ[4].

وَكانَ يُعابُ عَلى الكاتِبِ أنْ يَجْتَلِبَ الشِّعْرَ في كُتُبِ الخُلَفاءِ، «إلّا أنْ يَكونَ الكاتِبُ هُوَ القارِضُ للشِّعْرِ وَالصّانِعُ لَهُ، فَإنَّ ذَلِكَ يَزيدُ في أُبَّهَتِهِ»[5]. فَكانَ أحْمَدُ بْنُ يوسُفَ الكاتِبُ يُعَنْوِنُ رَسائِلَهُ بِشِعْرٍ هُوَ

---

(1) من مصادر الأبيات: الصّولي، محمّد بن يحيى: أدب الكتّاب، تحقيق محمّد بهجة الأثيري، المطبعة السلفيّة، القاهرة، د. ط. ١٣٤١هـ، ص: ١٦٢؛ الأغاني، م. م. ج١٣: ٢٣٩ (ببعض الاختلاف)؛ العقد الفريد، م. م. ج٤: ١٨٢ (ببعض الاختلاف).

(2) ينظر: أدب الكُتّاب، م. م ص: ١٤٥.

(3) المرجع السابق، ص: ١٤٥.

(4) ينظر: المرجع السابق، ص: ١٤٥، ١٤٦.

(5) العقد الفريد، م. م. ج٤: ١٧٥.

قائِلُهُ، مِن ذَلِكَ كِتابُهُ إِلى طاهِرِ بْنِ الحُسَيْنِ[1]، وَقَدْ قَدَّمَهُ بِهذا العُنْوانِ: [الرجز]

لِلأَميرِ المُهَذَّبِ المُكْنَى بِطَيِّبِ
ذي اليَمينَيْنِ طاهِرِ بْـ ـنِ الحُسَيْنِ بْنِ مُصْعَبِ[2]

أَمّا السَّلامُ في الرَّسائِلِ، فَقَدِ اخْتَلَفَ وَتَفاوَتَ بِاخْتِلافِ المُرْسَلِ إِلَيْهِ، فَكانَ يُكْتَبُ لِلإِمامِ وَلِوَلِيِّ العَهْدِ في صَدْرِ الرِّسالَةِ وَفي الدُّعاءِ الأخيرِ: «سَلامٌ عَلى أَميرِ المُؤْمِنينَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ» وَلَمْ يَقولوا لِلْوَزيرِ «وَبَرَكاتُهُ» لِيُفَرِّقوا بَيْنَ المَكانَيْنِ[3].

وَإِذا كانَ كاتِبُ الخَليفَةِ وَزيراً، وَجَبَ عَلَيْهِ إِلْغاءُ تاءِ المُخاطَبِ وَنونِ الجَمْعِ في الكُتُبِ النّافِذَةِ عَنِ الخَليفَةِ، فَلا يَقولُ: «فَعَلْتُ كَذا أَوْ فَعَلْنا كَذا» بَلْ يَقولُ في كُتُبِهِ عَنْهُ وَتَوْقيعاتِهِ «فَعَلَ أَميرُ المُؤْمِنينَ كَذا فَامْتَثِلْ ما أَمَرَ بِهِ أَميرُ المُؤْمِنينَ». وَعَلَيْهِ أَيْضاً أَنْ يُكاتِبَ النّاسَ عَلى مَقاديرِهِمْ وَرُتَبِهِمْ في السَّيْفِ وَالقَلَمِ وَمَنازِلِهِمْ، فَدُعاؤُهُ لِأُمَراءِ الأَقاليمِ كَدُعاءِ النَّظيرِ إِذا نَقَصَ قَليلاً في صُدورِ كُتُبِهِ وَيَخْتِمُها بِمِثْلِ ذَلِكَ، وَلا بَأْسَ عِنْدَهُمْ إِنْ ذُكِرَ فيها تَفْدِيَةٌ؛ مِنْ تِلْكَ الأَدْعِيَةِ: «أَطالَ اللهُ بَقاءَكَ»؛ وَ«أَدامَ عِزَّكَ»؛ وَ«أَدامَ اللهُ عِزَّكَ وَأَطالَ بَقاءَكَ» ثُمَّ يَتَدَرَّجُ الدُّعاءُ فَيُصْبِحُ إِلى دونِ هَؤُلاءِ الأُمَراءِ: «أَعَزَّكَ اللهُ وَأَمَدَّ في عُمُرِكَ»؛ ثُمَّ إِلى دونِ هَؤُلاءِ: «مَدَّ اللهُ في

---

(١) طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعيّ، أبو الطيّب (٢٠٧هـ/ ٨٢٢م): من كبار الوزراء والقوّاد. هو الذي وطّد الملك للمأمون العبّاسيّ الذي لقّبه بذي اليمينين لأنّه ضرب رجلاً بشماله، فقدّه نصفين، أو لأنّه ولي العراق وخراسان. ولد في بوشنج (من أعمال خراسان) وسكن بغداد، وقتل بخراسان.

(٢) ينظر: أدب الكُتّاب، م. م. ص: ١٤٦.

(٣) ينظر: المرجع السابق، ص: ٣٩.

عُمرِكَ وَأكْرَمَكَ وَأبقاكَ»؛ وَإلى دونِ هَؤُلاءِ: «أبقاكَ اللهُ وَحَفِظَكَ»[1].

وَلَمّا كانَ لِكُلِّ مَقامٍ مَقالٌ، وَجَبَ عَلى الكاتِبِ الفَطِنِ أنْ يَتَنَبَّهَ لِذَلِكَ، فَيَخْتِمَ فُصولَ رَسائِلِهِ بِما يُناسِبُ المَقامَ، فَيَكْتُبَ، مَثَلاً: «في مَوْضِعِ ذِكْرِ البَلْوى بِمِثْلِ: نَسْأَلُ اللهُ دَفْعَ المَحْذورِ، وَصَرْفَ المَكْروهِ، وَأشْباهَ هَذا؛ وَفي مَوْضِعِ ذِكْرِ المُصيبَةِ: إنّا للهِ وَإنّا إلَيْهِ راجِعونَ؛ وَفي مَوْضِعِ ذِكْرِ النِّعْمَةِ: الحَمْدُ للهِ خالِصاً وَالشُّكْرُ للهِ واجِباً»[2].

كَما كانَ عَلَيْهِ اخْتِيارُ ما سَهُلَ مِنَ الكَلامِ، وَعَدَمُ تَكَلُّفِ البَلاغَةِ، وَالابْتِعادُ عَنِ المُفْرَداتِ الغَريبَةِ وَالوَحْشِيَّةِ، انْسِجاماً مَعَ روحِ العَصْرِ العَبّاسِيِّ الَّذي نَعِمَ بِتَطَوُّرٍ حَضارِيٍّ، فَانْسَلَخَتِ الحَياةُ في أكْثَرِ وُجوهِها عَنْ صُوَرِ البَداوَةِ وَالخُشونَةِ، وَعَنْ بِدائِيَّةِ العُمْرانِ وَطَرائِقِ العَيْشِ السّاذِجِ قَبْلَ ذَلِكَ العَصْرِ. لِذا، نَصَحَ الجاحِظُ الأديبَ أوِ المُتَكَلِّمَ قائِلاً: «... فَالقَصْدُ في ذَلِكَ أنْ تَجْتَنِبَ السّوقِيَّ وَالوَحْشِيَّ، وَلا تَجْعَلْ هَمَّكَ في تَهْذيبِ الألْفاظِ، وَشُغْلَكَ في التَّخَلُّصِ إلى غَرائِبِ المَعاني. وَفي الاقْتِصادِ بَلاغٌ، وَفي التَّوَسُّطِ مُجانَبَةٌ لِلوُعورَةِ، وَخُروجٌ مِنْ سَبيلِ مَنْ لا يُحاسِبُ نَفْسَهُ..»[3]. وَقالَ ذَلِكَ بَعْدَما عَرَضَ آراءَ بَعْضِ العُلَماءِ «مِنَ الأُدَباءِ وَأهْلِ المَعْرِفَةِ مِنَ البُلَغاءِ مِمَّنْ يَكْرَهُ التَّشادُقَ وَالتَّعَمُّقَ وَيُبْغِضُ الإغْراقَ في القَوْلِ، وَالتَّكَلُّفَ وَالاجْتِلابَ[4]، وَيَعْرِفُ أكْثَرَ أدْواءِ الكَلامِ وَدَوائِهِ»[5].

فَعَلى الرَّغْمِ مِنْ مَيْلِ القَوْمِ إلى الألْفاظِ الشَّريفَةِ، وَالمَعاني الجَزْلَةِ، فَإنَّهُمْ كَرِهوا التَّشَدُّقَ في الكَلامِ، وَإقْحامَ كَلِماتٍ مُتَكَلَّفَةٍ في الكُتُبِ

---

(1) ينظر: أدب الكُتّاب، م. م. ص: ١٥٠، ١٥١.

(2) العقد الفريد، م. م. ج٤: ١٨٤.

(3) البيان والتبيين، م. م. ج١: ٢٥٥.

(4) الاجتلاب: أن يجتلب معاني سواه لفقره في معانيه.

(5) البيان والتبيين، م. م. ج١: ٢٥٤.

لِإِظْهارِ البَلاغَةِ، مَن ذَلِكَ ما يُرْوَى مِنْ «أَنَّ بَعْضَ الكُتّابِ عادَ بَعْضَ المُلوكِ فَوَجَدَهُ يَئِنُّ مِنْ عِلَّةٍ، فَخَرَجَ عَنْهُ وَمَرَّ بِبابِ الطّاقِ[1]، فَإِذا بَطَيْرٍ يُدْعَى الشَّفانينَ[2]، فَاشْتَراهُ وَبَعَثَ بِهِ إِلَيْهِ، وَكَتَبَ كِتاباً وَتَنَطَّعَ في بَلاغَتِهِ: وَتَذَكَّرْ أَنَّهُ يُقالُ لَهُ شَفانينَ، أَرْجو أَنْ يَكونَ شِفاءً مِنْ أَنينٍ. فَوَقَّعَ في أَسْفَلِ الكِتابِ: وَاللهِ لَوْ عَطَسْتَ ضَبّاً ما كُنْتَ عِنْدَنا إِلّا نَبَطِيّاً، فَأَقْصِرْ عَنْ تَنَطُّعِكَ، وَسَهِّلْ كَلامَكَ»[3]. يَقْصُدُ بِذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَلْحَقْ بِالأَعْرابِ ـ آكِلي الضِّبابِ ـ فَصاحَةً وَإِحاطَةً بِاللُّغَةِ.

هَذِهِ نُتَفٌ مِنْ مُسايَرَةِ اللُّغَةِ الواقِعَ الاجْتِماعِيَّ وَالأَعْرافَ الاجْتِماعِيَّةَ الَّتي سادَتْ آنَذاكَ في الحاضِرَةِ العَبّاسِيَّةِ، حَيْثُ كانَ لِكُلِّ طَبَقَةٍ خِطابٌ أَوْ كَلامٌ خاصٌّ بِها وافَقَ مَوْقِعَها في الهَرَمِ الاجْتِماعِيِّ.

بَقِيَ أَنْ نُشيرَ إِلى أَنَّ مِهْنَةَ الكِتابَةِ تَرَكَتْ آثارَها في لُغَةِ أَصْحابِها؛ فَالكُتّابُ ـ كَغَيْرِهِمْ مِنْ أَبْناءِ مُجْتَمَعِهِمْ ـ تَأَثَّرَتْ لُغَتُهُمْ بِمَوْقِعِهِمْ وَبِطَبيعَةِ مِهْنَتِهِمْ، وَنَلْحَظُ ذَلِكَ عِنْدَما هَجا كاتِبٌ رَجُلاً فَقالَ: «فُلانٌ أَثْقَلُ مِنْ شَعْرَةِ القَلَمِ»[4]. فَاسْتَخْدَمَ في هِجائِهِ القَلَمَ الَّذي عُدَّ مِنْ أَهَمِّ أَدَواتِ الكِتابَةِ، وَكانَ مَحَلُّهُ مِنَ الكاتِبِ كَمَحَلِّ الرُّمْحِ مِنَ الفارِسِ[5].

وَعِنْدَما اسْتَسْلَمَ كاتِبٌ لِوَطْأَةِ الحَياةِ وَصُعوبَةِ العَيْشِ، ضَمَّنَ شِعْرَهُ القَلَمَ أَيْضاً عَلى سَبيلِ الاسْتِعارَةِ، فَقالَ: [الوافر]

---

(١) باب الطّاق: محلة كبيرة ببغداد بالجانب الشرقي. (معجم البلدان، م. م. ج١ : ٣٠٨).

(٢) الشفانين: ضرب من الحمام؛ ينظر: كتاب الحيوان، م. م. ج٣: ١٤٦. وفيه (الشفنين بدل الشفانين).

(٣) العقد الفريد، م. م. ج٤ : ١٨٧.

(٤) الثعالبيّ، عبد الملك بن محمّد: خاصّ الخاصّ، مطبعة السعادة، الطّبعة الأولى، القاهرة، ١٣٢٦هـ ـ ١٨٠٩م، ص: ٥٨.

(٥) ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب، م. م. ج٧: ١٩.

«جَرَى قَلَمُ القَضاءِ بِمَا يكُونُ   فَسِيَّانِ التَّحَرُّكُ وَالسُّكُونُ
جُنونٌ مِنْكَ أَنْ تَسْعَى لِرِزْقٍ   وَيُرْزَقُ فِي غِشاوَتِهِ الجَنينُ»[1]

أَمّا آياتُ القُرْآنِ الّتي كانَتْ إِحْدَى دَعائِمِ صِناعَةِ الكِتابَةِ، فَقَدِ اسْتَشْهَدَ بِها الكُتّابُ أَيْضاً خارِجَ نِطاقِ الكِتابَةِ، مِنْ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ العُمّالِ صودِرَ وَقُدِّمَ كاتِبُهُ لِيُصادَرَ، فَقالَ الكاتِبُ: «إِنَّ القُرْآنَ ناطِقٌ بِأَنَّهُ لا تَحِلُّ مُصادَرَةُ الكُتّابِ. فَقالَ: كَيْفَ وَأَيْنَ؟ فَقالَ: حَيْثُ يَقولُ ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾[2] فَضَحِكَ مِنْهُ وَأَعْفاهُ»[3] .

وكذَلِكَ لَهِجَ الكُتّابُ بِكُلِّ ما لَهُ صِلَةٌ بِصِناعَةِ الكِتابَةِ، وَفي النَّصِّ التّالي، يَسْتَخْدِمُ كاتِبٌ أَحْرُفَ الهِجاءِ ـ الّتي هِيَ مَداميكُ العِباراتِ وَالأَلْفاظِ ـ في الرَّدِّ على وَرّاقٍ ضَجِرَ مِنْ عَمَلِهِ.

قالَ الوَرّاقُ:

«ما خَلَقَ اللهُ أَشْقَى مِنَ الوَرّاقِ وَلا أَشْأَمَ مِنَ الوِراقَةِ. فَالأَلِفُ آفَةٌ؛ وَالباءُ بَخْسٌ؛ وَالتّاءُ تَعْسٌ؛ وَالثّاءُ ثَلْمٌ؛ وَالجيمُ جَحْدٌ؛ وَالحاءُ حُرْقَةٌ؛ وَالخاءُ خَوْفٌ؛ وَالدّالُ داءٌ؛ وَالذّالُ ذُلٌّ؛ وَالرّاءُ رَيْبٌ؛ وَالزّايُ زَجْرٌ؛ وَالسّينُ سُمٌّ؛ وَالشّينُ شَيْنٌ؛ وَالصّادُ صَدٌّ؛ وَالضّادُ ضُرٌّ؛ وَالطّاءُ طَرٌّ؛ وَالظّاءُ ظَلامٌ؛ وَالعَيْنُ عَيْبٌ؛ وَالغَيْنُ غَمٌّ؛ وَالكافُ كُفْرٌ؛ وَالفاءُ فَقْرٌ؛ وَالقافُ قَبْرٌ؛ وَاللّامُ لَوْمٌ؛ وَالميمُ مَزْقٌ؛ وَالنّونُ نَوْحٌ؛ وَالواوُ وَيْلٌ؛ وَالهاءُ هَوانٌ؛ وَالياءُ يَأْسٌ.

---

(١) القائل هو أبو الفرج بن هندو (علي بن الحسين، توفّي٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م)؛ راجع: خاصّ الخاصّ، م. م. ص: ٥٩. ونسبهما ابن خلّكان إلى أبي الخير الكاتب الواسطي؛ راجع: وفيات الأعيان، م. م. ج٣: ٢٨٣؛ ج٦: ١٧٢.

(٢) سورة البقرة: ٢٨٢.

(٣) خاصّ الخاصّ، م. م. ص: ٥٩.

وَناقَضَهُ أَبو الحُسَيْنِ أَحْمَدُ بْنُ سَعْدٍ الكاتِبُ[١] بِقَوْلِهِ:

الأَلِفُ أَمْنٌ؛ وَالباءُ بهْجَةٌ؛ وَالتّاءُ تَوْبَةٌ؛ وَالثّاءُ ثَرْوَةٌ؛ وَالجيمُ جَمالٌ؛ وَالحاءُ حَلاوَةٌ؛ وَالخاءُ خَيْرٌ؛ وَالدّالُ دَواءٌ؛ وَالذّالُ ذِكْرٌ؛ وَالرّاءُ راحَةٌ؛ وَالزّايُ زِيادَةٌ؛ وَالسّينُ سُرورٌ؛ وَالشّينُ شِفاءٌ؛ وَالصّادُ صَلاحٌ؛ وَالضّادُ ضِياءٌ؛ وَالطّاءُ طيبٌ؛ وَالظّاءُ ظِلٌّ؛ وَالعَيْنُ عِزٌّ؛ وَالغَيْنُ غِنًى؛ وَالفاءُ فَرَحٌ؛ وَالقافُ قُدْرَةٌ؛ وَالكافُ كِفايَةٌ؛ وَاللّامُ لَذَّةٌ؛ وَالميمُ مُلْكٌ؛ وَالنّونُ نِعْمَةٌ؛ وَالواوُ وِقايَةٌ؛ وَالهاءُ هِدايَةٌ؛ والياءُ يُسْرٌ»[٢].

رَأَيْنا أَنَّ مَكانَةَ الكُتّابِ كانَتْ رَفيعَةً في المُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ، لِأَهَمِيَّةِ صِناعَةِ الكِتابَةِ آنَذاكَ، وَقَدْ أُلِّفَتِ الكُتُبُ لِمُساعَدَتِهِمْ في صِناعَتِهِمْ تِلْكَ، فَظَهَرَتْ أُسُسُها وَقَواعِدُها.

وَمِنَ الكُتّابِ مَنْ بَرَعَ في تِلْكَ المِهْنَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخْفَقَ في ذَلِكَ، وَتَوَجَّبَ عَلَيْهِمُ اتِّباعُ قَواعِدَ لُغَوِيَّةٍ - اجْتِماعِيَّةٍ في مُكاتَباتِهِمْ وَمُراسلاتِهِمُ الشَّرائِحَ الاجْتِماعِيَّةَ المُتَنَوِّعَةَ آنَذاكَ، مَعَ الأَخْذِ بِعَيْنِ الاعْتِبارِ ما فَرَضَتْهُ مَدَنِيَّتُهُمُ الجَديدَةُ مِنْ أَساليبَ بَلاغِيَّةٍ في الكِتابَةِ.

وَتَأَثَّرَ الكُتّابُ بِمِهْنَتِهِمْ، فَاسْتَخْدَموا في كَلامِهِمْ وَأَحاديثِهِمْ ما يَدورُ في فَلَكِ الكِتابَةِ، وَلَمْ يَكُنِ الكُتّابُ وَحْدَهُمُ الَّذينَ تَأَثَّروا بِمِهْنَتِهِمْ في المُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ، فَالفَلاسِفَةُ وَأَهْلُ الكَلامِ أَيْضاً تَأَثَّروا بِعُلومِهِمْ وَمُناظَراتِهِمْ، كَما سَيَتَبَيَّنُ لَنا في الفَصلِ الآتي.

---

(١) لم أقف على ترجمته.

(٢) خاصّ الخاصّ، م. م. ص: ٥٩.

الفَصْلُ الثّامِنُ

لُغَةُ الفَلاسِفَةِ وَالمُتَكَلِّمينَ

كانَ لِلْفَلاسِفَةِ وَالمُتَكَلِّمينَ مَوْقِعٌ بارِزٌ في المُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ بِالرَّغْمِ مِنْ مُطارَدَةِ بَعْضِ الخُلَفاءِ الكَثيرَ مِنْهُمْ وَمُصادَرَتِهِمْ حُرِّيَةَ آرائِهِمْ[1].

وَكانَ لَهُمْ صَوْلاتٌ وَجَوْلاتٌ في مَجالِسِ الخُلَفاءِ وَالوُزَراءِ وَأَهْلِ الخاصَّةِ مِمَّنْ اضْطَلَعَ بِأُمورِ الدّينِ وَالفَلْسَفَةِ. وَمِنَ الطَّبيعِيِّ أَنْ تَكونَ لَهُمْ لُغَةٌ خاصَّةٌ بِالمُصْطَلَحاتِ وَالمَفاهيمِ الفَلْسَفِيَّةِ وَالكَلامِيَّةِ الّتي تَزْخَرُ بِها كُتُبُ الفَلْسَفَةِ وَالمَنْطِقِ. وَقَدْ وُجِدَتْ تِلْكَ اللُّغَةُ بَعْدَ تَرْجَمَةِ المُؤَلَّفاتِ الفَلْسَفِيَّةِ مِنَ اليونانِيَّةِ، وَاصْطِلاحِ المُتَكَلِّمينَ «عَلى تَسْمِيَةِ ما لَمْ يَكُنْ لَهُ في لُغَةِ العَرَبِ اسْمٌ، فَصاروا في ذَلِكَ سَلَفاً لِكُلِّ خَلَفٍ، وَقُدْوَةً لِكُلِّ تابِعٍ، وَلِذَلِكَ قالوا: العَرَضُ وَالجَوْهَرُ، وَأَيْسُ وَلَيْسُ، وَفَرَّقوا بَيْنَ البُطْلانِ وَالتَّلاشي، وَذَكَروا الهَذِيَّةَ وَالهُوِيَّةَ[2]

---

(1) راجع: مروج الذهب، م. م. ج٤: ٨٦؛ الأغاني، م. م. ج١٨: ١٥٥؛ الهمذاني، عبد الجبّار بن أحمد: فرق وطبقات المعتزلة، تحقيق الدكتور علي سامي النشّار والأستاذ عصام الدّين محمّد علي، دار المطبوعات الجامعية، القاهرة، د. ط. ١٩٧٢م، ص: ٦٥.

(2) على سبيل المثال، حدّد العلماء العرب العرض، فقالوا: «هو الموجود الذي يحتاج في وجوده إلى «موضع» يقوم به، كاللون المحتاج في وجوده إلى جسم يحله ويقوم به. بمعنى آخر، العرض ما لا يقوم بذاته وهو الحال في الموضوع؛ =

وَأَشْباهَ ذَلِكَ»[1].

وَسَنَتَوَقَّفُ عِنْدَ هَذِهِ اللُّغَةِ المُتَخَصِّصَةِ بِمِقْدارِ ما يَخْدُمُ الكَلامُ هَذا الفَصْلَ.

إِنَّ تِلْكَ الأَلْفاظَ وَالمَعانِيَ كانَتْ مُناطَةً بِأَهْلِها، وَبِالمَقاماتِ الخاصَّةِ بِها، وَصَعُبَ عَلى غَيْرِ المُتَكَلِّمينَ وَالفَلاسِفَةِ فَهْمُها. فَلَوْ أَرادَ فَيْلَسوفٌ أَوْ مُتَكَلِّمٌ أَنْ يَقْرَأَ كِتابَ المَنْطِقِ «عَلى جَميعِ خُطَباءِ الأَمْصارِ وَبُلَغاءِ الأَعْرابِ، لَما فَهِموا أَكْثَرَهُ»[2].

فَلُغَةُ الفَلاسِفَةِ وَالمُتَكَلِّمينَ اسْتَغْلَقَتْ حَتّى عَلى عُلَماءِ العَرَبِيَّةِ وَالخُطَباءِ وَالبُلَغاءِ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَخوضوا في الفَلْسَفَةِ وَعِلْمِ الكَلامِ عَلى نَحْوٍ كَبيرٍ، فَعِنْدَما دَخَلَ رَجُلانِ عَلى الكِسائِيِّ - بِناءً عَلى طَلَبِ الرَّشيدِ - وَتَكَلَّما وَبَلَغا إِلى مَوْضِعٍ لا يَعْرِفُهُ، قالَ: زِنْديقانِ يُقْتَلانِ[3]؛ وَما حُكْمُهُ هَذا إِلّا لِجَهْلِهِ المُفْرَداتِ أَوِ المَعانِيَ الفَلْسَفِيَّةَ وَالكَلامِيَّةَ.

= ينظر: الموسوعة الفلسفيّة العربيّة، معهد الإنماء العربيّ، الطّبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٦م، ج١: ٧٨٥.

والجوهر: هو الموجود الذي يقوم بذاته، ويقابله العرض، وله أسماء بحسب مقاماته، منها: الصّورة والهيولى، والجسم، والنّفس أو العقل؛ ينظر: صليبا، جميل: المعجم الفلسفيّ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د. ط. ١٩٧٨م، ج١: ٣٢٤.

ولفظ «أيس» يدلّ عند الفلاسفة على الوجود أو الموجود، وهو ضد «ليس» الدّال على العدم أو المعدوم. ينظر: المعجم الفلسفيّ لصليبا، م. م. ج١: ١٨٤.

والهويّة: هو ما دلّ على ما به الشّيء هو بوصفه وجوداً منفرداً عن غيره؛ ينظر: الموسوعة الفلسفيّة العربيّة، م. م. ج١: ٨٢١.

والهذيّة: اسم مشتقّ من هذا، ويطلق على ما به يكون الشّيء هذا الشّيء لا غيره؛ ينظر: المعجم الفلسفيّ لصليبا، م. م. ج٢: ٥١٩.

(١) البيان والتبيين، م. م. ج١: ١٣٩.

(٢) كتاب الحيوان، م. م. ج١: ٩٠.

(٣) ينظر: فرق وطبقات المعتزلة، م. م. ص: ٦٥.

وَقَدْ تَرَكَ عِلْمُ الكَلامِ، وَالفَلْسَفَةُ آثارَهُما في سِياقِ كِتاباتِ الفَلاسِفَةِ وَالمُتَكَلِّمينَ وَأحاديثِهِمْ، أكانَتْ في نِطاقِ ذَلِكَ العِلْمِ أَوْ خارِجَهُ، وَهَذا أَمْرٌ طَبيعِيٌّ، فَألْفاظُهُمْ نَبَعَتْ مِنْ مُحيطِ عُلومِهِمْ وَدائِرَةِ مَعارِفِهِمْ، فَاسْتَخْدَموها بِشَكْلٍ عَفْوِيٍّ، وَهُمْ في ذَلِكَ كَبَقِيَّةِ العُلَماءِ وَالأُدَباءِ وَالشُّعَراءِ. وَيُؤَكِّدُ الجاحِظُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «لِكُلِّ قَوْمٍ أَلْفاظٌ حُظِيَتْ عِنْدَهُمْ وَكَذَلِكَ كُلُّ بَليغٍ في الأَرْضِ وَصاحِبُ كَلامٍ مَنْثورٍ، وَكُلُّ شاعِرٍ في الأَرْضِ وَصاحِبُ كَلامٍ مَوْزونٍ، فَلا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكونَ قَدْ لَهِجَ وَأَلِفَ أَلْفاظاً بِأَعْيانِها، لِيُديرَها في كَلامِهِ، وَإِنْ كانَ واسِعَ العِلْمِ غَزيرَ المَعاني، كَثيرَ اللَّفْظِ. فَصارَ حَظُّ الزَّنادِقَةِ مِنَ الأَلْفاظِ الَّتي سَبَقَتْ إِلى قُلوبِهِمْ، وَاتَّصَلَتْ بِطَبائِعِهِمْ، وَجَرَتْ عَلى أَلْسِنَتِهِمْ، التَّناكُحَ، وَالتَّنائِجَ، وَالمِزاجَ وَالنّورَ وَالظُّلْمَةَ، وَالدَّفّاعَ وَالمَنّاعَ، وَالسّاتِرَ وَالغامِرَ، وَالمُنْحَلَّ، وَالبُطْلانَ، وَالوِجْدانَ، وَالأَثيرَ وَالصِّدّيقَ وَعَمودَ السُّبْحِ[1]، وَأَشْكالاً مِنْ

---

(١) على سبيل المثال، المزاج: هو فلك الخليط الذي خلق منه هذا العالم بحسب معتقداتهم؛ ينظر: **الفهرست**، م. م. ص: ٤٧٣.

والنّور والظلمة: كونان هما عندهم مبدأ العالم، وكل واحد منهما منفصل عن الآخر؛ ينظر: المرجع السابق، ص: ٤٧٢.

والوجدان: بمعنى النّفس وقواها الباطنة، أو على الأدق، القوى الباطنة للنفس؛ ينظر: **الموسوعة الفلسفيّة العربيّة**، ج١ : ٨٣٣.

والأثير: لفظ معرّب من اليونانية aither يدلّ في العلم القديم على مادة الأجرام السماوية. وقد كان المعتقد أنّها مادة لطيفة للغاية لا تكون ولا تفسد...؛ ينظر: وهبة، مراد؛ **المعجم الفلسفيّ**، دار قباء الحديثة، الطّبعة الخامسة، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص: ٢٢.

والصّديق، جمعها صدّيقون: وهم أبناء الغيب ذوو الإيمان الخالص. ينظر: **الفهرست**، م. م. ص: ٤٧٩.

وعمود السبح: هو ممرّ إلى فلك القمر يعرج فيه الصّدّيق مع ما يرتفع من التسابيح والتقاديس والكلام الطّيب وأعمال البرّ؛ ينظر: المرجع السابق، ص: ٤٧٥.

هَذا الكَلامِ، فَصاروا وَإِنْ كانَ غَريباً مَرْفوضاً عِنْدَ أَهْلِ مِلَّتِنا وَدَعْوَتِنا، وَكذَلِكَ هُوَ عِنْدَ عَوامِّنا وَجُمْهورِنا، وَلا يَسْتَعْمِلُهُ إِلّا الخَواصُّ وَإِلّا المُتَكَلِّمونَ»[1].

وَقَدْ حاوَلَ المُتَكَلِّمونَ وَالفَلاسِفَةُ، قَدْرَ الإِمْكانِ، اجْتِنابَ لُغَتِهِمُ المُتَخَصِّصَةِ خارِجَ مَقاماتِها، فَكانَ بِشْرُ بْنُ المُعْتَمِرِ المُعْتَزِلِيُّ[2] يُوصي المُتَكَلِّمَ بِأَلّا يَأْتِيَ بِها إِلّا إِذا خاضَ في صِناعَةِ الكَلامِ. وَمِمّا قالَهُ في ذَلِكَ: «يَنْبَغي لِلْمُتَكَلِّمِ أَنْ يَعْرِفَ أَقْدارَ المَعاني، وَيُوازِنَ بَيْنَها وَبَيْنَ أَقْدارِ المُسْتَمِعينَ وَبَيْنَ أَقْدارِ الحالاتِ، فَيَجْعَلَ لِكُلِّ طَبَقَةٍ مِنْ ذَلِكَ كَلاماً، وَلِكُلِّ حالَةٍ مِنْ ذَلِكَ مَقاماً، حَتّى يُقَسِّمَ أَقْدارَ الكَلامِ عَلى أَقْدارِ المَعاني، وَيُقَسِّمَ أَقْدارَ المَعاني عَلى أَقْدارِ المَقاماتِ، وَأَقْدارَ المُسْتَمِعينَ عَلى أَقْدارِ تِلْكَ الحالاتِ، فَإِنْ كانَ الخَطيبُ مُتَكَلِّماً تَجَنَّبَ أَلْفاظَ المُتَكَلِّمينَ، كَما أَنَّهُ إِنْ عَبَّرَ عَنْ شَيْءٍ مِنْ صِناعَةِ الكَلامِ واصِفاً أَوْ مُجيباً أَوْ سائِلاً، كانَ أَوْلى الأَلْفاظِ بِهِ أَلْفاظَ المُتَكَلِّمينَ؛ إِذْ كانوا لِتِلْكَ العِباراتِ أَفْهَمَ، وَإِلى تِلْكَ الأَلْفاظِ أَمْيَلَ، وَإِلَيْها أَحَنَّ وَبِها أَشْغَفَ...»[3].

وَوافَقَهُ عَلى رَأْيِهِ الجاحِظُ قائِلاً: «وَأَرى أَنْ أَلْفِظَ بِأَلْفاظِ المُتَكَلِّمينَ ما دُمْتُ خائِضاً في صِناعَةِ الكَلامِ مَعَ خَواصِّ أَهْلِ الكَلامِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ أَفْهَمُ لَهُمْ عَنّي، وَأَخَفُّ لِمَؤونَتِهِمْ عَلَيَّ»[4].

---

(١) كتاب الحيوان، م. م. ج٣: ٣٦٦، ٣٦٧.

(٢) بشر بن المعتمر الهلاليّ البغداديّ (ت٢١٠ هـ/٨٢٥ م): فقيه معتزليّ مناظر، تنسب إليه الطّائفة البشريّة من المعتزلة. له مصنّفات في الاعتزال، منها قصيدة في أربعين ألف بيت ردّ فيها على جميع المخالفين.

(٣) البيان والتبيين، م. م. ج١: ١٣٨، ١٣٩.

(٤) كتاب الحيوان، م. م. ج٣: ٣٦٨.

كَما عابَ عَلى المُتَكَلِّمِ «أَنْ يَفْتَقِرَ إِلى أَلْفاظِ المُتَكَلِّمينَ في خُطْبَةٍ، أَوْ رِسالَةٍ، أَوْ في مُخاطَبَةِ العَوامِّ وَالتُّجّارِ، أَوْ في مُخاطَبَةِ أَهْلِهِ وَعَبْدِهِ وَأَمَتِهِ، أَوْ في حَديثِهِ إِذا تَحَدَّثَ، أَوْ خَبَرِهِ إِذا أَخْبَرَ. وَكَذَلِكَ فَإِنَّهُ مِنَ الخَطَإِ أَنْ يَجْلُبَ أَلْفاظَ الأَعْرابِ، وَأَلْفاظَ العَوامِّ وَهُوَ في صِناعَةِ الكَلامِ داخِلٌ، وَلِكُلِّ مَقامٍ مَقالٌ، وَلِكُلِّ صِناعَةٍ شَكْلٌ»[1].

وَلَمْ تُسْتَحْسَنْ تِلْكَ اللُّغَةُ أَيْضاً في مَقاماتٍ مُخْتَلِفَةٍ ذَكَرَها الجاحِظُ فَقالَ: «... وَقَبيحٌ بِالخَطيبِ أَنْ يَقومَ بِخُطْبَةِ العيدِ أَوْ يَوْمَ السِّماطينَ، أَوْ عَلى مِنْبَرِ جَماعَةٍ، أَوْ في سُدَّةِ دارِ الخِلافَةِ، أَوْ في يَوْمِ جَمْعٍ وَحَفْلٍ، إِمّا في إِصْلاحِ بَيْنَ العَشائِرِ، وَاحْتِمالِ دِماءِ القَبائِلِ، وَاسْتِلالِ الضَّغائِنِ وَالسَّخائِمِ»[2]، فَيَتَحَدَّثَ بِلُغَةِ المُتَكَلِّمينَ وَالفَلاسِفَةِ.

وَبِالرَّغْمِ مِنْ حِرْصِ الفَلاسِفَةِ وَالمُتَكَلِّمينَ عَلى حَصْرِ لُغَتِهِم الخاصَّةِ في دائِرَةِ صِناعَتِهِمْ، فَإِنَّ أَلْفاظَهُمْ ظَهَرَتْ في كَلامِهِمْ، وَفي مَسائِلَ عالَجوها لَمْ تَكُنْ فَلْسَفِيَّةً أَوْ كَلامِيَّةً بِرُمَّتِها، وَهَذا ما نَراهُ في لُغَةِ الفَيْلسوفِ يَعْقوبَ بْنِ إِسْحاقِ الكِنْدِيِّ[3] في رِسالَتِهِ: «في الحيلَةِ لِدَفْعِ الأَحْزانِ»، وَمِمّا جاءَ فيها:

«... فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمُمْكِنٍ أَنْ يَنالَ أَحَدٌ جَميعَ مَطْلوباتِهِ، وَلا يَسْلَمَ مِنْ فَقْدِ جَميعِ مَحبوباتِهِ، لِأَنَّ الثَّباتَ وَالدَّوامَ مَعْدومٌ في عالَمِ الكَوْنِ وَالفَسادِ

---

(١) كتاب الحيوان، م. م. ج ٣: ٣٦٨، ٣٦٩.

(٢) البيان والتبيين، م. م. ج١: ١٤٠.

(٣) يعقوب بن إسحاق الكنديّ، أبو يوسف (ت نحو ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م): فيلسوف العرب والإسلام في عصره، وأحد أبناء ملوك كندة. نشأ في البصرة وانتقل إلى بغداد، واشتهر بالطب والفلسفة والموسيقى والهندسة والفلك. من كتبه: «رسالة في التنجيم»، و«اختيارات الأيام»، و«إلهيّات أرسطو».

الّذي نَحْنُ فيهِ، وَإِنَّما الثَّباتُ وَالدَّوامُ مَوْجودانِ اضْطِراراً في عالَمِ العَقْلِ الّذي هُوَ مُمْكِنٌ لَنا مُشاهَدَتُه»[1].

فَهَذا النَّصُّ غَنِيٌّ بِالمُصْطَلحاتِ الفَلْسَفِيَّةِ: مُمْكِنٌ؛ مَعْدومٌ؛ في عالَمِ الكَوْنِ وَالفَسادِ؛ في عَالَمِ العَقْلِ. فَعَلى سَبيلِ المِثالِ، المُمْكِنُ هُوَ الذي يَتَساوى فيهِ الوُجودُ وَالعَدَمُ، وَيُقابِلُهُ المُمْتَنِعُ وَالضَّرورِيُّ[2].

وَكذَلِكَ اسْتَخْدَمَ شَيْخُ المُعْتَزِلَةِ إِبْراهيمُ النَّظّامُ أَلْفاظَ المُتَكَلِّمينَ في أَبْياتٍ شِعْرِيَّةٍ قالَها في الجاحِظِ: [السريع]

حُبّي لِعَمْرٍو جَوْهَرٌ ثابِتٌ ... وَحُبُّهُ لي عَرَضٌ زائِلُ
بِهِ جِهاتي السِّتُّ مَشْغولَةٌ ... وَهُوَ إِلى غَيْرِي مائِلُ[3]

فَالجَوْهَرُ وَالعَرَضُ وَالجِهاتُ أَلْفاظٌ خاصَّةٌ بِعِلْمِ الكَلامِ وَالفَلْسَفَةِ.

أَمّا الجاحِظُ، وَمَعَ كَوْنِهِ أَديباً، فَإِنَّهُ اشْتَغَلَ بِعِلْمِ الكَلامِ، وَأَلَّفَ كُتُباً في الاعْتِزالِ وَفي مَسائِلَ كَلامِيَّةٍ عَديدَةٍ، مِنْ تِلْكَ الكُتُبِ: «فَضيلَةُ المُعْتَزِلَةِ»، وَ«الرَّدُّ عَلى المُشَبِّهَةِ»، وَ«الاسْتِطاعَةُ وَخَلْقُ الأَفْعالِ»، وَ«الرَّدُّ عَلى مَنْ زَعَمَ أَنَّ الإِنْسانَ جُزْءٌ لا يَتَجَزَّأُ»، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الكُتُبِ الّتي أُتْلِفَتْ أَوْ أَضاعَها الزَّمَنُ[4]. وَنَجِدُ آثارَ ذَلِكَ العِلْمِ في طَيّاتِ كُتُبِهِ الأَدَبِيَّةِ الّتي بَيْنَ أَيْدينا، فَفي رِسالَةِ القِيانِ يَقولُ: «وَالمُقَيِّنُ يَأْخُذُ الجَوْهَرَ وَيُعْطي

---

(١) رسائل فلسفيّة (الكنديّ؛ الفارابيّ؛ ابن باجة؛ ابن عديّ)، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨٣م، ص: ٧.

(٢) ينظر: المعجم الفلسفيّ لصليبا، م. م. ج٢: ٤٢٤.

(٣) خاصّ الخاصّ، م. م. ص: ٥٧. ونسب ابن خلّكان البيتين لابن التلميذ الطبيب، هبة الله بن صاعد، الملقّب بأمين الدولة البغداديّ، يقولهما في ولده سعيد؛ راجع: وفيات الأعيان، م. م. ج٦: ٧٣ (وفيه: «حبّي سعيداً» بدل «حبّي لعمرو»).

(٤) ينظر: معجم الأدباء، م. م. ج١٦: ١٠٧، ١٠٨.

العَرَضَ»[1]. فَلَفْظَتا «الجَوْهَرُ وَالعَرَضُ» كانَتا شائِعَتَيْنِ في عِلْمِ الكَلامِ وَالفَلْسَفَةِ.

وَفي مَعْرِضِ حَديثِهِ عَنِ الكَلْبِ في كِتابِ الحَيَوانِ يَقولُ: «فَالكَلْبُ سَبُعٌ وَإِنْ كانَ بِالنّاسِ أَنيساً، وَلا تُخْرِجُهُ الخَصْلَةُ أَوِ الخَصْلَتانِ مِمّا قارَبَ بَعْضَ طَبائِعِ النّاسِ، إِلى أَنْ يُخْرِجَهُ مِنَ الكَلْبِيَّةِ»[2]. فَقَدِ اسْتَعْمَلَ هُنا مَعْنًى مُجَرَّداً (كَلْبِيَّة) للدَّلالَةِ عَلى جَوْهَرِ الكَلْبِ.

أَمّا في حَديثِهِ عَنْ عِلَّةِ قَتْلِ السُّمِّ، فَيَقولُ: «وَالسُّمُّ يَقْتُلُ بِالكَمِّ وَالكَيْفِ وَالجِنْسِ»[3] ثُمَّ يَشْرَحُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «وَالكَمُّ المِقْدارُ. وَالكَيْفُ: الحَدُّ. وَالجِنْسُ: عَيْنُ الجَوْهَرِ وَذاتُهُ»[4].

فَالمَباحِثُ وَالأَلْفاظُ الكَلامِيَّةُ شاعَتْ في كُتُبِهِ وَمُؤَلَّفاتِهِ، وَفي كِتابِ الحَيَوانِ عَدَدٌ كَبيرٌ مِنْها[5].

وَلَمْ يَكُنِ الفَلاسِفَةُ وَالمُتَكَلِّمونَ وَحْدَهُمْ مَنِ اسْتَخْدَمَ تِلْكَ اللُّغَةَ المُتَخَصِّصَةَ خارِجَ نِطاقِها، بَلْ تَعَدَّى الأَمْرُ إِلى فِئاتٍ عَديدَةٍ تَأَثَّرَتْ بِالمُناظَراتِ أَوِ المُناقَشاتِ الفَلْسَفِيَّةِ وَالكَلامِيَّةِ الَّتي شاعَتْ في المُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ. فَعَلى سَبيلِ المِثالِ، اسْتَعانَ بَعْضُ الخُطَباءِ بِأَلْفاظِ المُتَكَلِّمينَ، ظَنّاً مِنْهُمْ أَنَّ ذَلِكَ سَيُعَظِّمُهُمْ في أَعْيُنِ الحاضِرينَ نَظَراً إِلى مَوْقِعِ الفَلاسِفَةِ وَالمُتَكَلِّمينَ المُتَقَدِّمِ، وَجَلالَةِ عُلومِهِمْ. وَفي هَذا يُرْوى أَنَّ خَطيباً «خَطَبَ

---

(1) رسائل الجاحظ، م. م. ج٢: ١٧٨.

(2) كتاب الحيوان، م. م. ج١: ٢١٥.

(3) المصدر السابق، ج٤: ٣١٩.

(4) المصدر السابق، ج٤: ٣١٩.

(5) ينظر: المصدر السابق، (فهرس المباحث الكلامية)، ج٨: ٣٠٦ ـ ٣١٠.

عَلى مِنبَرٍ ضَخْمِ الشَّأْنِ، رَفيعِ المَكانِ [فَقالَ]: ثُمَّ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ أَنْ أَنْشَأَ الخَلْقَ وَسَوّاهُمْ وَمَكَّنَ لَهُمْ، لاشاهُمْ فَتَلاشَوْا.

وَخَطَبَ آخَرُ في وَسَطِ دارِ الخِلافَةِ، فَقالَ في خُطْبَتِهِ: وَأَخْرَجَهُ مِنْ بابِ اللَّيْسِيَّةِ، فَأَدْخَلَهُ في بابِ الأَيْسِيَّةِ. وَقالَ مَرَّةً أُخرى في خُطْبَةٍ لَهُ: هَذا فَرْقٌ ما بَيْنَ السّارِّ وَالضّارِّ، وَالدَّفّاعِ وَالنَّفّاعِ. وَقالَ مَرَّةً أُخرى: فَدَلَّ سائِرُهُ عَلى غامِرِهِ، وَدَلَّ غامِرُهُ عَلى مُنْحَلِّهِ.

فَكادَ إِبْراهيمُ بْنُ السِّنْدِيِّ يَطيرُ شِقَقاً[1]، وَيَنْقَدُّ غَيْظاً[2]. هَذا وَإِبْراهيمُ مِنَ المُتَكَلِّمينَ، وَالخَطيبُ لَمْ يَكُنْ مِنَ المُتَكَلِّمينَ»[3].

فَقَدِ اسْتَقْبَحَ المُتَكَلِّمونَ اسْتِعانَةَ الخُطَباءِ بِمِثْلِ تِلْكَ الأَلْفاظِ الكَلامِيَّةِ في غَيْرِ مَقاماتِها، وَرَأَوْا أَنَّها جازَتْ «في صِناعَةِ الكَلامِ حينَ عَجَزَتِ الأَسْماءُ عَنِ اتِّساعِ المَعاني»[4].

وَكَذَلِكَ أَتى بِها بَعْضُ الشُّعَراءِ «عَلى وَجْهِ التَّظَرُّفِ وَالتَّمَلُّحِ، كَقَوْلِ أَبي نُواسٍ: [المجتثّ]

وَذاتِ خَدٍّ مُوَرَّدِ ... قُوهِيَّةِ المُتَجَرَّدْ[5]
تَأَمَّلُ العَيْنُ مِنْها ... مَحاسِناً لَيْسَ تَنْفَدْ
فَبَعْضُها قَدْ تَناهى ... وَبَعْضُها يَتَوَلَّدْ

(١) هذه عبارة للدليل على المبالغة في الغضب والغيظ.

(٢) ينقدّ: ينشق.

(٣) البيان والتبيين، م. م. ج١: ١٤٠، ١٤١.

(٤) المرجع السابق، ج١: ١٤١.

(٥) القُوهِيُّ: ضَرْبٌ من الثياب البيضاء منسوبة إلى قُوهِسْتانَ.

وَالـحُـسْـنُ فـي كُـلِّ عُـضْـوٍ   مِـنْـهَـا مُـعـادٌ مُـرَدَّدْ[1]

وَكَقَوْلِهِ: [المجتثّ]

يـا عـاقِـدَ الـقَـلْـبِ مِـنّـي   هَـلّا تَـذَكَّـرْتَ حَـلّا
تَـرَكْـتَ مِـنّـي قَـلـيـلاً   مِـنَ الـقَـلـيـلِ أَقَـلّا
يَـكـادُ لا يَـتَـجَـزَّأُ   أَقَـلَّ فـي الـلَّـفْـظِ مِـنْ لا[2][3]

فَمَحاسِنُ مَحْبوبَتِهِ لا تَنْفَدُ، فَهِيَ في حالِ تَوَلُّدٍ دائِمٍ، يَتَناهى بَعْضُها، ثُمَّ يَتَوَلَّدُ وَيُعادُ. وَفي الفَلْسَفَةِ يُسْتَخْدَمُ التَّناهي وَاللّاتَناهي في مَيادينِ نَظَرِيَّةِ الوُجودِ وَنَظَرِيَّةِ المَعْرِفَةِ وَنَظَرِيَّةِ الإِنْسانِ؛ فَفي نَظَرِيَّةِ الوُجودِ ـ مَثَلاً ـ يَكونُ التَّناهي وَاللّاتَناهي إِمّا بِصَدَدِ المَكانِ أَوْ بِصَدَدِ الزَّمانِ أَوْ بِصَدَدِ طَبيعَةِ الإِلَهِ[4].

وَفي البَيْتِ الأَخيرِ اسْتِعارَةٌ مِنْ مَسْأَلَةِ الجُزْءِ الَّذي لا يَتَجَزَّأُ الَّتي شَغَلَتِ المُتَكَلِّمينَ والفَلاسِفَةِ، فَالجُزْءُ الَّذي لا يَتَجَزَّأُ، جَوْهَرٌ ذو وَضْعٍ، لا يَقْبَلُ القِسْمَةَ أَصْلاً، وَلا قَطْعاً، وَلا كَسْراً، وَلا وَهْماً، وَلا فَرَضاً. تَتَأَلَّفُ الأَجْسامُ مِنْ آحادِهِ بِانْضِمامِ بَعْضُها إِلى بَعْضٍ، أَثْبَتَهُ المُتَكَلِّمونَ وَنَفاهُ الفَلاسِفَةُ[5].

---

(١) هذه الأبيات قالها أبو نواس في معشوقته جنان؛ ينظر: ديوان أبي نواس، الحسن ابن هانئ، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربيّ، بيروت، د. ط. ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م، ص: ٢٣٢ (وفيه: «فتانة» بدل «قنوضية»؛ «الناس» بدل «العين»؛ «في انتهاء» بدل «قد تناهى»؛ «جزء» بدل «عضو»).

(٢) ديوانه، ص: ٣٨٠ (وفيه: «جسمي عليلاً» بدل «منّي قليلاً»).

(٣) البيان والتبيين، م. م. ج١: ١٤١.

(٤) ينظر: الموسوعة الفلسفيّة العربيّة، م. م. ج١: ٣٠٥.

(٥) ينظر: المعجم الفلسفيّ لصليبا، م. م. ج١: ٤٠٠.

أمّا القاضي يونُسُ الجُرْجانِيُّ[1]، فَأنْشَدَ: [الطّويل]

وَلَـمّـا تَـنـاءَتْ بِـالأَحِبَّـةِ دارُهُـمْ وَصِرْنا جَميعاً مِنْ عَيانٍ إلى وَهْمِ
تَمَكَّنَ مِنّيَ الشَّوْقُ غَيْرُ مُسامِحٍ كَمُعْتَزِلِيٍّ قد تَمَكَّنَ مِنْ خَصْمِ[2]

فَالعَيانُ أوِ العَيْنِيُّ عِنْدَ الفَلاسِفَةِ، يُقابِلُ المُجَرَّدَ، وَهُوَ المُدْرَكُ مُباشَرَةً، أوِ المُعْطى في الإِدْراكِ الحِسِيِّ[3]. أمّا الوَهْمُ، فَلَفْظَةٌ فَلْسَفِيَّةٌ تَدُلُّ عَلى خَطَإِ الإِدْراكِ الحِسِيِّ. فَالوَهْمُ لَيْسَ في الحُكْمِ أوِ الاسْتِدْلالِ، بَلْ إنَّهُ في الإِدْراكِ الحِسِّيِّ[4].

وَنجِد أيْضاً أنَّ العَوامَّ خاضوا في عِلْمِ الفَلْسَفَةِ وَالكَلامِ وَأقْحَمُوا أنْفُسَهُمْ فيهِ دونَ امْتِلاكِ أُصولِ ذَلِكَ العِلْمِ وَقَواعِدِهِ، وَانْتَصَروا لِهَذا الرَّأْيِ أوْ ذاكَ تَبَعاً لِأهْوائِهِمْ وَمَذاهِبِهِمْ. وَفي هَذا قالَ الجاحِظُ: «... وَلَوْ بَرَزَ عالِمٌ عَلى جادَّةِ مَنْهَجٍ وَقارِعَةِ طريقٍ، فَنازَعَ في النَّحْوِ وَاحْتَجَّ في العَروضِ، وَخاضَ في الفُتْيا، وَذَكَرَ النُّجومَ وَالحِسابَ، وَالطِّبَّ وَالهَنْدَسَةَ، وَأبْوابَ الصِّناعاتِ، لَمْ يَعْرِضْ لَهُ وَلَمْ يُفاتِحْهُ إلّا أهْلُ هَذِهِ الطَّبَقاتِ. وَلَوْ نَطَقَ بِحَرْفٍ في القَدَرِ حَتّى يَذْكُرَ العِلْمَ وَالمَشيئَةَ، وَالاستِطاعَةَ وَالتَّكْليفَ، وَهَلْ خَلَقَ اللهُ الكُفْرَ وَقَدَّرَهُ؟ أوْ لَمْ يُقَدِّرْهُ، لَمْ يَبْقَ حَمّالٌ أعْثَرُ[5]... وَلا خامِلٌ غُفْلٌ، وَلا غَبِيٌّ كَهامٌ[6]، وَلا جاهِلٌ سَفيهٌ إلّا وَقَفَ عَلَيْهِ وَلاحاهُ، وَصَوَّبَهُ وَخَطّاهُ، ثُمَّ لَمْ يَرْضَ حَتّى يَتَوَلّى مَنْ

(١) لم أقف على ترجمته.
(٢) خاصّ الخاصّ، م. م. ص: ٥٧.
(٣) ينظر: الموسوعة الفلسفيّة العربيّة، م. م. ج١: ٦٢٧.
(٤) ينظر: المرجع السابق، ج١: ٨٣٣.
(٥) أعثر: أحمق.
(٦) كهام: يقال رجل كهام وكهيم: ثقيل مُسن دثور لا غناء عنده.

أَرْضاهُ، وَيُكَفِّرَ مَنْ يُخالِفُ هَواهُ[1]. وَلَمْ يَكْتَفِ العَوامُّ بِذَلِكَ، بَلْ إِنَّهُمْ رَدَّدوا أَلْفاظَ المُتَكَلِّمينَ وَالفَلاسِفَةِ مَعْ جَهْلِهِمْ بِمَعانيها، كَأَبي لُقْمانَ المَمْرورِ الّذي سَأَلَهُ بَعْضُ أَصْحابِ الجاحِظِ عَنِ الجُزْءِ الّذي لا يَتَجَزَّأُ، فَقالَ: «الجُزْءُ الذي لا يَتَجَزَّأُ هُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبي طالِبٍ[2] عَلَيْهِ السَّلامُ. فَقالَ لَهُ أَبو العَيْناءِ مُحَمَّدٌ[3]: أَفَلَيْسَ في الأَرْضِ جُزْءٌ لا يَتَجَزَّأُ غَيْرُهُ؟ قالَ: بَلَى، حَمْزَةُ[4] جُزْءٌ لا يَتَجَزَّأُ، وَجَعْفَرٌ[5] جُزْءٌ لا يَتَجَزَّأُ! قالَ: فَما تَقولُ في العَبّاسِ[6]؟ قالَ: جُزْءٌ لا يَتَجَزَّأُ. قالَ: فَما تَقولُ في أَبي

---

(١) الجاحظ، عمرو بن بحر: كتاب العثمانيّة، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، دار الكتاب العربيّ، القاهرة، ١٣٤٧ هـ ـ ١٩٥٥م، ص: ٢٥٤.

(٢) عليّ بن بن أبي طالب عبد مناف بن عبد المطّلب الهاشميّ القرشيّ، أبو الحسن (ت ٤٠هـ/ ٦٦١م): رابع الخلفاء الراشدين، وابن عمّ النّبيّ وصهره، وأحد الشّجعان الأبطال. من أكابر الخطباء والعلماء بالقضاء. ولي الخلافة سنة ٣٥هـ نشبت الفتن في عصره. وكانت الكوفة دار خلافته، وفيها قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي غيلة في مؤامرة ١٧ رمضان المشهورة. جمعت خطبه وأقواله ورسائله في كتاب سمّي «نهج البلاغة».

(٣) محمّد بن القاسم بن خلّاد الهاشميّ، بالولاء، أبو العيناء (ت ٢٨٣هـ/ ٨٩٦م): أديب فصيح. كان ظريفاً، ومن أسرع النّاس جواباً. اشتهر بنوادره ولطائفه. مولده بالأهواز، ومنشأه ووفاته بالبصرة.

(٤) حمزة بن عبد المطّلب بن هاشم القرشيّ، أبو عمارة، (ت هـ ٣ هـ/ ٦٢٥ م): عمّ النّبيّ(ص)، وأحد صناديد قريش وسادتهم في الجاهليّة والإسلام. أسلم قبل الهجرة. واستشهد يوم أحد، ودفن في المدينة.

(٥) جعفر بن أبي طالب عبد مناف بن عبد المطّلب القرشيّ (جعفر الطّيار) (ت ٨ هـ/ ٦٢٩م): صحابيّ من الأوائل. أخو الإمام عليّ. هاجر إلى الحبشة في الهجرة الثانيّة، ثم دخل المدينة بعد هجرة النّبي إليها، واستشهد بغزوة مؤتة وكان أحد أمرائها.

(٦) العبّاس بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف، أبو الفضل: (ت ٣٢ هـ/ ٦٥٣م): من أكابر قريش في الجاهليّة والإسلام. هو عمّ النّبي وجدّ الخلفاء العبّاسيّين. أسلم قبل الهجرة وشهد فتح مكّة. توفّي في المدينة.

بَكْرٍ[1] وَعُمَرَ؟ قالَ: أبو بَكْرٍ يَتَجَزَّأُ، وَعُمَرُ يَتَجزَّأُ. قالَ: فَما تَقولُ في عُثْمانَ[2]؟ قالَ: يَتَجَزَّأُ مَرَّتَيْنِ، وَالزُّبَيْرُ[3] يَتَجزَّأُ مَرَّتَيْنِ. قالَ: فَأَيَّ شَيْءٍ تَقولُ في مُعاوِيَةَ؟ قالَ: لا يَتَجَزَّأُ [وَلا لا يَتَجَزَّأُ]»[4].

يُعَلِّقُ الجاحِظُ عَلى ذَلِكَ قائِلاً: «... كانَ أبو لُقْمانَ إذا سَمِعَ المُتَكَلِّمينَ يَذْكُرونَ الجُزْءَ الّذي لا يَتَجَزَّأُ، هالَهُ ذَلِكَ وَكَبُرَ في صَدْرِهِ، وَتَوَهَّمَ أَنَّهُ البابُ الأَكْبَرُ مِنْ عِلْمِ الفَلْسَفَةِ، وَأَنَّ الشَّيْءَ إذا عَظُمَ خَطَرُهُ سَمُّوهُ بِالجُزْءِ الَذي لا يَتَجَزَّأُ»[5].

وَيَظْهَرُ وَلَعُ العامَّةِ بِالمُصْطَلَحاتِ الفَلْسَفِيَّةِ وَالكَلامِيَّةِ في كِتابِ البُخَلاءِ للجاحِظِ، إِذْ نَجِدُ بَيْنَ أُولَئِكَ البُخَلاءِ مَنِ اسْتَخْدَمَ مِثْلَ تِلْكَ المُصْطَلَحاتِ، وَرُبَّما أَدْخَلَها الجاحِظُ عَلى أَلْسِنَتِهِمْ عَلى سَبيلِ الإِمْتاعِ

---

(١) عبد الله بن أبي قحافة عثمان التيميّ القرشيّ (أبو بكر الصّدّيق) (ت ١٣هـ/ ٦٣٤م). أوّل الخلفاء الراشدين. كان عالماً بأنساب القبائل وأخبارها. بويع بالخلافة يوم وفاة الرسول(ص) سنة ١١هـ حارب المرتدين والممتنعين عن دفع الزكاة. وافتتحت في أيّامه بلاد الشام وقسم كبير من العراق. مدّة خلافته سنتان وثلاثة أشهر ونصف.

(٢) عثمان بن عفّان بن أبي العاص بن أميّة القرشيّ (ت ٣٥ هـ/ ٦٥٦م): ثالث الخلفاء الرّاشدين. افتتحت في أيّامه أرمينية والقوقاز وخراسان وكرمان وسجستان وأفريقية وقبرص. في عهده أنجز جمع القرآن. نقم عليه النّاس لاختصاصه أقاربه من بني أميّة بالولايات والأعمال. وبعد أن امتنع عن خلع نفسه، تسوّر عليه بعضهم الجدار فقتلوه صبيحة عيد الأضحى.

(٣) الزبير بن العوام بن خويلد الأسديّ القرشيّ، أبو عبد الله (ت ٣٦ هـ/٦٥٦م): ابن عمّة النّبيّ (ص). شهد معه معارك عدّة وجعله عمر فيمن يصلح للخلافة من بعده. قتله ابن جرموز غيلة يوم الجمل بوادي السّباع.

(٤) كتاب الحيوان، م. م. ج٣: ٣٧، ٣٨.

(٥) المرجع السابق، ج٣: ٣٨.

وَالإِضحاكِ. مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَبا كَعْبٍ[١] تَناوَلَ قَليلاً مِنَ الطَّعامِ أَوِ الحَلْواءِ في مَنْزِلِ موسى بْنِ جَناحٍ ـ وَكانَ موسى بخيلاً ـ فَتَعَرَّضَ لَهُ قائِلاً: اجْرِشْ يا أَبا كَعْبٍ اجْرِشْ. فَقالَ لَهُ أَبو كَعْبٍ: وَيْلَكَ! أَما تَتَّقي اللهَ! كَيْفَ أَجْرِشُ جُزْءاً لا يَتَجَزَّأُ؟[٢].

وَهَذا عَلِيٌّ الأَسْوارِيُّ الذي خَطَفَ لُقْمَةَ الأَميرِ عيسى بْنِ سُلَيْمانَ بْنِ عَلِيٍّ[٣]، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُما مُؤانَسَةٌ وَلا مُمازَحَةٌ، قالَ حينَ عاتَبَهُ الحاضِرونَ عَلى ذَلِكَ: «لَمْ يَكُنِ الأَمْرُ كَذَلِكَ، وَكَذَبَ مَنْ قالَ ذَلِكَ، وَلَكِنّا أَهْوَيْنا أَيْدِيَنا مَعاً، فَوَقَعَتْ يَدي في مُقَدَّمِ الشَّحْمَةِ، وَوَقَعَتْ يَدُهُ في مُؤَخَّرِ الشَّحْمَةِ، مَعاً، وَالشَّحْمُ مُلْتَبِسٌ بِالأَمْعاءِ، فَلَمّا رَفَعْنا أَيْدِيَنا مَعاً، كُنْتُ أَنا أَسْرَعَ حَرَكَةً، وَكانَتِ الأَمْعاءُ مُتَّصِلَةً غَيْرَ مُتَبايِنَةٍ، فَتَحَوَّلَ كُلُّ شَيْءٍ كانَ في لُقْمَتِهِ بِتِلْكَ الجَذْبَةِ إِلى لُقْمَتي، لاتِّصالِ الجِنْسِ بِالجِنْسِ وَالجَوْهَرِ بِالجَوْهَرِ»[٤].

وَكانَ المَكِّيُّ[٥] مولَعاً بِعَرْضِ أَلْفاظِ المُتَكَلِّمينَ في سِياقِ رِواياتِهِ وَأَحاديثِهِ التي أَوْرَدَها أَبو عُثْمانَ في كِتابِ البُخَلاءِ، من ذَلِكَ قِصَّةٌ يَرْويها المَكِّيُّ قائِلاً: «كُنْتُ عِنْدَ العَنْبَرِيِّ[٦]، إِذْ جاءَتْ جارِيَةُ أُمِّهِ، وَمَعَها كوزٌ

---

(١) لم أقف على ترجمته. ورد في كتاب البخلاء أنه أبو كعب الصوفيّ.
(٢) كتاب البخلاء، م. م. ص: ١٢٨.
(٣) لم أقف على ترجمته سوى أنه ابن سليمان بن عليّ من بني العبّاس المتقدمة ترجمته.
(٤) كتاب البخلاء، م. م. ص: ٦٩.
(٥) هو محمّد المكيّ. من أصحاب الجاحظ الذين ذكرت نوادرهم في كتاب البخلاء. وكان كاتب أبي محمّد الحزاميّ عبد الله بن كاسب كما يظهر في ذلك الكتاب.
(٦) لم أقف على ترجمته.

فارِغٌ، فَقالَتْ: قالَتْ أُمُّكَ: بَلَغَني أَنَّ عِنْدَكَ مُزَمَّلَةً[1]، وَيَوْمُنا يَوْمٌ حارٌّ، فَابْعَثْ إِلَيَّ بِشَرْبَةٍ مِنْها في هَذا الكوزِ. قال: كَذَبْتِ! أُمّي أَعْقَلُ مِنْ أَنْ تَبْعَثَ بِكوزٍ فارِغٍ وَنَرُدَّهُ مَلْآنَ! اذْهَبي فَامْلَئيهِ مِنْ ماءِ حُبِّكُمْ[2] وَفَرِّغيهِ في حُبِّنا، ثُمَّ امْلَئيهِ مِنْ ماءِ مُزَمَّلَتِنا، حَتّى يَكونَ شَيْءٌ بِشَيْءٍ.

قالَ المَكِّيُّ: فَإِذا هُوَ يُريدُ أَنْ تَدْفَعَ جَوْهَراً بِجَوْهَرٍ وَعَرَضاً بِعَرَضٍ، حَتّى لا تَرْبَحَ أُمُّهُ إِلّا صَرْفَ ما بَيْنَ العَرَضَيْنِ الذي هُوَ البَرْدُ وَالحَرُّ، فَأَمّا عَدَدُ الجَواهِرِ وَالأَعْراضِ، فَمِثْلاً بِمِثْلٍ[3].

نَسْتَنْتِجُ مِنْ هَذا الفَصْلِ أَنَّهُ كانَ لِلْفَلاسِفَةِ وَالمُتَكَلِّمينَ لُغَةٌ مُتَخَصِّصَةٌ بِعُلومِهِمْ، وَقَدْ حَرَصوا أَنْ يَتَحَدَّثوا بِها في المَحافِلِ الخاصَّةِ بِهِمْ، مُبْتَعِدينَ بِها عَنْ كُلِّ ما لَيْسَ لَهُ صِلَةٌ بِالفَلْسَفَةِ وَعِلْمِ الكَلامِ، كَخُطَبِ العيدِ وَيَوْمِ السَّماطينَ أَوْ عَلى مِنْبَرِ جَماعَةٍ، أَوْ في سُدَّةِ دارِ الخِلافَةِ، أَوْ في يَوْمِ جَمْعٍ وَحَفْلٍ، أَوْ في مُخاطَبَةِ العَوامِّ وَالتُّجّارِ، أَوْ في مُخاطَبَةِ الأَهْلِ وَالعَبيدِ وَالإِماءِ، وَفي غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ المَقاماتِ الَّتي لا تَصْلُحُ لَها تِلْكَ اللُّغَةُ، إِلّا أَنَّ عُلومَهُمُ الَّتي شَكَّلَتْ دائِرَةَ اهْتِمامِهِمْ وَأُفُقَ مَعارِفِهِمْ، تَرَكَتْ آثارَها في سِياقِ كَلامِهِمْ وَأَحاديثِهِمْ وَكِتاباتِهِمْ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ فَلْسَفِيَّةً.

(١) لم يرد شرحها في اللسان وذكرها الزبيدي في تاج العروس بقوله: «والمُزَمَّلَةُ، كمُعَظَّمَةٍ: التي يُبَرَّدُ فيها الماءُ، مِن جَرَّةٍ، أو خابِيَةٍ خَضراءَ، قالَهُ المُطَرِّزِيُّ، في شَرْحِ المَقاماتِ، وهي لُغَةٌ عِراقِيَّةٌ يَسْتَعْمِلُها أَهْلُ بَغْدادَ»؛ ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس، م. م. ج٢٩: ١٤١.

(٢) الحُبّ: الجرّة الكبيرة أو الخابية.

(٣) كتاب البخلاء، م. م. ص: ١١٣.

وَقَدْ خاضَتِ الفِئاتُ الشَّعْبِيَّةُ المُتَنَوِّعَةُ في ذَلِكَ البَحْرِ المُتَلاطِمِ مِنَ الآراءِ وَالأَقْوالِ الكَلامِيَّةِ وَالفَلْسَفِيَّةِ، إِذْ كانَتِ المُجادَلاتُ وَالمُناظَراتُ في تِلْكَ العُلومِ كَثيرةً وَنَشيطَةً، فَاسْتَأْثَرَ هَذا الفَرْعُ مِنْ فُروعِ المَعْرِفَةِ بِاهْتِمامِ الخَواصِّ، وَكَذَلِكَ بِاهْتِمامِ العَوامِّ الَّذينَ جَهِلوا أُصولَهُ، وَلا عَجَبَ أَنْ يَتَلَوَّنَ لِسانُهُمْ بِعَدَدٍ مِنَ الأَلْفاظِ أَوِ العِباراتِ الفَلْسَفِيَّةِ وَالكَلامِيَّةِ.

وَلا بُدَّ مِنَ الإِشارَةِ إِلى أَنَّ الأَطِبّاءَ في ذَلِكَ العَصْرِ، نَظَروا في الفَلْسَفَةِ وَأَخَذوا قِسْطاً وافِراً مِنْ عُلومِها، وَقَدْ قارَبَتْ مَكانَتُهُمُ الاجْتِماعِيَّةُ مَكانَةَ الفَلاسِفَةِ آنَذاكَ، وَكانَتْ لَهُمْ أَساليبُهُمُ اللُّغَوِيَّةُ التي يُظْهِرُها الفَصْلُ التّالي.

الفَصْلُ التّاسِعُ

لُغَةُ الأَطِبّاءِ

ازْدَهَرَ الطِّبُّ في المُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ، وَارْتَقَتْ مَكانَةُ الأَطِبّاءِ فيهِ. وَكانَ مِنْ بَيْنِ الأَطِبّاءِ مَنْ لازَمَ بِلاطَ الخُلَفاءِ، وَأَصْبَحَ طَبيبَ الخَليفَةِ الخاصَّ، يُصاحِبُهُ في السِّلْمِ وَالحَرْبِ[1].

وَاللّافِتُ أَنَّ مُعْظَمَهُمْ تَعاطَوْا الفَلْسَفَةَ يَوْمَذاكَ، لِأَنَّ العادَةَ جَرَتْ بِأَنْ يَكونَ الطَّبيبُ فَيْلَسوفاً[2].

وَالجاحِظُ يَرَى أَنَّ عَلى الأَطِبّاءِ أَنْ يَكونوا مُتَكَلِّمينَ، لِأَنَّ الطِّبَّ لَوْ كانَ مِنْ نَتائِجِ حُذّاقِ المُتَكَلِّمينَ وَمِنْ تَلْقيحِهِمْ لَهُ، لَما وُجِدَ في الأُصولِ الّتي يَبْنونَ عَلَيْها خَلَلٌ[3].

---

(1) راجع: ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم: **عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء**، تحقيق الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة، د. ط. بيروت، ١٩٦٥م، الباب الثامن، ص: ١٨٣ ـ ٢٧٨ (طبقات الأطبّاء السريانيين الذين كانوا ابتداء ظهور دولة بني العبّاس)؛ الباب العاشر، ص: ٢٨٥ ـ ٤١٢ (طبقات الأطبّاء العراقيين وأطبّاء الجزيرة وديار بكر).

(2) ينظر: ابن جلجل، سليمان بن حسّان: **طبقات الأطباء والحكماء**، تحقيق فؤاد سيّد، المعهد العلميّ الفرنسيّ للآثار الشرقية بالقاهرة، د. ط. ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م، ص: ١٧.

(3) ينظر: **كتاب الحيوان**، م. م. ج٥: ٥٩.

وَمِنْهُمْ مَنْ بَرَعَ أَيضاً في عِلْمِ الحِسابِ وَالنُّجومِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَاخْتيرَ مِنْهُمْ نَفَرٌ لِتَرْجَمَةِ الكُتُبِ اليونانِيَّةِ[1].

وَنَجِدُ في طَيّاتِ الكُتُبِ التّاريخِيَّةِ وَالأَدَبِيَّةِ وَكُتُبِ التَراجِمِ، نُصوصاً تَتَحَدَّثُ عَنْ أَحْوالِهِمْ: أَنْسابِهِمْ، وَمَكانَتِهِمْ وَعُلومِهِمْ، وَتُظْهِرُ هَذِهِ النُّصوصُ أَنَّهُمْ نَعِمُوا بِالمالِ الوَفيرِ، بَعْدَما أَغْدَقَ عَلَيْهِمُ الخُلَفاءُ المالَ وَالهِباتِ؛ فَجَبْرائيلُ بْنُ بَخْتَيْشوعَ[2] ـ مَثَلاً ـ عالَجَ جارِيَةً كانَتْ في قَصْرِ الرَّشيدِ، فَنالَ خَمْسَمِئَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ مُقابِلَ ذَلِكَ، وَقيلَ إِنَّهُ حَصَلَ مِنَ الأَمْوالِ ما لَمْ يَحْصُلْهُ غَيْرُهُ مِنَ الأَطِبّاءِ[3].

وَقَدْ بَرَعَ عَدَدٌ مِنَ الأَطِبّاءِ في مِهْنَتِهِمْ وَحَذَقوا عَمَلَهُمْ، في حينِ أَخْفَقَ آخَرونَ في ذَلِكَ حَتّى صارَ «الّذي يَموتُ عَلى أَيْديهِمْ مِنَ المَرْضى أَضعافَ مَنْ يَعيشُ وَيَبْقى»[4]. وَلا عَجَبَ أَنْ يَتْرُكَ رَجُلٌ مُصَوِّرٌ[5] التَّصَوُّرَ وَيَتَطَبَّبَ، لِأَنَّ الخَطَأَ في التَّصْويرِ تُدْرِكُهُ العُيونُ، وَخَطَأَ الطَّبيبِ تُواريهِ القُبورُ[6].

وَيَهُمُّنا في هَذا المَقامِ تَأَثُّرُ لُغَةِ الأَطِبّاءِ بِطَبيعَةِ مِهْنَتِهِمْ؛ مِنْ ذَلِكَ ما جاءَ في رِسالَةِ الجاحِظِ الّتي وَجَّهَها إِلى المُعْتَصِمِ بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ بِلادِ

(١) ينظر: **عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء**، م. م. ص: ٢٧٩ ـ ٢٨٤.

(٢) جبرائيل بن بختيشوع بن جرجس (ت٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م): طبيب هارون الرشيد وجليسه وخليله. خدم الأمين والمأمون. من تصانيفه: «المدخل إلى صناعة المنطق». وله رسالة في «المطعم والمشرب»، وكتاب في صنعة البخور.

(٣) ينظر: **عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء**، م. م. ص: ١٨٧، ١٨٨.

(٤) الخوارزميّ، محمّد بن العبّاس: **رسائل الخوارزميّ**، دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ط. ١٩٧٠م، ص: ٢٤٠.

(٥) المقصود بالمصوّر هنا النحّات، لأنّ التصاوير في اللّغة تعني التماثيل.

(٦) ينظر: **بهجة المجالس**، م. م. ج٢: ٢٠٠.

الرّومِ، وَفيها أَنَّ أَبا عُثْمانَ سَأَلَ بَخْتَيْشوعَ[1] الطَّبيبَ عَنِ المَعْرَكَةِ الّتي شَهِدَها مَعَ الخَليفَةِ، فَقالَ:

«لَقَيْناهُمْ في مِقْدارِ صَحْنِ البَيْمارَسْتانِ[2]، فَما كانَ بِقَدْرِ ما يَخْتَلِفُ الرَّجُلُ مَقْعَدَيْنِ[3] حَتّى تَرَكْناهُمْ في أَضْيَقَ مِنْ مِحْقَنَةٍ، فَقَتَلْناهُمْ، فَلَوْ طَرَحْتَ مِبْضَعاً ما سَقَطَ إِلّا عَلى أَكْحَلِ رَجُلٍ[4]». وَعَمِلَ أَبْياتاً في الغَزَلِ فَكانَتْ: [الخفيف]

شَرِبَ الوَصْلَ دَسْتَجَ[5] الهَجْرِ فَاسْتَطْـ
لَقَ بَطْنَ الوِصالِ بِالإِسْهالِ

وَرَماني حُبّي بِقُولَنْجِ بَيْنٍ
مُذْهِلٍ عَنْ مَلامَةِ العُذّالِ

فَفُؤادُ الحَبيبِ يَنْحُلُهُ السُّـ
لُّ وَقَلْبي مُعَذَّبٌ بِالمَلالِ

وَفُؤادي مُبَرْسَمٌ[6] ذو سِقامٍ
يا بْنَ ما سُوهٍ[7] ضَلَّ عَنِ احْتِيالي

---

(١) بختيشوع بن جبرائيل (ت ٢٥٦ هـ/ ٨٧٠م): طبيب من أسرة سريانيّة مارس أكثر رجالها الطبّ والترجمة. قرّبه الخلفاء العبّاسيّون، واشتهر في زمن الواثق والمتوكّل والمستعين المهتدي والمعتزّ. صنّف كتاباً في الحجامة على طريقة السؤال والجواب.

(٢) البيمارستان: مكان للاستشفاء في ذٰلكَ العصر.

(٣) يختلف الرجل مقعدين: يذهب إلى المتوظأ إذا أخله بطنه.

(٤) الأكحل: عرق في اليد إذا قطع لم يرقأ الدم.

(٥) دستج: آنية تحوّل باليد. ينظر: كتاب الألفاظ الفارسيّة المعرّبة، م. م. ص: ٦٣.

(٦) مبرسم: أصيب بداء البرسام.

(٧) ابن ماسويه، أبو زكريا (ت ٢٤٣ هـ/ ٨٥٧ م): من علماء الأطبّاء. سرياني الأصل. نشأ ببغداد، وترجم للرشيد ما وجد من كتب الطب القديمة، في أنقرة =

لَـوْ بِـبُـقْـراطَ[1] كـانَ مـا بـي وَجـالـيـ

ـنـوسَ بـاتـا مِـنْـهُ بِـأَكْـسَـفِ بـالِ»[2]

فَفي هَذا النَّصِّ وَصَفَ بَخْتَيْشوعُ المَعْرَكَةَ وَصْفاً حِسِيّاً، فَاسْتَمَدَّ صُوَرَها مِنَ الأَجْسامِ وَأَمْراضِها، وَمِنْ عِدَّةِ الطَّبيبِ في العِلاجِ، وَمِمّا لَهُ صِلَةٌ بِعالِمِ الطِّبِّ: صَحْنُ البيمارَسْتانِ؛ يَخْتَلِفُ الرَّجُلُ مَقْعَدَيْنِ؛ مِحْقَنَةٌ؛ مِبْضَعٌ؛ أَكْحَلُ رَجُلٍ.

كَما جاءَتْ أَبْياتُهُ الغَزَلِيَّةُ مُتَأَثِّرَةً بِمِهْنَتِهِ كَطَبيبٍ، وَقَدْ أَغْناها بِصُوَرِ الأَمْراضِ: فَاسْتَطْلَقَ بَطْنَ الوِصالِ بِالإِسْهالِ؛ قُولَنْجُ؛ السُّلُّ، مُبَرْسَمٌ؛ ذو سِقامٍ. وَضَمَّنها أَسْماءَ أَطِبّاءَ كانَ لَهُمُ الباعُ الطَّويلُ في الطِّبِّ، وَهُمْ: ابْنُ ماسوه (ابْنُ ماسويه)، وبُقْراطُ، وجالينوسُ.

وَعِنْدَما سُئِلَ بَخْتَيْشوعُ هذا مَنْ أَشْعَرُ الشُّعَراءِ؟ قالَ: «الذي يَقولُ[3]: [الخفيف]

أَحْمَدٌ قالَ لي وَلَمْ يَدْرِ ما بي: أَتُحِبُّ الغَداةَ عُتْبَةَ حَقّاً؟

= وعمورية وغيرهما من بلاد الروم، ثم خدم المأمون والمتوكّل. له نحو أربعين كتاباً معظمها رسائل، منها: «البرهان»، و«النوادر الطبية»، و«خواص الأغذية والبقول»، و«معرفة العين وطبقاتها». توفّي بسامرّاء.

(١) أبقراط (ت ٣٧٧ق. م): أكثر أطبّاء اليونان تجديداً وشهرة في زمانه. لقّب بأبي الطبّ. حرّر الطب من السحر والشعوذة. يقسم الأطبّاء بقسم أبقراط الذي يؤكد على أخلاقيّة الطب والطبيب. (راجع: الموسوعة العربيّة، م. م. مج١: ١٠١).

(٢) رسائل الجاحظ، م. م. ج١: ٣٨٣.

(٣) القائل هو أبو العتاهية، والأبيات غير موجودة في ديوانه المعتمد، ذكر المسعوديّ الأوّل والثاني منها في مروج الذهب ونسبهما إليه؛ ينظر: مروج الذهب، م. م. ج٤: ٣٧. وكذلك نسبها إليه أبو الفرج؛ ينظر: الأغاني، م. م. ج٤: ١٠٢ (وفيه «لو تجنّين يا عتبة قلبي» بدل «لو تجنّين يا صفيّة روحي»).

فَتَنَفَّسْتُ ثُمَّ قُلْتُ: نَعَمْ! حُبَّـ ـاً جَرَى في العُروقِ عِرْقاً فعِرْقَا
لَـو تَـجُـسّـيـنَ يـا صَـفِـيَّـةُ روحي لَـوَجَـدْتِ الـفُـؤادَ قَـرْحـاً تَـفَـقَّـا

وَإِنَّما صارَ أَشْعَرَ النّاسِ عِنْدَهُ لِذِكْرِهِ العُروقَ وَالجَسَّ وَالقَرْحَ»[1].

وَلَمّا أرادَ هَذا الطَّبيبُ أَنْ يَنْصَحَ المَأمونَ بِعَدَمِ مُجالَسَةِ الثُّقَلاءِ قالَ لَهُ: «لا تُجالِسِ الثُّقَلاءَ، فَإِنّا نَجِدُ في كُتُبِ الطِّبِّ أَنَّ مُجالَسَةَ الثَّقيلِ حُمّى الرّوحِ»[2].

فَالحُمّى شَكَّلَتْ خَطَراً كَبيراً عَلى المَريضِ، فَاسْتَخْدَمَها بَخْتَيْشوعُ في هِجاءِ الثُّقَلاءِ، فَهِيَ تَفْتِكُ بِالجَسَدِ، وَهُمْ يَفْتِكونَ بِالرّوحِ، وَالنَّتيجَةُ عِنْدَهُ واحِدَةٌ.

وَقَدْ هُجِيَ وَزيرٌ فَقيلَ في وَصْفِهِ: «دَمَوِيُّ المِزاجِ، صَفْراوِيُّ الذَّكاءِ، سَوْداوِيُّ الرَّأْيِ، وَلَوْلا ما في لَفْظَةِ البَلْغَمِ مِنَ الكَراهَةِ لَقُلْتُ بَلْغَمِيُّ الأَناةِ»[3].

لَعَلَّ المَقْصودَ بِدَمَوِيِّ المِزاجِ أَنَّهُ سَريعُ الغَضَبِ. أَمّا صَفْراوِيُّ الذَّكاءِ، فَمَأْخوذٌ مِنَ الصَّفْراءِ، وَهِيَ مِنَ المِرَرِ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِلَوْنِها، وَما الصَّفَرُ إِلّا داءٌ في البَطْنِ يَصْفَرُّ مِنْهُ الوَجْهُ[4]. وَالسَّوْداوِيُّ مَأْخوذٌ مِنَ السَّوْداءِ وَهِيَ مِنَ المِرَرِ أَيْضاً. وَالبَلْغَمُ مَعْروفٌ. فَفي هَذا الوَصْفِ

---

(١) خاصّ الخاصّ، م. م. ص: ٦١.

(٢) عيون الأخبار، م. م. ١: ٣٠٩؛ خاصّ الخاصّ، م. م. ص: ٦١؛ لطائف اللطف، م. م. ص: ٩٤؛ البيهقي، إبراهيم بن محمّد: المحاسن والمساوئ، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، د. ط. ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م، ج٢: ٤٢٥ (باختلاف طفيف في هذا الخبر بين هذه المصادر).

(٣) خاصّ الخاصّ، م. م. ص: ٦٠.

(٤) ينظر: لسان العرب، (مادة صفر)، ج٧: ٣٥٨.

وَرَدَ ما أُسِّسَ عَلَيْهِ مِزاجُ البَدَنِ - عِنْدَ القُدَماءِ - مِنَ الدَّمِ وَالمِرَّتَيْنِ وَالبَلْغَمِ[1].

وَقَدِ اسْتَحْوَذَتِ الأمْراضُ عَلى اهْتِمامِ الأطِبّاءِ وَدَأبوا عَلى اسْتِئْصالِها، وَقَدْ جَرى ذِكْرُها أيْضاً عَلى ألْسُنِ مَنْ حَوْلِهِمْ، فَيَصِفُ أبو الفَتْحِ البُسْتِيُّ[2] أخْلاقَ الجَهولِ بِالسُّعالِ قائِلاً: [الكامل]

«إنَّ الجَهُولَ تَضُرُّني أخْلاقُهُ ضَرَرَ السُّعالِ لِمَنْ بِهِ اسْتِسْقاءُ»[3]

وَلَهُ أيْضاً أبياتٌ لَطيفَةٌ أدْرَجَ فيها الزُّكامَ. فَقالَ: [الخفيف]

«لا يَغُرَّنَّكَ أنَّني لَيِّنُ اللَّمْـ سِ فَغَرْبي إذا انْتَضَيْتُ حُسَامُ
أنا كَالوَرْدِ فيهِ راحَةُ قَوْمٍ ثُمَّ فيهِ لآخَرينَ زُكَامُ»[4]

وَمِمّا قالَهُ في عَدَمِ مُطابَقَةِ باطِنِ بَعْضِ النّاسِ لِظاهِرِهِمْ: [المتقارب]

«فَقَدْ يَكْتَسي المَرْءُ خَزَّ الثِّيابِ وَمِنْ دونِها حالَةٌ مُضْنِيَهْ
كَمَنْ يَكْتَسي خَدُّهُ حُمْرَةً وعِلَّتُهُ وَرَمٌ في الرِّئَهْ»[5]

وَللأطِبّاءِ وَصايا في الطِّبِّ أدْرَجوها في قَصائِدَ شِعْرِيَّةٍ، مِنْ ذَلِكَ

---

(١) ينظر: لسان العرب، (مادة مزج)، ج١٣: ٩٢.

(٢) علي بن محمد بن الحسين البستيّ، (أبو الفتح البستيّ) (ت ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م): شاعر عصره وكاتبه. كان من كتّاب الدولة السامانية في خراسان، ارتفعت مكانته عند الأمير سبكتكين، لكن ابن السلطان محمود طرده، فمات غريباً ببخارى. له ديوان شعر، وفي كتب الأدب كثير من نظمه غير مدوّن.

(٣) ديوان أبي الفتح البستي؛ تحقيق الأستاذين دريّة الخطيب ولطفي الصقّال، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة بدمشق، الطبعة الأولى، دمشق، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، ص: ٢٢.

(٤) ديوانه، ص: ١٦٩.

(٥) ديوانه، ص: ٣٠٩.

قَصيدَةُ أَبي المُؤَيَّدِ مُحَمَّدِ بْنِ المُجَليِّ بْنِ الصَّائِغِ المَعْروفِ بِالعَنْتَرِيِّ[1].
وَمِمّا جاءَ فيها: [الكامل]

«وَاجْعَلْ طَعَامَكَ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّةً ... وَاحْذَرْ طَعَاماً قَبْلَ هَضْمِ الطَّعَامِ
وَلَا تَحْقِرِ المَرَضَ اليَسيرَ فَإِنَّهُ ... كَالنّارِ يُصْبِحُ وَهِيَ ذاتُ ضِرامِ»[2]

وَوَصَلَ الأَمْرُ بِبَعْضِ الأَطِبّاءِ أَنِ اسْتَخْدَموا التَّعابيرَ الخاصَّةَ بِالطِّبِّ وَعَمَلِ الطَّبيبِ، في دُعائِهِمْ وَمُناجاتِهِمْ. فَقَدْ قيلَ إِنَّ أَبا أَيّوبَ الطَّبيبَ[3] «كانَ يَقْرَأُ القُرْآنَ، فَكانَ أَغْلَبُ الأَدْعِيَةِ عَلى لِسانِهِ: اللَّهُمَّ اسْقِنا مِنْ رَحْمَتِكَ شَرْبَةً تُسَهِّلُ عَلَيْنا ذُنوبَنا، إِنَّكَ أَنْتَ الغَفورُ الرَّحيمُ»[4]. فَالطَّبيبُ يَلْجَأُ في بَعْضِ الحالاتِ إِلى إِعْطاءِ المَريضِ دَواءً لِيُفْرِغَ ما في بَطْنِهِ لِعلاجِهِ، فَاسْتَعارَ أَبو أَيّوبَ هَذِهِ الصّورَةَ في دُعائِهِ لِحاجَتِهِ إِلى رَحْمَةٍ إِلَهِيَّةٍ تُخَلِّصُهُ مِنْ ذُنوبِهِ، تَماماً كَما تَفْعَلُ الشَّرْبَةُ بِبَطْنِ المَريضِ.

كَذَلِكَ اسْتَعانَ الأَطِبّاءُ بِلُغَتِهِمُ الطِّبِّيَّةِ المُتَخَصِّصَةِ في صَوْغِ أَمْثالِهِمْ وَحِكَمِهِمْ. مِنْ ذَلِكَ:

- «العاقِلُ يَتْرُكُ ما يُحِبُّ لِيَسْتَغْنِيَ عَنِ العِلاجِ بِما يَكْرَهُ»[5].

---

(١) محمّد بن المجليّ بن الصائغ الجزريّ، أبو المؤيّد العنتريّ (ت نحو ٥٧٠هـ/ ١١٧٥م): طبيب، عالم بالحكمة والفلسفة، أديب، جيّد الشعر. من أهل الجزيرة (بين دجلة والفرات). كان في أوّل أمره يكتب أخبار عنترة العبسي فاشتهر بنسبته إليه. صنف كتباً، منها: «النور المجتنى» في الأدب والأخبار، و«الجمانة» في العلم الطبيعي والإلهي، و«العشق الإلهي والطبيعي».

(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء، م. م. ص: ٣٩٠.

(٣) لم أقف على ترجمته.

(٤) لطائف اللطف، م. م. ص: ٩٥؛ وفي خاصّ الخاصّ، م. م. ص: ٦٠ «اللّهمّ اسقنا شربة من حبّك تسهل ذنوبنا».

(٥) الثعالبيّ، عبد الملك بن محمّد: التمثيل والمحاضرة، تحقيق عبد الفتّاح محمّد الحلو، دار إحياء الكتب العربيّة، د. ط. القاهرة، ١٣٨١هـ - ١٩٦١م، ص: ٨٠؛ خاصّ الخاصّ، م. م. ص: ٦١.

دَلّلوا بِهَذا القَوْلِ عَلى أَصْحابِ العُقولِ الرَّشيدَةِ الَّذينَ يُقاوِمونَ ما تَشْتَهي أَهْواؤُهُمْ، وَهُمْ في ذَلِكَ كَالمَرْءِ الذي يَحْذَرُ ما يَضُرُّ صِحَّتَهُ كَيْ لا يَحْتاجَ إِلى العِلاجِ الّذي يَكونُ، عادَةً، صَعْباً وَشاقّاً عَلى النَّفْسِ وَالجَسَدِ، لِأَنَّ «أَكْثَرَ الأَدْوِيَةِ الجالِبَةِ للصِّحَّةِ مُرَّةٌ مُسْتَبْشِعَةٌ»[1].

• «الكَرَمُ عِنْدَ أَهْلِ اللُّؤْمِ كَالماءِ في المَحْمومِ»[2].

فَالماءُ مَصْدَرُ الحَياةِ، لَكِنَّهُ - بِاعْتِقادِ الأَطِبّاءِ آنَذاكِ وَعِلاجِهِمْ - لا يَنْفَعُ المَحْمومَ بَلْ يَضُرُّهُ. وَكذَلِكَ الكَرَمُ، فَإِنَّهُ لا يُجْدي نَفْعاً عِنْدَ اللِّئامِ.

• «البِطْنَةُ تُذْهِبُ الفِطْنَةَ»[3].

فَالبِطْنَةُ امْتِلاءُ البَطْنِ مِنَ الطَّعامِ، ما يُسَبِّبُ كَسَلاً وَخُمولاً.

• «الحُزْنُ مَرَضُ الرّوحِ، كَما أَنَّ الأَلَمَ مَرَضُ البَدَنِ»[4].

فَالحُزْنُ مَصْدَرٌ لِكَثيرٍ مِنَ الأَمْراضِ النَّفْسِيَّةِ الّتي يَشْعُرُ بِها المَرْءُ شُعورَهُ بِالمَرَضِ الجِسْمانِيِّ.

رَأَيْنا في هَذا الفَصْلِ أَنَّ الأَطِبّاءَ تَمَتَّعوا بِمَنْزِلَةٍ رَفيعَةٍ في المُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ، وَقَدْ تَأَثَّرَتْ لُغَتُهُمْ بِمِهْنَةِ الطِّبِّ بِالرَّغْمِ مِنْ إِلْمامِ عَدَدٍ كَبيرٍ مِنْهُمْ بِالفَلْسَفَةِ، وَالحِسابِ وَالنُّجومِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَاشْتِغالِ الكَثيرينَ مِنْهُمْ بِتَرْجَمَةِ الكُتُبِ إِلى العَرَبِيَّةِ، فَظَهَرَ ذَلِكَ التَّأْثيرُ في وَصْفِهِمِ الأَحْداثَ

---

(١) بهجة المجالس، م. م. ج٢: ٢٠٠.
(٢) خاصّ الخاصّ، م. م. ص: ٦١.
(٣) التمثيل والمحاضرة، م. م. ص: ١٨٠.
(٤) المرجع السابق، ص: ١٨١.

وَالأَشْخاصَ، وَفي التَّعْبيرِ، نَثْراً وَشِعْراً، عَمّا اخْتَلَجَتْ بِهِ نُفوسُهُمْ، وَفي صَوْغِ نَصائِحِهِمْ وَأَمْثالِهِمْ وَحِكَمِهِمْ.

وَقَبْلَ الانْتِقالِ إِلى الحَديثِ عَنِ التُّجّارِ - أَبْناءِ الطَّبَقَةِ الوُسْطى - لا بُدَّ مِنَ الوُقوفِ عَلى لُغَةِ الشُّعَراءِ، لانْتِماءِ عَدَدٍ كَبيرٍ مِنْهُمْ إِلى الخَواصِّ وَالعَوامِّ في المُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ.

الفَصْلُ العاشِرُ

لُغَةُ الشُّعَراءِ

اسْتَأْثَرَ الشِّعْرُ بِاهْتِمامِ الخاصَّةِ وَالعامَّةِ في العَصْرِ العَبّاسِيِّ، وَكانَ بِمَنْزِلَةِ الصَّحيفَةِ اليَوْمِيَّةِ الّتي يَتَداوَلُها كُلُّ النّاسِ، فَفي «البَيانِ وَالتَّبْيينِ» وَحْدَهُ اسْتَشْهَدَ الجاحِظُ بِما يُقارِبُ أَلْفَ بَيْتٍ مِنَ الشِّعْرِ الجاهِلِيِّ وَالإِسْلامِيِّ وَالأُمَوِيِّ وَالعَبّاسِيِّ، وَبِعَدَدٍ غَيْرِ قَليلٍ مِنَ الأَرْجازِ.

وَكانَ الشُّعَراءُ يَنْتَمونَ إِلى كُلِّ طَبَقاتِ المُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ. وَاسْتَطاعَ الَّذينَ تَقَرَّبوا بِشِعْرِهِمْ إِلى السَّلاطينِ امْتِلاكَ المالِ الوَفيرِ، وَالتَّنَعُّمَ بِمَلاذِّ الحَياةِ، وَمُحاكاةَ أَهْلِ الخاصَّةِ في العَيْشِ وَالرَّفاهِيَةِ، إِلّا أَنَّ مَكانَةَ الشُّعَراءِ الاجْتِماعِيَّةِ كانَتْ دونَ مَكانَةِ الخُطَباءِ وَالكُتّابِ[1].

هَذا وَلَمْ يَعُدِ الشّاعِرُ العَبّاسِيُّ رَجُلاً أُمِّياً يَتَّكِلُ عَلى «شَيْطانِ شِعْرِهِ» في نَظْمِ القَصيدَةِ فَحَسْبِ، بَلْ باتَ رَجُلاً مُثَقَّفاً بِثَقافَةِ عَصْرِهِ، فَهُوَ قَدْ ذَهَبَ إِلى الكُتّابِ وَالمِرْبَدِ وَالمَسْجِدِ، وَجالَسَ عُلَماءَ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ وَالتَّفْسيرِ وَالحَديثِ وَالكَلامِ وَالفِقْهِ، وَحَضَرَ المُناظَراتِ وَالمُناقَشاتِ في تِلْكَ العُلومِ وَسِواها. كَما ساعَدَتْهُ الكُتُبُ المَوْضوعَةُ وَالمُتَرْجَمَةُ عَلى نَهْلِ الآدابِ وَالمَعارِفِ وَالعُلومِ، فَأَبو نُواسٍ ـ مَثَلاً ـ وَبِالرَّغْمِ مِنْ مُجونِهِ

---

(١) ينظر: البيان والتبيين، م. م. ج١: ٢٤١؛ ج٢: ٢٤١.

وَلَهْوِهِ، فَإِنَّهُ «كانَ فَقيهاً، عارِفاً بِالأَحْكامِ وَالفُتْيا، بَصيراً بِالاخْتِلافِ، صاحِبَ حِفْظٍ وَنَظَرٍ وَمَعْرِفَةٍ بِطُرُقِ الحَديثِ، وَيَعْرِفُ ناسِخَ القُرْآنِ وَمَنْسوخَهُ، وَمُحْكَمَهُ وَمُتَشابِهَهُ... وَكانَ أَحْفَظَ لِأَشْعارِ القُدَماءِ وَالمُخَضْرَمينَ وَأَوائِلِ الإِسْلامِيِّينَ وَالمُحْدَثينَ»[1].

وَكانَ ـ كَغَيْرِهِ مِنَ الشُّعَراءِ ـ يَسْتَلْهِمُ مِنْ تِلْكَ العُلومِ مادَّةً لِشِعْرِهِ إِذا اقْتَضى المَقامُ ذَلِكَ، كَتَوْظيفِهِ آياتِ القُرْآنِ الكَريمِ وَالأَحاديثَ النَّبَوِيَّةِ في شِعْرِهِ؛ يُرْوى أَنَّهُ كانَ في مَجْلِسٍ مَعَ جَماعَةٍ مِنَ الشُّعَراءِ، «فَقالَ بَعْضُهُمْ: أَيُّكُمْ يَأْتيني بِبَيْتِ شِعْرٍ فيهِ آيَةٌ مِنَ القُرْآنِ وَلَهُ حُكْمُهُ؟ فَأَخَذوا يُفَكِّرونَ فيهِ فَبادَرَ أَبو نُواسٍ فَقالَ: [الرجز]

«وَفِتْيَةٍ في مَجْلِسٍ وُجوهُهُمْ ... رَيْحانُهُمْ قَدْ أَمِنوا الثَّقيلا
دانِيَةً عَلَيْهِمُ ظِلالُها ... وَذُلِّلَتْ قُطوفُها تَذْليلا»[2]

فَفي البَيْتِ الأَخيرِ اسْتَشْهَدَ بِالآيَةِ الرّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ سورَةِ الإِنْسانِ.

وَقيلَ إِنَّهُ كانَ مَعَ بَعْضِ أَصْحابِهِ عِنْدَ أُسْتاذِهِمْ عَبْدِ الواحِدِ بْنِ زِيادٍ المُحَدِّثِ[3]، فَقالَ لَهُمُ الأُسْتاذُ لِيَسْأَلْ كُلٌّ مِنْكُمْ حاجَتَهُ. فَقالَ أَبو نُواسٍ [مجزوء الرمل]:

«وَلَقَدْ كُنّا رَوَيْنا ... عَنْ سَعيدِ بْنِ قَتادَةْ

---

(١) ابن المعتز، عبد الله بن محمّد: طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستّار أحمد فراج، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٨م، ص: ٢٠١.

(٢) المرجع السابق، ص: ٢٠٧. والبيتان غير مثبتين في ديوانه المعتمد.

(٣) عبد الواحد بن زياد (ت ١٧٧هـ/ ٧٩٣م): من علماء الحديث من أهل البصرة وحديثه مُخَرَّجٌ فِي الصّحاح. (الذهبيّ، محمّد بن أحمد: سير أعلام النبلاء، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرّسالة، الطّبعة الثالثة، بيروت، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م، ج٩: ٧).

عَنْ سَعيدِ بْنِ المُسَيَّبِ أَنَّ سَعْدَ بْنَ عُبادَهْ
قالَ مَنْ ماتَ مُحِبّا فَلَهُ أَجْرُ الشَّهادَهْ»

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ عَبْدُ الواحِدِ بْنُ زِيادٍ وَقالَ: اغْرُبْ يا خَبيثُ، وَاللهِ لا حَدَّثْتُكَ بِشَيْءٍ...»[1].

كَذَلِكَ التَمَسَ الشُّعَراءُ عِباراتِ أَهْلِ الكَلامِ وَالفَلْسَفَةِ[2]، فَأَبو تَمّامٍ[3]، مَثَلاً، قالَ في إِحْدى مَدائِحِهِ: [الخفيف]

«لَنْ يَنالَ العُلى خُصوصاً مِنَ الفِتْـ ـيانِ مَنْ لَمْ يَكُنْ نَداهُ عُموماً»[4]

فَالعُمومُ وَالخُصوصُ مِنْ كَلامِ أَهْلِ المَنْطِقِ.

وَمَعَ التَّوَسُّعِ في دِراسَةِ مُخْتَلَفِ العُلومِ وَالآدابِ، ظَهَرَ الشِّعْرُ التَّعْليمِيُّ، فَنَظَمَ الشُّعَراءُ في النَّحْوِ وَالفِقْهِ وَالتّاريخِ وَقَضايا كَلامِيَّةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ[5].

وَأَكْثَرُ ما يُهِمُّنا في هَذا المَقامِ هُوَ تَأَثُّرُ الشُّعَراءِ بِالأَوْضاعِ المُسْتَجِدَّةِ في الحاضِرَةِ العَبّاسِيَّةِ، وَانْعِكاسُ ذَلِكَ عَلى أَشْعارِهِمْ. فَقَدْ كانَتِ القَصائِدُ التي تَوَجَّهَ بِها الشُّعَراءُ إِلى الحُكّامِ ـ وَلا سِيَّما إِلى الخُلَفاءِ ـ تُسايِرُ

---

(١) البغدادي، أحمد بن علي (الخطيب البغداديّ): تاريخ بغداد، تحقيق الدكتور بشّار عوّاد معروف، دار الكتاب العربيّ، الطّبعة الأولى، بيروت، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م، ج٨: ٤٧٨. والأبيات غير مثبتة في ديوانه المعتمد.

(٢) ينظر: البيان والتبيين، م. م. ج١: ١٤١.

(٣) حبيب بن أوس الطائيّ (أبو تمام) (٢٣١ هـ/ ٨٤٦ م): الشاعر والأديب. قدّمه المعتصم على شعراء وقته. له تصانيف منها: «فحول الشعراء»، و«ديوان الحماسة»، و«الوحشيّات»، و«نقائض جرير والأخطل»، وديوان شعر.

(٤) ديوان أبي تمّام، شرح الخطيب التبريزيّ، تحقيق محمّد عبده عزّام، دار المعارف، القاهرة، د. ط. ١٩٦٤م، ج٣: ٢٢٥.

(٥) ينظر: كتاب الحيوان، م. م. ج٦: ٢٨٤ ـ ٢٩٧؛ البيان والتبيين، م. م. ج١: ٢٧ ـ ٢٩.

القَصيدَةَ الجاهِلِيَّةَ في الوُقوفِ عَلى الأَطْلالِ، وَوَصْفِ النوقِ، وَالرِّحْلَةِ إِلى الخَليفَةِ، وَفي اعْتِمادِ المَعاني الجَزْلَةِ وَالأَوْزانِ الطَّويلَةِ. وَالشُّعَراءُ في ذَلِكَ نَزَلوا عِنْدَ ذَوْقِ عُلَماءِ اللُّغَةِ ـ قُضاةِ الشِّعْرِ ـ [1] وَرَغْبَةِ مُعْظَمِ الحُكّامِ بِمَنْهَجِ الجاهِلِيّينَ في الشِّعْرِ، بِاسْتِثْناءِ عَدَدٍ قَليلٍ مِنْهُمْ، كَالمَنْصورِ الذي رَفَضَ أَنْ يُمْدَحَ عَلى الطَّريقَةِ القَديمَةِ بِأَنْ يُشَبَّهَ بِالأَسَدِ أَوِ البَحْرِ أَوْ ما شابَهَ ذَلِكَ[2].

وَنَجِدُ أَنَّ كَثيراً مِنَ الشُّعَراءِ في العَصْرِ العَبّاسِيِّ رَفَضوا الصُّوَرَ المُتَعَلِّقَةَ بِالبادِيَةِ لِبُعْدِها عَنِ الحَياةِ الجَديدَةِ، وَثاروا عَلى ذَلِكَ النَّهْجِ التَّقْليدِيِّ بِالرَّغْمِ مِنِ اتِّباعِهِمْ إِيّاهُ بَيْنَ يَدَيِ الخُلَفاءِ[3]. فَأَبو نُواسٍ رَفَضَ حَياةَ البَداوَةِ، وَمِمّا قالَهُ في ذَلِكَ: [الوافر]

«دَعِ الأَطْلالَ تَسْفيها الجَنوبُ ... وَتُبْلي عَهْدَ جِدَّتِها الخُطوبُ
وَخَلِّ لِراكِبِ الوَجْناءِ أَرْضاً ... تَخُبُّ بِها النَّجيبَةُ وَالنَّجيبُ
وَلا تَأْخُذْ عَنِ الأَعْرابِ لَهْواً ... وَلا عَيْشاً فَعَيْشُهُمْ جَديبُ
دَعِ الأَلْبانَ يَشْرَبُها رِجالٌ ... رَقيقُ العَيْشِ بَيْنَهُمُ غَريبُ
بِلادٌ نَبْتُها عُشَرٌ وَطَلْحٌ ... وَأَكْثَرُ صَيْدِها ضَبُعٌ وَذيبُ»[4]

وَمَعَ كَثْرَةِ بِناءِ القُصورِ وَالتَّفَنُّنِ في زَخْرَفَتِها، وَإِنْشاءِ النّافوراتِ وَالبِرَكِ، وَالاعْتِناءِ بِالرِّياضِ وَالبَساتينِ وَما شابَهَ هَذا، اسْتَهَلَّ الشُّعَراءُ قَصائِدَهُمْ في كَثيرٍ مِنَ الأَحْيانِ بِوَصْفِ تِلْكَ المَظاهِرِ، دونَ الاسْتِهْلالِ

---

(١) عن الحكم على القصائد، ينظر على سبيل المثال: **الأغاني**، م. م. ج١٠: ٨٧، ٨٨؛ ج١٨: ١٧٤.
(٢) ينظر: **تاريخ الأدب العبّاسيّ**، م. م. ص: ١٤.
(٣) راجع ديوانه، ص: ٤٠٢ ـ ٤٠٤ (ما قاله أبو نواس في المهدي والرشيد).
(٤) ديوانه، ص: ١١.

بِالصُّوَرِ الجاهِلِيَّةِ المَعْروفَةِ. فَعِنْدَما مَدَحَ أبو تَمّامٍ مُحَمَّدَ بْنَ الهَيْثَمِ بْنِ شُبانَةَ[1]، افْتَتَحَ قَصيدَتَهُ بِوَصْفِ سَحابَةِ المَطَرِ قائِلاً: [الخفيف]

«ديمَةٌ سَمْحَةُ القِيادِ سَكُوبُ مُسْتَغيثٌ بِها الثَّرى المَكْرُوبُ»[2]

أَمّا مُسْلِمُ بْنُ الوَليدِ[3]، فَوَصَفَ الرِّياضَ قائِلاً: [الطَّويل]

«وَخَضْراءَ يَدْعُو شَجْوَ مُكْتَئِبِها
إذا نَسَفَتْها الرِّيحُ رَيْحانُها شُعُلُ[4]
سَقاها الثَّرى ماءَ النَّدَى وَأَسَرَّها
مِنَ القَيْظِ حَتّى أَمْرَعَ السّارِحَ الرِّبَلُ[5][6]»

وَفي النَّسيبِ، كانَتْ رَغْبَةُ القَوْمِ بادِئَ الأَمْرِ في نَسيبِ العَبّاسِ بْنِ الأَحْنَفِ[7]، ثُمَّ نَسيبِ الأَعْرابِ[8]. وَبَعْدَ انْتِشارِ الغِلْمانِ وَالجَواري، وَلا

---

(١) لم أقف على ترجمته.

(٢) ديوانه، ج١: ٢٩١.

(٣) مسلم بن الوليد المعروف بصريع الغواني (ت ٢٠٨هـ/ ٨٢٣م): شاعر غزل، أكثر من البديع، وتبعه الشعراء فيه. مدح الرشيد، والبرامكة وذا الرياستين، الذي قلّده مظالم جرجان. له ديوان شعر.

(٤) ريحانها شعل: مشتعل الرائحة.

(٥) أمرع المكان: أكلأ وأخصب بكثرة الكلأ. السارح: الماشية، أو القوم الذين لهم السّرح؛ وقيل الراعي. الربل: ضروب من الشجر؛ وقيل ورق يتفطّر في آخر القيظ بعد الهيج ببرد الليل من غير مطر.

(٦) من قصيدة يمدح فيها الفضل بن جعفر البرمكيّ؛ ينظر: ديوان صريع الغواني (مسلم بن الوليد الأنصاريّ)، تحقيق الدكتور سامي الدهان، دار المعارف، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص: ٢٦١.

(٧) العبّاس بن الأحنف بن الأسود اليماميّ، أبو الفضل (ت١٩٢ هـ/ ٨٠٨ م): شاعر غزل رقيق. أصله من اليمامة. هو خال إبراهيم بن العباس الصّولي. خالف الشعراء في طريقتهم، فلم يمدح ولم يهج، بل كان شعره كله غزلاً وتشبيباً.

(٨) ينظر: البيان والتبيين، م. م. ج٤: ٢٣.

سِيَّما في دورِ الخُلَفاءِ، تَوَجَّهَ الشُّعَراءُ إِلى النَّسيبِ المُؤَنَّثِ وَالمُذَكَّرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَجَرَّأَ عَلى وَصْفِ الغِلْمانِ وَعَلاقَتِهِ بِهِمْ بَعْدَ أَنْ رَأى عَدَداً مِنْ حُكّامِهِ يَهْوى هَذا الصِّنْفَ مِنَ الرَّقيقِ، كَالأمينِ[١] وَسِواهُ[٢]. وَلِلشُّعَراءِ المُجّانِ أَبْياتٌ غِلْمانِيَّةٌ ماجِنَةٌ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ أَبي نُواسٍ: [المنسرح]

«أَحْسَنُ مِنْ وَقْفَةٍ عَلى طَلَلِ ... كَأْسُ عُقارٍ، تَجْري عَلى ثَمِلِ

يُديرُها أَحْوَرٌ، بِهِ هَيَفٌ ... مُعْتَدِلُ الخَلْقِ، راجِحُ الكَفَلِ»[٣]

وفي ذَلِكَ العَصْرِ، لَمْ يَعُدْ للشِّعْرِ الغَزَلِيِّ حُدودٌ، لِمُخالَطَةِ القَوْمِ الجَوارِيَ وَالقِيانَ اللَّواتي تَحَلَّلْنَ مِنَ الحِشْمَةِ وَالأَخْلاقِ؛ فَفي كِتابِ الأغاني لأَبي الفَرَجِ الأَصْبَهانِيِّ[٤]، كَمٌّ هائِلٌ مِنَ الأَشْعارِ الغَزَلِيَّةِ الَّتي تَعْكِسُ أَجْواءَ الطَّبقاتِ الحاكِمَةِ وَالفِئاتِ العابِثَةِ وَالماجِنَةِ في المُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ، حَيْثُ كانَ الفَسادُ الخُلُقِيُّ وَالتَّحَلُّلُ الدِّينيُّ سَيِّدَي المَوْقِفِ.

أَمّا وَصْفُ الخَمْرَةِ، وَمَعَ وُجودِهِ في أَشْعارِ العَرَبِ مِنْ قَبْلُ، فَقَدْ بولِغَ فيهِ، وَأَصْبَحَتِ الخَمْرِيّاتُ فَنّاً شِعْرِيّاً قائِماً بِذاتِهِ، وَساعَدَ الشُّعَراءَ

---

(١) محمّد بن هارون الرشيد (الأمين العبّاسيّ) (١٧٠هـ/ ٨١٣ م): خليفة عبّاسيّ، بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه سنة ١٩٣هـ بعهد منه. وكان المأمون ولي العهد من بعده. وفي سنة ١٩٥ هـ أعلن الأمين خلع المأمون من ولاية العهد، فنشبت الحرب بينهما وانتهت بمقتل الأمين.

(٢) ينظر: تاريخ الرسل والملوك، م. م. ج٨: ٥٠٨.

(٣) ديوانه، ص: ١٤٧.

(٤) هو علي بن الحسين بن محمّد، (أبو الفرج الأصبهانّ) (ت٣٥٦ هـ/٩٦٧م): من أئمّة الأدب، الأعلام في معرفة التاريخ والأنساب والسير والآثار واللغة والمغازي. ولد في أصبهان، ونشأ وتوفيّ ببغداد. من كتبه: «الأغاني»، جمعه في خمسين سنة، و«مقاتل الطالبيين»، و«نسب بني عبد شمس»، و«الإماء الشواعر»، و«أيام العرب».

عَلى ذَلِكَ انْعِقادُ مَجالِسِ الخَمْرِ في دورِ الخُلَفاءِ، وَانْتِشارُ الحاناتِ وَالخَمَّاراتِ في أَنْحاءٍ مُتَفَرِّقَةٍ مِنَ الحاضِرَةِ العَبّاسِيَّةِ، وَلا سِيَّما في الأَدْيِرَةِ، وَقَدْ أَلْهَمَتْ هَذِهِ الحاناتُ الشُّعَراءَ رِثاءَها، فَرَثا أَبو نُواسٍ حانَةً كِسْرَوِيَّةً مَهْجورَةً في المَدائِنِ، عاصِمَةِ الأَكاسِرَةِ، بِقَصيدَةٍ مَطْلَعُها: [الطّويل]

«وَدَارِ نَدَامَى عَطَّلُوهـا، وَأَدْلَجُوا بِهَـا أَثَرٌ مِنْهُـمْ جَديدٌ وَدارِسُ»[١]

وَمَعَ وُلوعِ الخُلَفاءِ وَعِلْيَةِ القَوْمِ بِالصَّيْدِ، ظَهَرَ شِعْرُ الطَّرْدِ[٢]، وَهَذا الفَنُّ الشِّعْرِيُّ ارْتَبَطَ «ارْتِباطاً وَثيقاً بِحَياةِ التَّرَفِ وَالغِنى وَالنُّعمى، فَلَيْسَ كُلُّ النّاسِ قادِرينَ عَلى الصَّيْدِ وَالقَنْصِ لِما يَتَكَبَّدُهُ مِنْ نَفَقاتٍ باهِظَةٍ مِنْ خَيْلٍ وَخِيامٍ وَخَدَمٍ، وَلِما يَحْتاجُهُ مِنْ وَقْتٍ لِلسَّفَرِ وَالانْتِقالِ إِلى أَماكِنِ الصَّيْدِ، وَلِما يَتَكَلَّفُهُ مِنْ اقْتِناءِ حَيَوانِ الصَّيْدِ وَطُيورِهِ، مِنْ فُهودٍ وَكِلابٍ وَعِقْبانٍ وَصُقورٍ وَبَوازٍ...»[٣] .

وَفي خِضَمِّ التَّحَوُّلاتِ الحَضارِيَّةِ الكُبرى الَّتي شَهِدَها المُجْتَمَعُ العَبّاسِيُّ، وَبُروزُ الاخْتِلافِ الاقْتِصادِيِّ بَيْنَ الطَّبَقاتِ، انْبَرى شُعَراءُ الطَّبَقاتِ الدُّنْيا، المَحْرومَةِ مِنْ أَدْنى مُقَوِّماتِ العَيْشِ، يَصِفونَ فَقْرَهُمْ وَشَقاءَهُمْ، وَما تُعانيهِ عِيالُهُمْ، وَيَخْتَصِرُ تِلْكَ الحالَ قَوْلُ الشّاعِرِ: [السريع]

---

(١) ديوانه، ص: ٣٧.

(٢) الطّرد: مزاولة الصيد. وعن شعر الطّرد، ينظر على سبيل المثال:
كتاب الحيوان، م. م. ج٢: ٢٧ ـ ٦٦.
ديوان أبي نواس، م. م. (باب الطّرديات)، ص: ٦٣٩ ـ ٦٧٣.

(٣) الشكعة، مصطفى (دكتور): رحلة الشّعر من الأمويّة إلى العبّاسيّة، دار النّهضة، بيروت، د. ط. ١٩٧٣م، ص: ٢٣١.

«مَنْ كانَتْ الدُّنْيا لَهُ شارَةً[1] فَنَحْنُ مِنْ نَظَّارَةِ الدُّنْيا
نَرْقُبُها مِنْ كَثَبٍ حَسْرَةً كَأَنَّنا لَفْظٌ بِلا مَعْنَى»[2]

وَكَثيراً ما وَصَفَ هَؤُلاءِ الشُّعَراءِ حالَ أَوْلادِهِمْ وَبُؤْسَهُمْ، وَما عانوهُ مِنْ فَقْرٍ وَإِمْلاقٍ، فَأَبو الشَّمَقْمَقِ[3] قالَ في بَنيهِ أَبْياتاً كِنايَةً عَنْ حالِ كُلِّ أَوْلادِ الفُقَراءِ وَالبائِسينَ في مُجْتَمَعِهِ: [السريع]

«ما جَمَعَ النّاسُ لِدُنْياهُمْ أَنْفَعَ في البَيْتِ مِنَ الخُبْزِ
وَالخُبْزُ بِاللَّحْمِ إِذا نِلْتَهُ فَأَنْتَ في أَمْنٍ مِنَ التَّرْزِ[4]
وَالقَلْزُ مِنْ بَعْدُ عَلى إِثْرِهِ فَإِنَّما اللَّذّاتُ في القَلْزِ[5]
وَقَدْ دَنا الفِطْرُ وَصِبْيانُنا لَيْسوا بِذي تَمْرٍ وَلا أَرْزِ
وَذاكَ أَنَّ الدَّهْرَ عاداهُمْ عَداوَةَ الشّاهينِ لِلْوَزِّ
كانَتْ لَهُمْ عَنْزٌ فَأَوْدى بِها وَأَجْدَبوا مِنْ لَبَنِ العَنْزِ

---

(١) شارة: اللباس وحسن الهيئة بسبب السمن.
(٢) ابن الجرّاح، محمّد بن داود: كتاب الورقة، تحقيق الدكتور عبد الوهّاب عزّام وعبد الستّار أحمد فرّاج، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة، د. ت. ص: ٦١. (نُسب البيتان إلى عمرو الخاركي)؛ المحاسن والمساوىء، م. م. ج١: ٤٤٩ (نسبا إلى إسماعيل بن إبراهيم بن حمدويه، وباختلاف بعض المفردات: («أخا ثروة» بدل «شارة». «من كثب هكذا» بدل «من كثب حسرة»)؛ الأغاني، م. م. ج٢٠: ٣٣٧ (نسبا إلى سعيد بن وهب، وبزيادة بيت)؛ محاضرات الأدباء، م. م. ج٢: ٥٠٥ (نسبا إلى الخاركي، دون تحديد أهو عمرو أم أحمد).
(٣) مروان بن محمّد، الملقّب بأبي الشمقمق (ت نحو ٢٠٠ هـ/نحو ٨١٥ م): شاعر هجّاء، من أهل البصرة. خراساني الأصل، من موالي بني أميّة. زار بغداد في أول خلافة الرشيد العبّاسي. له أخبار مع شعراء عصره، كبشّار وأبي العتاهية وأبي نواس وابن أبي حفصة.
(٤) الترز: الهلاك.
(٥) القلز: ضرب من الشرب، والقلز: النّشاط والوثوب.

فَلَوْ رَأَوْا خُبْزاً عَلَى شاهِقٍ لَأَسْرَعوا لِلْخُبْزِ بِالجَمْزِ[1]
وَلَوْ أَطاقُوا القَفْزَ ما فاتَهُمْ وَكَيْفَ لِلْجائِعِ بِالقَفْزِ[2]

لا يَتَمَنَّى هَذا الشّاعِرُ غَيْرَ القَليلِ مِنَ الخُبْزِ وَاللَّحْمِ، إِلّا أَنَّهُ حُرِمَ هُوَ وَأَوْلادُهُ ذَلِكَ، فَتَمَكَّنَ الجوعُ مِنْ أُولَئِكَ الصِّغارِ، فَأَضْناهُمْ وَأَذْهَبَ قُوَّتَهُمْ .

وَمِمّا قالَهُ أَيْضاً للدَّلالَةِ عَلى فَقْرِ أُسْرَتِهِ وَحاجَتِها إِلى الطَّعامِ:
[الخفيف]

في بُيَيْتٍ مِنَ الغَضارَةِ[3] قَفْرٍ لَيْسَ فيهِ إِلّا النَّوى وَالنُّخالَةْ
عَطَّلَتْهُ الجِرْذانُ مِنْ قِلَّةِ الخَيْرِ وَطارَ الذُّبابُ نَحْوَ زُبالَةْ[4]
هارِباتٍ مِنْهُ إِلى كُلِّ خِصْبٍ حينَ لَمْ يَرْتَجينَ مِنْهُ بُلالَةْ[5]
وَأَقامَ السِّنَّوْرُ فيهِ بِشَرٍّ يَسْأَلُ اللَّهَ ذا العُلا وَالجَلالَةْ
أَنْ يَرى فَأْرَةً فَلَمْ يَرَ شَيْئاً ناكِساً رَأْسَهُ لِطولِ المَلالَةْ
قُلْتُ لَمّا رَأَيْتُهُ ناكِسَ الرَّأْ سِ كَئيباً يَمْشي عَلى شَرِّ حالَةْ
قُلْتُ صَبْراً يا نازُ[6] رَأْسَ السَّنانيـ ـرِ، وَعَلَّلْتُهُ بِحُسْنِ مَقالَةْ
قالَ: لا صَبْرَ لي وَكَيْفَ مَقامي في قِفارٍ كَمِثْلِ بِيدِ تَبالَةْ[7]

---

(١) الجمز: العدو ليس بالسريع.
(٢) **طبقات الشعراء**، م. م. ص: ١٢٧، ١٢٨.
(٣) الغضارة: الطّين الحرّ، وقيل الطّين اللازب الأخضر.
(٤) زُبالة، بضم أوّله: منزل معروف بطريق مكّة من الكوفة، وهي قرية عامرة بها أسواق بين واقصة والثعلبية. (**معجم البلدان**، م. م. ج٣: ١٢٩).
(٥) بلاله: النّدوة.
(٦) ناز: اسم للسنور بالفارسيّة. (هامش **كتاب الحيوان**، م. م. ج٥: ٢٦٦).
(٧) بيد، جمع بيداء. تبالة بالفتح: موضع ببلاد اليمن. (**معجم البلدان**، م. م. ج٢: ٩).

لا أرى فيهِ فأرَةً أنغِضُ الرّأْ سَ وَمَشْيِي في البَيْتِ مَشْيَ خَيالَهْ»[1]

تُظْهِرُ هَذِهِ الأبْياتُ أنَّ بُيوتَ الفُقَراءِ كانَتْ شِبْهَ خالِيَةٍ مِنْ أهَمِّ مُقَوِّماتِ الحَياةِ، أيْ مِنَ الطَّعامِ وَالشَّرابِ، فَلَمْ يَكُنْ فيها سِوى النَّوى وَالنُّخالَةِ. وَقَدْ كَنَّى الشّاعِرُ عَنْ ذَلِكَ بِهِجْرانِ الفِئْرانِ وَالذُّبابِ مِنْ دارِهِ إلى أماكِنَ أكْثَرَ خَصْباً، وَبِشِكايَةِ سِنَّوْرِهِ عَدَمَ الظَّفَرِ بِفَريسَةٍ في هَذا البَيْتِ المُقْفِرِ.

وَكانَ الرَّغيفُ ـ الرَّمْزُ لِضَروراتِ الحَياةِ ـ مادَّةً حَيَوِيَّةً في شِعْرِ أولَئِكَ الشُّعَراءِ، فَجَرى ذِكْرُهُ عَلى لِسانِهِمْ. وَفيهِ قالَ عاذِرُ بْنُ شاكِرٍ[2]:

[الكامل]

«جانَبْتُ وَصْلَ الغانِياتِ وَصَحَوْتُ عَنْ وَصْلِ اللَّواتي
نَعِمَتْ بِهِنَّ عُيونُ مَنْ وَاصَلْنَه حَتَّى المَماتِ
فَدَعِ الطُّلولَ لِجاهِلٍ يَبْكي الدِّيارَ الخالِياتِ
وَدَعِ المَديحَ لأمْرَدٍ وَلِخادِمٍ وَلِغانِياتِ
وَامْدَحْ رَغيفاً زانَهُ حَرْفٌ يَجِلُّ عَنِ الصِّفاتِ
يَدَعُ الحَليمَ مُدَلَّهاً حَيْرانَ يَغْلَطُ في الصَّلاةِ
وَكَأنَّما نَقْشُ الرَّغيـ ـفِ نُجومُ لَيْلٍ طالِعاتِ
مَنْعُ الرَّغيفِ سَفاهَةٌ تَرْكُ[3] الرَّغيفِ مِنَ الهِبَاتِ»[4]

(١) كتاب الحيوان، م. م. ج٥: ٢٦٦.

(٢) عاذر بن شاكر أبو المخفّف (ت ٢١٨ هـ/٨٣٣ م): شاعر عبّاسيّ، كان أيّام المأمون. كان ظريفاً طيّباً، وكان يركب حماراً وتركب جارية له حماراً آخر ـ وتحتها خرج ـ ويدور ببغداد، ولا يمرّ بذي سلطان ولا تاجر ولا صانع إلا أخذ منه شيئاً يسيراً. (كتاب الورقة، م. م. ص: ١٢٣).

(٣) لعلها بذل.

(٤) كتاب الورقة، م. م. ص: ١٢٣، ١٢٤.

فَهٰذا الشّاعِرُ لا يُهيمُ صَبابَةً بِالجَواري وَالقِيانِ، وَلا يَبْكي الأَطْلالَ الخالِياتِ، وَلا يَمْدَحُ الغِلْمانَ وَالحِسانَ الَّذينَ شُغِلَ بِهِمُ المُجّانُ، بَلْ يَمْدَحُ الرَّغيفَ وَيَأْمُلُ الحُصولَ عَلَيْهِ.

وَلَمْ يَشْتَكِ هَؤُلاءِ الشُّعَراءُ قِلَّةَ الطَّعامِ فَحَسْبُ، بَلِ اشْتَكَوْا أَيْضاً قِلَّةَ الثِّيابِ الَّتي تَقيهِمْ بَرْدَ الشِّتاءِ، فَكانَتْ أَشْعارُهُمْ تَعْكِسُ أَحْوالَ الطَّبَقاتِ الفَقيرَةِ مُقارَنَةً بِتِلْكَ التي نَعِمَتْ بِالمالِ وَالغِنى. وَتَتَجَلّى مُعاناتُهُمْ في قَصيدَةٍ وَصَفَ فيها أَبو فِرْعَوْنَ السّاسِيُّ[1] أَوْلادَهُ؛ وَمِنْ جُمْلَةِ ما قالَهُ فيهِمْ: [الرجز]

«وَصِبْيَةٍ مِثْلِ صِغارِ الذَّرِّ ... سُودُ الوُجوهِ كَسَوادِ القِدْرِ
جاءَهُمُ البَرْدُ وَهُمْ بِشَرِّ ... بِغَيْرِ قُطْفٍ وَبِغَيْرِ دُثْرِ
تَراهُمُ بَعْدَ صَلاةِ العَصْرِ ... بَعْضُهُمُ مُلْتَصِقٌ بِصَدْري
وَآخَرُ مُلْتَصِقٌ بِظَهْري ... إِذا بَكَوْا عَلَّلْتُهُمْ بِالفَجْرِ»[2]

إِلى آخِرِ القَصيدَةِ الَّتي تُظْهِرُ مَدى مُعاناةِ هَؤُلاءِ بِسَبَبِ الضائِقَةِ الَّتي أَلَمَّتْ بِهِمْ، وَتُظْهِرُ أَيْضاً عَجْزَ الفُقَراءِ عَنْ تَأْمينِ المَأْكَلِ وَالمَلْبَسِ، وَسوءَ ما أَوْصَلَهُ إِلَيْهِمُ الاخْتِلالُ الاقْتِصادِيُّ وَالطَّبَقِيُّ في مُجْتَمَعِهِمْ.

---

(١) أبو فرعون الساسيّ (... ـ ...) شاعر عبّاسيّ، ينسب إلى قرية الساس أسفل واسط، وفي بعض الكتب الشاشيّ. وهو من أبناء أواخر المائة الثانية، أعرابيّ بدويّ، فصيح اللسان قدم البصرة. شعره معظمه رجز، وأغراض شعره لا تخرج من ذكر الفقر وتصاريفه. يذكر ابن النديم له ديواناً بثلاثين ورقة ضاع أكثره. (كتاب الورقة، م. م. ص: ٥٦؛ طبقات الشعراء، م. م، ص: ٣٧٦؛ الفهرست، م. م. ص: ١٨٧)

(٢) كتاب الورقة، م. م. ص: ٥٧؛ طبقات الشعراء، م. م. ص: ٣٧٦ (وفيه: «الشتاء» بدل «برد»؛ «قمص وأزر» بدل «قطف ودثر»؛ «منحجر» بدل «ملتصق». واختلف أيضاً ترتيب الأبيات).

وَمِثْلَما افْتَقَدَ هٰؤُلاءِ الطَّعامَ وَاللِّباسَ، افْتَقَدوا أَيْضاً أَثاثَ المَنْزِلِ، فَمَنازِلُهُمْ كانَتْ شِبْهَ خالِيَةٍ، وَلِهٰذا كانَ أَبو فِرْعَوْنَ السّاسِيُّ يُحْكِمُ إِغْلاقَ بابَ بَيْتِهِ لِئَلّا يَفْتَضِحَ بَيْنَ النّاسِ، وَفي هٰذا قالَ: [الرمل]

«لَيْسَ إِغْلاقي لِبابي أَنَّ لي | فيهِ ما أَخْشى عَلَيْهِ السَّرَقا
إِنَّما أُغْلِقُهُ كَي لا يَرى | سُوءَ حالي مَنْ يَجُوبُ الطُّرُقا
مَنْزِلٌ أَوْطَنَهُ الفَقْرُ فَلَوْ | دَخَلَ السّارِقُ فيهِ سُرِقا
لا تَراني كاذِباً في وَصْفِهِ | لَوْ تَراهُ قُلْتَ لي: قَدْ صَدَقا»[1]

وَنَظَّمَ هٰؤُلاءِ الشُّعَراءُ قَصائِدَهُمْ بِلُغَةٍ سَهْلَةٍ وَقَريبَةٍ مِنْ لُغَةِ العَوامِّ انْسِجاماً مَعَ انْتِماءاتِهِمِ الاجْتِماعِيَّةِ، فَكانَتْ بَعيدَةً عَنِ التَّكَلُّفِ، خالِيَةً مِنَ الأَلْفاظِ الجَزْلَةِ وَالمَعاني الفَخْمَةِ، وَكانَتْ تَكْشِفُ عَنْ أَوْضاعِهِمِ الاقْتِصادِيَّةِ وَالاجْتِماعِيَّةِ بِسُهولَةٍ وَيُسْرٍ.

وَقَدْ تَوَجَّهوا في مَدائِحِهِمْ إِلى الكُتّابِ وَالعُمّالِ وَبَعْضِ أَبْناءِ الهاشِمِيّينَ، وَحيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَدْحِ الخُلَفاءِ وَأَكْثَرِ الوُزَراءِ الَّذينَ لَمْ يَفْسَحوا لَهُمْ في مَجالِسِهِمْ، وَلَمْ يَرْتَضَوْا مَدائِحَهُمْ لِأَنَّ أَكْثَرَها أُفْرِدَ لِلشَّكْوى وَالاسْتِعْطافِ[2]، كَقَوْلِ أَبي فِرْعَوْنَ السّاسِيِّ إِلى بَعْضِ قُضاةِ البَصْرَةِ طالِباً المَعونَةَ: [الرجز]

«يا قاضِيَ البَصْرَةِ ذا الوَجْهِ الأَغَرّْ | إِلَيْكَ أَشْكو ما مَضى وَما غَبَرْ

---

(١) طبقات الشعراء، م. م. ص: ٣٧٧؛ المحاسن والمساوىء، م. م. ج١: ٤٥١ (وفيه: يمرّ بدل يجوب؛ داخله بدل أوطنه) وفيه أيضاً:
«ليس لي في سوى بارية | وبلى أخلقت لبداً خلقا».

(٢) ينظر: عطوان، حسين (دكتور): الشعراء الصّعاليك في العَصْرِ العبّاسيّ الأوّل، دار الطّليعة، بيروت، د. ط. ١٩٧٢م، ص: ١٥٣، ١٥٤.

إِنَّ أَبا عَمْرَةَ[1] في بَيْتي انْجَحَرْ عَفا زَمانٌ وَشِتاءٌ قَدْ حَضَرْ
فَاطْرُدْهُ عَنّي بِدَقيقٍ يَنتَظِرْ[2] بِضَرْبٍ بِالدَّفِّ وَإِنْ شاءَ زَمَرْ

وهكَذا يَتَبَيَّنُ لَنا أَنَّ الشِّعْرَ عَكَسَ صُوَراً اجْتِماعِيَّةً وَاقْتِصادِيَّةً في المُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ، فَعَكَسَ شِعْرُ أَبي نُواسٍ وَأَضْرابِهِ «صورَةً مُفْزِعَةً لِمُجْتَمَعٍ مُتَفَسِّخٍ وَطائِشٍ عاكِفٍ عَلى المَلاذِّ»[3]، أَمّا شِعْرُ العَوامِّ فَعَكَسَ سوءَ أَحْوالِهِمِ الاقْتِصادِيَّةِ.

كذَلِكَ نَسْتَشِفُّ مِنْ خِلالِ شِعْرِ أَبي العَتاهِيَةِ «بَعْضَ الشَّيْءِ عَنِ المَشاعِرِ وَالمُعْتَقَداتِ الدِّينِيَّةِ الّتي طَغَتْ عَلى الطَّبَقَتَيْنِ الوُسْطى وَالدُّنْيا وَالّتي أَفْضَتْ بِهِما أَنْ يَتَّخِذا وِجْهَةَ نَظَرٍ أَكْثَرَ سُمُوّاً عَنِ الحَياةِ»[4].

فَأَبو العَتاهِيَةِ وَغَيْرُهُ مِنَ شُعَراءِ الزُّهْدِ وَالحِكْمَةِ، أَوْجَدوا تَيّاراً شِعْرِيّاً في مُقابِلِ تَيّارِ المُجونِ وَالعَبَثِ وَاللَّهْوِ. وَقَدِ اسْتَعانوا بِلُغَةِ القُرْآنِ الكَريمِ لِيُكْسِبوا شِعْرَهُمْ مَهابَةً وَقُوَّةً، كَقَوْلِ أَبي العَتاهِيَةِ: [المنسرح]

«ما أَنْتَ إِلّا مِنَ العِبادِ وَإِنْ أَصْبَحْتَ في إِمْرَةٍ وَفي خَطَرِ
المُلْكُ لِلّهِ لا شَريكَ لَهُ تَجْري القَضايا مِنْهُ عَلى قَدَرِ»[5]

وَلَهُ: [الخفيف]

«قَدْ رَأَيْتُ الدُّنْيا إِلى ما تَصيرُ كُلُّ شَيْءٍ مِنْها صَغيرٌ حَقيرُ
إِنّا في حيلَةِ التَخَلُّصِ مِنْها وَعَلى ذَلِكَ الإِلَهُ قَديرُ

(١) اسم للجوع.
(٢) الإمتاع والمؤانسة، م. م. ج٣: ٣٤.
(٣) تاريخ الأدب العبّاسيّ، م. م. ص: ٨٧.
(٤) المرجع السابق، ص: ٨٧.
(٥) ديوانه، ص: ٩٩.

هُوَ رَبِّي وَحَسْبِيَ اللهُ رَبِّي   فَلَنِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصيرُ»[1]

وَاسْتَعانَ هَؤُلاءِ الشُّعَراءُ أَيْضاً بِالأَمْثالِ العَرَبِيَّةِ وَالمُقْتَبَسَةِ مِنْ آدابِ الأُمَمِ الأُخَرَ، كالَّذي نَجِدُهُ في أَشْعارِ صالِحِ بْنِ عَبْدِ القُدّوسِ[2]، حَتّى قيلَ إِنَّهُ اجْتَمَعَ في ديوانِهِ أَلْفُ مَثَلٍ لِلْعَرَبِ وَأَلْفُ مَثَلٍ لِلْعَجَمِ[3].

وَلَمْ يَنْأَ الشُّعَراءُ في ذَلِكَ العَصْرِ عَنِ الأَحْداثِ التي عَصَفَتْ بِمُحيطِهِمْ، فَوَصَفوا ما جَرى حَوْلَهُمْ، كَأَبي يَعْقوبَ الخُرَيْمِيِّ[4] الذي وَصَفَ بَغْدادَ في قَصيدَةٍ طَويلَةٍ في أَثْناءِ الفِتْنَةِ بَيْنَ الأَمينِ وَالمَأْمونِ، فَمِمّا قالَهُ في القَتْلى: [المنسرح]

«وَهَلْ رَأَيْتَ الفِتْيانَ في باحَةِ الـ   ـمَعْرَكِ مَعْفورَةً مَناخِرُها
كُلُّ فَتًى مانِعٌ حَقيقَتَهُ   يَشْقَى في الوَغَى مَساعِرُها
باتَتْ عَلَيْهِ الكِلابُ تَنْهَشُهُ   مَخْضوبَةً مِنْ دَمٍ أَظافِرُها»[5]

---

(١) ديوانه، ص: ٩٠.

(٢) صالح بن عبد القدّوس الأزدي الجذامي، بالولاء، أبو الفضل (ت نحو ١٦٠ هـ/ نحو ٧٧٧م): شاعر حكيم، متكلّم، كان يعظ النّاس في البصرة، شعره كلّه أمثال وحكم وآداب. اتُّهم عند المهدي العبّاسي بالزندقة، فقتله ببغداد.

(٣) ينظر: الخطيب، عبد الله: صالح بن عبد القدّوس، منشورات البصري، بغداد ـ البصرة، د. ط. ١٩٦٧م، ص: ٦٥.

(٤) هو إسحاق بن حسان بن قوهيّ، (أبو يعقوب الخريميّ) (ت ٢١٢ هـ/ ٨٢٧م): شاعر مطبوع، خراسانيّ الأصل من أبناء السغد. ولد في الجزيرة الفراتية، وسكن بغداد. واتصل بخريم (الناعم) فنسب إليه، أو كان اتصاله بابنه عثمان بن خريم. أدركه الجاحظ وسمع منه.

(٥) كتاب الحيوان، م. م. ج١: ٢٢٥؛ تاريخ الرسل والملوك، م. م. ج٨: ٤٤٨ وفيه القصيدة بكاملها وأحوال بغداد آنذاك.

وكذَلِكَ وَصَفَها في تِلْكَ المَرْحَلَةِ عَمْرو بْنُ عَبْدِ المَلِكِ الوَرّاقُ[1]، فمما قالَه: [السريع]

«النّاسُ في الهَدْمِ وَفي الانْتِقالْ قَدْ عَرَّضَ النّاسُ بِقيلٍ وَقالْ
يا أَيُّها السّائِلُ عَنْ شَأْنِهِمْ عَيْنُكَ تكْفيكَ مَكانَ السُّؤالْ»[2]

وَرُبَّما جيءَ بِالأشعارِ لِإِخْبارِ الخَليفَةِ بِما جَرى مِنْ أَحْداثٍ؛ فَعِنْدَما نَقَضَ نِقْفورُ[3] العَهْدَ الذي كانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هارونَ الرَّشيدِ، وَلَمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ عَلى إِخْبارِ الخَليفَةِ بِذَلِكَ، جيءَ بِالحَجّاجِ بْنِ يوسُفَ التَّيْمِيِّ[4]، وَمِمّا قالَهُ: [الكامل]

«نَقَضَ الذي أَعْطَيْتَهُ نِقْفُورُ وَعَلَيْهِ دائِرَةُ البَوارِ تَدُورُ
أَبْشِرْ أَميرَ المُؤْمِنينَ فَإِنَّهُ غُنْمٌ أَتاكَ بِهِ الإِلَهُ كَبيرُ»[5]

---

(١) عمرو بن المبارك بن عبد الملك العنزي، بالولاء، ويُسمّى عمّرو بن عبد الملك الورّاق (ت نحو ٢٠٠ هـ/ نحو ٨١٥ م): شاعر ماجن خليع. أصله من البصرة. له أخبار مع أبي نواس. اشتهر في أيام الرشيد. نظم شعراً كثيراً في حرب الأمين والمأمون.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، م. م. ج٨: ٤٦٠.

(٣) هو نقفورس الأوّل Nikephoros (ت ٨١١م) أمبراطور بيزنطية. خلع الأمبراطورة إيرينا التي كانت تدفع الجزية للرشيد الذي ما لبث أن هزمه. هلك وجيشه في حرب البلغار. (ديورانت، ول: قصة الحضارة، ترجمة محمّد بدران، دار الجيل، بيروت، د. ط. ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، ج١٤: ١٦٢).

(٤) لم أقف على ترجمة الحجّاج بن يوسف التيمي، وقيل إنّ الذي قال الشعر هو عبد الله بن يوسف، أبو محمّد، وكان شاعراً مُجيداً استقدمه يحيى بن خالد البرمكيّ وأعطاه مئة ألف درهم لإخبار الخليفة بما أقدم عليه نقفور من نقض العهد. (العسكريّ، الحسن بن عبد الله: الأوائل، تحقيق الدكتور محمّد سيّد الوكيل، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلاميّة، الطّبعة الأولى، القاهرة، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م، ص: ٢٦٥ (شاعر من أهل جلّة)؛ تاريخ الرسل والملوك، م. م. ج٨: ٣٠٨ (ذُكر الاحتمالان)؛ نهاية الأرب في فنون الأدب، م. م. ج٢٢: ١٠٥).

(٥) تاريخ الرسل والملوك، م. م. ج٨: ٣٠٨.

وَقَدْ جَرى وَصْفُ المَعارِكِ وَالفُتوحِ الّتي قادَها الخُلَفاءُ وَكِبارُ القُوّادِ عَلى لِسانِ الشُّعَراءِ، كَقَصيدَةِ أَبي تَمّامٍ يَمْدَحُ فيها المُعْتَصِمَ، وَيَذْكُرُ فَتْحَ عَمُّورِيَةَ وَحَريقَها، وَمَطْلَعُها: [البسيط]

«السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ ... في حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ وَاللَّعِبِ»[1]

وكذَلِكَ خاضَ الشُّعَراءُ في السِّياسَةِ، وَتَجَلّى الشِّعْرُ السِّياسِيُّ في الخُصومَةِ بَيْنَ العَبّاسِيّينَ وَالعَلَوِيّينَ، فَكانَ أَبو دُلامَةَ[2] وَسَلْمٌ الخاسِرُ[3]، وَمَرْوانُ بْنُ أَبي حَفْصَةَ[4]، أَشْهَرَ شُعَراءِ الدَّعْوَةِ العَبّاسِيَّةِ، وَقابَلَهُمْ مِنْ شُعَراءِ الشّيعَةِ: السَّيِّدُ الحِمْيَرِيُّ[5] وَمَنْصورٌ النَّمَرِيُّ[6] وَدِعْبِلٌ الخُزاعِيُّ[7].

---

(١) ديوانه، ج١: ٤٠.

(٢) هو زند بن الجون الأسديّ بالولاء (أبو دلامة) (ت١٦١ هـ/ ٧٧٨ م): شاعر مطبوع، من أهل الظرف والدعابة. مدح بعض خلفاء بني العبّاس، فأغدقوا عليه صلاتهم. أخباره كثيرة.

(٣) سلم بن عمرو بن حماد (سلم الخاسر) (ت١٨٦ هـ/ ٨٠٢ م): شاعر خليع، ماجن، من أهل البصرة، من الموالي. سكن بغداد. له مدائح في المهدي والرشيد، وأخبار مع بشّار بن برد وأبي العتاهية. شعره رقيق رصين. قيل: سمّي الخاسر، لانه باع مصحفاً واشترى بثمنه طنبوراً.

(٤) مروان بن سليمان (مروان بن أبي حفصة) (ت ١٨٢هـ/ ٧٩٨م): شاعر أدرك الدولة الأمويّة وزمناً من العهد العبّاسي. قدم بغداد فمدح المهدي والرشيد ومعن ابن زائدة، فجمع من ثروة واسعة.

(٥) إسماعيل بن محمّد (السيد الحميريّ) (ت ١٧٣ هـ/ ٧٨٩م): شاعر إماميّ متقدّم. ولد في نعمان (واد قريب من الفرات على أرض الشام) ونشأ بالبصرة متردّداً بينها وبين الكوفة ومات ببغداد. كان يتعصّب تعصّباً شديداً لبني هاشم، وأكثر شعره في مدحهم وذمّ غيرهم ممن هو عنده ضد لهم.

(٦) منصور بن الزبرقان، أبو القاسم (منصور النّمريّ) (ت نحو ١٩٠هـ/ نحو ٨٠٥م): شاعر من أهل الجزيرة الفراتية. تقرّب من الفضل بن يحيى ومدح هارون الرشيد وفاز بعطاياه، ولما علم الرشيد بتشيّعه وتحريضه على الخليفة غضب عليه فأرسل من يجيئه برأسه من بلدته رأس العين في الجزيرة، فوصل الرسول في اليوم الذي مات فيه النّمري.

(٧) دعبل بن عليّ، أبو عليّ (دعبل الخزاعيّ) (ت ٢٤٦ هـ/ ٨٦٠م): شاعر أصله من =

وَمَثَّلَ شِعْرُ المَديحِ الرَّسْمِيِّ، إِنْ جازَ التَّعْبيرُ، المُوالاةَ لِلْحُكْمِ، وَكانَ بِمُعْظَمِهِ كَذِباً وَنِفاقاً وَتَزَلُّفاً. وَمُقابِلَ شِعْرِ المَديحِ الرَّسْمِيِّ، شاعَ شِعْرُ هِجاءِ أَهْلِ الحُكْمِ عَلى لِسانِ شُعَراءِ المُعارَضَةِ السِّياسِيَّةِ.

وَكذَلِكَ تَجَلَّى الشِّعْرُ السِّياسِيُّ في الصِّراعِ بَيْنَ العَرَبِ وَالعَجَمِ، بَعْدَ أَنْ كانَ مُفاخَراتٍ بَيْنَ القَبائِلِ العَرَبِيَّةِ في العَصْرِ الأُمَوِيِّ. فَفي العَصْرِ العَبّاسِيِّ قَوِيَتِ الشُّعوبِيَّةُ الَّتي فَضَّلَتْ غَيْرَ العَرْبِ عَلى العَرَبِ، «وَالظّاهِرُ أَنَّ اللُّجوءَ إِلى هَذِهِ المُفاضَلَةِ وَإِلى الدَّعْوى العَريضَةِ مَنْشَؤُهُ الشُّعورُ بِمُرَكَّبِ النَّقْصِ وَمُحاوَلَةُ إِيجادِ مَكانَةٍ اجْتِماعِيَّةٍ لِلْمُسْلِمينَ مِنْ غَيْرِ العَرَبِ في المُجْتَمَعِ الجَديدِ»[1]. فَظَهَرَتْ مُفاخَراتُهُمْ وَاعْتِزازُهُمْ بِأَنْسابِهِمِ الأَعْجَمِيَّةِ، وَالنَّيْلُ مِنَ العَرَبِ في أَشْعارِهِمْ، كَقَوْلِ أَبي يَعْقوبَ الخُرَيْمِيِّ يَفْخَرُ بِنَسَبِهِ الفارِسِيِّ: [البسيط]

«إِنّي امْرُؤٌ مِنْ سُراةِ الصُّغْدِ أَلْبَسَني
عِرْقُ الأَعاجِمِ جِلْداً طَيِّبَ الخَبَرِ»[2]

وَتَجَرَّأَ أَبو نُواسٍ عَلى العَرَبِ، فَنالَ مِنْهُمْ وَمَدَحَ الفُرْسَ، كَقَوْلِهِ في قَصيدَةٍ: [المنسرح]

«لَيْسَتْ بِدارٍ عَفَتْ وَغَيَّرَها ضَرْبانِ مِنْ قَطْرِها وَحاصِبِها»[3][4]

= الكوفة أقام ببغداد وهجا الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق. صنف كتاباً في طبقات الشعر. له ديوان شعر.

(١) تاريخ الأدب العبّاسيّ، م. م. ص: ٧.

(٢) الشّعر والشّعراء، م. م. ج٢: ٨٥٣.

(٣) القطر: المطر؛ الحاصب: الريح الديلة تحمل التراب؛ وقيل هو ما تناثر من دقاق الثلج أو البرد.

(٤) ديوانه، ص: ٥٠٦.

وَفي هَذِهِ القَصيدَةِ يَقولُ:

«وَنَحْنُ إذْ فارِسٌ تُدافِعُ بَهْرَامَ قَسَطْنا عَلى مَرازِبِها[1]
بِالخَيْلِ شُعْثاً عَلى لَواحِقَ كالْسِّيدانِ تُعْطي مَدَى مَذَاهِبِهَا[2]»[3]

هَذا بِالنِّسْبَةِ إلى مُجْمَلِ المَوْضوعاتِ في الشِّعْرِ، أمّا الأوْزانُ، فَقَدْ حافَظَتِ القَصيدَةُ عَلى الأوْزانِ الجاهِلِيَّةِ في القَصائِدِ الطِّوالِ، وَلا سِيَّما عِنْدَ مَدْحِ الخُلَفاءِ، وَلَكِنْ مَعَ شُيوعِ الغِناءِ وَالمَيْلِ إلى حَياةِ التَّرَفِ وَالرَّخاءِ، نَظَّمَ الشُّعَراءُ أشْعارَهُمْ «عَلى الأوْزانِ القَصيرَةِ وَالمَجْزوءَةِ، وَنَفَذوا إلى اكْتِشافِ أوْزانِ المُضارِعِ وَالمُقْتَضَبِ وَالمُتَدارِكِ أوِ الخَبَبِ، وَإلى أوْزانٍ أُخَرَ لَمْ يَسْتَخْدِمْها العَرَبُ قَبْلَهُمْ، غَيْرَ أنَّهُ لَمْ يُكْتَبْ لَها الشُّيوعُ لِنَقْصِ أنْغامِها بِالقِياسِ إلى الأوْزانِ المَوْروثَةِ، وَعَرَفوا وَزْناً شَعْبِيّاً هُوَ وَزْنُ المَوالِيا، وَجَدَّدوا تَجْديداً واسِعاً في القَوافي وَنَمَطِ القَصيدَةِ، فَاسْتَحْدَثوا المُزْدَوِجاتِ وَالرُّباعِيّاتِ وَالمُسَمَّطاتِ»[4].

أمّا لُغَةُ الشِّعْرِ، فَقَدْ رَقَّتْ وَسَلِسَتْ بِفِعْلِ العَوامِلِ الحَضارِيَّةِ الّتي دَفَعَتْ «شُعَراءَ العَصْرِ العَبّاسِيِّ الأوَّلِ إلى اسْتِحْداثِ أُسْلوبٍ جَديدٍ، هُوَ أُسْلوبٌ كانَ يَعْتَمِدُ عَلى الألْفاظِ الوَسيطَةِ بَيْنَ لُغَةِ البَدْوِ الزّاخِرَةِ بِالكَلِماتِ الوَحْشِيَّةِ وَلُغَةِ العامَّةِ الزّاهِرَةِ بِالكَلِماتِ المُبْتَذَلَةِ»[5].

وَرَأى بَعْضُ الدّارِسينَ أنَّ الفُرْسَ في المُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ أثَّروا في

---

(١) تدافع بهرام: تقاتله وتدفعه. قسطنا: جرْنا. المزراب: رؤساء الفرس.
(٢) اللواحق: المطايا. السيدان، جمع السِّيد: الأسد أو الذئب. مدى مذاهبها: آخر مسالكها.
(٣) ديوانه، ص: ٥٠٦، ٥٠٧.
(٤) العصر العبّاسيّ الأوّل، م. م. ص: ٥٦٧.
(٥) المرجع السابق، ص: ١٤٦.

الشِّعْرِ العَرَبِيِّ بِإِدْخالِهِمُ الأُسْلوبَ الفَخْمَ في القَصائِدِ، وَالحَقيقَةُ أنَّ ما أَدْخَلوهُ «لَيْسَ الأُسْلوبَ الفَخْمَ بَلِ الخَيالُ الحَيُّ الرَّشيقُ وَأَناقَةُ اللَّفْظِ وَعُمْقُ الشُّعورِ وَطَراوَتُهُ وَذَخيرَةٌ فَنِّيَّةٌ مِنَ الأَفْكارِ»[1].

أخيراً كانَ الشّاعِرُ يَنْتَقي أَلْفاظَ قَصيدَتِهِ وَمَعانِيهَا وَفْقَ المَقامِ المُناسِبِ، فَإِنْ كانَ في مَقامِ مَدْحِ الطَّبَقَةِ الحاكِمَةِ، آثَرَ الجَزالَةَ وَالفَخامَةَ وَقُوَّةَ السَّبْكِ، وَإِنْ كانَ في غَيْرِ ذَلِكَ لَمْ يَجِدْ بَأْساً في اعْتِمادِ الأَلْفاظِ السَّهْلَةِ وَالمَعاني البَسيطَةِ. فَبَشّارُ بْنُ بُرْدٍ[2] ـ عَلى سَبيلِ المِثالِ ـ قالَ قَصيدَةً في سَلْمِ بْنِ قُتَيْبَةَ[3] وَأَكْثَرَ فيها مِنَ الغَريبِ، لِأَنَّ سَلْماً كانَ يَتَباصَرُ بِالغَريبِ.

وَمِنْ هَذِهِ القَصيدَةِ: [الخفيف]

بَكِّرَا صَاحِبَيَّ قَبْلَ الهَجِيرِ إِنَّ ذَاكَ النَّجاحَ فِي التَّبْكِيرِ[4]

وَلَمّا سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ: «إِنَّ ذَاكَ النَّجاحَ فِي التَّبْكِيرِ» وَعَدَمِ مَيْلِهِ إِلى تَرْكيبٍ آخَرَ «بَكِّرا فَالنّجاحُ في التَّبْكيرِ» قالَ: بَنَيْتُها أَعْرابِيَّةً وَحْشِيَّةً، فَقُلْتُ «إِنَّ ذَاكَ النَّجاحَ» كَما يَقولُ الأَعْرابُ البَدَوِيّونَ، وَلَوْ قُلْتُ «بَكِّرا فَالنّجاحُ»

(١) تاريخ الأدب العبّاسيّ، م. م. ص: ٦٣.

(٢) بشار بن برد العقيليّ بالولاء، أبو معاذ (ت ١٦٧ هـ/ ٧٨٤ م): أشعر المولّدين على الإطلاق. أصله من طخارستان. كان ضريراً. أدرك الدولتين الأمويّة والعبّاسيّة. قال الجاحظ: كان شاعراً شجاعاً، خطيباً، صاحب منثور ومزدوج، له رسائل معروفة. اتّهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط. ودفن بالبصرة.

(٣) سلم بن قتيبة الباهليّ الخراسانيّ، أبو عبد الله (ت١٤٩ هـ/ ٧٦٦ م): أمير، ولي البصرة ليزيد بن عمر بن هبيرة في أيام مروان بن محمّد، ثم وليها في أيام المنصور العبّاسيّ. وكان من عقلاء الأمراء. مات بالري.

(٤) ديوان بشّار بن برد، جمع وتحقيق وشرح العلامة محمّد الطاهر بن عاشور، وزارة الثقافة بالجزائر، د. ط. ٢٠٠٧م، ج٣: ٢٠٣.

كانَ مِنْ كَلامِ المُوَلَّدينَ وَلا يُشْبِهُ ذَلِكَ الكَلامَ وَلا يَدْخُلُ في مَعْنى القَصيدَةِ(١) .

وَفي حينٍ يَقولُ شِعْراً يُثيرُ بِهِ النَّقْعَ وَيَخْلَعُ بِهِ القُلوبَ، كَقَوْلِهِ: [الطّويل]

إِذا ما غَضِبْنا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً
هَتَكْنا حِجابَ الشَّمْسِ أَوْ تُمْطِرَ الدَّما(٢)

يَقولُ في مُقابِلِ ذَلِكَ أَبْياتاً سَهْلَةً وَبَسيطَةً في جارِيَتِهِ رَبابَةَ: [مجزوء الوافر]

رَبـابَـةُ رَبَّـةُ الـبَـيْـتِ   تَـصُـبُّ الـخَـلَّ فـي الـزَّيْـتِ
لَـهـا عَـشْـرُ دَجـاجـاتٍ   وَديـكٌ حَـسَـنُ الـصَّـوْتِ(٣)

وَعِنْدَما يُسْأَلُ عَنْ تِلْكَ المُفارَقَةِ في شِعْرِهِ، يَقولُ: لِكُلٍّ وَجْهٌ وَمَوْضِعٌ، فَالقَوْلُ الأَوَّلُ جِدٌّ، وَهَذا ما قُلْتُهُ في رَبابَةَ جارِيَتي. فَرَبابَةُ تُفَضِّلُ هَذِهِ الأَبْياتَ فيها عَلى قَوْلِ:

قِفا نَبْكِ مِنْ ذِكْرى حَبيبٍ وَمَنْزِلِ(٤)(٥)

---

(١) يُنظر: **الأغاني**، م. م. ج٣: ١٩٠.
(٢) **ديوانه**، ج٤: ١٦٣.
(٣) **ديوانه**، ٤: ٢٧، ٢٨.
(٤) صدر البيت [بحر الطويل] من معلّقة أمرىء القيس المشهورة؛ ينظر: **ديوان امرىء القيس، شرح أبي سعيد السكريّ**، تحقيق الدكتورين أنور أبو سويلم ومحمّد الشوابكة، مركز زايد للتراث والتاريخ، الطّبعة الأولى، الإمارات العربيّة المتحدة، ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠م، ص: ١٦٤.
(٥) يُنظر: **الأغاني**، م. م. ج٣: ١٦٢، ١٦٣.

فَالشّاعِرُ، عادَةً، كانَ يُخاطِبُ مَمْدوحَهُ بِحَسَبِ مَوْقِعِهِ وَمَكانَتِهِ، وَرُبَّما أَخْطَأَ بَعْضُهُمْ في هَذا الأَمْرِ، وَلِذَلِكَ أَوْصى قُدامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ الشُّعَراءَ أَنْ يُقَسِّموا مَدائِحَهُمْ «أَقْساماً بِحَسَبِ المَمْدوحينَ مِنْ أَصْنافِ النّاسِ في الارْتِفاعِ وَالاتِّضاعِ، وَضُروبِ الصِّناعاتِ، وَالتَّبَدّي وَالتَّحَضُّرِ...»[1]. فَكانَ لِكُلٍّ مِنَ المُلوكِ وَالوُزَراءِ وَالكُتّابِ وَالقُوّادِ وَالسّوقَةِ وَجْهٌ مِنَ المَديحِ وافَقَ مَوْقِعَهُ الاجْتِماعِيَّ آنَذاكَ.

هَذِهِ نَبْذَةٌ موجَزَةٌ عَنْ حالِ الشُّعَراءِ وَلُغَتِهِمْ في العَصْرِ العَبّاسِيِّ. رَأَيْنا أَنَّ هَؤُلاءِ تَأَثَّروا بِتَطَوُّراتِ عَصْرِهِمْ. وَقَدْ عَكَسَ شِعْرُهُمْ مُجْمَلَ الأَوْضاعِ الثَّقافِيَّةِ وَالاجْتِماعِيَّةِ وَالاقْتِصادِيَّةِ وَالسِّياسِيَّةِ، وَتَأَثَّرَتْ لُغَتُهُمْ بِالعَوامِلِ الحَضارِيَّةِ، فَرَقَّتْ وَسَلِسَتْ، وَلَكِنَّها حافَظَتْ عَلى قُوَّةِ السَّبْكِ في مَقامِ مَدْحِ الخُلَفاءِ وَالحُكّامِ، وَاخْتَلَفَتِ المَدائِحُ بِاخْتِلافِ مَواقِعِ المَمْدوحينَ الاجْتِماعِيَّةِ وَالسِّياسِيَّةِ. وَلَمْ تُؤَثِّرْ تِلْكَ الأَوْضاعُ في الشُّعَراءِ فَحَسْبُ، بَلْ إِنَّ التُّجّارَ تَأَثَّروا أَيْضاً بِسَيْرِ الأُمورِ في مُجْتَمَعِهِمْ، وَكانَ لِلُغَتِهِمْ حَظٌّ وَنَصيبٌ مِنْ ذَلِكَ كَما سَيَتَبَيَّنُ لَنا في الفَصْلِ الآتي.

(١) ابن جعفر، قدامة: نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي بالقاهرة، د. ط. ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م، ص: ٨٨.

الفَصْلُ الحادي عَشَرَ

لُغَةُ التُّجّارِ

مَعَ اتِّساعِ حُدودِ الدَّوْلَةِ العَبّاسِيَّةِ، ازْدَهَرَتِ التِّجارَةُ عَلى اخْتِلافِ أَنْواعِها؛ وَنَظْرَةٌ في كِتابِ «التَّبَصُّرِ بِالتِّجارَةِ» للجاحِظِ تَدُلُّنا عَلى ما آلَتْ إِلَيْهِ الحَرَكَةُ التِّجارِيَّةُ مِنْ نَشاطٍ وَازْدِهارٍ آنَذاكَ، حَتّى أَصْبَحَ «العِراقُ عَيْنَ الدُّنيا، وَالبَصْرَةُ عَيْنَ العِراقِ»[1].

فَقَدْ كانَتِ البَصْرَةُ أَهَمَّ المَراكِزِ التِّجارِيَّةِ، وَشَكَّلَتْ هَمْزَةَ الوَصْلِ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالغَرْبِ، وَكانَ البَصْرِيّونَ «أَبْعَدَ النّاسِ نَجْعَةً في الكَسْبِ»[2].

وَكانَ التُّجّارُ وَالصُّنّاعُ يُشَكِّلونَ طَبَقَةً وُسْطى، دونَ طَبَقَةِ الخُلَفاءِ وَالوُزَراءِ، وَطَبَقَةِ العُلَماءِ وَالأُدَباءِ، في الهَرَمِ الاجْتِماعِيِّ في الدَّوْلَةِ العَبّاسِيَّةِ.

وَقَدْ تَمَتَّعَ التُّجّارُ «بِنُفوذٍ سِياسِيٍّ وَاقْتِصادِيٍّ عَظيمٍ سَواءٌ في الحَياةِ الإِدارِيَّةِ أَوِ الحَياةِ الاجْتِماعِيَّةِ العامَّةِ في المُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ»[3]، وَلَكِنَّ مِهْنَتَهُمْ لَمْ تُقْرَنْ بِالمَناصِبِ الكُبْرى في الدَّوْلَةِ كَالوِزارَةِ ـ مَثَلاً ـ بِدَليلِ أَنَّ

---

(١) ثمار القلوب، م. م. ص: ١٦٢.

(٢) مختصر كتاب البلدان، م. م. ص: ١٧٦.

(٣) الجاحظ والحاضرة العباسية، م. م. ص: ٥٨.

يَحْيى البَرْمَكِيِّ عِنْدَما أرادَ الخَوْضَ في التِّجارَةِ نَصَحَهُ أحَدُ التُّجّارِ قائِلاً: «أَنْتَ شَريفٌ وَابْنُ شَريفٍ وَلَيْسَتِ التِّجارَةُ مِنْ شَأْنِكِ»[1].

وَكَثيراً ما عَرَّضَهُمْ للْهِجاءِ أَهْلُ الخاصَّةِ، فَقَدْ كانَ يَرْميهِمُ المَأْمونُ بِالبُخْلِ[2]، أمّا خالِدُ بْنُ صَفْوانَ[3]، فَقالَ إنَّ فيهِمْ «لُؤْمَ الطَّبائِعِ، وَعَيَّ اللِّسانِ، وَمَوْتَ القَلْبِ، وَسوءَ الأَدَبِ، وَقِصَرَ الهِمَّةِ، وَالاشْتِمالَ عَلى كُلِّ بَلِيَّةٍ»[4].

وَقَدْ عَلَّلَ ابْنُ خَلْدونَ[5] سَبَبَ ابْتِعادِ أَهْلِ الرِّئاسَةِ عَنِ التِّجارَةِ بِقَوْلِهِ: «... التُّجّارُ في غالِبِ أحْوالِهِمْ إِنَّما يُعانونَ البَيْعَ وَالشِّراءَ، وَلا بُدَّ فيهِ مِنَ المُكايَسَةِ ضَرورَةً، فَإِنِ اقْتُصِرَ عَلَيْهَا اقْتُصِرَتْ بِهِ عَلى خُلُقِها وَهِيَ - أَعْني خُلُقَ المُكايِسَةِ - بَعيدَةٌ عَنِ المُروءَةِ الّتي تَتَخَلَّقُ بِها المُلوكُ وَالأَشْرافُ.

وَأَمّا إِنِ اسْتُرْذِلَ خُلُقُهُ بِما يَتْبَعُ ذَلِكَ في أَهْلِ الطَّبَقَةِ السُّفْلى مِنْهُمْ، مِنَ المُماحَكَةِ وَالغِشِّ وَالخِلابَةِ[6] وَتَعاهُدِ الإِيْمانِ الكاذِبَةِ عَلى الأَثْمانِ

---

(١) كتاب الوزراء والكُتّاب، م. م. ص: ١٨٦.

(٢) محاضرات الأدباء، م. م. ٢ج: ٤٥٩.

(٣) خالد بن صفوان بن عبد الملك، التميميّ المنقريّ (ت نحو ١٣٣ هـ/ نحو ٧٥٠م): من فصحاء العرب المشهورين. كان يجالس عمر بن عبد العزيز وهشام ابن عبد الملك، وأدرك خلافة السفّاح وحظي عنده. جمع بعض كلامه في كتاب.

(٤) بهجة المجالس، م. م. ج١: ١٣٤.

(٥) عبد الرحمن بن محمّد، الأشبيليّ، أبو زيد (ابن خلدون) (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٦م): العالم الاجتماعي البحّاثة. أصله من أشبيلية ومولده ومنشأه بتونس، رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس، وتولّى أعمالاً، واعترضته دسائس ووشايات. توفّي بالقاهرة. اشتهر بكتابه «العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر» ابتدأه بمقدمة تعدّ من أصول الاجتماع. ومن كتبه «شرح البردة»، وكتاب في «الحساب»، ورسالة في المنطق. وله شعر.

(٦) الخلابة: المخادعة، وقيل الخديعة باللسان.

رَدّاً وَقُبولاً، فَأَجْدَرُ بِذَلِكَ الخَلْقِ أَنْ يَكونَ في غايَةِ المَذَلَّةِ لِما هُوَ مَعْروفٌ، وَلذَلِكَ تَجِدُ أَهْلَ الرِّئاسَةِ يَتَحامَوْنَ الاحْتِرافَ بِهَذِهِ الحِرْفَةِ لِأَجْلِ ما يُكْسَبُ مِنْ هَذا الخُلُقِ، وَقَدْ يوجَدُ مِنْهُمْ مَنْ يَسْلَمُ مِنْ هَذا الخُلُقِ وَيَتَحاماهُ لِشَرَفِ نَفْسِهِ وَكَرَمِ جَلالِهِ، إِلّا أَنَّهُ في النّادِرِ بَيْنَ الوُجودِ...»[1].

فَمِنَ النّاحِيَةِ الاجْتِماعِيَّةِ، إِذاً، كانوا دونَ أَهْلِ الحُكْمِ وَالعِلْمِ، وَمِنَ النّاحِيَةِ الأَخْلاقِيَّةِ وُصِفوا بِالمَذَلَّةِ وَالبُخْلِ، وَبِالبُعْدِ عَنِ المُروءَةِ وَالصِّدْقِ.

أَمّا عَلى المُسْتَوى اللُّغَوِيِّ، فَإِنَّ احْتِكاكَهُمُ المُسْتَمِرَّ بِالأَعاجِمِ وَالمَوالي داخِلَ حُدودِ الحاضِرَةِ العَبّاسِيَّةِ، أَدّى إِلى شُيوعِ اللَّحْنِ عَلى أَلْسِنَتِهِمْ، حَتّى قالَ أَعْرابِيٌّ دَخَلَ السّوقَ وَسَمِعَهُمْ يَلْحَنونَ: «سُبْحانَ اللهِ! يَلْحَنونَ وَيَرْبَحونَ وَنَحْنُ لا نَلْحَنُ وَلا نَرْبَحُ»[2]. فَقَدِ انْشَغَلَ التُّجّارُ بِكَسْبِ المالِ بَعْدَ تَطَوُّرِ الحَياةِ الاقْتِصادِيَّةِ وَالاجْتِماعِيَّةِ آنَذاكَ، وَلَمْ يَلْتَفِتوا إِلى سَلامَةِ لُغَتِهِمْ؛ وَمِنْ صُوَرِ لَحْنِهِمْ، قَوْلُ تاجِرٍ لِلْحَسَنِ البَصْرِيِّ[3]: «يا أَبي سَعيدٍ. فَقالَ: أَكَسْبُ الدَّوانيقِ[4] شَغَلَكَ أَنْ تَقولَ يا أَبا سَعيدٍ؟»[5].

وَلَمْ تَكُنْ لُغَتُهُمُ المَحْكِيَّةُ مَلْحونَةً فَحَسْبُ، بَلْ أَصابَ اللَّحْنُ لُغَتَهُمُ المَكْتوبَةَ أَيْضاً مُنْذُ العُهودِ الإِسْلامِيَّةِ الأُولى. وَفي هذا قيلَ إِنَّ أَبا الأَسْوَدِ

---

(١) المقدّمة، م. م. ص: ٢٥١.

(٢) عيون الأخبار، م. م. ج٥: ١٥٩.

(٣) الحسن بن يسار أبو سعيد (الحسن البصري) (ت ١١٠ هـ/ ٧٢٨م): كان إمام أهل البصرة، وأحد العلماء الفقهاء الفصحاء النّساك. كان يدخل على الولاة، فيأمرهم وينهاهم. أخباره كثيرة وله كلمات سائرة، وكتاب في فضائل مكّة.

(٤) الدوانيق، جمع دانق: سدس الدّينار والدرهم. أعجميّ معرّب؛ ينظر: الألفاظ الفارسيّة المعرّبة، م. م .ص: ٦٦.

(٥) البيان والتبيين، م. م. ج٢: ٢١٩.

الدُّؤَلِيّ[1] رَأى «أعْدالاً[2] للتُّجّارِ كُتِبَ عَلَيْها: لِأبو فُلانٍ! فَقالَ: سُبْحانَ اللهِ! يَلْحَنونَ وَيَرْبَحونَ»[3].

وَكانَ لَحْنُ التُّجّارِ الأعاجِمِ الَّذينَ لَمْ يُحْسِنوا العَرَبِيَّةَ، قَبيحاً، وَعَرَضَ الجاحِظُ نَموذَجاً مِنْ كَلامِهِم المَلْحونِ في رِوايَةٍ جاءَ فيها أنَّ الحَجّاجَ قالَ لِأبي الجهيرِ الخُراسانِيّ النَّخّاسِ: «أتَبيعُ الدَّوابَّ المُعيبةَ مِنْ جُنْدِ السُّلْطانِ؟ قالَ: «شَريكانَنا في هَوازِها، وَشَريكانَنا في مَدايِنَها، وَكَما تَجِيء نَكونُ. قالَ الحَجّاجُ: ما تَقولُ، وَيْلَكَ! فَقالَ بَعْضُ مَنْ قَدِ اعْتادَ سَماعَ الخَطاءِ وَكَلامِ العُلوجِ بِالعَرَبِيَّةِ حَتّى صارَ يَفْهَمُ مِثْلَ ذَلِكَ: يَقولُ: شُركاؤُنا بِالأهْوازِ وَبِالمَدائِنِ، يَبْعَثونَ إلَيْنا بِهَذِهِ الدَّوابِّ، فَنَحْنُ نَبيعُها عَلى وُجوهِها»[4].

في هَذِهِ الرِّوايَةِ، جَمَعَ التّاجِرُ الخُراسانِيُّ «شَريك» عَلى «شَريكانَنا»، عَلى الطَّريقَةِ الفارِسِيَّةِ بِزِيادَةِ الألِفِ وَالنُّونِ[5]، مُتَأثِّراً بِلُغَةِ مُجْتَمَعِهِ الَّذي نَشَأ فيهِ، فَاسْتَخْدَمَ أصْواتَها وَتَراكيبَها وَدَلالاتِها ما أدّى إلى هَذا التَّشْويهِ في كَلامِهِ العَرَبِيِّ.

وَاللّافِتُ أنَّ بَعْضَ التُّجّارِ حَصَّلَ ثَقافَةً واسِعَةً، وَلا سِيَّما في أُمورِ الدّينِ، فَأوْصَلوا تَعاليمَ الإسْلامِ إلى جَماعاتٍ كَثيرَةٍ احْتَكّوا بِها في

---

(1) ظالم بن عمرو الدؤلي الكناني (أبو الأسود الدؤلي) (ت ٦٩ هـ/ ٦٨٨م): من التابعين. كان معدوداً من الفقهاء والأمراء والشعراء والفرسان. رسم له الإمام عليّ شيئاً من أصول النّحو، فكتب فيه أبو الأسود، وفي الأكثر الأقوال هو أوّل من نقّط المصحف. ولي إمارة البصرة أيام عليّ.

(2) أعدال، جمع عدل: نصف الحمل يكون على أحد جنبي البعير.

(3) بهجة المجالس، م. م. ج١: ٦٦.

(4) البيان والتبيين، م. م. ج١: ١٦١، ١٦٢.

(5) ينظر: (هامش المرجع السابق، ج١: ١٦١).

مُعامَلاتِهِم التِّجارِيَّةِ، وَخِلالِ أَسْفارِهِمْ؛ وَعُنِيَ بَعْضُهُمْ بِحِفْظِ الأَشْعارِ وَالقِصَصِ لِقَطْعِ الأَوْقاتِ الطِّوالِ، إِذْ كانَتْ رَحَلاتُهُمُ التِّجارِيَّةُ تَسْتَغْرِقُ أَشْهُراً عَلى مُتونِ السُّفُنِ أَوْ عَلى ظُهورِ الجِمالِ وَالدَّوابِّ.

وَلَكِنَّ ثَقافَةَ مُعْظَمِهِمْ كانَتْ بَسيطَةً وَمَحْصورَةً بِدائِرَةِ أَعْمالِهِم التِّجارِيَّةِ، وَلِهَذا اسْتَغْرَبَت بورانُ ـ قَبْلَ زَواجِها مِنَ المَأْمونِ ـ ثَقافَةَ إِسْحاقَ المَوصِلِيِّ[1] الذي تَظاهَرَ بِأَنَّهُ تاجِرٌ بَيْنَ يَدَيْها؛ وَكانَ قَدْ أَنْشَدَها لِجماعَةٍ مِنَ الشُّعَراءِ، وَسَأَلَتْهُ عَنْ أَشْياءَ في شِعْرِهِ كَالمُخْتَبِرَةِ لَهُ، فَأَجابَها بِما يَعْرِفُ في ذَلِكَ، فَاسْتَحْسَنَتْ لِما أَتى بِهِ وَقالَتْ: وَاللهِ ما قَصَّرْتَ، وَما تَوَهَّمْتُ فيكَ ما أَلْقَيْتَ، وَما رَأَيْتُ في أَبْناءِ التُّجّارِ وَأَبْناءِ السّوقَةِ مِثْلَ ما مَعَكَ[2].

ثُمَّ مَرَّ إِسْحاقُ «بِعِدَّةِ أَخْبارِ حِسانٍ مِنْ أَخْبارِ المُلوكِ وَما لا يُتَحَدَّثُ بِهِ إِلّا عِنْدَ مَلِكٍ أَوْ خَليفَةٍ، فَسُرَّتْ بِذَلِكَ سُروراً شَديداً، ثُمَّ قالَتْ: وَاللهِ لَقَدْ حَدَّثْتَني بِأَحاديثَ حِسانٍ، وَلَقَدْ كَثُرَ تَعَجُّبي مِنْ أَنْ يَكونَ أَحَدُ التُّجّارِ يَحْفَظُ مِثْلَها، وَإِنَّما هِيَ أَحاديثُ المُلوكِ وَما لا يُتَحَدَّثُ بِهِ إِلّا عِنْدَ مَلِكٍ أَوْ خَليفَةٍ»[3].

فَالغالِبِيَّةُ العُظْمى مِنَ التُّجّارِ شَغَلَهُمْ جَمْعُ المالِ وَتَحْريكُ عَجَلَةِ تِجارَتِهِمْ، فَضاقَ أُفُقُ تَطَلُّعاتِهِمْ وَاهْتِماماتِهِمْ، وَانْعَكَسَ ذَلِكَ عَلى لُغَتِهِمُ الّتي عَكَسَتْ بِدَوْرِها تِلْكَ التَّطَلُّعاتِ وَالاهْتِماماتِ.

---

(1) إسحاق بن إبراهيم التميمي (الموصلي) (ت ٢٣٥ هـ/ ٨٥٠م): من أشهر ندماء الخلفاء العبّاسيّين. تفرّد بصناعة الغناء، وكان عالماً باللغة والموسيقى والتاريخ وعلوم الدين وعلم الكلام، وراوياً للشعر وحافظاً للأخبار. من تصانيفه: كتاب أغانيه، و«أخبار عزة الميلاء»، و«أغاني معبد».

(2) ينظر: العقد الفريد، م. م. ج٦: ٤٦٠.

(3) المرجع السابق، ج٦: ٤٦٠، ٤٦١.

وَقَدْ تَرَكَتْ مِهْنَةُ التِّجارَةِ ـ كَغَيْرِها مِنَ المِهَنِ ـ آثارَها في أَلْسِنَةِ التُّجارِ وَفي أَلْسِنَةِ أَبْنائِهِمْ، فَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ الزَّيّاتِ ـ مَثَلاً ـ وَمَعَ كَوْنِهِ وَزيراً وَمُحِبّاً للشِّعْرِ وَالأَدَبِ وَمُلِمّاً بِهِما، فَإِنَّهُ تَأَثَّرَ بِشَكْلٍ عَفْوِيٍّ بِلُغَةِ أَبيهِ الذي كانَ تاجِراً مِنْ تُجّارِ الكَرْخِ المَياسيرِ.

وَنَسْتَشِفُّ ذَلِكَ مِنْ حادِثَةٍ وَرَدَتْ في الأَغاني، وَمِمّا جاءَ فيها: «كانَ عَبْدُاللهِ بْنُ الحَسَنِ الأَصْبَهانِيُّ[1] يَخْلُفُ عَمْرَو بْنَ مَسْعَدَةَ عَلى دِيوانِ الرَّسائِلِ، فَكَتَبَ إِلى خالِدِ بْنِ يَزيدَ بْنِ مَزْيَدٍ[2]: إِنَّ المُعْتَصِمَ أَميرَ المُؤْمِنينَ يَنْفُخُ مِنْكَ مِنْ غَيْرِ فَحْمٍ، وَيُخاطِبُ امْرَأً غَيْرَ ذي فَهْمٍ، فَقالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ: هَذا كَلامٌ ساقِطٌ سَخيفٌ؛ جَعَلَ أَميرَ المُؤْمِنينَ يَنْفُخُ بِالزِّقِّ كَأَنَّهُ حَدّادٌ، وَأَبْطَلَ الكِتابَ، ثُمَّ كَتَبَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ إِلى عَبْدِ اللهِ بْنِ طاهِرٍ[3]: وَأَنْتَ تُجْري أَمْرَكَ عَلى الأَرْبَحِ فَالأَرْبَحِ، وَالأَرْجَحِ فَالأَرْجَحِ، لا تَسْعى بِنُقْصانٍ، وَلا تَميلُ بِرُجْحانٍ، فَقالَ عَبْدُ اللهِ الأَصْبَهانِيُّ: الحَمْدُ للهِ، قَدْ أَظْهَرَ مِنْ سَخافَةِ اللَّفْظِ ما دَلَّ عَلى رُجوعِهِ إِلى صِناعَتِهِ مِنَ التِّجارَةِ بِذِكْرِهِ رِبْحَ السِّلَعِ، وَرُجْحانَ الميزانِ، وَنُقْصانَ الكَيْلِ، وَالخُسْرانَ مِنْ رَأْسِ المالِ»[4].

---

(١) لم أقف على ترجمته.

(٢) خالد بن يزيد بن مزيد بن زائدة، أبو يزيد الشيبانيّ (ت ٢٣٠ هـ/ ٨٤٥ م): أحد الأمراء الولاة الأجواد في العصر العبّاسيّ. وهو ممدوح أبي تمّام. مات في طريقه إلى أرمينية لقمع الانتفاضة فيها.

(٣) عبد الله بن طاهر الخزاعيّ بالولاء، أبو العبّاس (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م): أمير خراسان ومن أشهر الولاة في العصر العبّاسيّ. استمرّ والياً على أمصار مدّة إلى أن توفّي.

(٤) الأغاني، م. م. ج٢٣: ٥٣، ٥٤.

وَلَمّا أرادَ أبو أَحْمَدَ البَزّازُ أنْ يَمْدَحَ الصّاحِبَ بْنَ عَبّادٍ[1]، قالَ لَهُ: «لا زالَ سَيِّدُنا في سَلامَةٍ مُبَطَّنَةٍ بِالنِّعْمَةِ، مُطَرَّزَةٍ بِالسَّعادَةِ، مُظاهَرَةٍ[2] بِالغِبْطَةِ. فَقالَ: يا أبا أَحْمَدَ أَحْسَنْتَ قَدْ أَخَذْتَها مِنْ صِناعَتِكَ»[3]. فَكَأَنَّ هَذا التّاجِرَ، في مَدْحِ سَيِّدِهِ، عايَنَ ثَوْباً، فَاْستَعانَ بِما لَهُ مِنْ بِطانَةٍ وَظِهارَةٍ وَتَطْريزٍ.

وَكَذَلِكَ صاغَ التُّجّارُ أَمْثالاً حاكَتْ مِهْنَتَهُمْ، مِنْها عَلى سَبيلِ المِثالِ:

«سوقُنا سوقُ الجَنَّةِ؛ كِنايَةٌ عَنِ الكَسادِ»[4]. إِذْ لا بَيْعَ وَلا شِراءَ في الآخِرَةِ.

وَمِنْ أَمْثِلَتِهِمْ أَيْضاً: «أَتْجَرُ مِنْ عَقْرَبٍ»؛ وَعَقْرَبُ اسْمُ تاجِرٍ مِنْ تُجّارِ المَدينَةِ، كانَ أَشَدَّهُمْ تَسْويفاً، حَتّى ضَرَبوا بِمَطْلِهِ المَثَلَ، وَيُقالُ أَيْضاً: «أَمْطَلُ مِنْ عَقْرَبٍ»[5].

وَقَدْ أَوْرَدَ الثَّعالِبِيُّ[6] في كِتابِ «خاصّ الخاصّ» أَمْثالاً لِلتُّجّارِ دونَ

---

(١) إسماعيل بن عبّاد، أبو القاسم الطّالقانيّ (الصّاحب بن عباد) (ت ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م): وزير غلب عليه الأدب. استوزره مؤيد الدولة ابن بويه الديلمي ثم أخوه فخر الدولة. ولقب بالصّاحب لصحبته مؤيد الدولة. توفّي بالرّي ونقل إلى أصبهان فدفن فيها. له تصانيف جليلة، منها: «الوزراء»، و«الكشف عن مساوئ شعر المتنبي». جمعت رسائله في كتاب سمّي «المختار من رسائل الوزير ابن عبّاد».

(٢) يقال ظهارة الثوب وبطانته، فالبطانة ما ولي منه الجسد وكان داخلاً، والظهارة ما علا وظهر ولم يل الجسد.

(٣) خاصّ الخاصّ، م. م، ص: ٦٥.

(٤) الميداني، أحمد بن محمّد: مجمع الأمثال، تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد، المكتبة التّجاريّة الكبرى، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٣٧٩هـ- ١٩٥٩م، ج١: ٣٥٧.

(٥) ينظر: المرجع السابق، ج١: ١٤٧.

(٦) عبد الملك بن محمّد أبو منصور (الثعالبيّ) (ت ٤٢٩هـ/١٣٠٨م): من أئمّة اللغة والأدب. اشتغل بالأدب والتاريخ. من كتبه: «يتيمة الدهر»، و«فقه اللغة»، =

ذِكْرِ المُناسَبَةِ أَوِ الحادِثَةِ التي قيلَتْ مِنْ أَجْلِها. مِنْها: التَّدْبيرُ نِصْفُ التِّجارَةِ؛ رَأْسُ المالِ أَحَدُ الرِّبْحَيْنِ؛ الصَّرْفُ لا يَحْتَمِلُ الظَّرْفَ؛ كُلُّ شَيْءٍ وَثَمَنُهُ؛ مَنِ اشْتَرى الدّونَ رَجَعَ إِلى بَيْتِهِ وَهُوَ مَغْبونٌ؛ نِسْيانُ النَّقْدِ صابونُ القَلْبِ(١).

وَقَدْ شاعَتْ هَذِهِ الأَمْثالُ بَيْنَ النّاسِ، وَاسْتُخْدِمَتْ صُوَرُ التِّجارَةِ في اسْتِعاراتٍ شَتّى، مِنْ ذَلِكَ أَنَّ عَبْدَ المَلِكِ بْنَ صالِحٍ أَوْصى ابْنَهُ وَهُوَ أَميرُ سَرِيَّةٍ في بِلادِ الرّومِ، فَقالَ لَهُ: «أَنْتَ تاجِرُ اللهِ لِعِبادِهِ، فَكُنْ كَالمُضارِبِ الكَيِّسِ، الذي إِنْ وُجِدَ رِبْحاً تَجِرَ، وَإِلّا احْتَفَظَ بِرَأْسِ المالِ، وَلا تَطْلُبِ الغَنيمَةَ حَتّى تُحْرِزَ السَّلامَةَ...»(٢). فَفي هَذِهِ الوَصِيَّةِ، قَرَّبَ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ صالِحٍ عَمَلَ ابْنِهِ في بِلادِ الرّومِ مِنْ صورَةِ التّاجِرِ الفَطِنِ وَالكَيِّسِ، الذي يَتَحَيَّنُ الفُرْصَةَ لِشِراءِ البِضاعَةِ، ثُمَّ يَبيعُها في الأَسْواقِ عِنْدَما يَسْتَيْقِنُ الرِّبْحَ.

وَمِثْلَما اسْتَعانَ القَوْمُ بِالأَلْفاظِ وَالمَعاني التي لها صِلَةٌ بِالتِّجارَةِ وَالتُّجّارِ، فَإِنَّ هَؤُلاءِ بِدَوْرِهِمِ اسْتَعانوا أَيْضاً بِأَلْفاظِ القَسَمِ وَاليَمينِ مِنْ أَجْلِ تَرْويجِ بِضاعَتِهِمْ، وَغالَوا في نُطْقِها وَتَرْدادِها حَتّى جاءَ في الحديثِ: «إِنَّ التُّجّارَ يُبْعَثونَ يَوْمَ القِيامَةِ فُجّاراً، إِلّا مَنِ اتَّقى اللهَ وَبَرَّ وَصَدَقَ»(٣). وَكَذَلِكَ اسْتَعانوا بِلُغَةِ الشِّعْرِ الغِنائِيِّ للغايَةِ نَفْسِها، فَقَدْ رَوَى الأَصْمَعِيُّ «أَنَّ تاجِراً مِنْ أَهْلِ الكوفَةِ قَدِمَ المَدينَةَ بِخُمُرٍ فَباعَها

= و«لطائف المعارف»، و«خاصّ الخاصّ»، و«ثمار القلوب في المضاف والمنسوب».

(١) ينظر: خاصّ الخاصّ، م. م. ص: ٦٤؛ وهذه الأمثال في مجمع الأمثال، م. م. ج١: ١٥١ (التعبير بدل التدبير)؛ ج١: ٣١٧؛ ج١: ٤١٨ (لا يحتمله بدل يحتمل)؛ ج٢: ١٧١؛ ج٢: ٣٢٨؛ ج٢: ٣٥٨ (دون كلمة نسيان).

(٢) البيان والتبيين، م. م. ج٢: ١٠٩.

(٣) راجع: ابن ماجة، محمد بن يزيد: سنن ابن ماجة، تحقيق الدكتور بشّار عوّاد معروف، دار الجيل، الطبعة الأولى، بيروت ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨م، ج٣: ٥١٥.

كُلَّها وَبَقِيَتِ السُّودُ مِنْها فَلَمْ تُنْفَقْ، وَكانَ صَديقاً للدَّارِمِيِّ[1]، فَشَكا ذاكَ إِلَيْهِ، وَقَدْ كانَ نَسَكَ وَتَرَكَ الغِناءَ وَقَوْلَ الشِّعْرِ؛ فَقالَ لَهُ: لا تَهْتَمَّ بِذَلِكَ فَإِنّي سَأُنْفِقُها لَكَ حَتّى تَبيعَها أَجْمَعَ؛ ثُمَّ قالَ: [الكامل]

قُلْ لِلْمَليحَةِ في الخِمَارِ الأَسْوَدِ ... ماذا صَنَعْتِ بِراهِبٍ مُتَعَبِّدِ
قَدْ كانَ شَمَّرَ للصَّلاةِ ثِيابَهُ ... حَتّى وَقَفْتِ لَهُ بِبابِ المَسْجِدِ

وَغنَّى فيهِ، وَغَنّى فيهِ سِنانُ الكاتِبُ[2]، وَشاعَ في النّاسِ وَقالوا: قَدْ فَتَكَ الدّارِمِيُّ وَرَجَعَ عَنْ نُسْكِهِ؛ فَلَمْ تَبْقَ في المَدينَةِ ظَريفَةٌ إِلّا ابْتاعَتْ خِماراً أَسْوَدَ حَتّى نَفِدَ ما كانَ مَعَ العِراقِيِّ مِنْها؛ فَلَمّا عَلِمَ بِذَلِكَ الدّارِمِيُّ رَجَعَ إِلى نُسْكِهِ وَلَزِمَ المَسْجِدَ»[3] .

وَهَكَذا، فَإِنَّ الشِّعْرَ كانَ وَسيلَةً إِعْلانِيَّةً مُهِمَّةً لِتَرْويجِ السِّلَعِ وَالبِضاعَةِ، وَلا سِيَّما في مُجْتَمَعٍ كانَ الشِّعْرُ الغِنائِيُّ فيهِ مُنْتَشِراً كَالمُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ.

أَمّا إِذا كانَتْ صَفَقَةُ التِّجارَةِ كَبيرَةً وَخَطيرَةً وَلا تَجْري إِلّا بِإِذْنِ المَلِكِ أَوْ نُظَرائِهِ، فَلا بُدَّ لِلتّاجِرِ عِنْدَئِذٍ مِنَ التَّحَدُّثِ بِلُغَةٍ بَليغَةٍ وَرَفيعَةٍ

---

(١) هو سعيد الدارميّ التميميّ (ت١٥٥ هـ/نحو ٧٧٢ م): شاعر غزل من المغنين الظرفاء. من أهل مكّة. كان ينظم الأبيات ويضع لحنها ويغنيها.
(٢) لم أقف على ترجمته.
(٣) الأغاني، م. م. ج٣: ٤٥، ٤٦؛ وينظر أيضاً: بهجة المجالس، م. م. ج١: ٥٥٨ وفيه وردت الأبيات على الشكل التالي:

قل للمليحة في الخمار الأسود ... ماذا صنعت بزاهد متعبّد
قد كان شمّر للصلاة ثيابه ... حتى عرضت له بباب المسجد
ردّي عليه صيامه وصلاته ... لا تقتليه بحقّ دين محمّد

المُسْتَوى، كَلُغَةِ الحُكَماءِ، كَما فَعَلَ غَيْلانُ بْنُ سَلَمَةَ[1] الذي وَفِدَ عَلى كِسْرى في الجاهِلِيَّةِ، وَكانَ قَدْ «تَخَلَّقَ[2] وَلَبِسَ ثَوْبَيْنِ أَصْفَرَيْنِ، وَشَهَرَ أَمْرَهُ، وَجَلَسَ بِبابِ كِسْرى حَتّى أَذِنَ لَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَبَيْنَهُما شُبّاكٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ التَّرْجُمانُ؛ فَقالَ لَهُ: يَقولُ لَكَ المَلِكُ: مَنْ أَدْخَلَكَ بِلادي بِغَيْرِ إِذْني؟ فَقالَ: قُلْ لَهُ: لَسْتُ مِنْ أَهْلِ عَداوَةٍ لَكَ، وَلا أَتَيْتُكَ جاسوساً لِضِدٍّ مِنْ أَضْدادِكَ، وَإِنَّما جِئْتُ بِتِجارَةٍ تَسْتَمْتِعُ بِها، فَإِنْ أَرَدْتَها فَهِيَ لَكَ، وَإِنْ لَمْ تُرِدْها وَأَذِنْتَ في بَيْعِها لِرَعِيَّتِكَ بِعْتُها، وَإِنْ لَمْ تَأْذَنْ في ذَلِكَ رَدَدْتُها. قالَ [الرّواي]: فَإِنَّهُ لَيَتَكَلَّمُ إِذْ سَمِعَ صَوْتَ كِسْرى فَسَجَدَ، فَقالَ لَهُ التَّرْجُمانُ: يَقولُ لَكَ المَلِكُ: لِمَ سَجَدْتَ؟ فَقالَ: سَمِعْتُ صَوْتاً عالِياً حَيْثُ لا يَنْبَغي لِأَحَدٍ أَنْ يَعْلُوَ صَوْتُهُ إِجْلالاً لِلْمَلِكِ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَمْ يَقْدُمْ عَلى رَفْعِ الصَّوْتِ هُناكَ غَيْرُ المَلِكِ فَسَجَدْتُ إِعْظاماً لَهُ. قالَ [الرواي]: فَاسْتَحْسَنَ كِسْرى ما فَعَلَ، وَأَمَرَ لَهُ بِمِرْفَقَةٍ[3] تُوضَعُ تَحْتَهُ، فَلَمّا أُتِيَ بِها، رَأى عَلَيْها صورَةَ المَلِكِ فَوَضَعَها عَلى رَأْسِهِ، فَاسْتَجْهَلَهُ كِسْرى وَاسْتَحْمَقَهُ، وَقالَ لِلتَّرْجُمانِ: قُلْ لَهُ: إِنَّما بَعَثْنا إِلَيْكَ بِهَذِهِ لِتَجْلِسَ عَلَيْها. قالَ: عَلِمْتُ، وَلَكِنّي لَمّا أُتيتُ بِها رَأَيْتُ عَلَيْها صورَةَ المَلِكِ، فَلَمْ يَكُنْ حَقُّ صورَتِهِ عَلى مِثْلي أَنْ يَجْلِسَ عَلَيْها، وَلَكِنْ كانَ حَقُّها التَّعْظيمَ، فَوَضَعْتُها عَلى رَأْسي، لِأَنَّهُ أَشْرَفُ أَعْضائي وَأَكْرَمُها عَلَيَّ. فَاسْتَحْسَنَ فِعْلَهُ

---

(١) غيلان بن سلمة الثقفيّ (ت ٢٣هـ/ ٦٤٤م): حكيم شاعر جاهلي. أدرك الإسلام وأسلم يوم الطّائف. انفرد في الجاهليّة بأن قسّم أعماله على الأيام، فكان له يوم يحكم فيه بين النّاس، ويوم ينشد فيه شعره، ويوم ينظر فيه إلى جماله. وهو ممن وفد على كسرى.

(٢) تخلّق: تطيّب بالخلوق، وهو نوع من الطّيب يتخذ من الزعفران وغيره.

(٣) المرفقة: المتكأ أو المخدّة.

جِدّاً، ثُمَّ قالَ لَهُ: أَلَكَ وَلَدٌ؟ قالَ: نَعَمْ. قالَ: فَأَيُّهُمْ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قالَ: الصَّغيرُ حَتّى يَكْبُرَ، وَالمَريضُ حَتّى يَبْرَأَ، وَالغائِبُ حَتّى يَؤوبُ. فَقالَ: كِسْرى: زِهْ، ما أَدْخَلَكَ عَلَيَّ وَدَلَّكَ عَلى هَذا القَوْلِ وَالفِعْلِ إِلّا حَظُّكَ، فَهَذا فِعْلُ الحُكَماءِ وَكَلامُهُمْ... ثُمَّ اشْتَرى مِنْهُ التِّجارَةَ بِأَضْعافِ ثَمَنِها...»[1].

فَفي هَذا النَّصِّ المُتَقَدِّمِ، نَجِدُ أَنَّ غَيْلانَ الشّاعِرَ حينَ أَرادَ الخَوْضَ في التِّجارَةِ، وَتَطَلَّبَ مِنْهُ ذَلِكَ إِذْناً مِنَ المَلِكِ، الْتَزَمَ عِدَّةَ قَواعِدَ قَبْلَ عَرْضِ بِضاعَتِهِ، فَأَوَّلُ تِلْكَ القَواعِدِ: الاهْتِمامُ بِحُسْنِ مَظْهَرِهِ الخارِجِيِّ لِما لَهُ وَقْعٌ حَسَنٌ في نَظَرِ الطَّرَفِ الآخَرِ، ثُمَّ إِبْلاغُ المَلِكِ ـ عَنْ طَريقِ التَّرْجُمانِ ـ نِيَّتَهُ بِإِدْخالِ البِضاعَةِ وَبَيْعِها مُباشَرَةً لَهُ أَوْ لِلْرَّعِيَّةِ أَوْ رَدِّها في حالِ رَفْضِها، كُلُّ ذَلِكَ بِكَلامٍ لَطيفٍ يَنُمُّ عَنْ أَدَبٍ في المُخاطَبَةِ، ثُمَّ سُجودُهُ أَمامَهُ إِعْظاماً لَهُ، مُقْتَدِياً بِتَقاليدِ الأُمَمِ الأَعْجَمِيَّةِ الّتي كانَتْ تَنْحَني أَوْ تَسْجُدُ أَمامَ مُلوكِها. وَإِظْهارُ الاحْتِرامِ الفائِقِ الذي يَكُنُّهُ لَهُ، وَذَلِكَ بِوَضْعِ المِرْفَقَةِ عَلى رَأْسِهِ، لِأَنَّ الرَّأْسَ أَشْرَفُ الأَعْضاءِ عِنْدَ الإِنْسانِ، وَلِهذا كانَ العَرَبُ وَغَيْرُ العَرَبِ يَقْطَعونَ رُؤوسَ قَتْلى أَعْدائِهِمْ إِمْعاناً في إِذْلالِهِمْ، وَما الأَخْذُ بِالنّاصِيَةِ إِلّا الكِنايَةُ عَنِ المَذَلَّةِ التي تُصيبُ الإِنْسانَ حَيْثُ يُخْفَضُ أَعْلى جُزْءٍ فيهِ. وَفي القُرْآنِ الكَريمِ: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾[2] إِنْذاراً لِلْكافِرينَ بِسوءِ العاقِبَةِ.

وَفي هَذا قالَ الشّاعِرُ: [الرجز]

قِلالُ مَجْدٍ فَرَّعَتْ آصاصا[3]   وَعِزَّةٌ قَعْساءُ لا تُناصى[4]

---

(١) الأغاني، م. م. ج ١٣: ٢٠٧.

(٢) سورة العلق: ١٥.

(٣) أصاص، جمع أصّ، الأصل الكريم.

(٤) ينظر: كتاب الأمالي، م. م. ج٢: ١٦.

ثُمَّ إِخبارُهُ بِحبِّهِ لِأَوْلادِهِ بِمُقْتَضى العَدْلِ وَالإِحْسانِ، فَأَكْثَرُ مَنْ يَحتاجُ إِلى الحُبِّ وَالعَطْفِ هُوَ الصَّغيرُ وَالمَريضُ وَالغائِبُ.

وَما فَعَلَهُ غَيْلانُ وَقالَهُ، هُوَ فِعْلُ الحُكماءِ وَكَلامُهُمْ، كَما قالَ كِسْرى، وَلِذا اشْتَرى هَذا المَلِكُ البِضاعَةَ بِأَضْعافِ ثَمَنِها، فَمُلوكُ الفُرْسِ كانَتْ تَهْتَمُّ بِالحِكَمِ وَالأَمْثالِ الَّتي تَزْخَرُ بِها الكُتُبُ الفارِسِيَّةُ.

صَحيحٌ أَنَّ هَذِهِ القِصَّةَ حَدَثَتْ في العَصْرِ الجاهِلِيِّ، إِلّا أَنَّ تُجّارَ الحاضِرَةِ العَبّاسِيَّةِ احْتاجوا إِلى مِثْلِ هَذا الكَلامِ، وَإِلى هَذا الأَدَبِ في التَّصَرُّفِ، لِأَنَّهُمْ عَرَضوا بِضاعَتَهُمْ عَلى المُلوكِ وَالأُمَراءِ وَأَهْلِ اليَسارِ في مُجْتَمَعِهِمْ، عَلاوَةً عَلى عَرْضِها في الأَسْواقِ، كَما أَنَّهُمْ ذَهَبُوا إِلى ما وَراءِ حُدودِ حاضِرَتِهِمْ لِلِقاءِ شُعوبٍ وَأُمَمٍ مِنْ أَجْلِ المُبادَلاتِ التِّجارِيَّةِ.

نُجْمِلُ القَوْلَ إِنَّ التُّجّارَ انْتَمَوْا إِلى طَبَقَةٍ وُسْطى في المُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ، وَكانَتْ ثَقافَتُهُمْ مَحْدودَةً بِحُدودِ اهْتِماماتِهِم التِّجارِيَّةِ وَالمالِيَّةِ. وَقَدْ أَصابَ اللَّحْنُ لُغَتَهُمَ المَنْطوقَةَ وَالمَكْتوبَةَ، كَما تَرَكَتْ مِهْنَتُهُمْ آثارَها في أَلْسِنَتِهِمْ، فَظَهَرَ ذَلِكَ في كِتاباتِهِمْ وَأَحادِيثِهِمْ وَأَمْثالِهِمْ. وَاسْتَمَدَّ التُّجّارُ مِنْ مُحيطِهِمُ الدِّينِيِّ أَلْفاظَ القَسَمِ وَاليَمينِ، وَمِنْ مُحيطِهِمُ الفَنِّيِّ الغِناءَ، وَمِنْ مُحيطِهِمُ الأَدَبِيِّ أَوِ الثَّقافِيِّ الحِكَمَ وَالكَلامَ البَليغَ مِنْ أَجْلِ تَرْويجِ بِضاعَتِهِمْ.

أَمّا أَصْحابُ المِهَنِ الأُخَرَ وَالحِرَفِ، فَكانَتْ لَهُمْ مَقاماتٌ اجْتِماعِيَّةٌ وَلُغَوِيَّةٌ يُبَيِّنُها الفَصْلُ التّالي.

الفَصْلُ الثّاني عَشَرَ

لُغَةُ أَصْحابِ المِهَنِ وَالحِرَفِ[1]

إِلى جانِبِ التِّجارَةِ في الحاضِرَةِ العَبّاسِيَّةِ، وُجِدَتِ المِهَنُ وَالحِرَفُ المُتَوَسِّطَةُ وَالوَضيعَةُ بِحَسَبِ تَصْنيفِ أَهْلِ ذَلِكَ العَصْرِ، كَالتَّعْليمِ وَالمِلاحَةِ وَالزِّراعَةِ وَالنِّجارَةِ وَالحِياكَةِ[2].

وَتَسْتَوْقِفُنا مِهْنَةُ التَّعْليمِ لِعَلاقَتِها المُباشِرَةِ بِاللُّغَةِ وَالثَّقافَةِ. فَمَعَ أَنَّ العَصْرَ العَبّاسِيَّ الأَوَّلَ كانَ عَصْرَ الازْدِهارِ العِلْمِيِّ وَالمَعْرِفِيِّ، إِلّا أَنَّ مِهْنَةَ التَّعْليمِ كانَتْ مِهْنَةً حَقيرَةً يَوْمَذاكَ. وَوُصِفَ المُعَلِّمُ، عادَةً، بِالحُمْقِ وَالغَباوَةِ؛ فَكانَ يُقالُ: «أَحْمَقُ مِنْ مُعَلِّمِ كُتّابٍ»[3]. وَقيلَ أَيْضاً: «الحُمْقُ في الحاكَةِ وَالمُعَلِّمينَ وَالغَزّالينَ»[4]. وَعَلاوَةً عَلى ذَلِكَ، قيلَ إِنَّ «المُعَلِّمَ

---

(١) في المصادر نجد أنّ الحرف والمهن على اختلاف أنواعها تقع تحت اسم الصّناعات؛ ينظر على سبيل المثال:
الحصريّ، إبراهيم بن علي: جمع الجواهر في الملح والنّوادر، تحقيق علي محمّد البجاوي، دار إحياء الكتب العربيّة، الطّبعة الأولى، القاهرة، ١٣٧٢ هـ ـ ١٩٥٣ م، ص: ١٤٩ ـ ١٥١.

(٢) محاضرات الأدباء، م. م. ج٢: ٤٥٩ ـ ٤٧٠.

(٣) البيان والتبيين، م. م. ج١: ٢٤٨.

(٤) المرجع السابق، ج١: ٢٤٩.

أَحْمَقُ مَحْكومٌ عَلَيْهِ بِالنَّقْصِ وَالجَهْلِ وَالخِفَّةِ وَقِلَّةِ العَقْلِ»[١]. وَكَثيراً ما ذَمَّ الشُّعَراءُ المُعَلِّمينَ، فَقالَ أَحَدُهُمْ: [الطّويل]

«كَفى المَرْءُ نَقْصاً أَنْ يُقالَ بِأَنَّهُ ... مُعَلِّمُ صِبْيانٍ وَإِنْ كانَ فاضِلاً

وقالَ آخَرُ: [الكامل]

إِنَّ المُعَلِّمَ حيثُ كانَ مُعلِّمُ ... وَلَوِ ابْتَنى فَوْقَ السَّماءِ سَماءَ»[٢]

وَوَصَلَ الأَمْرُ بِبَعْضِ الفُقَهاءِ إِلى أَنْ قالوا: النِّساءُ أَعْدَلُ شَهادَةً مِنْ مُعَلِّمٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَفَضَ قَبولَ شَهادَتِهِ[٣].

تُظْهِرُ الرِّواياتُ وَالنُّصوصُ أَنَّ المُعَلِّمينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَقامٌ مَعْنَوِيٌّ، وَ«سُمْعَةٌ طَيِّبَةٌ عِنْدَ العَرَبِ عَلى وَجْهِ العُمومِ، وَرُبَّما كانَ ذَلِكَ نَتيجَةَ رَواسِبِ ذَلِكَ العَهْدِ الذي كانَ فيه المُعَلِّمونَ عَبيداً أَوْ يَهوداً، أَوْ نَتيجَةَ سوءِ مَسْلَكِ بَعْضِهِمْ وَحَقارَةِ أَنْفُسِهِمْ»[٤]. وَيَرى آدَم ميتز Adam Metz أَنَّ «كَثيراً مِمّا لَحِقَ بالمُعَلِّمينَ مِنْ ضُروبِ الاسْتِهْزاءِ إِنَّما يَقَعُ إِثْمُهُ عَلى الرِّواياتِ اليونانِيَّةِ الهَزْلِيَّةِ؛ لِأَنَّ المُعَلِّمَ فيها كانَ مِنَ الشَّخْصِيّاتِ المُضْحِكَةِ»[٥].

---

(١) ابن حوقل، محمّد بن علي: كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ط. د. ت. ص: ١٢١.

(٢) محاضرات الأدباء، م. م. ج١: ٥٣. وفي الأغاني، م. م. ج٩: ٢٣٦ أنشده المازني بهذه الصورة:
إنّ المُعَلِّمَ لا يَزالُ مُضَعَّفاً ... وَلَوِ ابْتَنى فَوْقَ السَّماءِ بناءَ

(٣) ينظر: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي: أخبار الحمقى والمغفّلين، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنّشر، بيروت، د. ط. د. ت. ص: ١٤٠؛ المحاسن والمساوىء، م. م. ج٢: ٤٠٨.

(٤) جبر، جميل: الجاحظ ومجتمع عصره، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، د. ط. ١٩٥٨ م، ص: ٥٠.

(٥) الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجريّ، م. م. ج١: ٣٤٤، ٣٤٥.

وَالجاحِظُ نَفْسُهُ ذَمَّ بَعْضَ المُعَلِّمينَ، وَصَنَعَ كِتاباً يُعيبُهُمْ، يَدُلُّنا عَلى ذَلِكَ «أَنَّ مُعَلِّماً جاءَ إِلى الجاحِظِ فَقالَ: أَنْتَ الذي صَنَعْتَ كِتابَ المُعَلِّمينَ تُعيبُهُمْ؟ قالَ: نَعَمْ. قالَ: وَذَكَرْتَ فيهِ أَنَّ بَعْضَ المُعَلِّمينَ جاءَ إِلى صَيّادٍ وَقالَ أَيْشٍ تَصْطادُ طَرِيّاً أَمْ مالحاً؟ قالَ: نَعَمْ. قال: ذَلِكَ أَبْلَهُ، وَلَوْ كانَ فيهِ ذَكاءٌ كانَ يَقِفُ فَيَنْتَظِرُ إِنْ خَرَجَ طَرِيٌّ عَلِمَ أَوْ خَرَجَ مالِحٌ عَلِمَ»[1].

وفي الوَقْتِ الذي ذَمَّ فيه الجاحِظُ بَعْضَ المُعَلِّمينَ، فَإِنَّهُ دافَعَ عَنْ بَعْضِهِمِ الآخَرِ، لِأَنَّهُ رَأى أَنَّ «لِكُلِّ قَوْمٍ حاشِيَةً وَسَفِلَةً، فَما هُمْ في ذَلِكَ إِلّا كَغَيْرِهِمْ»[2]. وَرَأى أَيْضاً أَنَّ ما يَجْري في الطَّبَقاتِ كُلِّها مَنْ جودٍ وَبُخْلٍ، وَصَلاحٍ وَفَسادٍ، وَنُقْصانٍ وَرُجْحانٍ، يَجْري كَذَلِكَ في طَبَقَةِ المُعَلِّمينَ[3].

لَقَدِ انْقَسَمَ المُعَلِّمونَ فيما بَيْنَهُمْ إِلى طَبَقاتٍ، «مِنْهُمْ رِجالٌ ارْتَفَعوا عَنْ تَعليمِ أَوْلادِ العامَّةِ إِلى تَعْليمِ أَوْلادِ الخاصَّةِ، وَمِنْهُمْ رِجالٌ ارْتَفَعوا عَنْ تَعْليمِ أَوْلادِ الخاصَّةِ إِلى تَعليمِ أَوْلادِ المُلوكِ أَنْفُسِهِمُ المُرَشَّحينَ لِلْخِلافَةِ»[4]، مِثْلُ الكِسائِيِّ وَقُطْرُبٍ وَأَشْباهِهِما. وَمِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ إِلى كَتاتيبِ القُرى وَالأَحْياءِ الدّاخِلِيَّةِ لِلْمُدُنِ لِتَعْليمِ الصِّبْيانِ، فَكانَ يَجْري انْتِقاصُ مِنْ هَيْبَةِ هَؤُلاءِ، وَهَذا إِجْحافٌ بِحَقِّهِمْ كَما يُؤَكِّدُ الجاحِظُ، لِأَنَّ فيهِمُ الفُقَهاءَ وَالشُّعَراءَ وَالخُطَباءَ[5].

---

(١) أخبار الحمقى والمغفّلين، م. م. ص: ١٤٢؛ المستطرف، م. م. ج٢: ٢٧١ (وفيه أنّ الجاحظ قال إنه ألّف كتاباً في نوادر المعلّمين).

(٢) البيان والتبيين، م. م. ج١: ٢٥١.

(٣) ينظر: المرجع السابق، ج١: ٢٥٠.

(٤) المرجع السابق، ج١: ٢٥٠.

(٥) ينظر: المرجع السابق، ج١: ٢٥١.

وَقَدْ تَقاضى مُعَلِّمو الطَّبَقَةِ الأولى وَالثّانِيَةِ أجوراً مُرْتَفِعَةً وَجَوائِزَ سَنِيَّةً مِنْ أَوْلياءِ المُؤَدَّبينَ[1]. أَمّا مُعَلِّمو الطَّبَقَةِ الثّالِثَةِ، فَقَدْ تَقاضَوْا أجوراً زَهيدَةً عَلى ما يَبْلو مِنْ آباءِ الصِّبْيانِ، حَتّى قيلَ «... إِنَّ فيهِمُ الكَثيرَ تَمُرُّ بِهِ السَّنَةُ فَلا يُصيبُ مِنْ جَميعِ صِبْيانِهِ، وَهُمْ كَثيرٌ، عَشَرَةَ دَنانيرَ»[2].

وَكانَ الأَجْرُ، في أَغْلَبِ الأَحْيانِ، أَرْغِفَةً اخْتَلَفَتْ «بِحَسَبِ اخْتِلافِ آباءِ الصِّبْيانِ في الغِنى وَالفَقْرِ، وَالجودِ وَالبُخْلِ، كَما قالَ مَنْ هَجا الحَجّاجَ وَذَكَرَ أَنَّهُ كانَ مُعَلِّماً: [المتقارب]

أَيَنْسى كُلَيْبٌ زَماناً مَضى ... وَتَعْليمَهُ سورَةَ الكَوْثَرِ
رَغيفاً لَهُ فَلْكَةٌ ما تُرى ... وَآخَرَ كالقَمَرِ الأَزْهَرِ»[3]

وَاهْتَمَّ هَؤُلاءِ المُعَلِّمونَ بِتِلْكَ الرُّغْفانِ بِسَبَبِ أَوْضاعِهِمُ الاقْتِصادِيَّةِ الصَّعْبَةِ، أَوْ لِطَعْمِها اللَّذيذِ، وَلا عَجَبَ أَنْ وَصَلَ الأَمْرُ بِبَعْضِهِمْ أَنْ بَكى لِفَقْدِها؛ وَفي هذا قالَ الجاحِظُ: «مِنْ أَعْجَبِ ما رَأَيْتُ مُعَلِّماً بِالكوفَةِ وَهُوَ شَيْخٌ جالِسٌ ناحِيَةَ الصِّبْيانِ يَبْكي، فَقُلْتُ لَهُ: يا عَمُّ مِمَّ تَبْكي؟ قالَ: سَرَقَ الصِّبْيانُ خُبْزي»[4].

وَقَدْ جَرى ذِكْرُ تِلْكَ الرُّغْفانِ في سِياقِ كَلامِهِمْ وَأَحاديثِهِمْ؛ فَعِنْدَما اسْتَحْسَنَ مُعَلِّمٌ البَدْرَ في السَّماءِ وَأَرادَ أَنْ يَصِفَهُ قالَ: «كَأَنَّهُ رَغيفُ حُوّارى[5] خُبِزَ في دارِ غَنِيٍّ واسِعِ الرَّحْلِ»[6].

---

(١) ينظر على سبيل المثال: معجم الأدباء، م. م. ج٥: ١٢٥، ١٢٦ (وفيه عطايا محمّد بن عبد الله بن طاهر لثعلب مؤدّب ولده طاهر).
(٢) كتاب صورة الأرض، م. م. ص: ١٢٠.
(٣) ثمار القلوب، م. م. ص: ٢٤٣.
(٤) أخبار الحمقى والمغفلين، م. م. ص: ١٤٣.
(٥) الحوّارى: الدقيق الأبيض، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه.
(٦) خاصّ الخاصّ، م. م. ص: ٥٢.

وَسُئِلَ مُعَلِّمٌ ما السُّرورُ؟ فَقالَ: «كَثْرَةُ عَدَدِ الصِّبْيانِ وَكَثافَةُ حُروفِ الرُّغْفانِ»[1].

فَآمالُ هَذا المُعَلِّمِ انْحَصَرَتْ بِكَثْرَةِ عَدَدِ تَلاميذِهِ، لِأَنَّ ذَلِكَ سَيَجْلُبُ لَهُ الأَرْغِفَةَ اللَّذيذَةَ.

وَقَدِ انْتَزَعَ هَؤُلاءِ المُعَلِّمونَ، عادَةً، وَصْفَهُمُ الأَشْخاصَ، أَوِ الأَشْياءَ، أَوِ الأَحْداثَ، مِنْ عِلَّةِ مِهْنَتِهِمْ؛ وَأَكْثَرُ ما يَظْهَرُ هَذا في وَصْفِ مُؤَدِّبٍ[2] المَعْرَكَةَ التي شَهِدَها مَعَ المُعْتَصِمِ في بِلاد الرّومِ، فَبَعْدَما سَأَلَهُ الجاحِظُ عَنْ تِلْكَ المَعْرَكَةِ كَيْفَ كانَتْ، قالَ: «لَقيناهُمْ في مِقْدارِ صَحْنِ الكُتّابِ[3]، فَما كانَ بِقَدْرِ ما يَقْرَأُ الصَّبِيُّ إِمامَهُ[4] حَتّى أَلْجَأْناهُمْ إِلى أَضْيَقَ مِنْ رَقْمٍ فَقَتَلْناهُمْ، فَلَوْ سَقَطَتْ دَواةٌ ما وَقَعَتْ إِلّا في حِجْرِ صَبِيٍّ».

وَعَمِلَ أَبْياتاً في الغَزَلِ فَكانَتْ: [الخفيف]

قَدْ أَماتَ الهِجْرانُ صِبْيانَ قَلْبي ... فَفُؤادي مُعَذَّبٌ في خَبالِ
كَسَرَ البَيْنُ لَوْحَ كَبِدي فَما أَطْـ ... ـمَعُ مِمَّنْ هَوَيْتُهُ في وِصالِ
رَفَعَ الرَّقْمُ مِنْ حَياتي وَقَدْ أَطْـ ... ـلَقَ مَوْلايَ حَبْلَهُ من حِبالي
مَشَقَ[5] الحُبُّ في فُؤادي لَوْحَيْـ ... ـنِ فَأَغْرى جَوانِحي بِالسُّلالِ[6]

---

(١) خاصّ الخاصّ، م. م. ص: ٥١.

(٢) هو عبد الله بن عبد الصّمد بن أبي داود كما جاء في رسائل الجاحظ، م. م. ج١: ٣٨٧.

(٣) الصّحن: الساحة وسط الدار.

(٤) إمام الصّبي: ما يتعلّمه كل يوم.

(٥) المشق: سرعة الكتابة ومدّ الحروف في الكتابة.

(٦) السُّلال: السل.

لاقَ[1] قَلْبِي بِنانُهُ فَمِدادُ الـ ـعَيْنِ من هَجْرِ مالِكي في انْهِمالِ
كُرْسُفُ[2] البَيْنِ سَوَّدَ الوَجْهَ مِنْ وَصْـ ـلي فَقَلْبي بِالبَيْنِ في إشْعالِ»[3]

لَقَدِ اسْتَعارَ هَذا المُعَلِّمُ في وَصْفِ المَعْرَكَةِ وَفي القَصيدَةِ الغَزَلِيَّةِ أَيْضاً، أَدَواتِ مِهْنَتِهِ وَعِدَّتَها التي قِوامُها: الصِّبْيانُ، وَصَحْنُ الكُتّابِ، وَاللَّوْحُ، وَالمِدادُ وَالقُطْنُ، وَالأَحْرُفُ وَالأَرْقامُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمّا لَهُ صِلَةٌ بِتِلْكَ المِهْنَةِ.

وَحينَ أرادَ مُعَلِّمٌ أَنْ يَصِفَ إِنْساناً ثَقيلاً قالَ: «هُوَ أَثْقَلُ مِنْ يَوْمِ السَّبْتِ عَلى الصِّبْيانِ»[4].

وَلَعَلَّ ثِقَلَ ذَلِكَ اليَوْمِ مَرَدُّهُ إلى كَوْنِهِ اليَوْمَ الأَوَّلَ بَعْدَ عُطْلَةِ يَوْمِ الجُمُعَةِ، أَوْ أَنَّ يَوْمَ السَّبْتِ كانَ يَوْماً صَعْباً في الكُتّابِ أَثْقَلَ كاهِلَ الصِّبْيانِ بِكَثْرَةِ ما تَعَلَّموهُ وَحَفِظوهُ. وَلِهَذا شَبَّهَ المُعَلِّمُ بِهِ الإِنْسانَ الثَّقيلَ.

وَمِنَ المَعْلومِ أَنَّ القُرْآنَ الكَريمَ كانَ مادَّةً أَساسِيَّةً في الكُتّابِ. وَجاهَدَ المُعَلِّمونَ في تَعليمِهِ الصِّبْيانِ الَّذينَ وَجَبَ عَلَيْهِمْ حِفْظُهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، وَكانَ يَحْصُلُ هَذا بِشَكْلٍ تَدْريجِيٍّ وَبِإِشْرافِ المُعَلِّمِ. وَاسْتَأْثَرَ هَذا الأَمْرُ بِاهْتِمامِ المُعَلِّمينَ حَتّى ظَهَرَ في أَحاديثِهِمْ وَكَلامِهِمْ. مِنْ ذَلِكَ أَنَّ مُعَلِّماً عَلِمَ «أَنَّ عَلِيَّ بْنَ عيسى[5] قَدْ وُلِّيَ الدِّيوانَ بَعْدَ الوِزارَةِ، فَقالَ: قَدْ

---

(١) لاق: أصله من لاق الدواة، أي أصلح مدادها.

(٢) الكرسف: القطن، وكانون يجعلونه هو أو الصّوف في الدواة.

(٣) **رسائل الجاحظ**، م. م. ج١: ٣٨٧، ٣٨٨.

(٤) **خاصّ الخاصّ**، م. م. ص: ٥١.

(٥) علي بن عيسى بن داود بن الجراح، أبو الحسن: وزر للمقتدر والقاهر. ترأس الدواوين. كان يجلس للمظالم وينصف الناس، وكان شيخ الكُتّاب. عزله حامد بن العبّاس. توفّي عام ٣٣٤هـ (الصفدي، خليل بن أيبك: **الوافي بالوفيات**، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربيّ، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ج٢١: ٢٤٥).

تَرى أَنَّهُ رُدَّ مِنْ طَهَ إِلى بِسْمِ اللهِ»[١]. يَقْصُدُ بِذَلِكَ أَنَّهُ رَجَعَ أَشْواطاً كَبيرَةً إِلى الوَراءِ تَماماً كَالصَّبِيِّ الذي وَصَلَ إِلى سورَةِ طَهَ ثُمَّ نَسِيَ ما حَفِظَ، فَعادَ أَدْراجَهُ إِلى أَوَّلِ آيَةٍ في كِتابِ اللهِ.

وَلَمّا عَلِمَ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ عيسى هَذا صُرِفَ عَنِ الوِزارَةِ وَاسْتُبْدِلَ بِهِ حامِدُ بْنُ العَبّاسِ[٢]، قالَ: «قَدْ رَفَعوا مُصْحَفاً وَوَضَعوا طُنْبوراً»[٣]. فَقَدْ عَقَدَ مُقارَنَةً بَيْنَ عَلِيِّ بْنِ عيسى ذي الشَّأْنِ الكَبيرِ وَبَيْنِ حامِدِ بْنِ العَبّاسِ الذي لَمْ يَكُنْ أَهْلاً لِلْوِزارَةِ، مُعْتَمِداً في تِلْكَ المُقارَنَةِ عَلى تِبْيانِ الفَرْقِ بَيْنَ مَكانَةِ القُرْآنِ الكَريمِ - المادَّةِ الأَساسِيَّةِ في الكُتّابِ - وَبَيْنَ الطُّنْبورِ الذي كانَ بِمُتَناوَلِ أَهْلِ الغِناءِ وَالفُجورِ آنَذاكَ.

وَرُبَّما أَمَدَّتْ آياتُ القُرْآنِ وَسُوَرُهُ، المُعَلِّمينَ في مَدْحِهِمْ أَوْ هِجائِهِمِ الآخَرينَ، بِما توحيهِ تِلْكَ الآياتُ وَالسُّوَرُ، كَأَنْ يَهْجو مُعَلِّمٌ قَوْماً وُصِفوا بِالبُخْلِ، قائِلاً: [السريع]

«قَدْ حَفِظوا القُرْآنَ وَاسْتَظْهَروا ... ما فيهِ إِلّا سورَةَ المائِدَةِ»[٤]

فَسورَةُ المائِدَةِ هُنا كِنايَةٌ عَنِ الكَرَمِ وَالجودِ وَبَسْطِ الطَّعامِ، وَهَؤُلاءِ القَوْمُ أَغْفَلوا حِفْظَها لِبُخْلِهِمْ وَشُحِّهِمْ.

---

(١) خاصّ الخاصّ، م. م. ص: ٥١.

(٢) حامد بن العبّاس، أبو محمّد (ت ٣١١هـ/ ٩٢٣م): من عمّال العباسيين، كان يلي نظر فارس وأضيفت إليها البصرة. ثم طلب إلى بغداد وولي الوزارة للمقتدر سنة ٣٠٦ هـ، وانتهى أمره بأن عزله المقتدر سنة ٣١١ هـ، وقبض عليه وأرسل إلى واسط فمات فيها مسموماً.

(٣) خاصّ الخاصّ، م. م. ص: ٥١.

(٤) المرجع السابق، ص: ٥١.

وَاسْتَعانوا بِتِلْكَ الآياتِ أَيْضاً في وَصْفِ ما وَقَعَتْ عَلَيْهِ أَنْظارُهُمْ، وَرُبَّما جاءَ ذَلِكَ عَلى سَبيلِ التَّنَدُّرِ وَالمُزاحِ، كَوَصْفِ مُعَلِّمٍ جُبَّةً بِقَوْلِهِ:

«دَبَّ فيها البِلى فَدَقَّتْ وَرَقَّتْ وَهِيَ تَقْرَأُ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾[1]»[2].

كذَلِكَ اقْتَحَمَتِ المُفْرَداتُ القُرْآنِيَّةُ لُغَةَ المُعَلِّمينَ المَكْتوبَةَ، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ في رِسالَةٍ كَتَبَها مُعَلِّمٌ إِلى صَديقٍ لَهُ، وَمِمّا جاءَ فيها: «﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾[3] إِنَّ شَوْقي إِلَيْكَ فَوْقَ الصّافاتِ. وَالحَواميم[4] إِنّي مِنْ فِراقِكَ في ﴿ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ﴾[5]»[6].

نَخْلُصُ مِمّا تَقَدَّمَ إِلى أَنَّ لُغَةَ مُعْظَمِ مُعَلِّمي الطَّبَقَةِ الثّالِثَةِ ظَلَّتْ سَجينَةَ البيئَةِ الضَّيِّقَةِ التي كانوا يَتَحَرَّكونَ فيها وَانْطَبَعَتْ بِطابِعِها. فَهَؤُلاءِ المُعَلِّمونَ قَضَوْا مُعْظَمَ أَوْقاتِهِمْ مَعَ الصِّبْيانِ يُدَرِّسونَهُمُ المَبادِئَ الأَوَّلِيَّةَ لِلْقِراءَةِ وَالكِتابَةِ وَالحِسابِ، وَقَنَعوا بِحَظٍّ قَليلٍ مِنَ العِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ، وَرَضَوْا بِبيئَةٍ اجْتِماعِيَّةٍ مُقْتَصَرَةٍ عَلى الصِّبْيانِ وَالأَوْلادِ كَرَّسَتْ ضيقَ أُفُقِهِمْ وَمَدارِكِهِمْ، وَساعَدَ عَلى ذَلِكَ تَرَدّي أَوْضاعِهِمِ الاقْتِصادِيَّةِ التي دَفَعَتْهُمْ بِاسْتِمْرارٍ إِلى اسْتِقْطابِ عَدَدٍ كَبيرٍ مِنَ التَّلاميذِ.

وَمِنْ أَصْحابِ المِهَنِ الَّذينَ أَثَّرَتْ مِهْنَتُهُمْ في لُغَتِهِم: المَلّاحونَ.

---

(١) سورة الانشقاق: ١.

(٢) خاصّ الخاصّ، م. م. ص: ٥١.

(٣) سورة الصّافات: ١.

(٤) الحواميم، جمع حم: ما استفتح به السور التالية: غافر، فصّلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف.

(٥) سورة الصّافات: ٣٨.

(٦) خاصّ الخاصّ، م. م. ص: ٥١.

فَمَعَ ازْدِهارِ التِّجارَةِ في العَصْرِ العَبّاسِيِّ، نَشِطَتِ الـمِلاحَةُ، فَكانَتِ السُّفُنُ تَجوبُ البِحارَ لِجَلْبِ ما اسْتَأْثَرَ بِاهْتِمامِ أَهْلِ الخاصَّةِ وَأَهْلِ الغِنى وَاليَسارِ. كَما كانَ الخُلَفاءُ وَعِلِيَّةُ القَوْمِ يَقومونَ بِالنُّزُهاتِ عَلى ظُهورِ الحَرّاقاتِ وَالسُّفُنِ. وَمِثْلَما ظَهَرَ اللَّحْنُ في مُعْظَمِ الأَلْسُنِ يَوْمَذاكَ، فَإِنَّهُ انْتَشَرَ أَيْضاً في لُغَةِ الـمَلّاحينَ اليَوْمِيَّةِ وَفي أَشْعارِهِمْ وَأَغانيهِمْ[1]. وإلى جانِبِ اللَّحْنِ، يَغْلُبُ الظَّنُّ أَنَّ أَغانِيَهُمُ اتَّصَفَتْ بِرَكاكَةِ الأَلْفاظِ وَابْتِذالِ الـمَعاني، وَيَبْدو لَنا ذَلِكَ في رِوايَةٍ جاءَ فيها أَنَّ هارونَ الرَّشيدَ دَعا بِمِسْكينِ بْنِ صَدَقَةَ[2]، فَلَمّا حَضَرَ وَانْتَهى إِلَيْهِ الدَّوْرُ في الغِناءِ، غَنّى «غِناءَ الـمَلّاحينَ وَالبَنّائينَ وَالسَّقّائينَ وَما جَرى مَجْراهُ مِنَ الغِناءِ، فَقالَ لَهُ الرَّشيدُ: أَيْشٍ هذا الغِناءُ وَيْلَكَ!»[3].

وَكانَ الـمَلّاحُ يَقْضي أَوْقاتاً طَويلَةً عَلى ظَهْرِ السَّفينَةِ، يَهْتَمُّ بِها وَيَتَفَقَّدُ أَجْزاءَها، وَيَصُبُّ جَهْدَهُ لِإيصالِها وَمَنْ عَلَيْها إِلى بَرِّ الأَمانِ، حَتّى غَدَتْ عالَمَهُ الخاصَّ؛ فَلا غَرابَةَ، إِذاً، أَنْ تَنْطَلِقَ مُفْرَداتُ الـمَلّاحينَ وَتَعابيرُهُمْ مِنْ مُحيطِهِمِ البَحْرِيِّ وَتُحاصِرَ اهْتِماماتِهِمْ وَآمالَهُمْ، فَلا تَتَعَدّى عِنْدَ بَعْضِهِمْ «شُرْبَةً مِنْ ماءِ القِنْطاسِ[4]، وَالنَّوْمَ في ظِلِّ الشِّراعِ، وَريحاً دَنْبَداد[5]»[6].

---

(1) ينظر: **الأغاني**، م. م. ج٤: ١٠٢.

(2) مسكين بن صدقة من أهل المدينة، مولى لقريش. وكان مليح الغناء، طيّب الصوت، كثير الرواية، صالح الصنعة؛ من أكثر الناس نادرة، وأخفّهم روحاً، وأشدّهم طمعاً، وألحهم في مسألة... وأبو صدقة من المغنين الذين أقدمهم هارون الرشيد من الحجاز في أيّامه. راجع: **الأغاني**، م. م. ج١٩: ٢٩٨).

(3) **الأغاني**، م. م. ج١٩: ٢٩٨.

(4) القنطاس: حوض السَّفينَة الذي يجتمع فيه نُشافة الماء.

(5) دنبداد كلمة فارسيّة، معناها الريح التي تهب من الخلف، وهي مركبة من «دنبة» بمعنى الذيل، وداد بمعنى المعطي. (هامش البيان والتبيين، ج٢: ١٧٥).

(6) **البيان والتبيين**، م. م. ج٢: ١٧٥.

فَعَنْ صِلَةِ أَلْفاظِهِمْ بِمُحيطِهِمْ وَبِطَبيعَةِ مِهْنَتِهِمْ، حَدَّثَنا الجاحِظُ فَقالَ: «... أَرَدْتُ الصُّعودَ مَرَّةً في بَعْضِ القَناطِرِ، وَشَيْخٌ مَلّاحٌ جالِسٌ، وَكانَ يَوْمُ مَطَرٍ وَزَلَقٍ، فَزَلِقَ حِماري فَكادَ يَلْقيني لِجَنْبي، لَكِنَّهُ تَماسَكَ، فَأَقْعى عَلى عَجُزِهِ. فَقالَ الشَّيْخُ المَلّاحُ: لا إِلَهَ إِلّا اللهُ، ما أَحْسَنَ ما جَلَسَ عَلى كَوْثَلِهِ»[1].

فَالكَوْثَلُ مُؤَخَّرُ السَّفينَةِ، وَاسْتَعانَ بِهِ المَلّاحُ عَلى وَصْفِ عَجُزِ الحِمارِ. وَلَمْ تَقْتَصِرِ اسْتِعانَةُ المَلّاحينَ بِمُفْرَداتِ السَّفينَةِ، أَوْ بِكُلِّ ما لَهُ صِلَةٌ بِمِهْنَتِهِمْ عَلى وَصْفِ الحَيَواناتِ فَحَسْبُ، بَلْ وَصَفُوا بِها الأَشْخاصَ أَيْضاً. مِنْ ذَلِكَ أَنَّ مَلّاحاً وَصَفَ لِصّاً دَخَلَ سَفينَتَهُ، فَقالَ:

«كانَ في طولِ هَذا المُرْدِيِّ، وَكانَ فَخِذُهُ أَغْلَظَ مِنَ السُّكّانِ، وَاسْوَدَّ صاحِبُ السَّفينَةِ حَتّى صارَ أَشَدَّ سَواداً مِنْ هَذا القيرِ»[2].

فَفي هَذا الوَصْفِ اسْتَعارَ المَلّاحُ صُوَراً حِسِّيَّةً لَها صِلَةٌ مُباشِرَةٌ بِالسَّفينَةِ: فَالمُرْدِيُّ ـ بِضَمِّ الميمِ وَتَشْديدِ الياءِ ـ خَشَبَةٌ يَدْفَعُ بِها المَلّاحُ السَّفينَةَ، وَهِيَ المِجْدافُ، أَمّا السُّكّانُ فَهُوَ ذَنَبُ السَّفينَةِ، وَالقيرُ شَيْءٌ أَسْوَدُ تُطْلى بِهِ السُّفُنُ وَالإِبِلُ. وَقَريبٌ مِنْ هَذا الوَصْفِ ما قالَهُ مَلّاحٌ آخَرُ في لِصٍّ دَخَلَ سَفينَتَهُ: «كانَ طَويلاً مِثْلَ الدَّقَلِ، أَسْوَدَ مِثْلَ قيرِ السَّفينَةِ، فَخِذُهُ مِثْلُ السُّكّانِ»[3]. فَالدَّقَلُ خَشَبَةٌ طَويلَةٌ تُشَدُّ في وَسَطِ السَّفينَةِ.

وَمِثْلَما وَصَفُوا الأَشْخاصَ وَالحَيَواناتِ، وَصَفُوا ما حَوْلَهُمْ بِلِسانِ مِهْنَتِهِمْ، وَعَنْ ذَلِكَ رَوى الجاحِظُ: «... قُلْتُ لِمَلّاحٍ لي، وَذَلِكَ بَعْدَ

---

(١) البيان والتبيين، م. م. ج٢: ١٧٦.

(٢) المرجع السابق، ج٢: ١٧٦.

(٣) البصائر والذخائر، م. م. ج٢: ٣٣.

العَصْرِ في رَمَضانَ: انْظُرْ كَمْ بَيْنَ عَيْنِ الشَّمْسِ وَبَيْنَ مَوْضِعِ غُروبِها مِنَ الأَرْضِ؟ قالَ: أَكْثَرُ مِنْ مُرْدِيَّيْنِ وَنِصْفٍ»[١].

فَلُغَةُ المَلّاحينَ شاهِدٌ عَلى أَنَّ اللُّغَةَ تَتَأَثَّرُ بِطَبيعَةِ المِهْنَةِ التّي يُمارِسُها الفَرْدُ، وَرُبَّما أَصْبَحَتْ أَسيرَةَ تِلْكَ المِهْنَةِ التي تَرْفِدُها بِصُوَرِها وَآلاتِها، وَبِكُلِّ ما لَهُ صِلَةٌ بِها. وَالجاحِظُ لَمَسَ هَذا التَّأْثيرَ المِهْنِيَّ في اللُّغَةِ وَعَدَّهُ نَقْصاً يُمْكِنُ جَبْرُهُ بِتَعَلُّمِ فُنونِ الآدابِ، بِدَليلِ أَنَّهُ وَجَّهَ رِسالَةً إِلى المُعْتَصِمِ نَصَحَهُ فيها أَنْ يُعَلِّمَ أَوْلادَهُ «مِنْ كُلِّ الأَدَبِ» كَي لا يَقَعوا أَسْرى آحادِيَّةِ الثَّقافَةِ التي تَفْضَحُها اللُّغَةُ.

وَما ذَكَرَهُ الجاحِظُ في تِلْكَ الرِّسالَةِ، وَاقِعاً كانَ أَوْ مِنْ وَحْيِ خَيالِهِ، يُؤَكِّدُ تَأْثيرَ المِهْنَةِ في لُغَةِ الفَرْدِ؛ وَقَدْ جاءَ فيها أَنَّ الجاحِظَ لَقِيَ حِزاماً[٢] حينَ قَدِمَ المُعْتَصِمُ مِنْ بِلادِ الرُّومِ، فَسَأَلَهُ عَنِ الحَرْبِ كَيْفَ كانَتْ هُناكَ؟ فَقالَ: «لَقيناهُمْ في مِقْدارِ صَحْنِ الإِصْطَبْلِ، فَما كانَ بِقَدْرِ ما يَحُسُّ الرَّجُلُ دابَّتَهُ[٣] حَتّى تَرَكْناهُمْ في أَضْيَقَ مِنْ مِمْرَغَةٍ[٤] وَقَتَلْناهُمْ، فَجَعَلْناهُمْ كَأَنَّهُمْ أَنابيرَ سِرْجينٍ[٥]، فَلَوْ طُرِحَتْ رَوْثَةٌ ما سَقَطَتْ إِلّا عَلى ذَنَبِ دابَّةٍ».

وَعَمِلَ أَبْياتاً في الغَزَلِ فَكانَتْ: [البسيط]

إِنْ يَهْدِمِ الصَّدُّ مِنْ جِسْمي مَعالِفَهُ   فَإِنَّ قَلْبي بِقَتِّ[٦] الوَجْدِ مَعْمورُ

---

(١) البيان والتبيين، م. م . ج٢: ١٧٦.
(٢) كان صاحب خيل المعتصم.
(٣) يحسّ الرجل دابّته: ينفض ترابها.
(٤) ممرغة: المكان الذي تتقلب فيه الدواب في التراب.
(٥) أنابير: أكداس. سرجين: الزبل. فارسيّ معرّب. ينظر: الألفاظ الفارسيّة المعرّبة، م. م. ص: ٨٩.
(٦) القتّ: الفصفصة، وهي علف الدواب.

إنّي امْرُؤٌ في وَثاقِ الحُبِّ يَكْبَحُهُ لِجامُ هَجْرٍ عَلى الأسْقامِ مَعْذورُ[1]
عَلَّلْ بِجِلٍّ[2] نَبيلٍ مِنْ وُصالِكَ أوْ حُسْنِ الرُّقادِ فَإنَّ النَّوْمَ مَأْسورُ[3]
أَصابَ حَبْلَ شِكالِ[4] الوَصْلِ حينَ بَدا وَمِبْضَعُ الصَّدِّ في كَفَّيْهِ مَشْهورُ
لَبِسْتُ بُرْقُعَ[5] هَجْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ في إصْطَبْلِ وُدٍّ فَرَوْثُ الحُبِّ مَنْثورُ»[6]

في النَّصِّ المُتَقَدِّمِ، تَحَوَّلَتْ ساحَةُ المَعْرَكَةِ إلى إصْطَبْلِ خَيْلٍ للدَّلالَةِ عَلى ضيقِ المَكانِ الذي الْتَحَمَ فيهِ الجَيْشانُ.

وَاسْتَمَدَّ حِزامٌ صُوَرَ تِلْكَ المَعْرَكَةِ مِنْ عالَمِهِ، فَكانَتْ عُدَّتُهُ في الوَصْفِ: الإصْطَبْلَ، وَحَسَّ الدّابَّةِ، وَمَمْرَغَةً، وَأنابيرَ سِرْجينٍ، وَرَوْثَةً.

أَمّا قَصيدَتُهُ الغَزَلِيَّةُ، فَقَدِ اتَّصَفَتْ بِابْتِذالِ صُوَرِها وَاتِّضاعِ مَعانيها، وَعَلَمِ مُناسَبَتِها لِمَوْضوعِها وَهُوَ الحُبُّ، وَلَكِنَّها أَتَتْ مُنْسَجِمَةً مَعَ عَمَلِ صاحِبِها وَأُفُقِهِ المَعْرِفِيِّ.

وَفي تِلْكَ الرِّسالَةِ[7]، نَجِدُ أَنَّ أَبا عُثْمانَ لَقِيَ جَعْفَراً الخَيّاطَ وَسَأَلَهُ عَنْ تِلْكَ المَعْرَكَةِ، فَقالَ:

«لَقَيْناهُمْ في مِقْدارِ سوقِ الخُلْقانِ[8]، فَما كانَ بِقَدْرِ ما يَخيطُ

(١) عذر الدابة عذراً: شدّ عليها العذار، وهو السير الذي يكون عليه اللجام.
(٢) الجلّ: ما تلبسه الدابّة.
(٣) المأسور: المشدود بالأسار، وهو الحبل.
(٤) الشكال: ما تُشدّ به قوائم الدابّة.
(٥) برقع: البُرْقُعُ والبُرْقَعُ والبُرْقُوعُ: هو للدوابّ ونساء الأعراب، وفيه خرْقان للعينين.
(٦) رسائل الجاحظ، م. م. ج١: ٣٨١، ٣٨٢.
(٧) أسقطنا ما قاله بختيشوع الطّبيب، لأن مهنة الطّب كانت أرفع شأناً من هذه المهن الواردة في هذا الفصل (راجع لغة الأطباء في هذا الكتاب، ص: ١٦١ ـ ١٦٩).
(٨) سوق الخلقان: سوق الثياب البالية.

الرَّجُلُ دَرْزاً[1] حَتّى قَتَلْناهُمْ وَتَرَكْناهُمْ في أَضْيَقَ مِنْ جِرِبّانٍ[2]، فَلَوْ طُرِحَتْ إِبْرَةٌ ما سَقَطَتْ إِلّا عَلى رَأْسِ رَجُلٍ»[3].

وَقيلَ أَنَّ جَعْفَراً هَذا سُئِلَ عَنْ تِلْكَ المَعْرَكَةِ فَقالَ:

«لَقَيْناهُمْ في مِقْدارِ سوقِ الخُلْقانِ، فَصَيَّرونا في مِثْلِ قُوارَةٍ، فَرُحْنا عَلَيْهِمْ مِنْ وَجْهَيْنِ كَأَنّا مِقْراضٌ، وَاصْطَفَّتِ الصُّفوفُ كَأَنَّها دُروزٌ، وَتَشابَكَتِ الرِّماحُ كَأَنَّها خُيوطٌ، فَلَوْ طُرِحَتْ إِبْرَةٌ لَمْ تَقَعْ إِلّا عَلى زِرِّ رَجُلٍ»[4].

وَقَدْ عَمِلَ هذا الخَيّاطُ أَبْياتاً في الغَزَلِ فَكانَتْ: [السريع]

«فَتَقْتَ بِالهَجْرِ دُروزَ الهَوى ... إِذْ وَخَزَتْني إِبْرَةُ الصَّدِّ
فَالقَلْبُ مِنْ ضيقِ سَراويلِهِ ... يَعْثُرُ في بايْكَةِ الجُهْدِ
جَشَّمْتَني يا طَيْلَسانَ[5] النَّوى ... مِنْكَ عَلى شَوزكتي وَجْدي
أَزْرارُ عَيْني فيكَ مَوْصولَةٌ ... بِعُرْوَةِ الدَّمْعِ عَلى خَدّي
يا كُسْتُبانَ القَلْبِ يا زيقَهُ[6] ... عَلَّبَني التَّذْكارُ بِالوَعْدِ
قَدْ قَصَّ ما يَعْهَدُ مَنْ وَصْلِهِ ... مِقْراضُ بَيْنٍ مُرْهَفِ الحَدِّ
يا حُجْزَةَ[7] النَّفْسِ وَيا ذَيْلَها ... ما لي مِنْ وَصْلِكَ مِنْ بُدِّ

---

(١) الدرز: موضع الخياطة. أعجميّ معرّب؛ ينظر: **الألفاظ الفارسيّة المعرّبة**، م. م. ص: ٦٢.

(٢) جربان القميص: جيبه. أعجميّ معرّب؛ ينظر: **المعرّب من الكلام الأعجميّ**، م. م. ص: ٩٩.

(٣) **رسائل الجاحظ**، م. م. ج١: ٢٨٤.

(٤) **خاصّ الخاصّ**، م. م. ص: ٨٢، ٨٣.

(٥) طيلسان: ضرب من الأكيسة. فارسي معرّب؛ ينظر: **المعرّب من الكلام الأعجميّ**، م. م. ص: ٢٧٧.

(٦) زيق القميص: ما أحاط بالعنق. والزيق أيضاً ما كف من الجيب.

(٧) حجزة: موضع رباط السروال.

وَيـــا جِـــرِبّـــانَ سُـــروري وَيـــا جَيْبَ حَياتي حُلْتَ عَنْ عَهْدي»[1]

إنَّ لِمَهْنَةِ الخِياطَةِ حُضوراً واضِحاً وَقَوِيّاً في وَصْفِ جَعْفَرِ الخَيّاطِ المَعْرَكَةَ في كِلا النَّصَّيْنِ عَلى اخْتِلافِهِما، وَكذَلِكَ في القَصيدَةِ الغَزَلِيَّةِ. فَالمِهْنَةُ بِكُلِّ مُفْرَداتِها وَعُدَّتِها وحتّى مَكانِها (سوقِ الخُلْقانِ)، أكَّدَتْ نَفْسَها عَلى لِسانِ صاحِبِها، فَجَرَتْ عَلَيْهِ أَلْفاظٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِها وَهِيَ: سوقُ الخُلْقان، مِقْراضٌ، دُروزٌ، خُيوطٌ، إِبْرَةٌ، جِرِبّانٌ، كُسْتُبانٌ، أَزْرارٌ، سَراويلُ، طَيْلَسانٌ، عُرْوَةٌ، زيقٌ، حُجْزَةٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ. وكذَلِكَ ظَهَرَ اسْتِخْدامُ أَفْعالِ الخِياطَةِ كَمِثْلِ: يَخيطُ، فَتَقْتَ، قَصَّ.

وَهَذا يَعْني أَنَّ اخْتِلافَ مَوْضوعاتِ الخِطاباتِ وَالنُّصوصِ، وَاخْتِلافَ مُناسباتِها، لَمْ تُزَحْزِحِ التَّرابُطَ العَميقَ القائِمَ بَيْنَ المِهْنَةِ وَالمَوْقِعِ الاجْتِماعِيِّ مِنْ جِهَةٍ، وَالتَّجَلِّياتِ اللُّغَوِيَّةِ وَالثَّقافِيَّةِ الخاصَّةِ لِكُلِّ مِهْنَةٍ وَحِرْفَةٍ مِنْ جِهَةٍ أُخْرى.

فَالاسْتِخْدامُ اللُّغَوِيُّ واحِدٌ سَواءٌ في وَصْفِ المَعْرَكَةِ أَوْ في القَصيدَةِ الغَزَلِيَّةِ، أَوْ سَواءٌ في تَقْديمِ نَصيحَةٍ مِنْ أَبٍ خَيّاطٍ لابْنِهِ في أَنْ يَلْتَفِتَ إِلى نَفْسِهِ وَيَعْتَنِيَ بِها قائِلاً لَهُ: «يا بُنَيَّ لا تَكُنْ كَالإِبْرَةِ تَكْسو النّاسَ وَأَنْتَ عُرْيانٌ»[2]. أَوْ في وَصْفِ خَيّاطِ البَلاغَةَ قائِلاً: «البَلاغَةُ قَميصٌ، فَجِرِبّانُهُ البَيانُ، وَجَيْبُهُ المَعْرِفَةُ، وَكُمّاهُ الوَجازَةُ، وَدَخاريصُهُ[3] الإِفْهامُ، وَدُروزُهُ الحَلاوَةُ، وَلابِسُهُ جَسَدُ اللَّفْظِ، وَروحُهُ المَعْنى»[4].

---

(١) رسائل الجاحظ، م. م. ج١: ٣٨٤، ٣٨٥.
(٢) خاصّ الخاصّ، م. م. ص: ٨٣.
(٣) دخاريص، جمع دخرص ودخرصة، أصله فارسيّ، وهو عند العرب «البنيقة واللبنة» وهي الرقعة تزاد في ثوب أو دلو ليتسع؛ ينظر: المعرّب من الكلام الأعجميّ، م. م. ص: ١٤٣؛ لسان العرب (مادة بنق)، ج١: ٥٠٢.
(٤) جمع الجواهر، م. م. ص: ١٤٩.

وَبِالعَوْدَةِ إلى رِسالَةِ الجاحِظِ، نَجِدُ أَنَّ أَبا عُثْمانَ سَأَلَ إِسْحاقَ بْنَ إِبْراهِيمَ ـ وَكانَ زَرّاعاً ـ فَقالَ: «لَقَيْناهُمْ في مِقْدارِ جَرِيبَيْنِ»[1] مِنَ الأَرْضِ، فَما كانَ بِقَدْرِ ما يَسْقي الرَّجُلُ مَشارَةً[2] حَتّى قَتَلْناهُمْ، فَتَرَكْناهُمْ في أَضْيَقَ مِنْ بابٍ، وَكَأَنَّهُمْ أَنابيرَ سُنْبُلٍ، فَلَوْ طُرِحَ فَدّانٌ[3] ما سَقَطَ إِلّا عَلى ظَهْرِ رَجُلٍ.

وَعَمِلَ أَبْياتاً في الغَزَلِ فَكانَتْ: [الطّويل]

زَرَعْتُ هَواهُ في كِرابٍ[4] مِنَ الصَّفا
وَأَسْقَيْتُهُ ماءَ الدَّوامِ عَلى العَهْدِ
وَسَرْجَنْتُهُ بِالوَصْلِ لَمْ آلُ جاهِداً
لِيَحْرِزَهُ السَّرْجِينُ مِنْ آفَةِ الصَّدِّ
فَلَمّا تَعالى النَّبْتُ وَاخْضَرَّ يانِعاً
جَرى يَرَقانٌ[5] البَيْنِ في سُنْبُلِ الوِدِّ»[6]

المُتَأَمِّلُ في ما قالَهُ الزَّرّاعُ، يَجِدُ وُجوهَ الاسْتِعاراتِ ضَيِّقَةً وَمَحْدودَةً بِحُدودِ أُفُقِ قائِلِها، فَقَدْ جاءَتْ مَغْلولَةً بِأَغْلالِ الأَرْضِ الزِّراعِيَّةِ وَمُسْتَتْبِعاتِها: «جَرِيبَيْنِ، مَشارَةً، السَّرْجين، أَنابيرَ سُنْبُلٍ، فَدّانٌ، كِرابٍ، يَرَقانٌ، النَّبْتُ». وَلَمْ تَنْفَتِحْ تِلْكَ الاسْتِعاراتُ في مَراميها عَلى آفاقٍ رَحْبَةٍ،

---

(١) الجريب من الأرض: مقدار معلوم الذراع والمساحة؛ وقيل قدر ما يزرع فيه من الأرض؛ وقيل أيضاً: المزرعة.

(٢) مشارة: البقعة من الأرض التي تزرع.

(٣) فدّان: الآلة التي يحرث بها، والأداة التي تجمع أداة الثورين في القران للحرث.

(٤) كراب: أرض محروثة معدّة للزرع.

(٥) يرقان: دود يكون في الأرض ثم ينسلخ فيصير فراشاً.

(٦) رسائل الجاحظ، م. م. ج١: ٣٨٥، ٣٨٦.

وَلا سِيَّما في الأَبْياتِ الشِّعْرِيَّةِ، وَهَذا عَلى عَكْسِ القَصيدَةِ الغَزَلِيَّةِ للشّاعِرِ عَبْدِ اللهِ بْنِ العَبّاسِ بْنِ الفَضْلِ بْنِ الرَّبيعِ[1]، التي اسْتَلْهَمَ فيها مِنَ الزِّراعَةِ مَداميكَ أَلْفاظِها وَمَعانيها حَتّى كَأَنَّهُ مارَسَها فِعْلاً، فَبَرَعَ في وَصْفِ حَقائِقِها وَنَعْتِ طَرائِقِها مِنْ غَيْرِ مَساسٍ بِجَمالِ الصُّوَرِ وَالتَّشابيهِ، وَقالَ فيها: [الطَّويل]

«غَرَسْتُ الهَوى حَتّى إذا أَوْرَقَ الهَوى ... فَأَيْنَعَ في أَغْصانِهِ ثَمَرُ الوَصْلِ
وَحَفَّتْ بِهِ أَنْهارُهُ في غِياضِهِ ... فَأَصْبَحَ مُلْتَفُّ الحَدائِقِ بِالحَمْلِ
وَلَمْ يَبْقَ إِلّا المُجْتَنى مِنْ ثِمارِهِ ... سُرورِ التَّصافي وَالمَوَدَّةِ وَالبَذْلِ
أَطافَ بِنا ريحُ الوُشاةِ فَهَيَّجَتْ ... سَحابَةَ هِجْرانٍ تَكُفُّ عَلى رُسْلِ
فَمالَتْ عَزاليها[2] عَلَيْهِ فَأَحْرَقَتْ ... غُصونَ الهَوى وَالوُدُّ مِنّا بِلا دَخْلِ
وَدَبَّتْ سُيولُ الهَجْرِ حَوْلَ أُصولِهِ ... فَأَغْصانِهِ فَاسْتَقْلَعَتْهُ مِنَ الأَصْلِ»[3]

وَذَكَرَ أَبو عُثْمانَ في رِسالَتِهِ أَنَّهُ لَقِيَ فَرَجاً الرُّخَجِيَّ[4] - وَكانَ خَبّازاً - وَسَأَلَهُ عَنْ تِلْكَ المَعْرَكَةِ، فَقالَ: «لَقَيْناهُمْ في مِقْدارِ بَيْتِ التَّنّورِ، فَما كانَ بِقَدْرِ ما يَخْبِزُ الرَّجُلُ خَمْسَةَ أَرْغِفَةٍ حَتّى تَرَكْناهُمْ في أَضْيَقَ مِنْ حَجَرِ تَنّورٍ، فَلَوْ سَقَطَتْ جَمْرَةٌ ما وَقَعَتْ إِلّا في جَفْنَةِ[5] خَبّازٍ.

---

(١) عبد الله بن العبّاس بن الفضل بن الربيع، أبو العبّاس: شاعر عاصر سبعة من خلفاء بني العبّاس وكان مقرّباً منهم. كان شاعراً مطبوعاً ومغنّياً محسناً جيّد الصنعة نادرها، حسن الرواية، حلو الشعر ظريفه، ليس من الشعر الجيّد الجزل ولا من المرذُول ولكنه شعر مطبوع ظريف مليح المذهب من أشعار المترفين وأولاد النعم. (راجع: الأغاني، م. م. ج١٩: ٢١٩).

(٢) عزلاء: مصب الماء من الرواية ونحوها، وجمعها عزالي.

(٣) جمع الجواهر، م. م. ص: ١٤٢.

(٤) نسبة إلى رُخّج، وهي قرية على فرسخ من بغداد وراء باب الأزج. (راجع: معجم البلدان، م. م. ج٣: ٣٨).

(٥) جفنة: أعظم ما يكون من القصاع.

وَعَمِلَ أَبْياتاً في الغَزَلِ فَكانَتْ: [السّريع]

قَدْ عَجَنَ الهَجْرُ دَقيقَ الهَوى   في جَفْنَةٍ مِنْ خَشَبِ الصَّدِّ
وَاخْتَمَرَ البَيْنُ فَنارُ الهَوى   تُذْكى بِسِرْجينٍ مِنَ البُعْدِ
وَأَقْبَلَ الهَجْرُ بِمِخْراكِهِ[1]   يَفْحَصُ عَنْ أَرْغِفَةِ الوَجْدِ
جُرَادِقُ[2] المَوْعِدُ مَسْمومَةٌ   مَشْرودَةٌ في قَصْعَةِ الجَهْدِ[3]

كَلامُ هَذا الخَبّازِ لا يَخْتَلِفُ عَمّا قالَهُ الَّذينَ ذَكَرَهُمُ الجاحِظُ في تِلْكَ الرِّسالَةِ مِنْ ناحِيَةِ تَأْثيرِ واقِعِهِ الاجْتِماعِيِّ وَالمِهْنِيِّ في لُغَتِهِ، وَظَهَرَ ذَلِكَ جَلِيّاً في اسْتِخْدامِ مُفْرَداتٍ ذاتِ صِلَةٍ بِمِهْنَتِهِ وهِيَ: بَيْتُ التَّنّورِ، يَخْبِزُ، أَرْغِفَةٌ، حَجَرُ تَنّورٍ، جَمْرَةٌ، جَفْنَةُ خَبّازٍ، عَجَنَ، دَقيقٌ، خَشَبٌ، اخْتَمَرَ، نارٌ، مِخْراكٌ، جُرادِقُ.

وكَذَلِكَ وَصَفَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ المُؤَدِّبُ المَعْرَكَةَ، وَعَمِلَ أَبْياتاً في الغَزَلِ مُتَأَثِّراً بِمِهْنَتِهِ[4].

ثُمَّ سَأَلَ الجاحِظُ عَلِيَّ بْنَ الجَهْمِ بْنِ يَزيدَ - وَكانَ صاحِبَ حَمّامٍ - عن ذَلِكَ فَقالَ: «لَقَيْناهُمْ في مِثْلِ بَيْتِ الأَنْبارِ[5]، فَما كانَ إِلّا بِقَدْرِ ما يَغْسِلُ الرَّجُلُ رَأْسَهُ حَتّى تَرَكْناهُمْ في أَضْيَقَ مِنْ بابِ الأَتونِ، فَلَوْ طُرِحَتْ لِيفَةٌ ما وَقَعَتْ إِلّا عَلى رَأْسِ رَجُلٍ.

---

(١) المحراك: أداة تحرك بها النّار.

(٢) جرادق، جمع جردق: الرغيف. فارسي معرّب؛ ينظر: الألفاظ الفارسيّة المعرّبة، م. م. ص: ٣٩.

(٣) رسائل الجاحظ، م. م. ج١ : ٣٨٦.

(٤) ينظر: المرجع السابق، ج١ : ٣٨٧؛ ينظر أيضاً: لغة المعلّمين في هذا الكتاب، ص: ٢٠٥ - ٢١٢.

(٥) بيت الأنبار: لعله المكان الذي يحفظ فيه الثياب.

وَعَمِلَ أَبياتاً في الغَزَلِ فَكانَتْ: [السّريع]

يا نُورةَ الهَجْرِ حَلَقْتِ الصَّفا لَمّا بَدَتْ لي لِيفةُ الصَّدِّ
يا مِئْزَرَ الأَسْقامِ حَتّى مَتى تُنْقَعُ في حَوْضٍ مِنَ الجَهْدِ
أَوْقِدْ أَتُّونَ الوَصْلِ لي مَرَّةً مِنْكَ بِزِنْبيلٍ[1] مِنَ الوِدِّ
فَالبَيْنُ مُذْ أُوقِدَ حَمّامُهُ قَدْ هاجَ قَلْبي مَسْلَخَ الوَجْدِ
أَفْسَدَ خِطْمِيّ[2] الصَّفا وَالهَوى نُخالَةُ النّاقِضِ لِلْعَهْدِ»[3]

وَقَعَتْ لُغَةُ صاحِبِ الحَمّامِ أَسيرَةَ مُحيطِهِ العَمَلِيِّ وَبيئَتِهِ الحِرْفِيَّةِ، لِذَلِكَ اسْتَعانَ بِعِدَّةِ مِهْنَتِهِ وَآلِيَةِ عَمَلِهِ في وَصفِ المَعرَكَةِ. وَلَمْ يَجِدْ أَفْضَلَ مِنَ النُّورَةِ، واللّيفَةِ، وَالمِئْزَرِ، وَالحَوْضِ، وَالنَّقْعِ، وَالحَلْقِ، وَالزِّنْبيلِ، وَالخِطْمِيِّ، وَالنُّخالَةِ، لِلتَّعْبيرِ عَنْ مَشاعِرِ الأَسى لِهِجْرانِ الحَبيبِ.

أَمّا الحَسَنُ بْنُ أَبي قُماشَةَ الكَنّاسُ، فَقالَ: «لَقَيْناهُمْ في مِقْدارِ سَطْحِ الإِيوانِ، فَما كانَ بِقَدْرِ ما يَكْنُسُ الرَّجُلُ زِنْبيلاً حَتّى تَرَكْناهُمْ في أَضْيَقَ مِنْ حُجْرِ المَخْرَجِ، ثُمَّ قَتَلْناهُمْ بِقَدْرِ ما يُشارِطُ الرَّجُلُ عَلى كَنْسِ كَنيفٍ، فَلَوْ رَمَيْتَ بِابْنَةِ وَرْدَانَةٍ[4] ما سَقَطَتْ إِلّا عَلى فَمِ بالوعَةٍ.

وَعَمِلَ أَبياتاً في الغَزَلِ فَكانَتْ: [السريع]

أَصْبَحَ قَلْبي بَرْبَخاً[5] لِلهَوى تَسْلَحُ فيهِ فَقْحَةُ الهَجْرِ
بَناتُ وَرْدانِ الهَوى لِلْبِلى أَضْبَرُ مِنْ ذا الوَجْدِ في صَدْري

(١) زنبيل: بكسر الزاي، وقد تفتح: القفّة. أعجمي معرّب؛ ينظر: الألفاظ الفارسيّة المعرّبة، م. م. ص: ٨٠.
(٢) الخطميّ، بكسر الخاء وفتحها: ضرب من النّبات يغسل به.
(٣) رسائل الجاحظ، م. م. ج١: ٣٨٨، ٣٨٩.
(٤) بنات وَرْدانَ دَوابُّ معروفة. [معروفة اليوم باسم الصّراصير].
(٥) البربخ: مجرى البول.

خَنافِسُ الهِجْرانِ أَثْكَلْنَني يَوْمَ تَوَلَّى مُعْرِضاً صَبْري
أَسْقَمَ ديدانُ الهَوى مُهْجَتي إِذْ سَلَحَ البَيْنُ عَلى عُمْري[1]

لَعَلَّ أَكْثَرَ الصُّوَرِ ابْتِذالاً وَاشْمِئْزازاً التي اسْتُعْمِلَتْ في وَصْفِ المَعْرَكَةِ، أَوْ في نَظْمِ الأَبْياتِ الغَزَلِيَّةِ، هِيَ الصُّوَرُ التي اسْتَعانَ بِها الكَنّاسُ في النَّصِّ المُتَقَدِّمِ. وَقَدْ تَدَنَّتْ تِلْكَ الصُّوَرُ إِلى مُسْتَوى القاذوراتِ وَأَمْكِنَتِها وَمَواضِعِها التي عايَنَها الكَنّاسُ في عَمَلِهِ، حَتّى كَأَنَّ القارِئَ أَوِ السّامِعَ يَشْعُرُ بِالغَثَيانِ بِسَبَبِ اخْتِيارِ هَذا الكَنّاسِ تِلْكَ المُفْرداتِ في وَصْفِ المَعْرَكَةِ أَوْ لِلْبَوْحِ بِما في القَلْبِ، عِلْماً أَنَّ المُناسَبَةَ الأُولى (وَصْفَ المَعْرَكَةِ) كانَ يَجِبُ أَنْ تُثيرَ مَشاعِرَ الفَخْرِ وَالحَماسِ، والثّانِيَةَ (الغَزَلَ) الرِّقَّةَ وَالعَواطِفَ، وَلا نَجِدُ في كَلامِهِ شَيْئاً مِنْ هَذا.

وَفي تِلْكَ المَعْرَكَةِ، قالَ أَحْمَدُ الشَّرابِيُّ:

«لَقَيْناهُمْ في مِقْدارِ صَحْنِ بَيْتِ الشَّرابِ، فَما كانَ بِقَدْرِ ما يُصَفّي الرَّجُلُ دَنّاً حَتّى تَرَكْناهُمْ في أَضْيَقَ مِنْ رَطْلِيَّةٍ[2] فَقَتَلْناهُمْ، فَلَوْ رَمَيْتَ تُفّاحَةً ما وَقَعَتْ إِلّا عَلى أَنْفِ سَكْرانَ.

وَعَمِلَ أَبْياتاً في الغَزَلِ فَكانَتْ: [الطّويل]

شَرِبْتُ بِكَأْسٍ لِلْهَوى نَبْذَةً مَعاً
وَرَقْرَتُ خَمْرَ الوَصْلِ في قَدَحِ الهَجْرِ
فَمالَتْ دِنانُ البَيْنِ يَدْفَعُها الصَّبا
فَكَسَّرْنَ قَرّاباتِ[3] حُزْني عَلى صَدْري

---

(١) رسائل الجاحظ، م. م. ج١: ٣٨٩، ٣٩٠.
(٢) الرطليّة، بفتح الراء وكسرها: نسبة إلى الرطل، والمراد وعاء أو كأس يسع رطلاً من الشراب (هامش رسائل الجاحظ، م. م. ج١: ٣٩٠).
(٣) القرّابات: ضرب من الأواني، كما هو ظاهر.

وَكانَ مِزاجُ الكَأسِ غُلَّةَ لَوْعَةٍ
وَدَوْرَقَ[1] هِجْرانٍ وَقِنِّينَتَي غَدْرِ[2]

فَالبِرَّغْمِ مِنْ أنَّ مَجالِسَ الخَمْرِ أثارَتْ كَثيراً مِنَ الصُّوَرِ الغَزَلِيَّةِ، فَإنَّ هَذا السّاقي حَصَرَ تِلْكَ الصُّوَرَ بِمَظاهِرَ مَحسوسَةٍ، فَلَمْ تَتَجاوَزْ أسْماءَ الأواني الخاصَّةِ بِمِهْنَتِهِ مِثْلَ دَنٍ، وَرَطْلِيَّةٍ، وكَأسٍ، وَقَدَحٍ، وَدورَقٍ، وَقَنينَتَيْنِ، وَقَرّابات، وَما يَدورُ في فَلَكِها مِنْ أعْمالٍ أوْ أفْعالٍ مِثْلِ: يُصَفّي، وَشَرِبْتُ، وَرَقْرَقْتُ، وَمالَتْ، وَكَسَّرْنَ.

ثُمَّ وَصَفَ عَبْدُ اللهِ بْنُ طاهِرٍ - وَكانَ طَبّاخاً - تِلْكَ المَعْرَكَةَ فَقالَ: «لَقيناهُمْ في مِقْدارِ صَحْنِ المَطْبَخِ؛ فَما كانَ بِقَدْرِ ما يَشْوي الرَّجُلُ حَمَلاً حَتّى تَرَكْناهُمْ في أضْيَقَ مِنْ مَوْقِدِ نارٍ، فَقَتَلْناهُمْ فَلَوْ سَقَطَتْ مِغْرَفَةٌ ما وَقَعَتْ إلّا في قِدْرٍ.

وَعَمِلَ أبْياتاً في الغَزَلِ فَكانَتْ: [الخفيف]

يا شَبيهَ الفالوذِ[3] في حُمْرَةِ الخَـ ـدِّ وَلَوْزينَجَ[4] النُّفوسِ الظِّماءِ
أنْتَ جَوْزينَجُ[5] القُلوبِ وَفي اللّيـ ـنِ كَلينِ الخَبيصَةِ البَيْضاءِ[6]

---

(١) الدورق: مكيال للشراب. أعجمي معرّب؛ ينظر: **الألفاظ الفارسيّة المعرّبة**، م. م. ص: ٦٢.

(٢) **رسائل الجاحظ**، م. م. ج١: ٣٩٠.

(٣) الفالوذ: حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل، وهي أطيب الحلاوات عند العرب. فارسيّ معرّب؛ ينظر: **الألفاظ الفارسيّة المعرّبة**، م. م. ص: ١٢٠، ١٢١.

(٤) لوزينج: من الحلواء شبه القطائف تؤدم بدهن اللوز. فارسيّ معرّب؛ ينظر: المرجع السابق، ص: ١٤٢.

(٥) جوزينج: من الحلويات يعمل من الجوز. فارسيّ معرّب؛ ينظر: المرجع السابق، ص: ٤٨.

(٦) الخبيصة: من الحلواء.

عُدْتُ مُسْتَهتِراً بِسِكْباجٍ[1] وُدٌّ بَعْدَ جُوذابَةٍ[2] بِجَنْبِ شَواءِ
يا نَسيمَ القُدورِ في يَوْمِ عُرْسٍ وَشَبيهاً بِشُهْدَةٍ صَفْراءِ[3]
أَنْتَ أَشْهى إلى القُلوبِ مِنَ الزُّبْـ ـدِ مَعَ النَّرْسِيانِ[4] بَعْدَ الغَداءِ
أَطْعِمَ الحاسِدونَ أَلْوانَ غَمٍّ في قِصاعِ الأَحْزانِ وَالأَدْواءِ
قَدْ غَلا القَلْبُ مُذْ نَأَتْ عَنْكَ داري غَلَيانَ القُدورِ عِنْدَ الصَّلاءِ
هامَ قَلْبي لَمّا كَسَرْنَ غَضارا تٍ[5] سُروري مَغارِفُ الشَّحْناءِ
فَتَفَضَّلْ عَلى العَميدِ[6] بِيَوْمٍ جُدْ بِوَصْلٍ يُكْبَتُ بِهِ أَعْدائي
وَتَفَضَّلْ عَلى الكَئيبِ بِبِزْما وَرْدٍ[7] وَصْلٍ يَشْفي مِنَ الأَدْواءِ»[8]

رُبَّما أَتى هَذا الطَّبّاخُ بِأَلَذِّ ما طابَ مِنَ الأَطْعِمَةِ في مُحيطِهِ يَوْمَذاكَ، فَمِنَ الفالوذِ، إلى اللَّوْزينَجِ، وَالجَوْزينَجِ، وَالخَبيصَةِ البَيْضاءِ، وَالسِّكْباجِ، وَالجوذابَةِ، وَالشِّواءِ، وَالشُّهْدَةِ الصَّفْراءِ، وَالزُّبْدِ مَعَ النَّرْسِيانِ، وَالبَزْماوَرْدِ.

وَقَدِ اسْتَحْوَذَ إِعْدادُ الطَّعامِ عَلى اهْتِمامِ صاحِبِنا، لِذا وَصَفَ المَعْرَكَةَ وَكَأَنَّها المُدَّةُ الَّتي تُعَدُّ فيها وَجْبَةُ الطَّعامِ.

---

(١) سكباج: مرق يعمل من اللحم والخل. فارسيّ معرّب؛ ينظر: الألفاظ الفارسيّة المعرّبة، م. م. ص: ٩٢.
(٢) جوذابة: طعام يتّخذ من سكر وأرز وجوز. فارسيّ معرّب؛ ينظر: المرجع السابق، ص: ٣٩.
(٣) شهدة، بفتح الشين وضمّها، مفرد شهد، وهو العسل ما دام لم يعصر من شمعه.
(٤) النّرسيان: ضرب من التمر يكون أجوده.
(٥) الغضارات: الصّحاف المتخذة من الغضار، وهو الطّين الحر.
(٦) العميد والمعمود: الذي عمده الحبّ، أي الذي أوجعه وأضناه.
(٧) البزماورد: طعام من البيض واللحم. فارسيّ معرّب؛ ينظر: الألفاظ الفارسيّة المعرّبة، م. م. ص: ٧٩.
(٨) رسائل الجاحظ، م. م. ج١: ٣٩١، ٣٩٢.

أمّا قصيدَتُهُ الغَزَلِيَّةُ، فكانَتْ أشْبَهَ بِلَوْحَةٍ ضاعَتْ فيها صورَةُ الحَبيبِ بَيْنَ كُلِّ تِلْكَ الأصْنافِ.

وَأخيراً سَألَ الجاحِظُ مُحَمَّدَ بْنَ داوُدَ الطّوسِيَّ - وَكانَ فَرّاشاً - عَنْ تِلْكَ المَعْرَكَةِ فَقالَ: «لَقَيْناهُمْ في مِقْدارِ صَحْنِ بِساطٍ، فَما كانَ إلّا بِقَدْرِ ما يَفْرُشُ الرَّجُلُ بَيْتاً حَتّى تَرَكْناهُمْ في أضْيَقَ مِنْ مِنَصَّةٍ فَقَتَلْناهُمْ، فَلَوْ سَقَطَتْ مِخَدَّةٌ ما وَقَعَتْ إلّا عَلى رَأْسِ رَجُلٍ.

ثُمَّ عَمِلَ أبْياتاً في الغَزَلِ فَكانَتْ: [الخفيف]

كَسَحَ الهَجْرُ ساحَةَ الوَصْلِ لَمّا ... غَبَّرَ البَيْنُ في وُجوهِ الصَّفاءِ
وَجَرى البَيْنُ في مَرافِقِ ريشٍ ... هِيَ مَذْخورَةٌ لِيَوْمِ اللِّقاءِ
فَرَشَ الهَجْرُ في بُيوتِ هُمومٍ ... تَحْتَ رَأْسي وِسادَةَ البُرَحاءِ
حينَ هَيَّأْتُ بَيْتَ خَيْشٍ[1] مِنَ الوَصْـ ... ـلِ لِأَبْوابِهِ سُتورَ البَهاءِ
فَرَشَ البَحْرُ لي بُيوتَ مُسوحٍ ... مُتَّكاها[2] مَطارِحُ الحَصْباءِ
رِقُّ لِلصَّبِّ مِنْ بَراغيثِ وَجْدٍ ... تَغْتَري جِلْدَهُ صَباحَ مَساءِ[3]

كانَتْ عِدَّةُ المِهْنَةِ الرّافِدَ الذي أمَدَّ الفَرّاشَ بِتِلْكَ الصُّوَرِ في وَصْفِ المَعْرَكَةِ أوْ في شِعْرِهِ الغَزَلِيِّ وَلَمْ يَسْتَطِعْ هُوَ وَالَّذينَ مِنْ قَبْلِهِ كَسْرَ الطَّوْقِ الذي فَرَضَتْهُ بيئَتُهُمُ الاجْتِماعِيَّةُ وَالمِهْنِيَّةُ عَلى لُغَتِهِمْ، وَلا سِيَّما أنَّهُمْ رَضَوْا بِحَظٍّ قَليلٍ مِنَ الثَّقافَةِ وَالمَعْرِفَةِ حالَتْ دونَ تَمَكُّنِهِمْ مِنْ رَفْدِ لُغَتِهِمْ بِمُفْرَداتٍ وَتَعابيرَ أكْثَرَ جَمالاً وَرُقِيّاً مِمّا ذَكَروهُ. وَيُعَلِّلُ الجاحِظُ هَذا الأمْرَ بِقَوْلِهِ: «... إنَّما يَنْطِقُ اللِّسانُ بِما يَتَصَوَّرُ الجَنانُ، وَيَظْهَرُ في الكَلامِ ما

---

(١) خيش: ثياب رقاق النسج غلاظ الخيوط تتخذ من مشاقة الكتّان.
(٢) المتكأ: ما يتوكّأ عليه لطعام أو شراب أو حديث.
(٣) رسائل الجاحظ، م. م. ج١: ٣٩٢، ٣٩٣.

يَخْطُرُ عَلى الأَوْهامِ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ إِلّا شَيْئاً واحِداً لَمْ يَتَكَلَّمْ إِلّا عَلَيْهِ، وَمَنْ كَثُرَ عَلَيْهِ عِلْمُهُ كَثُرَتْ خَواطِرُهُ، وَاتَّسَعَتْ مَذاهِبُهُ..»[١].

فَهَؤُلاءِ الَّذينَ ذَكَرَهُمُ الجاحِظُ اصْطَدَموا بِثَقافَتِهِمُ المَحْدودَةِ، وَلَمْ يَتَمَكَّنوا مِنْ عُبورِ حَواجِزِها، فَوَقَعوا أَسْرى لُغَتِهِمِ الخاصَّةِ الَّتي تَخْتَزِلُ مَوْروثَهَمُ الثَّقافِيَّ.

وَنَكْتَفي في الجَدْوَلِ الآتي بِوَصْفِ مَكانِ المَعْرَكَةِ، وَتَحْديدِ زَمانِها في لُغَةِ أُولَئِكَ الرِّجالِ، مُخْتَصِرينَ بِذَلِكَ الفِكْرَةَ الرَّئيسِيَّةَ التي أَبْرَزْناها في لُغَةِ أَصْحابِ المِهَنِ وَالحِرَفِ، وَهِيَ تَأْثيرُ المِهْنَةِ في لُغَةِ صاحِبِها.

القائِلُ	مَكانُ المَعْرَكَةِ	زَمانُ المَعْرَكَةِ
صاحِبُ الخَيْلِ	صَحْنُ الإِصْطَبْلِ	بِقَدْرِ ما يَحُسُّ الرَّجُلُ دابَّتَهُ
الخَيّاطُ	سوقُ الخُلْقانِ	بِقَدْرِ ما يَخيطُ الرَّجُلُ دَرْزاً
الزَّرّاعُ	مِقْدارُ جَريبَيْنِ مِنَ الأَرْضِ	بِقَدْرِ ما يَسْقي الرَّجُلُ مَشارَةً
الخَبّازُ	بَيْتُ التَّنورِ	بِقَدْرِ ما يَخْبِزُ الرَّجُلُ خَمْسَةَ أَرْغِفَةٍ
المُؤَدِّبُ	صَحْنُ الكُتّابِ	بِقَدْرِ ما يَقْرَأُ الصَّبِيُّ إِمامَهُ
صاحِبُ الحَمّامِ	بَيْتُ الأَنْبارِ	بِقَدْرِ ما يَغْسِلُ الرَّجُلُ رَأْسَهُ
الكَنّاسُ	سَطْحُ الإِيوانِ	بِقَدْرِ ما يَكْنُسُ الرَّجُلُ زِنْبيلاً
الشَّرابِيُّ	صَحْنُ بَيْتِ الشَّرابِ	بِقَدْرِ ما يُصَفّي الرَّجُلُ دَنّاً
الطَّبّاخُ	صَحْنُ المَطْبَخِ	بِقَدْرِ ما يَشْوي الرَّجُلُ حَمَلاً
الفَرّاشُ	صَحْنُ بِساطٍ	بِقَدْرِ ما يَفْرُشُ الرَّجُلُ بَيْتاً

(١) جمع الجواهر، م. م. ص: ١٤٨.

وَالجاحِظ، كَما يُؤَكِّدُ الحُصَرِيُّ[1]، هُوَ الذي وَضَعَ تِلْكَ الأَخْبارَ وَصَنَعَ تِلْكَ الأَشْعارَ[2]، وذَلِكَ لِلْحَثِّ عَلى التَّعَلُّمِ وَالأَخْذِ بِأَلْوانِ العُلومِ وَالثَّقافاتِ التي تُغْني اللُّغَةَ وَتُحَرِّرُها مِنَ القُيودِ الطَّبَقِيَّةِ، اجْتِماعِيَّةً كانَتْ أَمْ مِهْنِيَّةً. وَهُوَ نَفْسُهُ تَجاوَزَ بِعلومِهِ وَسَعَةِ اطِّلاعِهِ واقِعَهُ الاجْتِماعِيَّ حَتّى غَدا مِنْ خَواصِّ أَهْلِ الخاصَّةِ. أَمّا المُعْتَصِمُ، وَبَعْدَ تِلْكَ الرِّسالَةِ، فَقَدْ دَعا مُؤَدِّبَ وُلْدِهِ فَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَهُمْ بِتَعَلُّمِ جَميعِ العُلومِ لِيُجَنِّبَهُمْ ما وَقَعَتْ بِهِ لُغَةُ أُولئِكَ الرِّجالِ.

وَلَمّا كانَ مُعْظَمُ المِهْنِيّينَ وَالحِرَفِيّينَ مِنْ عامَّةِ النّاسِ، كانَ لا بُدَّ مِنَ الوُقوفِ عَلى لُغَةِ العَوامِّ بِوَجْهٍ عامٍ في الفَصْلِ القادِمِ.

---

(١) ينظر: جمع الجواهر، م. م. ص: ١٤٨.

(٢) إبراهيم بن عليّ بن تميم الأنصاريّ، أبو إسحاق الحصريّ (ت٤٥٣ هـ/ ١٠٦١ م): أديب نقّاد من أهل القيروان. من كتبه: «زهر الآداب وثمر الألباب»، ومختصره «نور الطّرف ونور الظرف»، و«المصون في سر الهوى المكنون»، و«جمع الجواهر في الملح والنّوادر». وله شعر فيه رقّة.

الفَصْلُ الثّالِثَ عَشَرَ

لُغَةُ العَوامِّ

عَرَّفَ الجاحِظُ العَوامَّ فَقالَ «... إذا سَمِعْتُموني أَذْكُرُ العَوامَّ فَإِنّي لَسْتُ أَعْني الفَلّاحينَ وَالحُشْوَةَ[1] وَالصُّناعَ وَالباعَةَ، وَلَسْتُ أَعْني أَيْضاً الأَكْرادَ في الجِبالِ، وَسُكّانَ الجَزائِرِ في البِحارِ، وَلَسْتُ أَعْني مِنَ الأُمَمِ مِثْلَ البَبْرِ وَالطَّيْلَسانِ[2]، وَمِثْلَ موقانَ وَجيلانَ[3] وَمِثْلَ الزَّنْجِ وَأَشْباهِ الزَّنْجِ. وَإِنَّما الأُمَمُ المَذْكورونَ مِنْ جَميعِ النّاسِ أَرْبَعٌ: العَرَبُ، وَفارِسٌ، وَالهِنْدُ، وَالرّومُ. وَالباقونَ هَمَجٌ وَأَشْباهُ الهَمَجِ. وَأَمّا العَوامُّ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِنا وَدَعْوَتِنا، وَلُغَتِنا وَأَدَبِنا وَأَخْلاقِنا، فَالطَّبَقَةُ التي عُقولُها وَأَخْلاقُها فَوْقَ تِلْكَ الأُمَمِ وَلَمْ يَبْلُغوا مَنْزِلَةَ الخاصَّةِ مِنّا، عَلى أَنَّ الخاصَّةَ تَتَفاضَلُ في طَبَقاتٍ أَيْضاً»[4].

فَالعَوامُّ كانوا دونَ الخاصَّةِ وَفَوْقَ السَّفِلَةِ مِنَ النّاسِ. وَكانَتْ لَهُمْ

---

(١) الحشوة، بالضم والكسر: رذال النّاس وأسقاطهم.

(٢) طيلسان: إقليم واسع كثير البلدان والسكان من نواحي الديلم والخزر، افتتحه الوليد بن عقبة عام ٣٤ هـ (معجم البلدان، م. م. ج٤: ٥٦).

(٣) موقان: ولاية فيها قرى ومروج كثيرة تحتلها التركمان للرعي فأكثر أهلها منهم، وهي بأذربيجان. (المرجع السابق، ج٥: ٢٢٥). جيلان، بالكسر: اسم لبلاد كثيرة من وراء طبرستان. وليس في جيلان مدينة كبيرة، إنما هي قرى في مروج بين جبال. (المرجع السابق، ج٢: ٢٠١).

(٤) البيان والتبيين، م. م. ج١: ١٣٧.

عاداتُهُمْ وَتَقاليدُهُمْ، وَأساليبُهُمُ اللُّغَوِيَّةُ كَعَدَمِ اخْتِيارِهِمْ «مِنَ الأَلْفاظِ ما هُوَ أَحَقُّ بِالذِّكْرِ وَأَوْلى بِالاسْتِعْمالِ»[1].

وَرُبَّما اسْتَعْمَلوا ما هُوَ أَقَلُّ في أَصْلِ اللُّغَةِ اسْتِعْمالاً وَتَرَكوا ما هُوَ شائِعٌ[2]، كَقَوْلِهِمْ: شَمَمْتُ ريحَةَ الطّيبِ؛ فَلَفْظَةُ «ريحَة» جائِزَةٌ في اللُّغَةِ، إِذْ يُقالُ تَغَيَّرَتْ رائِحَةُ الشَّيْءِ وَريحُهُ وَريحَتُهُ[3].

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضاً «قَوْلُهُمْ لِلْمائِدَةِ: مَيْدَةٌ، مَعْروفٌ مَسْموعٌ»[4].

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: «شِعيرٌ، وَسِعيدٌ، وَشِهِدْتَ عَلَيَّ بِكَذا وَلِعِبْتَ، بِكَسْرِ الأَوَّلِ. وَهَذا جائِزٌ.

وَكَذَلِكَ كُلُّ ما كانَ وَسَطُهُ حَرْفَ حَلْقٍ مَكْسوراً، فَإِنَّهُ يَجوزُ أَنْ يُكْسَرَ ما قَبْلَهُ، كَقَوْلِكَ بِعيرٌ وَرِغيفٌ، وَرِحيمٌ، وَهِيَ لُغَةُ بَني تَميمٍ»[5].

وَقَدْ أَنْكَرَ أَهْلُ الخاصَّةِ عَلى العَوامِّ اسْتِعْمالَ مِثْلِ تِلْكَ الأَلْفاظِ، وَعَدُّوها غَيْرَ فَصيحَةٍ مَعَ أَنَّ العَرَبِيَّةَ تُجيزُها، وَحاوَلُوا عَدَمَ اسْتِخْدامِها لِتَضْميمِهِمْ عَلى تَمايُزِهِمْ عَنِ العَوامِّ الذي نَظَروا إِلَيْهِمْ بِاسْتِخْفافٍ وَهَوانٍ، وَاسْتَقْبَحوا كُلَّ ما اتَّصَلَ بِهِمْ، بِما في ذَلِكَ أَساليبُهُمُ اللُّغَوِيَّةُ. وَهَذا يَعْني أَنَّ أَهْلَ الخاصَّةِ حاكَموا لُغَةَ العَوامِّ في كَثيرٍ مِنَ الأَحْيانِ عَلى أَساسٍ اجْتِماعِيٍّ لا لُغَوِيٍّ.

---

(١) البيان والتبيين، م. م. ج١: ٢٠.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ج١: ٢٠.

(٣) ينظر: ابن مكّي الصقلّي، عمر بن خلف: تثقيف اللسان وتلقيح الجنان، تحقيق الدكتور عبد العزيز مطر، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، القاهرة، د. ط. ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م، ص: ٢٣٢.

(٤) المرجع السابق، ص: ٢٢٧.

(٥) المرجع السابق، ص: ٢٢٧.

وَلَوْ أَرَدْنا إِنْصافَ كِلْتا اللُّغَتَيْنِ، ما وَصَفْنا «لُغَةَ أَبْناءِ الطَّبَقَةِ الرَّاقِيَةِ بِالامْتِيازِ، وَلُغَةَ أَبْناءِ الطَّبَقاتِ الدُّنْيا بِالانْحِطاطِ... إِنَّ ما يُضْفي عَلى تَعْبيراتِ الطَّبَقَةِ الرّاقِيَةِ جاذِبِيَّةً وَجَمالاً، لَيْسَ أَمْراً ذاتِيّاً تَتَمَيَّزُ بِهِ هَذِهِ التَّعْبيراتِ، بَلْ أُمورٌ أُخْرى تَصْحَبُها، كَالمَلابِسِ الأَنيقَةِ، وَالسُّلوكِ الرَّقيقِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأُمورِ، التي تَنْزِلُ مِنّا مَحَلَّ الإِعْجابِ، وَبِالعَكْسِ فَإِنَّ ما يُضْفي عَلى تَعْبيراتِ الطَّبَقَةِ الدُّنْيا خُشونَةً وَغِلْظَةً، لَيْسَ سِوى ما يَصْحَبُها مِنْ خُشونَةٍ في المَظْهَرِ، أَوْ غِلْظَةٍ في السُّلوكِ»[1].

فَالنّاسُ، عادَةً، يَبْهَرُهُمُ المَظْهَرُ الخارِجِيُّ لِلْفَرْدِ، وَمَكانَتُهُ الاجْتِماعِيَّةُ، وَرُبَّما احْتَقَروا مَنْ هُوَ دونَهُمْ في المَلْبَسِ وَالمَشْرَبِ وَالمَسْكَنِ. وَفي هذا يَرْوي الجاحِظُ أَنَّ القاضِيَ إِياسَ بْنَ مُعاوِيَةَ المُزَنِيَّ[2] أَتى «حَلْقَةً مِنْ حَلَقِ قُرَيْشٍ في مَسْجِدِ دِمَشْقَ، فَاسْتَوْلى عَلى المَجْلِسِ، وَرَأَوْهُ أَحْمَرَ دَميماً باذَّ الهَيْئَةِ، قَشِفاً، فَاسْتَهانوا بِهِ، فَلَمّا عَرَفوهُ اعْتَذَروا إِلَيْهِ وَقالوا لَهُ: الذَّنْبُ مَقْسومٌ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ؛ أَتَيْتَنا في زِيِّ مِسْكينٍ، تُكَلِّمُنا بِكَلامِ المُلوكِ»[3]. وَيَرْوي الجاحِظُ كَذَلِكَ أَنَّ مُعاوِيَةَ بْنَ أَبي سُفْيانَ نَظَرَ «إِلى النَّخّارِ بْنِ أَوْسٍ العُذْرِيِّ[4]، الخَطيبِ النّاسِبِ، في عَباءَةٍ في ناحِيَةٍ مِنْ مَجْلِسِهِ، فَأَنْكَرَهُ وَأَنْكَرَ مَكانَهُ زِرايَةً مِنْهُ عَلَيْهِ، فَقالَ: مَنْ

---

(١) اللّغة بين الفرد والمجتمع، م. م. ص: ١٢٠.

(٢) إياس بن معاوية بن قرة المزني، أبو واثلة: (ت ١٢٢ هـ/٧٤٠م): قاضي البصرة، وأحد أعاجيب الدهر في الفطنة والذكاء. يضرب المثل بذكائه. قال الجاحظ: إياس من مفاخر مضر ومن مقدمي القضاة، كان صادق الحدس، نقاباً، عجيب الفراسة، ملهماً وجيهاً عند الخلفاء. توفّي بواسط.

(٣) البيان والتبيين، م. م. ج١: ٩٨.

(٤) النّخار بن أوس بن أبير بن عمرو، من بني الحارث، من قضاعة: خطيب، عالم الأنساب. كان معاصراً لجميل بثينة، كما كان من ندماء معاوية.

هَذا؟ فَقالَ النَّخارُ: يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، إِنَّ العَباءَةَ لا تُكَلِّمُكَ، وَإِنَّما يُكَلِّمُكَ مَنْ فيها!»[1].

فَالرِّوايَةُ الأُولى تُظْهِرُ اسْتِخْفافَ الأَدْنى بِالأَعْلى بِسَبَبِ الهَيْئَةِ وَالمَلابِسِ، أَمّا الرِّوايَةُ الثّانِيَةُ فَتُظْهِرُ اسْتِخْفافَ الأَعْلى بِالأَدْنى لِلسَّبَبِ نَفْسِهِ، فَالقاسِمُ المُشْتَرَكُ بَيْنَهُما واحِدٌ، أَلا وَهُوَ الحُكْمُ عَلى الفَرْدِ مِنْ خِلالِ مَظْهَرِهِ الخارِجِيِّ.

وَرُبَّما كانَ حُسْنُ الإِنْسانِ أَوْ قُبْحُهُ مِعْياراً آخَرَ في تَقْويمِهِ، وَلا سِيَّما في المُجْتَمَعاتِ التي تَنْدُرُ فيها القِيَمُ الأَخْلاقِيَّةُ وَالتَّطَلُّعاتُ العِلْمِيَّةُ أَوِ الحَضارِيَّةُ؛ فَعَنْ مِعْيارِ الحُسْنِ وَالقُبْحِ، يُرْوى أَنَّ ضَمْرَةَ بْنَ ضَمْرَةَ[2] وَفَدَ عَلى النُّعْمانِ بْنِ المُنْذِرِ[3]، فَلَمّا دَخَلَ عَلَيْهِ اسْتَقْبَحَهُ النُّعْمانُ وَ«زَرى عَلَيْهِ، لِلَّذي رَأى مِنْ دَمامَتِهِ وَقِصَرِهِ وَقِلَّتِهِ. فَقالَ النُّعْمانُ: «تَسْمَعُ بِالمُعَيْدِيِّ لا أَنْ تَراهُ»[4]، فَقالَ: أَبَيْتَ اللَّعْنَ! إِنَّ الرِّجالَ لا تُكالُ بِالقُفْزانِ»[5]، وَلا توزَنُ بِالميزانِ، وَلَيْسَتْ بِمَسوكٍ يُسْتَقى بِها، وَإِنَّما

---

(١) البيان والتبيين، م. م. ج١: ٢٣٧.

(٢) ضمرة بن ضمرة بن جابر النّهشليّ، من بني دارم: شاعر جاهلي، من الشجعان الرؤساء. قيل إنّ اسمه كان شقّة بن ضمرة، فسمّاه النّعمان ضمرة، ويسمّى ذات الشقوق.

(٣) النّعمان بن المنذر: النّعمان (الثالث)، أبو قابوس (ت نحو ١٥ق. هـ/ نحو ٦٠٨م): من أشهر ملوك الحيرة في الجاهليّة. أخباره كثيرة. ملك الحيرة إرثاً عن أبيه نحو سنة ٥٩٢ م. وكانت تابعة للفرس. فأقرّه عليها كسرى إلى أن نقم عليه، فعزله ونفاه إلى خانقين، فسجن فيها إلى أن مات، وقيل غير ذلك.

(٤) ذهبت هذه العبارة مثلاً، وضرب لمن خبره خير من مرآه؛ ينظر: مجمع الأمثال، م. م. ج١: ١٢٩.

(٥) القفزان، جمع قفيز: مكيال قدره ثمانية مكاكيك عند أهل العراق.

المَرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ: بِقَلْبِهِ وَلِسانِهِ، إِنْ صالَ صالَ بِجَنانٍ، وَإِنْ قالَ قالَ بِبَيانٍ»[1].

فَلا غَرابَةَ، إِذاً، أَنْ يَحْتَقِرَ العامَّةَ في العَهْدِ العَبّاسِيِّ أَهْلُ الخاصَّةِ الَّذينَ مَلَكوا مِنَ المالِ وَالسُّلْطَةِ ما جَعَلَهُمْ فَوْقَ العَوامِّ اجْتِماعِيّاً وَاقْتِصادِيّاً، وَالَّذينَ كانَتْ مَقاليدُ الأُمورِ بِأَيْديهِمْ، فَتَماشَتْ لُغَةُ النَّثْرِ وَالشِّعْرِ في غالِبِ الأَحْيانِ بِحَسَبِ أَذْواقِهِمْ، فَاسْتُبْعِدَتِ الأَلْفاظُ الَّتي تَداوَلَها العَوامُّ؛ مِنْ تِلْكَ الأَلْفاظِ عَلى سَبيلِ المِثالِ: لَفْظُ القِرِلَّى الَّذي كانَ «مِنْ أَشَدِّ أَلْفاظِ العامَّةِ ابْتِذالاً، وَهُوَ اسْمٌ لِطائِرٍ صَغيرٍ مِنْ طُيورِ الماءِ يَخْطَفُ صِغارَ السَّمَكِ مِنَ الماءِ بِرِجْلَيْهِ وَمِنْقارِهِ، فَإِذا سَقَطَ عَلى الماءِ وَلَمْ يَحْصُلْ عَلى صَيْدٍ ارْتَفَعَ بِسُرْعَةٍ، فَتَضْرِبُ بِهِ العامَّةُ المَثَلَ تَقولُ: فُلانٌ كَأَنَّهُ قِرِلَّى، إِنْ وَجَدَ خَيْراً تَدَلَّى، وَإِنْ وَجَدَ شَرّاً تَعَلَّى»[2].

فَقَدِ ابْتُذِلَ كَثيرٌ مِنَ الأَلْفاظِ بِلِحاظِ اجْتِماعِيٍّ، وَنَجِدُ أَنَّ اللَّفْظَ المُبْتَذَلَ لَهُ أَساسُهُ اللُّغَوِيُّ في مُعْظَمِ الأَحْيانِ، وَلَكِنَّ العامَّةَ «اخْتَصَّتْ بِاسْتِعْمالِهِ دونَ الخاصَّةِ فَابْتُذِلَ لِأَجْلِ ذَلِكَ وَسَخُفَ لَفْظُهُ، وَانْحَطَّتْ رُتْبَتُهُ لاخْتِصاصِ العامَّةِ بِتَداوُلِهِ، وَصارَ مَنِ اسْتَعْمَلَهُ مِنَ الخاصَّةِ مَلوماً عَلى الإِتْيانِ بِهِ لِمُشارَكَةِ العامَّةِ فيهِ؛ وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ لِجَماعَةٍ مِنْ فُحولِ الشُّعَراءِ فَعيبَ عَلَيْهِمْ. فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الفَرَزْدَقِ[3] مِنْ قَصيدَةٍ: [الطَّويل]

---

(١) البيان والتبيين، م. م. ج١: ١٧١.

(٢) صبح الأعشى، م. م. ج٢: ٢٤٨.

(٣) همّام بن غالب بن صعصعة التميمي، أبو فراس، المعروف بالفرزدق (ت ١١٠هـ/ ٧٢٨م): شاعر من أهل البصرة، عظيم الأثر في اللغة. من طبقة جرير والأخطل. أخباره كثيرة. توفّي في بادية البصرة.

وَأَصْبَحَ مُبْيَضُّ الضَّريبِ كَأَنَّهُ عَلى سَرواتِ النَّبْتِ قُطْنٌ مُنَدَّفُ[1]

فَقَوْلُهُ مُنَدَّفُ مِنَ الأَلْفاظِ العامِيَّةِ المُبْتَذَلَةِ، وَإِنْ كانَ لَهُ أَصْلٌ في اللُّغَةِ. يُقالُ نَدَفَ القُطْنَ إِذا ضَرَبَهُ بِالمِنْدَفِ، وَلِذَلِكَ قيلَ لِلْقُطْنِ المَنْدوفِ: نَديفٌ»[2].

فَتِلْكَ الكَلِمَةُ لَها صِلَةٌ بِمِهْنَةٍ وَضيعَةٍ يَوْمَئِذٍ ـ نَدْفِ القُطْنِ ـ بِدَليلِ أَنَّ رَجُلاً قالَ لِنَدّافٍ: «لَوْ وَضَعْتَ إِحْدى رِجْلَيْكَ عَلى حِراءٍ، وَالأُخْرى عَلى طورِ سَيْناءَ، ثُمَّ أَخَذْتَ قَوْسَ قُزَحٍ تَنْدِفُ بِهِ قُطْنَ الغَمامِ في جِيابِ المَلائِكَةِ ما كُنْتَ إِلّا نَدّافاً»[3].

وَكانَ النَّدّافونَ يَسْتَخْدِمونَ التَّعابيرَ التي لَها صِلَةٌ بِمِهْنَتِهِمْ، كَأَنْ يَصِفَ أَحَدُهُمْ جِدْياً سَميناً بِقَوْلِهِ: «كَأَنَّما أُخْرِجَ مِنْ دُكّانِ نَدّافٍ»[4]. أَوْ أَنْ يَنْظُرَ إِلى غَيْمٍ مُتَقَطِّعٍ في السَّماءِ فَيَقولَ: «كَأَنَّهُ قُطْنٌ يُنْدَفُ في ديباجٍ[5] أَزْرَقَ»[6].

فَقَدْ تَفادى الخَواصُّ الأَلْفاظَ التي شاعَتْ في أَوْساطِ العَوامِّ،

---

(١) ديوان الفرزدق، ضبط معانيه وشروحه إليّا الحاوي، منشورات دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، الطبعة الأولى، بيروت ـ لبنان، ١٩٨٣م، ج٢: ١٢٠. والبيت فيه:

وَأَصْبَحَ موضوعُ الصَّقيعِ كَأَنَّهُ عَلى سَرواتِ النِّيبِ قُطْنٌ مُنَدَّفُ

(٢) صبح الأعشى، م. م. ج٢: ٢٤٧، ٢٤٨. وينظر أيضاً في المصدر نفسه ما عيب على أبي نواس استعماله.

(٣) محاضرات الأدباء، م. م. ج٢: ٤٦٣.

(٤) خاصّ الخاصّ، م. م. ص: ٨٢.

(٥) ديباج: ثوب من حرير. أعجمي معرّب؛ ينظر: الألفاظ الفارسيّة المعرّبة، م. م. ص: ٦٠.

(٦) خاصّ الخاصّ، م. م. ص: ٨٢.

وَوَصَلَ الأَمْرُ بِبَعْضِهِمْ أَنَّهُمْ رَفَضوا عَدَداً مِنَ التَّراكيبِ اللُّغَوِيَّةِ لا لِخُروجِها عَنِ القِياسِ، بَلْ لِجَرْيِها على أَلْسِنَةِ العامَّةِ. وَفي هذا قيلَ إِنَّ وَزيراً «تَقَدَّمَ إِلى كاتِبِهِ بِأَنْ يَكْتُبَ أَلْقابَ أَميرٍ لِيُثْبِتَها على بُرْجٍ أَنْشَأَهُ فَكَتَبَ: «أَمَرَ بِعِمارَةِ هَذا البُرْجِ أبو فُلانٍ فُلانٌ» وَاسْتَوفى أَلْقابَهُ إِلى آخِرِها، وَرَفَعَ المِثالَ إِلى الوَزيرِ لِيَقِفَ عَلَيْهِ، فَلَمّا قَرَأَهُ غَضِبَ حَتّى ظَهَرَ الغَضَبُ على وَجْهِهِ، وَأَنْكَرَ عَلى الكاتِبِ كَوْنِهِ كَتَبَ أبو فُلانٍ بِالواوِ وَلَمْ يَكْتُبْ أَبي فُلانٍ بِالياءِ مُحْتَجّاً عَلَيْهِ بِأَنَّ «أبو» مِنْ أَلْفاظِ العامَّةِ فَلا تَعْظيمَ لَها»[1].

صَحيحٌ أَنَّ لُغَةَ العَوامِّ حوكِمَتْ في أَكْثَرِ الأَحْيانِ بِلِحاظٍ اجْتِماعِيٍّ لا لُغَوِيٍّ، إِلّا أَنَّنا لا نُنْكِرُ أَنَّهُ انْتَشَرَ عَلى أَلْسُنِ العامَّةِ عَدَدٌ مِنَ الأَلْفاظِ الحَقيرَةِ وَالمُبْتَذَلَةِ، يَحْكُمُ عَلى فَسادِها الذَّوْقُ وَالرَّأْيُ العامُّ. وَيُعَلِّلُ الجاحِظُ ذَلِكَ الانْتِشارَ فَيَقولُ: «... اعْلَموا أَنَّ المَعْنى الحَقيرَ الفاسِدَ، وَالدَّنِيَّ السّاقِطَ، يُعَشِّشُ في القَلْبِ ثُمَّ يَبيضُ ثُمَ يُفَرِّخُ، فَإِذا ضَرَبَ بِجِرانِهِ وَمَكَّنَ لِعُروقِهِ، اسْتَفْحَلَ الفَسادُ وَبَزَلَ، وَتَمَكَّنَ الجَهْلُ وَقَرَحَ[2]، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقْوى داؤُهُ، وَيَمْتَنِعُ دَواؤُهُ؛ لِأَنَّ اللَّفْظَ الهَجينَ الرَّدِيَّ، وَالمُسْتَكْرَهَ الغَبِيَّ، أَعْلَقُ بِاللِّسانِ، وَآلَفُ للسَّمْعِ، وَأَشَدُّ الْتِحاماً بِالقَلْبِ مِنَ اللَّفْظِ النَّبيهِ الشَّريفِ، وَالمَعْنى الرَّفيعِ الكَريمِ. وَلَوْ جالَسْتَ الجُهّالَ وَالنَّوْكى، وَالسُّخَفاءَ وَالحَمْقى، شَهْراً فَقَطْ، لَمْ تَنْقَ مِنْ أَوْضارِ كَلامِهِمْ، وَخَبالِ مَعانيهِمْ، بِمُجالَسَةِ أَهْلِ البَيانِ وَالعَقْلِ دَهْراً؛ لِأَنَّ الفَسادَ أَسْرَعُ إِلى النّاسِ، وَأَشَدُّ الْتِحاماً بِالطَّبائِعِ. وَالإِنْسانُ بِالتَّعَلُّمِ وَالتَّكَلُّفِ، وَبِطولِ الاخْتِلافِ إِلى العُلَماءِ، وَمُدارَسَةِ كُتُبِ الحُكَماءِ، يَجودُ لَفْظُهُ وَيَحْسُنُ

---

(١) صبح الأعشى، م. م. ج١: ٤٩.

(٢) بزل: بلغ سن البزول، وهو التاسعة. وقرح: بلغ سن القروح، والقارح من ذي الحافر بمنزلة البازل من الإبل. كنى بها عن القوّة.

أَدَبُهُ، وَهُوَ لا يَحْتاجُ في الجَهْلِ إلى أَكْثَرِ مِنْ تَرْكِ التَّعَلُّمِ، وَفي فَسادِ البَيانِ إلى أَكْثَرِ مِنْ تَرْكِ التَّخَيُّرِ»[1].

وَإلى جانِبِ الألْفاظِ الفاسِدَةِ أَوِ الحَقيرَةِ، أَصابَ أَلْسُنَ العَوامِّ اللَّحْنُ الذي لَمْ يَنْجُ مِنْهُ الخَواصُّ أَيْضاً، وَكانَ لِلَّحْنِ وُجوهٌ، مِنْ ذَلِكَ لَحْنُ الإعْرابِ الذي شاعَ مُبْكِراً في الدَّوْلَةِ الإسْلامِيَّةِ؛ وَهَذا نَموذَجٌ مِنْهُ:

قيلَ إِنَّهُ «ارْتَفَعَ إلى زِيادٍ رَجُلٌ وَأَخوهُ في ميراثٍ، فَقالَ: إِنَّ أَبونا ماتَ، وَإِنَّ أَخينا وَثَبَ عَلى مالِ أَبانا فَأَكَلَهُ. فَأَمّا زِيادٌ فَقالَ: الذي أَضَعْتَ مِنْ لِسانِكَ أَضَرُّ عَلَيْكَ مِمّا أَضَعْتَ مِنْ مالِكَ. وَأَمّا القاضي فَقالَ: فَلا رَحِمَ اللهُ أَباكَ، وَلا نَيَّحَ عَظْمَ[2] أَخيكِ! قُمْ في لَعْنَةِ اللهِ!»[3].

فَهَذا الرَّجُلُ أَخْطَأَ في عَدَدٍ مِنَ التَّراكيبِ النَّحْوِيَّةِ، تَظْهَرُ عَلى الشَّكْلِ التّالي:

الخَطَأُ	الصَّوابُ	القاعِدَةُ
أبونا	أَبانا	اسْمُ إِنَّ مَنْصوبٌ؛ عَلامَةُ نَصْبِ الأَسْماءِ الخَمْسَةِ الأَلِفُ
أخينا	أَخانا	مِثْلُ ما تَقَدَّمَ
أبانا	أَبينا	المُضافُ إِلَيْهِ مَجْرورٌ؛ عَلامَةُ جَرِّ الأَسْماءِ الخَمْسَةِ الياءُ

وَإلى جانِبِ لَحْنِ الإعْرابِ، عُرِفَ عَنِ العَوامِّ إِسْكانُهُمْ حُروفاً مُتَحَرِّكَةً، كَقَوْلِهِمْ: أَصابَ فُلاناً رَمْدٌ إذا رَمِدَتْ عَيْنُهُ.. وَالصَّوابُ رَمَدٌ،

(١) البيان والتبيين، م. م. ج١: ٨٥، ٨٦.
(٢) أي لا صلَّبها.
(٣) البيان والتبيين، م. م. ج٢: ٢٢٢.

وَهُوَ وَجَعٌ يُصيبُ العَيْنَ؛ يُقالُ رَمِدَتْ عَيْنُهُ تَرْمَدُ رَمَداً فَهُوَ رَمِدٌ وَمرْمودٌ وَأَرْمَدُ، فَأَمّا الرَّمْدُ بِإِسْكانِ الميمِ فَهُوَ المَوْتُ(١).

وَعُرِفَ عَنْهُمْ إِبْدالُ حَرْفٍ بِحَرْفٍ آخَرَ، كَقَوْلِهِمْ: «دَشيشٌ» لِما طُحِنَ مِنَ البُرِّ وَغَيْرِهِ، وَالصَّوابُ جَشيشٌ بِالجيمِ، يُقالُ جَشَشْتُ البُرَّ أَجُشُّهُ جَشّاً، فَهُوَ مَجْشوشٌ وَجَشيشٌ(٢). أَوْ قَوْلُهُمْ: «نَبيذٌ قارِسٌ وَلَبَنٌ قارِسٌ». وَالصَّوابُ: «نَبيذٌ قارِصٌ وَلَبَنٌ قارِصٌ»(٣). وَكَقَوْلِهِمْ «بَخَسَتْ عَيْنُهُ» في «بَخَصَتْ عَيْنُهُ»، إِنَّما البَخْسُ أَنْ تُنْقِصَ الرَّجُلَ حَقَّهُ(٤).

وَأَسْقَطَ العَوامُّ الهَمْزَةَ مِنْ كَلِماتٍ عَديدَةٍ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ «مِراةٌ» في «مِرآةٍ»؛ وَ«المَلاةُ» في «المَلاءَةِ»؛ وَ«انْدَريتُ» في «انْدَرَأْتُ»(٥). وَكَقَوْلِهِمْ «بَزيمٌ» للحَديدَةِ التي تَكونُ في طَرَفِ حِزامِ السَّرْجِ؛ وَالصَّوابُ «إِبْزيمٌ» وَفيهِ لُغَةٌ أُخرى، يُقالُ إِبْزامٌ وَالجَمْعُ «أَبازيمُ»، وأيضاً «إِبْزينٌ» وَيُجْمَعُ عَلى «أَبازينَ»(٦).

وَوَضَعَ العَوامُّ مُفْرَداتٍ في غَيْرِ مَواضِعِها كَقَوْلِهِمْ:

«خَرَجْنا نَتَنَزَّهُ» إِذا خَرَجوا إِلى البَساتينِ، وَإِنَّما التَّنَزُّهُ التَّباعُدُ عَنِ

---

(١) ينظر: الزبيدي، محمّد بن الحسن: **لحن العوامّ**، تحقيق الدكتور رمضان عبد التوّاب، دار العروبة، الطّبعة الأولى، القاهرة، ١٩٦٤م، ص: ٣٩، ٤٠.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ص: ٢٠، ٢١.

(٣) ينظر: **إصلاح المنطق**، م. م. ص: ١٨٣.

(٤) ينظر: الكسائيّ، علي بن حمزة: **ما تلحن فيه العامّة**، تحقيق الدكتور رمضان عبد التوّاب، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، الطّبعة الأولى، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٢ م، ص: ١٠٥، ١٠٦.

(٥) ينظر: **إصلاح المنطق**، م. م. ص: ١٤٧ - ١٥٠.

(٦) ينظر: **لحن العوامّ**، م. م. ص: ١٥، ١٦.

المِياهِ وَالأَزْيافِ»[1]. وَشاعَ غَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الأَخْطاءِ التي لا يَسْمَحُ المَقامُ بَسَرْدِها كُلِّها.

وَبِالرَّغْمِ مِنَ المُحاوَلاتِ التي بَذَلَها اللُّغَوِيُّونَ وَالنَّحْوِيّونَ مِنْ أَجْلِ إِصْلاحِ ما فَسَدَ مِنَ اللِّسانِ، فَإِنَّ العَوامَّ لَمْ يَجِدوا بَأْساً في أَنْ يَتَواصَلوا فيما بَيْنَهُمْ بِلُغَتِهِم العامِيَّةِ وَالمَلْحونَةِ، فَكانَ «السُّوقِيُّ يَفْهَمُ رَطانَةَ السّوقِيِّ»[2]، بَلْ إِنَّهُمْ رَفَضوا التَّجاوُبَ مَعَ مَنْ كَلَّمَهُمْ بِلُغَةٍ مُعْرَبَةٍ أَثْناءَ أَعْمالِهِم اليَوْمِيَّةِ. مِنْ ذَلِكَ أَنَّ نَحْوِيّاً «وَقَفَ عَلى صاحِبِ بِطّيخٍ فَقالَ: بِكَمْ تِلْكَ وَذانِكَ الفارِدَةُ؟ فَنَظَرَ يُمْناً وَشِمالاً ثُمَّ قالَ: اعْذُرْني فَما عِنْدي شَيْءٌ يَصْلُحُ للصَّفْعِ»[3] وَوَقَفَ آخَرُ عَلى زَجّاجٍ وَقالَ لَهُ: «بِكَمْ هاتانِ القِنّينتانِ اللَّتانِ فيهِما نُكْتَتانِ خَضْراوتانِ؟ فَقالَ الزَّجّاجُ: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[4]»[5]. وَالأَدْهى مِنْ ذَلِكَ دُخولُ مُتَفَصِّحٍ عَلى رَجُلٍ يَجودُ بِنَفْسِهِ في البَصْرَةِ وَقَوْلُهُ لَهُ: يا فُلانُ قُلْ (لا إِلَهَ إِلا اللهُ) وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ (لا إِلَهَ إِلا اللهَ) وَالأُولى أَحَبُّ إِلى سيبَوَيْهِ. فَقالَ الرَّجُلُ لِمَنْ حَوْلَهُ: سَمِعْتُمُ ابْنَ الفاعِلَةِ يَعْرِضُ أَفْعالَ النَّحْوِيّينَ عَلى رَجُلٍ يَموتُ![6].

وَقَريبٌ مِنْ هَذا المَوْقِفِ ما حَدَثَ لِرَجُلٍ كانَ عِنْدَهُ «وَلَدٌ نَحْوِيٌّ يَتَقَعَّرُ في كَلامِهِ. فَاعْتَلَّ أَبوهُ عِلَّةً شَديدَةً أَشْرَفَ مِنْها عَلى المَوْتِ، فَاجْتَمَعَ

---

(١) إصلاح المنطق، م. م. ص: ٢٨٧.
(٢) البيان والتبيين، م. م. ج١: ١٤٤.
(٣) أخبار الحمقى والمغفلين، م. م. ص: ١٢٦.
(٤) سورة الرحمن: ٦٤، ٦٥.
(٥) أخبار الحمقى والمغفلين، م. م. ص: ١٢٦.
(٦) ينظر: المرجع السابق، ص: ١٢٠.

عَلَيْهِ أَوْلادُهُ وَقالوا لَهُ: نَدْعو لَكَ فُلاناً أخانا. قالَ: لا، إنْ جاءَني قَتَلني، فَقالوا نَحْنُ نُوصيهِ أَنْ لا يَتَكَلَّمَ، فَدَعوهُ فَلَمّا دَخَلَ عَلَيْهِ قالَ لَهُ: يا أَبَتِ قُلْ: لا إِلَهَ إِلا اللهُ تَدْخُلِ الجَنَّةَ وَتَفُزْ مِنَ النّارِ. يا أَبَتِ وَاللهِ ما شَغَلَني عَنْكَ إِلّا فُلانٌ فَإِنَّهُ دَعاني بِالأَمْسِ، فَأَهْرَسَ، وَأَعْدَسَ، وَاسْتَبْذَجَ، وَسَكْبَجَ، وَطَهْبَجَ، وَأَفْرَخَ، وَدَجَجَ، وَأَبْصَلَ، وَأَمْضَرَ، وَلَوْزَجَ، وَافْلَوْزَجَ. فَصاحَ أَبوهُ: غَمِّضوني، فَقَدْ سَبَقَ ابْنُ الزّانِيَةِ مَلَكَ المَوْتِ إِلى قَبْضِ روحي»[1].

وَبِالرَّغْمِ مِنْ تَعَرُّضِ العَوامِّ لِلنَّحْوِيّينَ وَالمُتَفَصِّحينَ، فَإِنَّهُ وُجِدَ بَيْنَ صُفوفِهِمْ مَنْ أَلَمَّ بِجُمْلَةٍ مِنْ قَواعِدِ النَّحْوِ، وَلا سِيَّما أُولَئِكَ الَّذينَ ذَهَبوا إِلى الكَتاتيبِ، أَوْ حَضَروا مُناظَراتِ اللُّغَوِيّينَ وَالنَّحْوِيّينَ، يَظْهَرُ ذَلِكَ مِنْ خِلالِ الرِّوايَةِ التّالِيَةِ: قالَ جَعْفَرٌ البَرْنِيُّ[2] «مَرَرْتُ بِسائِلٍ عَلى الجِسْرِ وَهُوَ يَقولُ: مِسْكيناً ضَريراً، فَدَفَعْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ: يا هَذا لِمَ نَصَبْتَ؟ قالَ: فَدَيْتُكَ، بِإِضْمارِ ارْحَموا»[3].

إِلّا أَنَّ مَعْرِفَتَهُمْ بِذَلِكَ كانَتْ قَليلَةً وَمَحْدودَةً، وَاخْتَلَطَتْ عَلَيْهِمُ الأُمورُ، حَتّى صارَ الواحِدُ مِنْهُمْ يُعَلِّلُ القاعِدَةَ بِحَسَبِ اجْتِهادِهِ وَقُصورِ مَعْرِفَتِهِ؛ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَجُلاً قالَ لِآخَرَ: لَقَدْ عَرَفْتُ النَّحْوَ، إِلّا أَنّي لا أَعْرِفُ هَذا الذي يَقولونَ: أَبو فُلانٍ وَأَبا فُلانٍ وَأَبي فُلانٍ. فَقالَ لَهُ: هَذا أَسْهَلُ الأَشْياءِ في النَّحْوِ، إِنَّما يَقولونَ أَبا فُلانٍ لِمَنْ عَظُمَ قَدْرُهُ، وَأَبو

(١) المستطرف، م. م. ج ٢: ٢٧.
(٢) لم أقف على ترجمته.
(٣) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي: كتاب الأذكياء، تحقيق أسامة عبد الكريم الرفاعي، مكتبة الغزالي، الطبعة الأولى، دمشق، ١٣٩١ هـ - ١٩٧١م، ص: ١٧٩.

فُلانٍ لِلْمُتَوَسِّطينَ، وَأبي فُلانٍ للرَّذَلَةِ»[1].

وَمِثْلَما سَخِرَ العَوامُّ مِنَ النَّحْوِيِّينَ، فَإِنَّهُمْ سَخِروا مِمَّنْ تَحَذْلَقَ مَعَهُمْ في الكَلامِ، وَكَلَّمَهُمْ بِلُغَةٍ تُغايِرُ مُسْتَوى كَلامِهِمْ؛ وَهَذا ما حَصَلَ لِرَجُلٍ[2] «وَقَفَ عَلى نَخّاسِ الدَّوابِّ، فَقالَ لَهُ: اطْلُبْ لي حِماراً لَيْسَ بِالصَّغيرِ المُحْتَقَرِ، وَلا بِالكَبيرِ المُشْتَهَرِ، إِنْ خَلا الطَّريقُ تَدَفَّقَ، وَإِنْ كَثُرَ الزِّحامُ تَرَفَّقَ، لا يُصادِمُ في السَّواري، وَلا يَدْخُلُ تَحْتَ البَواري، إِنْ أَقْلَلْتُ عَلَفَهُ صَبَرَ، وَإِنْ أَكْثَرْتُ لَهُ شَكَرَ، وَإِنْ رَكِبْتُهُ هامَ، وَإِنْ رَكِبَهُ غَيْري نامَ. فَقالَ لَهُ النَّخّاسُ: اصْبِرْ يا عَبْدَ اللهِ، فَإِذا مُسِخَ القاضي حِماراً، أَصَبْتَ حاجَتَكَ إِنْ شاءَ اللهُ تَعالى»[3].

وَكَذلِكَ رَفَضوا التَّواصُلَ مَعَ مَنْ حَدَّثَهُمْ بِكَلامٍ فَوْقَ عُقولِهِمْ وَمَنازِلِهِمْ، كَقَوْلِ أَبي عَلْقَمَةَ[4] لِحَجّامٍ: «اشْدُدْ قَصَبَ المَلازِمِ[5]، وَأَرْهِفْ ظُباتِ المَشارِطِ، وَأَسْرِعِ الوَضْعَ وَعَجِّلِ النَّزْعَ، وَلْيَكُنْ شَرْطُكَ وَخزاً، وَمَصُّكَ نَهْزاً، وَلا تُكْرِهَنَّ أَبِيّاً، وَلا تَرُدَّنَّ أَتِيّاً. فَوَضَعَ الحَجّامُ مَحاجِمَهُ في جونَتِهِ[6] ثُمَّ مَضى»[7].

وَقَدِ اسْتَعْصى عَلى العَوامِّ فَهْمُ الغَريبِ أَوِ الوَحْشِيِّ مِنَ الكَلامِ الخارِجِ عَنْ دائِرَةِ مُحيطِهِمْ؛ فَأَبو عَلْقَمَةَ قالَ أَيْضاً لِقَوْمٍ مِنَ البَصْرَةِ وَثَبُوا

---

(١) **أخبار الحمقى والمغفّلين**، م. م. ص: ١٢٣.

(٢) هو الشاعر أحمد بن محمّد القزوينيّ. ينظر: المرجع السابق، ص: ١٢٦.

(٣) **بهجة المجالس**، م. م. ١: ٥٦٢؛ وينظر: **أخبار الحمقى والمغفّلين**، م. م. ص: ١٢٦ (باختلاف).

(٤) أبو علقة النميري: نحوي كان يتقعر في كلامه، راجع: **معجم الأدباء**، م. م. ج١٢: ٢٠٥ ـ ٢١٥.

(٥) الملازم، جمع ملزم، بكسر الميم: خشبتان مشدود أوساطهما بحديدة تجعل في طرفها قناحة ـ أي عود معطوف ـ فتلزم ما فيها لزوماً شديداً.

(٦) الجُونة، بضم الجيم: سليلة مستديرة مغشاة أدما.

(٧) **البيان والتبيين**، م. م. ج١: ٣٨٠.

عَلَيْهِ: «ما لَكُمْ تَتَكَأْكَأونَ عَلَيَّ كَما تَتَكَأْكَأونَ على ذي جِنَّةٍ، افْرَنْقِعُوا عَنّي»[1]. وَلَمّا لَمْ يَفْهَمِ القَوْمُ كَلامَهُ، قيلَ لَهُمْ: «دَعوهُ فَإِنَّ شَيْطانَهُ يَتَكَلَّمُ بِالهِنْدِيَّةِ»[2].

وَبِالرَّغْمِ مِنِ اسْتِخْفافِ أَهْلِ الخاصَّةِ بِلُغَةِ العَوامِّ كَما رَأَيْنا، فَإِنَّ الجاحِظَ - الذي يُعَدُّ مِنْ أَهْلِ الخاصَّةِ - يَرى وُجوبَ سَرْدِ نَوادِرِ العَوامِّ وَمُلَحِهِمْ كَما جاءَتْ عَلى أَلْسِنَتِهِمْ دونَ الحاجَةِ إِلى الإِعْرابِ وَإِلى الأَلْفاظِ الجَزْلَةِ فَيَقولُ: «... إِذا سَمِعْتَ بِنادِرَةٍ مِنْ نَوادِرِ العَوامِّ، وَمُلْحَةٍ مِنْ مُلَحِ الحِشْوَةِ وَالطَّغامِ، فَإِيّاكَ وَأَنْ تَسْتَعْمِلَ فيها الإِعْرابَ، أَوْ تَتَخَيَّرَ لَها لَفْظاً حَسَناً، أَوْ تَجْعَلَ لَها مِنْ فيكَ مَخْرَجاً سَرِيّاً؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُفْسِدُ الإِمْتاعَ بِها، وَيُخْرِجُها مِنْ صورَتِها، وَمِنَ الذي أُريدَتْ لَهُ، وَيُذْهِبُ اسْتِطابَتَهُمْ إِيّاها وَاسْتِمْلاحَهُمْ لَها»[3].

وَيَرى أَيْضاً وجوبَ سَرْدِ الأَحاديثِ المُضْحِكَةِ بِأَلْفاظِها السَّخيفَةِ، وَعَدَمَ إِعْرابِها، فَيوصي قائِلاً: «... وَإِذا كانَ مَوْضِعُ الحَديثِ عَلى أَنَّهُ مُضْحِكٌ وَمُلْهٍ وَداخِلٌ في بابِ المُزاحِ وَالطّيبِ، فَاسْتَعْمَلْتَ فيهِ الإِعْرابَ، انْقَلَبَ عَنْ جِهَتِهِ. وَإِنْ كانَ في لَفْظِهِ سُخْفٌ وَأَبْدَلْتَ السَّخافَةَ بِالجَزالَةِ، صارَ الحَديثُ الذي وُضِعَ عَلى أَنْ يَسُرَّ النُّفوسَ يُكْرِبُها، وَيَأْخُذُ بِأَكْظامِها[4]»[5].

---

(١) **البيان والتبيين**، م. م. ج١: ٣٧٩، ٣٨٠.
(٢) المرجع السابق، ج١: ٣٨٠.
(٣) المرجع السابق، ج١: ١٤٦.
(٤) أكظامها: جمع كظم، بالتحريك: مخرج النَّفَس.
(٥) **كتاب الحيوان**، م. م. ج٣: ٣٩؛ وراجع في المصدر نفسه، ج١: ٢٨٢، كلاماً قريباً ممّا تقدّم.

وَهَكَذا فَإِنَّ العَوامَّ تَوَسَّعوا في اسْتِخْدامِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَقَدِ اسْتُقْبِحَتْ لُغَتُهُمْ بِلِحاظٍ اجْتِماعِيٍّ لا لُغَوِيٍّ، وَلا يَنْفي هَذا انْتِشارَ التَّعابيرِ الحَقيرَةِ أَوِ الفاسِدَةِ في كَلامِهِمْ بِسَبَبِ الجَهْلِ المُنْتَشِرِ عادَةً بَيْنَهُمْ، وَقُعودِهِمْ عَنْ مُحاوَلَةِ تَهْذيبِ أَلْفاظِهِمْ. كَما شاعَ اللَّحْنُ عَلى أَلْسِنَتِهِمْ، وَتَواصَلوا فيما بَيْنَهُمْ بِلُغَتِهِمِ العامِيَّةِ وَالمَلْحونَةِ، وَكَرِهوا لُغَةَ النَّحْوِيّينَ وَالمُتَفَصِّحينَ؛ وَجَهِلوا الغَريبَ أَوِ الوَحْشِيَّ مِنَ الكَلامِ لِعَدَمِ حاجَتِهِمْ إِلَيْهِ في حَياتِهِم اليَوْمِيَّةِ. وَكانَتْ لِلُّغَةِ العامِيَّةِ مَقاماتٌ اسْتُحْسِنَتْ فيها، كَمَقامِ المُزاحِ وَالضَّحِكِ وَالنَّوادِرِ.

وَإِذا كانَ العَوامُّ دونَ الخَواصِّ في المُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ، فَإِنَّ الرَّقيقَ كانوا دونَ هَؤُلاءِ جَميعاً، بِالرَّغْمِ مِنْ نُبوغِ بَعْضِهِمْ في نَواحٍ شَتّى.

وَأَكْثَرُ ما حَفِظَتْ كُتُبُ التّاريخِ وَالأَدَبِ قِصَصَ الجَواري مِنَ الرَّقيقِ، لِذا فَإِنَّ مَحَطَّتَنا الأَخيرَةَ سَتَكونُ عِنْدَ لُغَةِ الجَواري في الفَصْلِ التّالي.

الفَصْلُ الرّابِعَ عَشَرَ

لُغَةُ الجَواري

لَنا أَنْ نَتَصَوَّرَ كَثْرَةَ الرَّقيقِ في العُهودِ الإِسْلامِيَّةِ إِبّانَ الفُتوحِ، حَيْثُ كانَ النَّصْرُ، عادَةً، حَليفَ المُسْلِمينَ. وَكانَ الرَّقيقُ يُعَدُّ، كَالمالِ، جُزْءاً مِنَ الغَنيمَةِ، يُوَزَّعُ مِنْهُ لِلْمُقاتِلينَ وَللصّالِحِ العامِّ طِبْقاً لِلْقَواعِدِ الفِقْهِيَّةِ، وَتَجْري عَلَيْهِ العُقودُ المالِيَّةُ مِنْ بَيْعٍ وَشِراءٍ وَإِجارَةٍ وَرَهْنٍ(١).

وَبِالرَّغْمِ مِنِ اهْتِمامِ الإِسْلامِ بِتَحْريرِ العَبيدِ وَالحَضِّ عَلى عِتْقِهِمْ، فَإِنَّ تِجارَةَ الرَّقيقِ راجَتْ آنَذاكَ رَواجاً كَبيراً حَتّى أُنْشِئَ في بَغْدادَ شارِعٌ سُمِّيَ شارِعَ دارِ الرَّقيقِ، عَرَضَ فيهِ النَّخّاسونَ أَنْواعَ الجَواري وَالغِلْمانِ وَأَجْناسَهُمْ، وَأَشْرَفَ عَلى النَّخّاسينَ عامِلٌ مِنْ عُمّالِ الحُكومَةِ سُمِّيَ قَيِّمَ الرَّقيقِ(٢).

فَلا غَرابَةَ، إِذاً، أَنْ يَدْخُلَ الرَّقيقُ كُلَّ بَيْتٍ، وَأَنْ يَكونَ بِمُتَناوَلِ كُلِّ الطَّبَقاتِ الاجْتِماعِيَّةِ، وَأَنْ يَمْتَلِكَ الفَرْدُ ما شاءَ مِنْهُ بِمِقْدارِ قُدْرَتِهِ الشِّرائِيَّةِ، عَلاوَةً عَلى ما غَنِمَ مِنْهُ في الحُروبِ.

وَقَدْ أَكْثَرَ الخُلَفاءُ وَالوُزَراءُ وَأَهْلُ اليَسارِ مِنِ اقْتِناءِ الرَّقيقِ وَلا سِيَّما

---

(١) ينظر: ضحى الإسلام، ج١: ٧٩، ٨٠.

(٢) ينظر: المرجع السابق، ج١: ٨٣، ٨٤.

الجَواري. فَالرَّشيدُ وَزَوْجَتُهُ زُبَيْدَةُ[(١)] ـ عَلى سَبيلِ المِثالِ ـ كانَ عِنْدَ كُلٍّ مِنْهُما أَلْفا جارِيَةٍ في أَحْسَنِ زِيٍّ مِنَ الثِّيابِ وَالجَوْهَرِ[(٢)]، وَكذَلِكَ مَلَكَ الأَمينُ وَالمَأْمونُ وَالمُتَوَكِّلُ وَباقي الخُلَفاءِ مِئاتِ الجَواري.

وَكانَ أَكْثَرُ الإِماءِ أَحْظى عِنْدَ الرِّجالِ مِنَ الحَرائِرِ، حَتّى قيلَ: «مَنْ أَرادَ قِلَّةَ المَؤونَةِ، وَخِفَّةَ النَّفَقَةِ، وَحُسْنَ الخِدْمَةِ، وَارْتِفاعَ الحِشْمَةِ، فَعَلَيْهِ بِالإِماءِ دونَ الحَرائِرِ»[(٣)]. وَلِهَذا كَثُرَ أَوْلادُهُنَّ في دورِ الخاصَّةِ وَالعامَّةِ. فَعَلى سَبيلِ المِثالِ، لا نَجِدُ في خُلَفاءِ بَني العَبّاسِ مِنْ أَبْناءِ الحَرائِرِ إِلّا السَّفاحَ وَالمَهْدِيَّ وَالأَمينَ[(٤)]. وَكانَ لِهَذا الأَمْرِ تَأْثيراتُهُ السِّياسِيَّةُ، وَالاجْتِماعِيَّةُ، وَالثَّقافِيَّةُ، وَاللُّغَوِيَّةُ في الحاضِرَةِ العَبّاسِيَّةِ.

وَلَمْ تَكُنِ الجَواري مِنْ جِنْسِيَّةٍ واحِدَةٍ، بَلْ كُنَّ رومِيّاتٍ، وَهِنْدِيّاتٍ، وَسِنْدِيّاتٍ، وَتُرْكِيّاتٍ، وَحَبَشِيّاتٍ، وَسودانِيّاتٍ، وَأَرْمينِيّاتٍ، وَمَكِّيّاتٍ، وَمَدَنِيّاتٍ. وَمَعَ مَبْدَأِ حُرِيَّةِ المُعْتَقَدِ، بَقِيَتْ بَعْضُ الجَواري عَلى دِيانَتِهِنَّ السّابِقَةِ، وَتَكَلَّمْنَ بِلُغَةِ قَوْمِهِنَّ، وَلَمْ يُحْسِنَّ العَرَبِيَّةَ[(٥)].

إِلّا أَنَّ الغالِبِيَّةَ مِنْهُنَّ أَسْلَمْنَ، وَكانَ إِسْلامُ الكثيراتِ مِنْهُنَّ سَطْحِيّاً لَمْ يُلامِسْ روحَ العَقيدَةِ الَّتي تَتَغَلْغَلُ في كُلِّ مَفاصِلِ الحَياةِ؛ وَيَكْفي

---

(١) زبيدة بنت جعفر بن المنصور العبّاسيّ، أم جعفر (ت ٢١٦هـ/ ٨٣١م) زوجة هارون الرشيد وأمّ الأمين العبّاسيّ. أسمها «أمة العزيز» وغلب عليها لقبها زبيدة. إليها تنسب عين زبيدة في مكّة. كان لها ثروة واسعة توفّيت ببغداد.

(٢) ينظر: **الأغاني**، م. م. ج١٠: ١٧٢.

(٣) الجاحظ، عمرو بن بحر: **المحاسن والأضداد**، دار مكتبة العرفان، لبنان، د. ط. د. ت. ص: ٢٩٩.

(٤) ينظر: الثعالبيّ، عبد الملك بن محمّد: **لطائف المعارف**، تحقيق إبراهيم الأبياري وحسن كامل الصّيرفي، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، د. ت. ص: ١٢٥.

(٥) راجع: **الأغاني**، م. م. ج١٠: ١٣٨؛ ج٢٢: ٢١٣، ٢١٤.

مُطالَعَةُ رَسائِلِ الجاحِظِ في القِيانِ وَالجَواري، وَالنَّظَرُ في كِتابِ الأَغاني لِأَبي فَرَجِ الأَصْبَهانيِّ لِنَعْلَمَ التَّحَلُّلَ أَوِ الفَسادَ الذي اسْتَشْرى في الجَواري وَالغِلْمانِ؛ فَعَنْ فَسادِ الجَواري يَقولُ الجاحِظُ: «وَكَيْفَ تَسْلَمُ القَيْنَةُ مِنَ الفِتْنَةِ أَوْ يُمْكِنُها أَنْ تَكونَ عَفيفَةً، وَإِنَّما تَكْتَسِبُ الأَهْواءَ، وَتَتَعَلَّمُ الأَلْسُنَ وَالأَخْلاقَ بِالمَنْشَأِ مِنْ لَدُنْ مَوْلاها إِلى أَوانِ وَفاتِها فيما يَصُدُّ عَنْ ذِكْرِ اللهِ مِنْ لَهْوِ الحَديثِ، وَصُنوفِ اللَّعِبِ وَالأَخانيثِ، وَبَيْنَ الخُلَعاءِ وَالمُجّانِ، وَمَنْ لا يُسْمَعُ مِنْهُ كَلِمَةُ جِدٍّ وَلا يُرْجَعُ مِنْهُ إِلى ثِقَةٍ وَلا دينٍ وَلا صِيانَةٍ وَلا مُرُوَّةٍ. وَتَرْوي الحاذِقَةُ مِنْهُنَّ أَرْبَعَةَ آلافِ صَوْتٍ فَصاعِداً، يَكونُ الصَّوْتُ فيما البَيْتَيْنِ إِلى أَرْبَعَةِ أَبْياتٍ، عَدا ما يَدْخُلُ ذَلِكَ مِنَ الشِّعْرِ إِذا ضُرِبَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، عَشَرَةَ آلافِ بَيْتٍ، لَيْسَ فيها ذِكْرُ اللهِ إِلّا عَنْ غَفْلَةٍ، وَلا تَرْهيبٌ مِنْ عِقابٍ، وَلا تَرْغيبٌ في ثَوابٍ...»[1].

وَقَدْ وُجِدَ بَيْنَ الجَواري وَالإِماءِ مَنْ حَسُنَ إِسْلامُها، وَدَأَبَتْ عَلى حِفْظِ القُرْآنِ الكَريمِ وَتَعَلُّمِ الأَحْكامِ الدِّينيَّةِ، وَظَهَرَتْ مُفْرَداتُ القُرْآنِ في سِياقِ كَلامِها، كَتِلْكُما الجارِيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ أُدْخِلَتا عَلى المَنْصورِ، «فَقالَتِ التي دَخَلَتْ أَوَّلاً: يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، إِنَّ اللهَ فَضَّلَني عَلى هَذِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾[2]. وَقالَتِ الأُخْرى: لا، بَلِ اللهُ فَضَّلَني عَلَيْها بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾[3]»[4].

وَلَمّا كانَتِ العَرَبِيَّةُ لُغَةَ الدّينِ وَالحَياةِ، وَبِها تَواصَلَ أَبْناءُ الحاضِرَةِ العَبّاسِيَّةِ وَتَخاطَبوا، كانَ لا بُدَّ لِلْجَواري مِنَ التَّحَدُّثِ بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبينٍ،

(١) رسائل الجاحظ، م. م. ج٢: ١٧٦.
(٢) سورة التوبة: ١٠٠.
(٣) سورة الضحى: ٤.
(٤) نهاية الأرب، م. م. ج٤: ١٨.

وَالإلْمامِ بِقَواعِدِ العَرَبِيَّةِ. لَكِنَّ اللَّحْنَ فَشا عَلى أَلْسِنَتِهِنَّ غالِباً، «وَرُبَّما اسْتَمْلَحَ الرَّجُلُ ذَلِكَ مِنْهُنَّ ما لَمْ تَكُنِ الجارِيَةُ صاحِبَةَ تَكَلُّفٍ»[١]. فَصَعُبَ عَلَيْهِنَّ تَحْقيقُ بَعْضِ الحُروفِ كَالعَيْنِ وَالغَيْنِ وَالحاءِ وَالخاءِ وَالظّاءِ وَالضّادِ وَالقافِ، فَكانَ النَّخّاسُ «يَمْتَحِنُ لِسانَ الجارِيَةِ إِذا ظَنَّ أَنَّها رومِيَّةٌ وَأَهْلُها يَزْعُمونَ أَنَّها مُوَلَّدَةٌ بِأَنْ تَقولَ: ناعِمَةٌ، وَتَقولُ شَمْسٌ ثَلاثَ مَرّاتٍ مُتَوالِياتٍ»[٢].

فَالعَيْنُ غَيْرُ مَوْجودَةٍ في لُغَةِ الرّومِ، وَهَذا الصَّوْتُ الحَلْقِيُّ أَبْدَلَتْهُ الجَواري بِصَوْتٍ يُجاوِرُهُ هُوَ الهَمْزَةُ. فَقيلَ في ناعِمَةٍ: نائِمَةٌ. وَقَدْ ساقَ الجاحِظُ في البَيانِ وَالتَّبيينِ كَلِماتٍ أُبْدِلَتِ العَيْنُ بِالهَمْزَةِ[٣].

وعُرِفَ عَنْهُنَّ تَذْكيرُهُنَّ المُؤَنَّثَ وَتَأْنيثُهُنَّ المُذَكَّرَ[٤]. وَاللَّحْنُ نَفْسُهُ عُرِفَ عِنْدَ الغِلْمانِ أَيْضاً، وَفي هَذا يُرْوى «أَنَّ الجاحِظَ صارَ إِلى مَنْزِلِ بَعْضِ إِخْوانِهِ فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ غُلامٌ عَجَمِيٌّ فَقالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قالَ: الجاحِظُ. فَدَخَلَ الغُلامُ إِلى صاحِبِ الدّارِ فَقالَ: الجاحِدُ عَلى البابِ وَسَمِعَها الجاحِظُ، فَقالَ صاحِبُ الدّارِ لِلْغُلامِ: اخْرُجْ فَانْظُرْ مَنِ الرَّجُلُ؟ فَخَرَجَ يَسْتَخْبِرُ عَنِ اسْمِهِ فَقالَ: أَنا الحَدَقِيُّ. فَدَخَلَ الغُلامُ فَقالَ: الحَلَقِيُّ، وَسَمِعَها الجاحِظُ فَصاحَ بِهِ في البابِ: رُدَّنا إِلى الأَوَّلِ. يُريدُ أَنَّ قَوْلَهُ الجاحِدَ مَكانَ الجاحِظِ أَسْهَلُ عَلَيْهِ مِنَ الحَلَقِيِّ مَكانَ الحَدَقِيِّ، فَعَرَفَهُ الرَّجُلُ، فَأَوْصَلَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ»[٥].

---

(١) **البيان والتبين**، م. م. ج١: ١٤٦.
(٢) المرجع السابق، م. م. ج١: ٧١.
(٣) ينظر: المرجع السابق، ج١: ٧٠؛ ج٢: ٢١٣.
(٤) ينظر: المرجع السابق، ج١: ١٦٥.
(٥) **معجم الأدباء**، م. م. ج١٦: ٨٥.

وَلَمْ تَكُنِ الجَواري في مَرْتَبَةٍ واحِدَةٍ مِنَ الثَّقافَةِ وَالأدَبِ، وَالإلْمامِ بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَضَبْطِ قَواعِدِها، فَقَدْ حَظِيَتْ جَواري الطَّبَقاتِ العُلْيا بِعِنايَةٍ خاصَّةٍ، فَأُدِّبْنَ، وَثُقِّفْنَ، وَعُلِّمْنَ العَرَبِيَّةَ وَفَنَّ الغِناءِ قَبْلَ إرْسالِهِنَّ أَوْ بَيْعِهِنَّ إلى أَسْيادِهِنَّ. وَكانَتْ تِلْكَ الآدابُ تَتَعَلَّقُ بِالمَلابِسِ وَالنِّعالِ، وَالخَواتيمِ، وَالعِطْرِ، وَتَنْظيمِ باقاتِ الزُّهورِ وَالوُرودِ، وَآدابِ المائِدَةِ، وَآدابِ الحَديثِ وَالكَلامِ، فَتَعَلَّمْنَ كَيْفَ يَتَحَدَّثْنَ فَيُحْسِنَّ الحَديثَ، وَكَيْفَ يَجِبُ أن لا يُداخِلْنَ أَحَداً في حَديثِهِ، وَلا يَتَطَلَّعْنَ إلى مَكْتوبٍ يَقْرَأُهُ قارِئٌ، وَلا يَقْطَعْنَ عَلى مُتَكَلِّمٍ كَلامَهُ، وَلا يُحاوِلْنَ أَنْ يَسْتَمِعْنَ إلى أَحَدٍ يَتَحَدَّثُ في سِرٍّ، وَلا يَسْأَلْنَ عَمّا وُرِيَ عَنْهُنَّ عِلْمُهُ، وَلا يَتَكَلَّمْنَ فيما حُجِبَ عَنْهُنَّ فَهْمُهُ، وَلا يَتَثاءَبْنَ في مَجْلِسٍ، وَتَعَلَّمْنَ غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الأُمورِ التي جَعَلَتْهُنَّ ظَريفاتٍ رَقيقاتٍ[1].

وَفي المَحاسِنِ وَالأَضْدادِ للجاحِظِ، رِوايَةٌ للأَصْمَعِيِّ تَدُلُّنا عَلى سَعَةِ ثَقافَةِ جَواري هَذِهِ الطَّبَقاتِ؛ وَقَدْ جاءَ فيها أَنَّ الأَصْمَعِيَّ قالَ: «بَعَثَ إلَيَّ هارونُ الرَّشيدُ وَهُوَ بِالرَّقَّةِ فَحُمِلْتُ إلَيْهِ؛ فَأَنْزَلَني الفَضْلُ بْنُ الرَّبيعِ، ثُمَّ أَدْخَلَني عَلَيْهِ وَقْتَ الغُروبِ، فَاسْتَدْناني وَقالَ: يا عَبْدَ المَلِكِ، وَجَّهْتُ إلَيْكَ بِسَبَبِ جارِيَتَيْنِ أُهْدِيَتا إلَيَّ وَقَدْ أَخَذَتا طَرَفاً مِنَ الأَدَبِ، أَحْبَبْتُ أَنْ تُبْرِزَ ما عِنْدَهُما وَتُسيرَ عَلى الصَّوابِ فيهِما، ثُمَّ أَمَرَ بِإحْضارِهِما، فَحَضَرَتْ جارِيَتانِ ما رَأَيْتُ مِثْلَهُما قَطُّ. فَقُلْتُ لإحْداهُما: ما عِنْدَكِ مِنَ العِلْمِ؟ قالَتْ: ما أَمَرَ اللهُ في كِتابِهِ، ثُمَّ ما يَنْظُرُ فيهِ النّاسُ مِنَ الأَشْعارِ وَالأَخْبارِ، فَسَأَلْتُها عَنْ حُروفِ القُرْآنِ، فَأَجابَتْني كَأَنَّها تَقْرَأُ في كِتابِ اللهِ، ثُمَّ سَأَلْتُها عَنِ الأَشْعارِ وَالأَخْبارِ وَالنَّحْوِ وَالعَروضِ، فَما

---

(١) ينظر: أمين، أحمد: هارون الرشيد، دار الهلال، القاهرة، د. ط. د. ت. ص: ١٦٧، ١٦٨.

قَصَّرَتْ عَنْ جَوابِي في كُلِّ فَنٍّ أَخَذَتْ فيهِ. فَقُلْتُ لَها: فَأَنْشِدينا شَيْئاً، فَأَنْشَدَتْ: [الخفيف]

يا غِياثَ البِلادِ في كُلِّ مَحْلٍ ... ما يُريدُ العِبادُ إِلّا رِضاكَ

لا وَمَنْ شَرَّفَ الإِمامَ وَأَعْلى ... مَنْ أَطاعَ الإِلَهَ عَبْدٌ عَصاكَ

فَقُلْتُ: يا أَميرَ المُؤْمِنينَ ما رَأَيْتُ في نُسُكِ رَجُلٍ مِثْلَها. وَخَبَرْتُ الأُخرى فَوَجَدْتُها دونَها، فَأَمَرَ أَنْ تُصْنَعَ تِلْكَ الجارِيَةُ لِتُحْمَلَ إِلَيْهِ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ»(١).

فَقَدْ أَجادَتْ هَذِهِ الجارِيَةُ ما تَلَقَّتْهُ مِنْ عِلْمٍ وَأَدَبٍ: فَمِنَ القُرْآنِ إِلى الشِّعْرِ وَالأَخْبارِ، وَالنَّحْوِ وَالعَروضِ، الأَمْرُ الذي جَعَلَها مِنْ حاشِيَةِ الخَليفَةِ.

وَلَمّا كانَتِ العَرَبِيَّةُ الفُصْحى إِحْدى دَعائِمِ الطَّبَقَةِ الحاكِمَةِ، كانَ عَلى الجَواري الوافِداتِ عَلى مَجالِسِها مُواكَبَةُ أَذْواقِ أَصْحابِها لُغَةً وَثَقافَةً، فَأُوكِلَ إِلى عُلَماءِ العَرَبِيَّةِ تَعْليمُهُنَّ «أَسْرارَ اللِّسانِ، وَما لَحِقَ بِها مِنْ عُلومٍ كَلامِيَّةٍ تَنْفَعُهُنَّ في حَياتِهِنَّ المُقْبِلَةِ»(٢).

فَقَدْ تَعَهَّدَ بَعْضُ عُلَماءِ العَرَبِيَّةِ تَعْليمَ بَعْضِ الجَواري العَرَبِيَّةَ؛ وَفي هَذا يُرْوى أَنَّهُ جيءَ لِلْواثِقِ بِجارِيَةٍ مِنَ البَصْرَةِ، فَغَنَّتْ يَوْماً في مَجْلِسِهِ: [الكامل]

أَظُلَيْمُ إِنَّ مُصابَكُمْ رَجُلاً ... أَهْدَى السَّلامَ إِلَيْكُمْ ظُلْمُ(٣)

(١) المحاسن والأضداد، م. م. ص: ٢٩٤، ٢٩٥.

(٢) عبد النّور، جبور: الجواري، دار المعارف، الطّبعة الثانية، القاهرة، د. ت. ص: ٦٣، ٦٤.

(٣) الشعر للحارث بن خالد المخزومي؛ ينظر: الأغاني، م. م. ج٩: ٢٣٥.

فَقالَ لَها الواثِقُ: قولي «رَجُلٌ»، فَقالَتْ: لا أَقولُ إِلّا كَما عُلِّمْتُ. فَقالَ للفَتْحِ بْنِ خاقانَ: كَيْفَ هُوَ يا فَتْحُ؟ فَقالَ: هُوَ خَبَرُ «إِنَّ» كَما قالَ أَميرُ المُؤْمِنينَ؛ فَقالَتِ الجارِيَةُ: أَخَذْتُ هَذا الشِّعْرَ مِنْ أَعْلَمِ النّاسِ بِالعَرَبِيَّةِ، فَقالَ: وَمَنْ هُوَ؟ قالَتْ: بَكْرُ بْنُ عُثْمانَ المازِنِيُّ[1]، وَكانَ يُعْرِبُ شِعْرَ غِنائي، فَأَمَرَ الواثِقُ بِإِشْخاصِهِ مِنَ البَصْرَةِ. وَلَمّا حَضَرَ، سَأَلَهُ الخَليفَةُ عَنِ البَيْتِ فَأَجابَ بِما قالَتْهُ الجارِيَةُ، وَشَرَحَ للحاضِرينَ أَنَّ «رَجُلاً» مَفْعولُ المَصْدَرِ «مُصابَكُمْ»، أَيْ إِنَّ مُصابَكُمْ رَجُلاً كَقَوْلِ إِنَّ ضَرْبَكَ زَيْداً ظُلْمٌ. فَأَمَرَ الواثِقُ لَهُ بِصِلَةٍ، وَأَجْرى عَلَيْهِ كُلَّ شَهْرٍ مِئَةَ دينارٍ[2].

وَاسْتَطاعَ عَدَدٌ مِنَ جَواري هَذِهِ الطَّبَقَةِ تَوَلّي بَعْضِ المَناصِبِ، فَكُنَّ يَخْتَلِفْنَ في الحَوائِجِ، وَيَدْخُلْنَ في الدَّواوينِ، وَيَجْلِسْنَ للنّاسِ[3].

وَانْصَبَّ اهْتِمامُ النَّخّاسينَ وَمالِكي القِيانِ عَلى تَعْليمِهِنَّ فَنَّ الغِناءِ الذي انْتَشَرَ انْتِشاراً كَبيراً في المُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ، وَلا سِيَّما في بَغْدادَ؛ فَإِبْراهيمُ المُوصِلِيُّ[4] كانَ واحِداً مِنْ أُولَئِكَ الَّذينَ اهْتَمّوا بِهذا الفَنِّ وَأَلَّفَ شِرْكَةً لِتِلْكَ الغايَةِ[5].

فَإِجادَةُ الجارِيَةِ الغِناءَ يُضاعِفُ ثَمَنَها، وَلا سِيَّما إِذا قُرِنَ الغِناءُ

---

(١) بكر بن محمد، أبو عثمان المازني (ت٢٩٤ هـ/٨٦٣ م): من أئمة النّحو، من أهل البصرة. له تصانيف، منها: «ما تلحن فيه العامة»، و«الألف واللام»، و«التصريف»، و«العروض»، و«الديباج».

(٢) ينظر: الزبيدي، محمّد بن الحسن: طبقات النّحويّين واللغويّين. تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، الطّبعة الأولى، القاهرة، ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤م، ص: ٩٢، ٩٣؛ كتاب أخبار النّحويين البصريين، م. م. ص: ٧٤ ـ ٧٧. (وفيه «تحية» بدل «إليكم»).

(٣) ينظر: رسائل الجاحظ، م. م. ج٢: ١٥٦.

(٤) إبراهيم بن ماهان، الموصلي بالولاء، أبو إسحاق (النديم الموصلي) (ت ١٨٨هـ/ ٨٠٤م) أوحد زمانه في الغناء واختراع الألحان، من ندماء الخلفاء، فارسي الأصل. ولد بالكوفة، وتعلّم الضرب بالعود بالموصل، أخباره كثيرة. توفّي ببغداد.

(٥) ينظر: الأغاني، م. م. ج٣: ٢٥١.

بِتَعَلُّمِ الأَدَبِ «لِأَنَّ النّاسَ في ذَلِكَ العَصْرِ كانوا يَتَغَنَّوْنَ بِالشِّعْرِ العَرَبِيِّ الفَصيحِ مِثْلِ شِعْرِ عُمَرَ بْنِ أَبي رَبيعَةَ[1]، وَبَشّارٍ، وَمُسْلِمِ بْنِ الوَليدِ، وَأَبي العَتاهِيَةِ؛ وَالمُغَنِّيَةُ لا تُحْسِنُ أَنْ تُغَنِّيَ هَذِهِ الأَشْعارَ إِلّا إِذا حَفِظَتْ كَثيراً مِنَ الشِّعْرِ، وَأَجادَتْ مَخارِجَ الحُروفِ، وَاطَّلَعَتْ عَلى كَثيرٍ مِنَ الأَدَبِ»[2]. وَلِذَلِكَ دَأَبَتِ الجَواري عَلى حِفْظِ الأَشْعارِ، فَبَرَعْنَ في حِفْظِهِ وَإِنْشادِهِ مُنْذُ العَهْدِ الأُمَوِيِّ. وَفي هَذا قيلَ إِنَّهُ «وُصِفَتْ لِعَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوانَ جارِيَةٌ لِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصارِ ذاتُ أَدَبٍ وَجَمالٍ، فَساوَمَهُ في ابْتِياعِها، فامْتَنَعَ وَامْتَنَعَتْ، وَقالَتْ: لا أَحْتاجُ لِلْخِلافَةِ وَلا أَرْغَبُ في الخَليفَةِ، وَالذي أَنا في مُلْكِهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الأَرْضِ وَمَنْ فيها. فَبَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ المَلِكِ فَأَغْراهُ بِها؛ فَأَضْعَفَ الثَّمَنَ لِصاحِبِها وَأَخَذَها قَسْراً، فَما أُعْجِبَ بِشَيْءٍ إِعْجابَهُ بِها، فَلَمّا وَصَلَتْ إِلَيْهِ، وَصارَتْ في يَدَيْهِ، أَمَرَها بِلُزومِ مَجْلِسِهِ، وَالقِيامِ عَلى رَأْسِهِ؛ فَبَيْنَما هِيَ عِنْدَهُ، وَمَعَهُ ابْناهُ الوَليدُ وَسُلَيْمانُ[3]، وَقَدْ أَخْلاهُما لِلْمُذاكَرَةِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِما فَقالَ: أَيُّ بَيْتٍ قالَتْهُ العَرَبُ أَمْدَحُ؟ فَقالَ الوَليدُ: قَوْلُ جَريرٍ[4] فيكَ: [الوافر]

---

(١) عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزوميّ القرشيّ، أبو الخطاب (ت ٩٣هـ/ ٧١٢م): أرق شعراء عصره، من طبقة جرير والفرزدق. رفع إلى عمر بن عبد العزيز أنه يتعرّض لنساء الحجّ، ويشبّب بهنّ، فنفاه إلى دهلك. ثمّ غزا في البحر فاحترقت سفينته، فمات غرقاً. له ديوان شعر.

(٢) ضحى الإسلام، م. م. ج١: ٩٠.

(٣) سليمان بن عبد الملك، أبو أيّوب (ت ٩٩ هـ/ ٧١٧ م): خليفة أمويّ. ولي الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦ هـ في عهده فتحت جرجان وطبرستان. وقد أطلق الأسرى وأخلى السجون وعفا عن المجرمين. مدة خلافته سنتان وثمانية أشهر إلا أياماً.

(٤) جرير بن عطية بن حليفة الخطفيّ التميميّ، أبو حزرة (ت ١١٠ هـ/ ٧٢٨ م): أشعر أهل عصره. عاش عمره يناضل شعراء زمنه ويساجلهم، فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل، وقد جمعت نقائضه مع الفرزدق. له ديوان شعر.

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطايا وَأَنْدى العَالَمِينَ بُطونَ راحِ[1]

وَقالَ سُلَيْمانُ: بَلْ قَوْلُ الأَخْطَلِ[2]: [البسيط]

شُمْسُ العَداوَةِ حَتّى يُسْتَقادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النّاسِ أَحْلاماً إِذا قَدَرُوا[3]

فَقالَتِ الجارِيَةُ: بَلْ أَمْدَحُ بَيْتٍ قالَتْهُ العَرَبُ قَوْلُ حَسّانَ بْنِ ثابِتٍ[4]: [الكامل]

يُغْشَوْنَ حَتّى ما تَهِرُّ كِلابُهُمْ لا يَسْأَلونَ عَنِ السَّوادِ المُقْبِلِ[5]

فَأَطْرَقَ، ثُمَّ قالَ: أَيُّ بَيْتٍ قالَتْهُ العَرَبُ أَرَقُّ؟ فَقالَ الوَليدُ: قَوْلُ جَريرٍ: [البسيط]

إِنَّ العُيونَ التي في طَرْفِها حَوَرٌ قَتَلْنَنا ثُمَّ لَمْ يُحْيينَ قَتْلانا[6]

فَقالَ سُلَيْمانُ: بَلْ قَوْلُ عُمَرَ بْنِ أَبي رَبيعَةَ: [الخفيف]

---

(١) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٨٦م، ج١: ٨٩.

(٢) غياث بن غوث بن الصلت التغلبي، (الأخطل)، أبو مالك: (ت ٩٠هـ/ ٧٠٨م): شاعر، مصقول الألفاظ، حسن الديباجة، في شعره إبداع. اتصل بالأمويين فمدحهم وتهاجى مع جرير وفرزدق. له ديوان شعر.

(٣) ديوانه، ص: ١٠٦.

(٤) حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد (ت٥٤هـ/ ٦٧٤م): صحابي أدرك الجاهلية والإسلام. كان شاعر قومه في الجاهلية، وشاعر النبيّ في النبوة، وشاعر اليمنيين في الإسلام. كان شديد الهجاء، فحل الشعر.

(٥) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق الدكتور وليد عرفات، دار صادر، بيروت، د. ط. ٢٠٠٦م، ج١: ٧٤.

(٦) ديوانه، ج١: ١٦٣ وفيه (مرض بدل حور).

حَبَّذا رَجْعُها يَدَيْها إِلَيْها مِنْ يَدَيْ دِرْعِها تَحُلُّ الإزارا[1]

فَقالَتِ الجارِيَةُ: بَلْ بَيْتٌ يَقولُهُ حَسّانُ: [الخفيف]

لَوْ يَدِبُّ الحَوْلِيُّ مِنْ وَلَدِ الذَّ رِّ عَلَيْها لأَنْدَبَتْها الكُلومُ[2]

فَأَطْرَقَ، ثُمَّ قالَ: أَيُّ بَيْتٍ قالَتْهُ العَرَبُ أَشْجَعُ؟ فَقالَ الوَليدُ: قَوْلُ عَنْتَرَةَ[3]: [الكامل]

إِذْ يَتَّقونَ بيَ الأَسِنَّةَ لَمْ أَخِمْ[4] عَنْها، وَلَوْ أَنّي تَضايَقَ مَقْدَمي[5]

فَقالَ سُلَيْمانُ: بَلْ قَوْلُهُ: [الكامل]

وَأَنا المَنِيَّةُ في المَواطِنِ كُلِّها فَالمَوْتُ مِنّي سابِقُ الآجالِ[6]

فَقالَتِ الجارِيَةُ: بَلْ بَيْتٌ يَقولُهُ كَعْبُ بْنُ مالِكٍ[7]: [الكامل]

---

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه الدكتور فايز محمّد، دار الكتاب العربيّ، الطّبعة الثانية، بيروت، ١٤٦١هـ - ١٩٩٦م، ص: ١٥٦ وفيه: («في يدي» بدل «من يدي»).

(٢) ديوانه، ج١: ٤٠.

(٣) عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد العبسيّ (ت نحو ٢٢ق. هـ/ نحو ٦٠٠م): أشهر فرسان العرب في الجاهليّة، ومن شعراء الطّبقة الأولى. في شعره رقّة وعذوبة، وقلّ ما خلت قصائده من ذكر ابنة عمّه عبلة التي كان مغرماً بها. مات قتلاً. نسب إليه ديوان شعر أكثر ما فيه مصنوع.

(٤) لم أخم: لم أجبن ولم أحجم.

(٥) ديوان عنترة بن شدّاد، شرح الخطيب التبريزي، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه مجيد طراد، دار الكتاب العربيّ، الطّبعة الثالثة، بيروت، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ص: ١٨١.

(٦) ديوانه، ص: ١١٨ وروايته:

وَأَنا المَنِيَّةُ حينَ تَشْتَجِرُ القَنا وَالطَّعْنُ مِنّي سابِقُ الآجالِ

(٧) كعب بن مالك بن عمرو بن القين، الأنصاريّ (ت ٥٠هـ/ ٦٧٠م): صحابيّ، من أكابر الشعراء. اشتهر في الجاهليّة، وكان في الإسلام من شعراء النّبيّ (ص)، وشهد أكثر الوقائع. له ديوان شعر.

نَصِلُ السُّيوفَ إذا قَصُرْنَ بخَطْوِنا قُدُماً وَنُلْحِقُها إذا لَمْ تَلْحَقِ[1]

فَقالَ عَبْدُ المَلِكِ: أَحْسَنْتِ، وَما نَرى شَيْئاً في الإِحْسانِ إِلَيْكِ أَبْلَغَ مِنْ رَدِّكِ إلى أَهْلِكِ. فَأَجْمَلَ كِسْوَتَها، وَأَحْسَنَ صِلَتَها، وَرَدَّها إلى أَهْلِها»[2].

يُظْهِرُ هَذا النَّصُّ إِلْمامَ جَواري الطَّبَقَةِ العُلْيا بِالقَصائِدِ وَالأَبْياتِ الشِّعْرِيَّةِ، وَمَقْدِرَتَهُنَّ عَلى الحِفْظِ وَالإِنْشادِ بِلُغَةٍ سَليمَةٍ، وَقَدْ تَمَّ ذَلِكَ لَهُنَّ مِنْ خِلالِ الدُّرْبَةِ وَالتَّعْليمِ، فَهُؤلاءِ الجَواري أُعْدِدْنَ للدُّخولِ عَلى السَّلاطينِ، وَشارَكْنَ في المَجالِسِ الأَدَبِيَّةِ وَالشِّعْرِيَّةِ وَالغِنائِيَّةِ. فَالشِّعْرُ كانَ مِدْماكَ الغِناءِ إلى جانِبِ الأَدَبِ وَاللُّغَةِ، وَكُلُّ ذَلِكَ كانَ مِقْياساً لِقَبولِ الجارِيَةِ في دورِ السَّلاطينَ، إضافَةً إلى جَمالِها وَظَرْفِها. فَلَمّا أَرادَ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ طاهِرٍ[3] أَنْ يُهْدِيَ إلى المُتَوَكِّلِ جارِيَةً لِتَوَلّيهِ الخِلافَةَ، اخْتارَ لَهُ جارِيَةً مِنْ خُراسانَ «يُقالُ لَها مَحْبوبَةُ كانَتْ قَدْ أُنْشِئَتْ بِالطّائِفِ فَبَرَعَتْ في الجَمالِ وَالأَدَبِ وَأَجادَتْ قَوْلَ الشِّعْرِ وَحَذاقَةَ الغِناءِ»[4].

إلى جانِبِ تِلْكَ الخِصالِ الأَدَبِيَّةِ وَالجَمالِيَّةِ، كانَ حُسْنُ اخْتِيارِ الكَلامِ طَريقاً إلى قُلوبِ الخُلَفاءِ؛ فَعِنْدَما اسْتَعْرَضَ المَأْمونُ جارِيَةً أَعْجَبَتْهُ

---

(١) ديوان كعب بن مالك الأنصاريّ، دراسة وتحقيق سامي مكّي العاني، منشورات مكتبة النهضة، الطّبعة الأولى، بغداد، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م، ص: ٢٤٥.

(٢) الحصري، إبراهيم بن علي: زهر الآداب وثمر الألباب، شرح زكي مبارك، تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجاريّة الكبرى، الطّبعة الثالثة، القاهرة، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م، مج٣: ١١١٣ - ١١١٥.

(٣) لم أقف على ترجمته.

(٤) المستطرف، م. م. ج٢: ١٧٥.

قالَ: «هِيَ الحاجَةُ لَوْلا عِوَجٌ في رِجْلَيْها، فَقالَتْ: يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، إِنَّهُما وَراءَكَ، وَلَنْ يَضُرّاكَ. فَاسْتَحْسَنَ كَلامَها وَأَمَرَ بِشِرائِها»[1].

وَقَدْ تَنَبَّهَتْ جَواري هَذِهِ الطَّبَقَةِ إِلى ضَرورَةِ سَوْقِ الكَلامِ بِما يُوافِقُ المَقامَ، فَعَريبُ[2] ـ مَثَلاً ـ التي انْشَغَلَتْ بِالغِناءِ وَفُنونِهِ، وَلَمْ تَتَوَرَّعْ عَنِ الكَلامِ الفاحِشِ[3]، كانَتْ تَتَكَلَّمُ بِلُغَةٍ راقِيَةٍ وَرفيعَةِ المُسْتَوى إِنِ اقْتَضى ذَلِكَ المَقامُ، فَلَمّا هَجَرَها المَأْمونُ، ثُمَّ عادَها إِثْرَ عِلَّةٍ أَلَمَّتْ بِها وَسَأَلَها: كَيْفَ وَجَدْتِ طَعْمَ الهَجْرِ؟ قالَتْ: يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، لَوْلا مَرارَةُ الهَجْرِ ما عَرَفْتُ حَلاوَةَ الوَصْلِ، وَمَنْ ذَمَّ بَدْءَ الغَضَبِ أَحْمَدَ عاقِبَةَ الرِّضا. فَقالَ المَأْمونُ لِجُلَسائِهِ لَمّا عادَ إِلَيْهِمْ وَحَدَّثَهُمْ بِقَوْلِها: أَتُرى هَذا لَوْ كانَ مِنْ كَلامِ النَّظّامِ أَلَمْ يَكُنْ كَبيراً؟[4].

وَكانَ لِلعَوامِّ أَيْضاً قِيانُهُمْ وَجَواريهِمْ، وَكانَ لَهُمْ مَجالِسُ «تُغَنّي فيها القِيانُ المُحْتَرِفاتُ كَما كُنَّ يُغَنّينَ في الطُّرُقِ وَالمُنْتَدَياتِ وَالأَسْواقِ وَدورِ النَّخّاسينَ»[5].

وَكانَ غِناؤُهُنَّ بِالعَرَبِيَّةِ الفُصْحى أَيْضاً، وَقَدْ أَعَدَّ النَّخّاسونَ قِيانَهُمْ

---

(١) العامليّ، محمّد بن حسين (بهاء الدين): **المخلاة**، تحقيق محمّد خليل الباشا، عالم الكتب، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م، ص: ٥٩٢.

(٢) عريب المأمونيّة (ت ٢٧٧ هـ-٨٩٠ م): شاعرة، مغنيّة، أديبة، من أعلام العارفات بصنعة الغناء والضرب على العود. ولدت ببغداد. قيل: هي بنت جعفر بن يحيى البرمكيّ، وقيل: سرقت لمّا نكب البرامكة، وهي صغيرة فاشتراها الأمين، ثم اشتراها المأمون فقرّبها حتى نسبت إليه. ماتت بسامرّاء. ولغنائها ديوان.

(٣) ينظر: **الأغاني**، م. م. ج٢١: ٥٤ ـ ٩١ (نتف من أخبار عريب).

(٤) ينظر: المرجع السابق، ج٢١: ٨٠.

(٥) العمروسي، فايد: **الجواري والمغنيات**، دار المعارف، القاهرة، د. ط. ١٩٦١م، ص: ٢٤.

لِتِلْكَ الغايَةِ لِأَسْبابٍ اقْتِصادِيَّةٍ تَتَلَخَّصُ في زِيادَةِ أَسْعارِهِنَّ وَجَلْبِ المُعْجَبينِ مِنَ الشُّعَراءِ وَالمُجّانِ وَالخُلَعاءِ الَّذينَ يَقْضونَ أَوْقاتَهُمْ في الاسْتِماعِ إِلَيْهِنَّ وَالإِنْفاقِ عَلَيْهِنَّ(١).

وَقَدْ جَعَلَتْ هَؤُلاءِ القِيانُ الغِناءَ لُغَةً للتَّعْبيرِ عَمّا يَدورُ في خَلَدِهِنَّ عِنْدَما لَمْ يَسْمَحْ لَهُنَّ المَقامُ بِالتَّصْريحِ، مِنْ ذَلِكَ أَنْ قَيْنَةً اجْتَمَعَ لَها أَرْبَعَةٌ مِنْ عُشّاقِها في إِحْدى دورِ النَّخّاسينَ، «وَكُلُّهُمْ يُوَرّي عَنْ صاحِبِهِ أَمْرَهُ، وَيُخْفي عَنْهُ خَبَرَهُ، وَيومِئُ إِلَيْها بِحاجِبِهِ، وَيُناجيها بِلَحْظِهِ؛ وَكانَ أَحَدُهُمْ غائِباً فَقَدِمَ، وَالآخَرُ مُقيماً قَدْ عَزَمَ عَلى الشُّخوصِ، وَالثّالِثُ قَدْ سَلَفَتْ أَيّامُهُ، وَالرّابِعُ مُسْتَأْنِفَةٌ مَوَدَّتُهُ؛ فَضَحِكَتْ إِلى واحِدٍ، وَبَكَتْ إِلى آخَرَ، وَأَقْصَتْ آخَرَ، وَأَطْمَعَتْ آخَرَ؛ وَاقْتَرَحَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ ما يُشاكِلُ بَثَّهُ وَشَأْنَهُ؛ فَأَجابَتْهُ، فَقالَ القادِمُ: جُعِلْتُ فِداكِ، أَتُحْسِنينَ: [الطّويل]

وَمَنْ يَنْأَ عَن دارِ الهَوى يُكْثِرِ البُكا وَقَوْلَ لَعَلّي أَوْ عَسى سَيَكونُ
وَما اخْتَرْتُ نَأْيَ الدّارِ عَنْكِ لِسَلْوَةٍ وَلَكِنْ مَقاديرٌ لَهُنَّ شُؤونُ

فَقالَتْ: أُحْسِنُهُ، وَلا أُقيمُ لَحْنَهُ، وَلَكِنَّ مُطارِحَهُ لِتَسْتَغْنِيَ بِهِ عَنْهُ، لِقُرْبِهِ مِنْهُ، وَأَنا بِهِ أَحْذَقُ، ثُمَّ غَنَّتْ: [الطّويل]

وَما زِلْتُ مُذْ شَطَّتْ بِكَ الدّارُ باكِياً أُؤَمِّلُ مِنْكَ العَطْفَ حينَ تَؤوبُ
فَأَضْعَفْتَ ما بي حينَ أُبْتَ وَزِدْتَني عَذاباً وَإِعْراضاً وَأَنْتَ قَريبُ

وَقالَ الظّاعِنُ: جُعِلْتُ فِداكِ، أَتُحْسِنينَ: [الكامل]

---

(١) يذكر صاحب الأغاني أنه «كان في الكوفة صاحب قيان يقال له ابن رامين، قدمها من الحجاز؛ فكان من يسمع الغناء ويشرب النّبيذ يأتونه ويقيمون عنده» (الأغاني، م. م. ج١١: ٣٦٤) وابن رامين واحد من الذين اقتنوا القيان لتلك الغاية.

أَزِفَ الفِراقُ فَأَعْلِنِي جَزَعاً وَدَعي العِتابَ فَإِنَّنا سَفْرُ
إِنَّ المُحِبَّ يَصُدُّ مُقْتَرِباً فَإِذا تَباعَدَ شَفَّهُ الذِّكْرُ

قالَتْ نَعَمْ، وَأَحْسَنُ مِنْهُ وَمِنْ إِيقاعِهِ، ثُمَّ غَنَّتْ: [الخفيف]

لَأُتَيِّمَنَّ مَأْتَماً عَنْ قَريبِ لَيْسَ بَعْدَ الفِراقِ غَيْرُ النَّحيبِ
رُبَّما أَوْجَعَ النَّوَى لِلْقُلوبِ ثُمَّ لا سِيَّما فِراقُ الحَبيبِ

ثُمَّ قالَ السّالِفُ: جُعِلْتُ فِداكِ، أَتُحْسِنينَ: [الكامل]

كُنّا نُعاتِبُكُمْ لَيالِيَ عُودُكُمْ حُلْوُ المَذاقِ وَفيكُمْ مُسْتَعْتَبُ
فَالآنَ حينَ بَدا التَّنَكُّرُ مِنْكُمْ ذَهَبَ العِتابُ فَلَيْسَ عَنْكُمْ مَذْهَبُ

قالَ: لا، وَلَكِنْ أَحْسَنُ مِنْهُ في مَعْناهُ، ثُمَّ غَنَّتْ: [الطَّويل]

وَصَلْتُكَ لَمّا كانَ وِدُّكَ خالِصاً وَأَعْرَضْتُ لَمّا صارَ نَهْباً مُقَسَّما
وَلَنْ يَلْبَثَ الحَوْضُ الجَليدُ بِناؤُهُ إِذْ كَثُرَ الوُرّادُ أَنْ يَتَهَدَّما

فَقالَ المُسْتَأْنِفُ: أَتُحْسِنينَ، جُعِلْتُ فِداكِ: [الكامل]

إِنّي لَأُعْظِمُ أَنْ أَبوحَ بِحاجَتي وَإِذا قَرَأْتِ صَحيفَتي فَتَفَهَّمي
وَعَلَيْكِ عَهْدُ اللهِ إِنْ أَنْبَأْتِهِ أَحَداً وَلا آذَنْتِهِ بِتَكَلُّمِ

فَقالَتْ نَعَمْ، وَمِنْ غِناءِ صاحِبِهِ؛ ثُمَّ غَنَّتْ: [الطَّويل]

لَعَمْرُكَ ما اسْتَوْدَعْتُ سِرِّي وَسِرَّها سِوانا، حِذاراً أَنْ تَشيعَ السَّرائِرُ
وَلا خالَطَتْها مُقْلَتايَ بِنَظْرَةٍ فَتَعْلَمَ نَجْوانا العُيونُ النَّواظِرُ
وَلَكِنْ جَعَلْتُ الوَهْمَ بَيْني وَبَيْنَها رَسولاً فَأَدّى ما تُجِنُّ الضَّمائِرُ
أُكاتِمُ ما في النَّفْسِ خَوْفاً مِنَ الهَوى مَخافَةَ أَنْ يُغْرى بِذِكْرِكَ ذاكِرُ

فَتَفَرَّقوا كُلُّهُمْ قَدْ أَوْمَأَ بِحاجَتِهِ، وَأَجابَتْهُ بِجَوابِهِ»[1].

تَبْقى الإِشارَةُ إِلى الجَواري وَالإِماءِ اللَّواتي كُنَّ يَقُمْنَ بِالأَعْمالِ المَنْزِلِيَّةِ مِنْ تَنْظيفٍ وَتَرْتيبٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ في دورِ أَهْلِ الخاصَّةِ وَالعامَّةِ. وَأَكْثَرُ ما انْتَشَرَ اللَّحْنُ وَالخَطَأُ في لُغَةِ هَؤُلاءِ الجَواري لِعَدَمِ اهْتِمامِ أَسْيادِهِنَّ بِتَثْقيفِهِنَّ وَتَعْليمِهِنَّ، فَتَعَلَّمْنَ العَرَبِيَّةَ في مُحيطِهِنَّ الجَديدِ الذي كانَ يَعِجُّ بِالأَجْناسِ الأَعْجَمِيَّةِ المُخْتَلِفَةِ التي صَعُبَ عَلَيْها تَحْقيقُ بَعْضِ الحُروفِ العَرَبِيَّةِ كَما رَأَيْنا، إِلى جانِبِ الأَخْطاءِ النَّحْوِيَّةِ وَاللُّغَوِيَّةِ التي ظَهَرَتْ في سِياقِ كَلامِها وَأَحاديثِها[2].

وَأَكْثَرُ ما نَظَرَ الخَواصُّ بِهَوانٍ إِلى جَواري هَذِهِ المَرْتَبَةِ، وَحاوَلوا التَّرَفُّعَ عَنْ كُلِّ ما يَتَّصِلُ بِهِنَّ مِنْ سُلوكٍ وَأَفْعالٍ، بِما في ذَلِكَ أَساليبُهُنَّ اللُّغَوِيَّةُ[3].

نَصِلُ إِلى أَنَّ المُسْتَوى اللُّغَوِيَّ وَالثَّقافِيَّ وَالأَدَبِيَّ لِلْجارِيَةِ، اخْتَلَفَ بِاخْتِلافِ انْتِمائِها الاجْتِماعِيِّ. فَقَدْ جَرى الاهْتِمامُ بِجَواري الطَّبَقاتِ العُلْيا آنَذاكَ، وَلا سِيَّما طَبَقَةُ الخُلَفاءِ، فَأَلَمَّتْ هَؤُلاءِ الجَواري بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحى، وَأَخَذْنَ مِنْ عُلومِها وَآدابِها أَطْرافاً، وَأَتْقَنَّ حِفْظَ الشِّعْرِ وَإِنْشادَهُ في المَجالِسِ الأَدَبِيَّةِ وَالغِنائِيَّةِ.

وَأَخْرَجَتْ دورُ النَّخّاسينَ جَوارِيَ مُغَنِّياتٍ لِأَسْبابٍ اقْتِصادِيَّةٍ تَتَعَلَّقُ

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب، م. م. مج٣: ٩٠١ ـ ٩٠٣.

(٢) ينظر: البيان والتبيين، م. م. ج ٢: ٢١٠ ـ ٢١٩ (باب اللحن).

(٣) ينظر: الأغاني، م. م. ج٢١: ١٢٤.

بِجَلْبِ المُعْجَبينَ الَّذينَ يُنْفِقونَ عَلَيْهِنَّ الأَمْوالَ، كَما بيعَتْ تِلْكَ الجَواري للرَّاغِبينَ فيها. وَدونَ هَؤُلاءِ جَميعاً جَواري المَنازِلِ وَالدُّورِ، أَوِ الجَواري الخادِماتُ إِنْ صَحَّ التَّعْبيرُ. وَأَكْثَرُ ما ظَهَرَ اللَّحْنُ عَلى أَلْسِنَتِهِنَّ لِقِلَّةِ اهْتِمامِهِنَّ بِالشُّؤونِ الأَدَبِيَّةِ، وَساعَدَ عَلى ذَلِكَ عَدَمُ اهْتِمامِ أَسْيادِهِنَّ بِرَفْعِ مُسْتَوياتِهِنَّ الاجْتِماعِيَّةِ وَاللُّغَوِيَّةِ، وَنَظْرَتُهُمْ إِلَيْهِنَّ عَلى أَنَّهُنَّ أَدواتٌ للخِدْمَةِ أَوِ الاسْتِمْتاعِ.

وَكانَ للجَواري وَالقِيانِ الدَّوْرُ الكَبيرُ في نَشْرِ المَجونِ وَالخَلاعَةِ، وَفي ظُهورِ الشِّعْرِ الغَزَلِيِّ المَكْشوفِ، وَما اسْتَتْبَعَ ذَلِكَ مِنْ فَسادٍ خُلُقِيٍّ امْتَدَّتْ آثارُهُ إِلى دارِ الخِلافَةِ.

الخاتِمَةُ

في طَيّاتِ هذا الكِتابِ، رَأَيْنا أَنَّ اللُّغَةَ هِيَ بِنْيَةٌ اجْتِماعِيَّةٌ تَتَطَوَّرُ بِتَطَوُّرِ المُجْتَمَعِ الذي تَحْيا فيهِ، وَتَتَأَثَّرُ بِمُجْرِياتِ الأَحْداثِ وَالأَوْضاعِ التي يَمُرُّ بِها.

كَما أَنَّها مِرْآةٌ تَعْكِسُ صورَةَ ذَلِكَ المُجْتَمَعِ بِنُظُمِهِ الاجْتِماعِيَّةِ وَالسِّياسِيَّةِ وَالاقْتِصادِيَّةِ وَالثَّقافِيَّةِ السّائِدَةِ فيهِ. فَهاتانِ القَضِيَّتانِ: تَأَثُّرُ اللُّغَةِ بِالمُجْتَمَعِ، وَمَعْرِفَةُ أَحْوالِ المُجْتَمَعِ مِنْ خِلالِ اللُّغَةِ، عايَنْتُهُما في كِتاباتِ الجاحِظِ، فَظَهَرَ لي أَنَّ اللُّغَةَ الواحِدَةَ اخْتَلَفَتْ بِاخْتِلافِ البيئَةِ الجُغْرافِيَّةِ وَالاجْتِماعِيَّةِ لِلأَمْصارِ وَالبُلْدانِ، كَما كانَ مِنَ السَّهْلِ الكَشْفُ عَنِ الظُّروفِ الطَّبيعِيَّةِ وَالاجْتِماعِيَّةِ التي أَحاطَتْ بِمَوْطِنِ اللُّغَةِ مِنْ خِلالِ ما أَلِفَهُ أَهْلُ الحاضِرَةِ وَالبادِيَةِ مِنْ أَلْفاظٍ وَتَعابيرَ نَبَعَتْ مِنْ مُحيطِهِم الذي عاشوا فيهِ.

وَمِنْ خِلالِ كُتُبِ الجاحِظِ، ولا سِيَّمَا «البَيانُ وَالتَّبْيينُ» وَجَدْنا أَنَّ الأَعْرابَ حافَظُوا عَلى اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مِنْ خِلالِ رَفْدِ عُلَمائِها بِكُلِّ ما اتَّصَلَ بِهَذِهِ اللُّغَةِ عَلى مُسْتَوى الأَلْفاظِ وَالمَعاني، فَكانَتْ لُغَتُهُمْ سَدّاً مَنيعاً في وَجْهِ انْحِلالِ الفُصْحى في بَحْرِ اللَّحْنِ الذي امْتَدَّ بِامْتِدادِ الأَعاجِمِ في المُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ، مَعَ عَدَمِ إِغْفالِ أَنَّ لُغَتَهُمْ تِلْكَ تَأَثَّرَتْ بِبيئَتِهِمْ وَنُظُمِ عَيْشِهِمْ عَلى مُسْتَوى الدَّلالاتِ وَالصِّفاتِ.

وَظَهَرَ تَأَثُّرُ اللُّغَةِ بِالواقِعِ السِّياسِيِّ ـ الاجْتماعِيِّ فظهر لنا كَيْفَ أَنَّ الخُلَفاءَ وَنُظَراءَهُمْ اهْتَمّوا بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ الفُصْحى، حِفاظاً عَلى مَناصِبِهِمِ السِّياسِيَّةِ وَمَواقِعِهِمِ الاجْتِماعِيَّةِ، لارْتِباطِ العَرَبِيَّةِ بِالدِّينِ وَالسُّلْطَةِ.

كَما ظَهَرَتْ طُقوسٌ لُغَوِيَّةٌ في مُخاطَبَةِ الحُكّامِ بِالتَّزامُنِ مَعَ ظُهورِ عاداتِ الأُمَمِ المَغْلوبَةِ وَتَقاليدِها التي أَقَرَّتِ الطَّبَقِيَّةَ في تُراثِها الأَدَبِيِّ وَتاريخِها السِّياسِيِّ.

وَقَدْ خَضَعَتْ لُغَةُ الكُتّابِ لِلْواقِعِ الاجْتِماعِيِّ ـ الطَّبَقِيِّ الذي كَرَّسَتْهُ السُّلْطَةُ، فَحَكَمَتْ تِلْكَ اللُّغَةَ جُمْلَةُ قَواعِدَ، أَبْرَزُها وُجوبُ تَبايُنِ المُسْتَوياتِ اللُّغَوِيَّةِ في الرَّسائِلِ بِتَبايُنِ المَوْقِعِ الاجْتِماعِيِّ لِلْمُرْسِلِ وَالمُرْسَلِ إِلَيْهِ.

وَنَجِدُ أَيْضاً أَنَّ اللُّغَةَ دَمغَتْها ثَقافَةُ الفَرْدِ وَالجَماعَةِ. فَعَلى سَبيلِ المِثالِ، ظَهَرَتِ الأَلْفاظُ الفَلْسَفِيَّةُ وَالكَلامِيَّةُ في لُغَةِ الفَلاسِفَةِ وَالمُتَكَلِّمينَ داخِلَ دائِرَةِ عُلومِهِمْ وَخارِجَها، وَقَدْ تَعَدّى هَذا الأَمْرُ إِلى فِئاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ في المُجْتَمَعِ العَبّاسِيِّ، لِطُغْيانِ الفَلْسَفَةِ وَعِلْمِ الكَلامِ بَعْدَ التَّرْجَماتِ الكَثيرَةِ في هَذا المِضْمارِ، وَمُحاوَلَةِ الفَلاسِفَةِ بَلْوَرَةَ مَشْروعٍ فَلْسَفِيٍّ عَرَبِيٍّ يَقومُ عَلى أُسُسٍ إِسْلامِيَّةٍ.

أَمّا لُغَةُ الشُّعَراءِ، فَقَدْ أَخَذَتْ بِالتَّطَوُّرِ الحَضارِيِّ الذي نَعِمَ بِها المُجْتَمَعُ العَبّاسِيُّ، فَرَقَّتْ وَسَلُسَتْ وَابْتَعَدَتْ عَنِ الأَلْفاظِ وَالمَعاني الغَريبَةِ وَالوَحْشِيَّةِ لابْتِعادِ أَهْلِها عَنْ حَياةِ البَداوَةِ. وَفي الوَقْتِ عَيْنِهِ عَكَسَتْ تِلْكَ اللُّغَةُ مُجْمَلَ الأَحْداثِ، كَما عَكَسَتِ الأَحْوالَ الاجْتِماعِيَّةَ وَالاقْتِصادِيَّةَ لِمُخْتَلَفِ شَرائِحِ المُجْتَمَعِ آنَذاكَ.

وَقَدْ بَرَزَتْ ثَقافَةُ المُجْتَمَعِ في لُغَةِ التُّجّارِ، فَجَرى عَلى أَلْسِنَتِهِمْ

أَلْفاظُ القَسَمِ وَاليَمينِ، وَاسْتَعانوا بِالغِناءِ وَالكَلامِ البَليغِ، مِنْ أَجْلِ تَرْويجِ البَضائِعِ. كَما شاعَتْ في المُجْتَمَعِ الأَمْثالُ ذاتُ الأُصولِ التِّجارِيَّةِ.

وَبِالنِّسْبَةِ إِلى لُغَةِ أَهْلِ المِهَنِ وَالحِرَفِ، فَإِنَّها تَمَيَّزَتْ بِخَصائِصِ كُلِّ مِهْنَةٍ وَحِرْفَةٍ، كَما كانَتْ أَسيرَةَ ثَقافَةِ رَبِّ المِهْنَةِ غالِباً.

أَمّا لُغَةُ العَوامِّ، فَقَدْ تَحَرَّرَتْ مِنْ ظاهِرَةِ الإِعْرابِ، وَجَرى مُحاكَمَتُها مِنْ قِبَلِ الخاصَّةِ عَلى أَساسٍ اجْتِماعِيٍّ لا لُغَوِيٍّ. وَإِذا كانَتْ تِلْكَ اللُّغَةُ قَدْ رُفِضَتْ في أَوْساطِ عِلْيَةِ القَوْمِ، فَإِنَّها وَجَدَتْ مُحيطاً طَبيعِيّاً تَحَرَّكَتْ فيهِ وَتَفاعَلَتْ مَعَهُ، وَهُوَ مُحيطُ الطَّبَقاتِ الدُّنْيا.

وَلَمْ تَكُنْ لُغَةُ الجَواري كُلُّها لَحْناً، فَقَدِ اخْتَلَفَتْ تِلْكَ اللُّغَةُ أَوْ تَبايَنَتْ بِاخْتِلافِ انْتِماءِ الجَواري اجْتِماعِيّاً. كَما كانَ لِلْعامِلِ الاقْتِصادِيِّ دَوْرٌ في إِجادَةِ القِيانِ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ السَّليمَةَ، وَفي إِنْشادِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ الفَصيحِ.

نَخْلُصُ مِنْ كُلِّ هَذا إِلى القَوْلِ إِنَّ دِراسَةَ النُّصوصِ في إِطارِها الاجْتِماعِيِّ أَوِ الحَضارِيِّ، تُساعِدُنا عَلى إِماطَةِ اللِّثامِ عَنْ كَثيرٍ مِنَ الحَقائِقِ الاجْتِماعِيَّةِ، أَوِ السِّياسِيَّةِ، أَوِ الفِكْرِيَّةِ أَوِ الاقْتِصادِيَّةِ، التي حَكَمَتْ مَسارَ تَطَوُّرِ اللُّغَةِ.

كَما أَنَّ غالِبِيَّةَ تِلْكَ النُّصوصِ يَتَّضِحُ فَهْمُها وَيَنْجلي مُرادُ مُؤَلِّفيها بَعْدَ إِخْضاعِها لِذَلِكَ المَنْهَجِ.

مِنْ هُنا فَإِنَّ تُراثَنا الأَدَبِيَّ وَدَرْسَنا اللُّغَوِيَّ هُما بِحاجَةٍ إِلى إِعادَةِ نَظَرٍ في قِراءَتِهِما وَفَهْمِهِما اسْتِناداً إِلى العُلومِ اللُّغَوِيَّةِ الحَديثَةِ، وَإِلى ما ابْتَكَرَهُ وَأَبْدَعَهُ الفِكْرُ الإِنْسانِيُّ مِنْ طَرائِقَ جَديدَةٍ، أَسْهَمَتْ وَتُسْهِمُ في تَطويرِ مَناهِجِ البَحْثِ في الأَدَبِ وَاللُّغَةِ وَالنِّتاجِ المَعْرِفِيِّ العامِ، وُصولاً إِلى مَفاهيمَ جَديدَةٍ تُساعِدُ عَلى فَهْمٍ أَعْمَقَ وَأَشْمَلَ لِلنُّصوصِ العَرَبِيَّةِ.

الفهارس

١ ـ فهرس الآيات القرآنيّة

سورة البقرة (٢)

سورة آل عمران (٣)

سورة النّساء (٤)

سورة الأعراف (٧)

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَطَفِقَا﴾	٢٢	٨٤

سورة التوبة (٩)

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾	١٠٠	٢٤٥

سورة هود (١١)

الآية	رقمها	الصفحة
﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾	٣٨	١٢٣
﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾	٣٩	١٢٣

سورة يوسف (١٢)

الآية	رقمها	الصفحة
﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾	٧٨	١٢٤
﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾	٧٩	١٢٤

سورة الرعد (١٣)

الآية	رقمها	الصفحة
﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾	٢٩	٨٠

سورة الكهف (١٨)

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾	٤٩	١٠٨

سورة الأنبياء (٢١)

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾	٤٧	١٠٨

سورة الشّعراء (٢٦)

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾	١٤٨	٧٤

سورة لقمان (٣١)

الآية	رقمها	الصفحة
﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾	٣٣	١٠٨

سورة سبأ (٣٤)

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾	٣٧	٧٤

سورة فاطر (٣٥)

الآية	رقمها	الصفحة
﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾	٥	١٠٨

سورة القلم (٦٨)

سورة الانشقاق (٨٤)

سورة الضّحى (٩٣)

سورة العلق (٩٦)

سورة المسد (١١١)

٢ ـ فهرس الأحاديث الشّريفة

٣ ـ فهرس الأمثال

٤ ـ فهرس الأشعار(*)

أوّل البيت	كلمة القافية	البحر	الشّاعر	الصفحة
		ـ قافية الهمزة ـ		
الهمزة المضمومة				
إنّ الجَهولَ	اسْتِسْقاءُ	الكامل	أبو الفتح البستيّ	١٦٦
الهمزة المفتوحة				
إنّ الـمُعَلِّمَ	سَماءَ	الكامل	مجهول	٢٠٦
الهمزة المكسورة				
فَتَفَضَّلْ	أعدائي	الخفيف	عبد الله بن طاهر «الطبّاخ»	٢٢٥
فَرَشَ	الحَصْباءِ	الخفيف	محمّد بن داود الطّوسيّ «الفرّاش»	٢٢٦
فَرَشَ	البُرَحاءِ	الخفيف	محمّد بن داود الطّوسيّ «الفرّاش»	٢٢٦

(*) خصّصت للرّجز فهرساً خاصّاً (الفهرس الخامس)، وما ورد من أسماء الشعراء في الحواشي، وضعته بين قوسين. وأشرت بعبارة «مجهول» إلى الشاعر الذي لم أهتد إلى اسمه. وقد رتّبت القوافي هنا مثبّتة المضموم أوّلاً، فالمفتوح، فالمكسور، فالساكن.

أوّل البيت	كلمة القافية	البحر	الشّاعر	الصفحة
أَنْتَ	الغَداءِ	الخفيف	عبد الله بن طاهر «الطبّاخ»	٢٢٥
يا نَسيمَ	صَفْراءِ	الخفيف	عبد الله بن طاهر «الطبّاخ»	٢٢٥
رِقٌّ	مساءِ	الخفيف	محمّد بن داود الطّوسيّ «الفرّاش»	٢٢٦
أَنْتَ	البَيْضاءِ	الخفيف	عبد الله بن طاهر «الطبّاخ»	٢٢٤
كَسَحَ	الصَّفاءِ	الخفيف	محمّد بن داود الطّوسيّ «الفرّاش»	٢٢٦
وَجَرى	اللِّقاءِ	الخفيف	محمّد بن داود الطّوسيّ «الفرّاش»	٢٢٦
قَدْ غَلا	الصَّلاءِ	الخفيف	عبد الله بن طاهر «الطبّاخ»	٢٢٥
يا شَبيهَ	الظَّماءِ	الخفيف	عبد الله بن طاهر «الطبّاخ»	٢٢٤
هامَ	الشَّحْناءِ	الخفيف	عبد الله بن طاهر «الطبّاخ»	٢٢٥
حينَ	البَهاءِ	الخفيف	محمّد بن داود الطّوسيّ «الفرّاش»	٢٢٦
وَتَفَضَّلْ	الأَدْواءِ	الخفيف	عبد الله بن طاهر «الطبّاخ»	٢٢٥
أَطْعِمَ	وَالأَدْواءِ	الخفيف	عبد الله بن طاهر «الطبّاخ»	٢٢٥
عُدْتُ	شَواءِ	الخفيف	عبد الله بن طاهر «الطبّاخ»	٢٢٥

ـ قافية الباء ـ

الباء المضمومة

كُنّا	مُسْتَعْتَبُ	الكامل	مجهول	٢٥٦

الباء المكسورة

أوّل البيت	كلمة القافية	البحر	الشّاعر	الصفحة
لأقيمنّ	النّحيبِ	الخفيف	مجهول	٢٥٦

ـ قافية التّاء ـ

التّاء المكسورة

مَنَعُ	الهِباتِ	الكامل	عاذر بن شاكر	١٨٠
وَكَأنّما	طالِعاتِ	الكامل	عاذر بن شاكر	١٨٠
وَامْدَحْ	الصِّفاتِ	الكامل	عاذر بن شاكر	١٨٠
يَدَعُ	الصَّلاةِ	الكامل	عاذر بن شاكر	١٨٠
نَعِمَتْ	المماتِ	الكامل	عاذر بن شاكر	١٨٠
جانَبْتُ	اللَّواتي	الكامل	عاذر بن شاكر	١٨٠
فَدَعِ	الخالِياتِ	الكامل	عاذر بن شاكر	١٨٠
وَدَعِ	وَلِغانياتِ	الكامل	عاذر بن شاكر	١٨٠
لها	الصَّوْتِ	مجزوء الوافر	بشّار بن برد	١٩٠
رَبَـابةُ	الزَّيْـتِ	مجزوء الوافر	بشّار بن برد	١٩٠

ـ قافية الحاء ـ

الحاء المكسورة

ألَسْتُمْ	راحِ	الوافر	جرير	٢٥١

أوّل البيت	كلمة القافية	البحر	الشّاعر	الصفحة

ـ قافية الدّال ـ

الدّال المضمومة

بِأيْـدي	والـمَرْدُ	الطّويل	مجهول	٩٥
وَدَلَّهـتني	فَقْدُ	الطّويل	مجهول	٩٥

الدّال المفتوحة

قَدْ حَفِظوا	المائِدَةْ	السريع	معلّم مجهول	٢١١
عَنْ سَعيدِ	عُبادَةْ	مجزوء الرّمل	أبو نواس	١٧٣
وَلَقَدْ	قَتادَةْ	مجزوء الرّمل	أبو نواس	١٧٢
قالَ	الشّهادَةْ	مجزوء الرّمل	أبو نواس	١٧٣

الدّال المكسورة

يا حُجْزَةَ	بُدُّ	السّريع	جعفر «الخيّاط»	٢١٧
جَشَّمْتَني	وَجْدي	السّريع	جعفر «الخيّاط»	٢١٧
وَأقْبَلَ	الوَجْدِ	السّريع	فرج الرّخجيّ «الخبّاز»	٢٢١
فَالبَيْنُ	الوَجْدِ	السّريع	عليّ بن الجهم بن يزيد «صاحب حمّام»	٢٢٢

أوّل البيت	كلمة القافية	البحر	الشّاعر	الصفحة

ـ قافية الرّاء ـ

الرّاء المضمومة

لَعَمْرُكَ	السَّرائِرُ	الطّويل	مجهول	٢٥٦
وَلَكِنْ	الضَّمائِرُ	الطّويل	مجهول	٢٥٦
وَهَلْ رَأَيْتَ	مَناخِرُها	المنسرح	أبو يعقوب الخريميّ	١٨٤
شُمْسُ	قَدَروا	البسيط	الأخطل	٢٥١
ولا	النَّواظِرُ	الطّويل	مجهول	٢٥٦
نَظَرْتُ	أَنْظُرُ	الطّويل	(أبو حيّة النميريّ)	١٢١
كُلُّ فَتًى	مَساعِرُها	المنسرح	أبو يعقوب الخريميّ	١٨٤
باتَتْ	أَظافِرُها	المنسرح	أبو يعقوب الخريميّ	١٨٤
أَزِفَ	سَفْرُ	الكامل	مجهول	٢٥٦
أَكاتِمُ	ذاكِرُ	الطّويل	مجهول	٢٥٦
إنَّ المُحِبَّ	الذُّكْرُ	الكامل	مجهول	٢٥٦
لَبِسْتُ	مَنْثورُ	البسيط	جزام «صاحب خيل المعتصم»	٢١٦
نَقَضَ	تَدورُ	الكامل	الحجّاج بن يوسف التيميّ أو (عبد الله بن يوسف)	١٨٥
إنّي امْرُؤٌ	مَعْذورُ	البسيط	جزام «صاحب خيل المعتصم»	٢١٦
عَلَّلْ	مَأسورُ	البسيط	جزام «صاحب خيل المعتصم»	٢١٦

أوّل البيت	كلمة القافية	البحر	الشّاعر	الصفحة
إنْ يَهْدِمِ	مَعْمورُ	البسيط	حِزام «صاحب خيل المعتصم»	٢١٥
أَبْشِرْ	كَبيرُ	الكامل	الحجّاج بن يوسف التيميّ أو (عبد الله بن يوسف)	١٨٥
إنّا	قَديرُ	الخفيف	أبو العتاهية	١٨٣
هُوَ	النَّصيرُ	الخفيف	أبو العتاهية	١٨٤
قَدْ رَأَيْتُ	حَقيرُ	الخفيف	أبو العتاهية	١٨٣

الرّاء المفتوحة

حَبَّذا	الإزارا	الخفيف	عمر بن أبي ربيعة	٢٥٢

الرّاء المكسورة

فَلَيْتَ	النّارِ	الكامل	أبو عطاء السندي	٣٦
وَمُجَنَّباتٍ	وَالأَنْهارِ	الكامل	قيس بن زهير أو (الربيع بن زياد)	١٠١
إنّي	الخَبَرِ	البسيط	أبو يعقوب الخريميّ	١٨٧
خَنافِسُ	صَبْري	السّريع	الحسن بن أبي قُماشة «الكنّاس»	٢٢٣
أَيْنَسى	الكَوْثَرِ	المتقارب	مجهول	٢٠٨
أَصْبَحَ	الهَجْرِ	السّريع	الحسن بن أبي قُماشة «الكنّاس»	٢٢٢

ـ قافية الزّاي ـ

الزّاي المكسورة

أوّل البيت	كلمة القافية	البحر	الشّاعر	الصفحة
فَلَوْ رَأَوْا	بِالجَمْزِ	السّريع	أبو الشّمقمق	١٧٩
كانَتْ	العَنْزِ	السّريع	أبو الشّمقمق	١٧٨
وَذاكَ	للوَزّْ	السّريع	أبو الشّمقمق	١٧٨

ـ قافية الحاء ـ

الحاء المضمومة

لِبَني الدُّنيا	وَصَبوحُ	مجزوء الرّمل	أبو العتاهية	١١٩
مَـوْتُ	فُتُوحُ	مجزوء الرّمل	أبو العتاهية	١١٩
صَاحَ	الصَّـدُوحُ	مجزوء الرّمل	أبو العتاهية	١١٩
سيَصيرُ	روحُ	مجزوء الرّمل	أبو العتاهية	١١٩
كُلُّنـا	وَيَـروحُ	مجزوء الرّمل	أبو العتاهية	١١٩
رُحْنَ	المُسُوحُ	مجزوء الرّمل	أبو العتاهية	١١٩
لِبَنـي	وَصَبوحُ	مجزوء الرّمل	أبو العتاهية	١١٩
كُلُّ	نَطوحُ	مجزوء الرّمل	أبو العتاهية	١١٩
بَيْنَ	يَلوحُ	مجزوء الرّمل	أبو العتاهية	١١٩
نُحْ	نُوحُ	مجزوء الرّمل	أبو العتاهية	١١٩
لَتَموتَنَّ	تَـنوحُ	مجزوء الرّمل	أبو العتاهية	١١٩

أوّل البيت	كلمة القافية	البحر	الشّاعر	الصفحة
ـ قافية الفاء ـ				
الفاءالمضمومة				
وَأَصْبَحَ	مُتَنَّفُ	الطّويل	الفرزدق	٢٣٤
ـ قافية القاف ـ				
القاف المفتوحة				
أَحْمَدٌ	حَقًّا	الخفيف	(أبو العتاهية)	١٦٤
فَتَقَسَّتْ	فَعِرْقا	الخفيف	(أبو العتاهية)	١٦٤
لَوْ تَجَسَّينَ	تَفَقَّا	الخفيف	(أبو العتاهية)	١٦٤
القاف المكسورة				
نَصِلُ	تَلْحَقِ	كعب بن مالك	الكامل	٢٥٣
ـ قافية الكاف ـ				
الكاف المفتوحة				
لا وَمَنْ	عَصاكَ	مجهول	الخفيف	٢٤٨
يا غِياثَ	رِضاكَ	مجهول	الخفيف	٢٤٨

أوّل البيت	كلمة القافية	البحر	الشّاعر	الصفحة

الكاف السّاكنة

إنَّ جَفاءَ	بِكْ	المنسرح	عَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ الـمُعَذِّلِ أو (عبد الله بن طاهر)	١٣٨
كَيْفَ	سَبَبِكْ	المنسرح	(عبد الملك بن الزيّات)	١٣٨
أَحْلَـتَ	كُتُبِكْ	المنسرح	عَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ الـمُعَذِّلِ أو (عبد الله بن طاهر)	١٣٨
إنْ كانَ	أدَبِكْ	المنسرح	(عبد الملك بن الزيّات)	
أمْ هَـلْ	حَسَبِكْ	المنسرح	عَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ الـمُعَذِّلِ أو (عبد الله بن طاهر)	١٣٨
أتْعَبْتَ	تَعبِكْ	المنسرح	عَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ الـمُعَذِّلِ أو (عبد الله بن طاهر)	١٣٨
فَاعْفُ	كَتَفِكْ	المنسرح	(عبد الملك بن الزيّات)	١٣٨

ـ قافية اللّام ـ

اللّام المضمومة

حُبّي	زائِلُ	السّريع	إبراهيم النّظّام أو (ابن التلميذ هبة الله بن صاعد)	١٥٠
بِهِ جِهاتي	مائِلُ	السّريع	إبراهيم النّظّام أو (ابن التلميذ هبة الله بن صاعد)	١٥٠
وَخَضراءَ	الرُّبْلُ	الطّويل	مسلم بن الوليد	١٧٥
سَقاها	شُعُلُ	الطّويل	مسلم بن الوليد	١٧٥

أوّل البيت	كلمة القافية	البحر	الشّاعر	الصفحة
اللّام المفتوحة				
يَكادُ	لا	المجتثّ	أبو نواس	١٥٣
قالَ	تَبالَه	الخفيف	أبو الشّمقمق	١٧٩
عَطّلَتْهُ	زُباله	الخفيف	أبو الشّمقمق	١٧٩
قُلْتُ	حَالَهْ	الخفيف	أبو الشّمقمق	١٧٩
في بُيَيْتٍ	وَالنُّخالَهْ	الخفيف	أبو الشّمقمق	١٧٩
قُلْتُ	مَقالَهْ	الخفيف	أبو الشّمقمق	١٧٩
هارِباتٍ	بُلالَهْ	الخفيف	أبو الشّمقمق	١٧٩
وَأقامَ	وَالجَلالَهْ	الخفيف	أبو الشّمقمق	١٧٩
أنْ يَرَى	المَلالَهْ	الخفيف	أبو الشّمقمق	١٧٩
لا أرى	خَيالَهْ	الخفيف	أبو الشّمقمق	١٨٠
يا عاقِدَ	حَلّا	المجتثّ	أبو نواس	١٥٣
كفى	فاضِلا	الطّويل	مجهول	٢٠٦
تَرَكْتَ	أقَلّا	المجتثّ	أبو نواس	١٥٣
اللّام المكسورة				
لَوْ بِبُقْراطَ	بالِ	الخفيف	بَخْتَيَشوع	١٦٤
رَفَعَ	حِبالي	الخفيف	(عبد الله بن الصّمد ابن أبي داود)	٢٠٩
قَدْ أماتَ	خَبالِ	الخفيف	(عبد الله بن الصّمد ابن أبي داود)	٢٠٩

أوّل البيت	كلمة القافية	البحر	الشّاعر	الصفحة
وَأنا	الآجالِ	الكامل	عنترة	٢٥٢
وَرَماني	العُذّالِ	الخفيف	بختَيْشوع	١٦٣
مَشَقَ	بِالسُّلالِ	الخفيف	(عبد الله بن الصّمد ابن أبي داود)	٢٠٩
كَسّرَ	وِصالِ	الخفيف	(عبد الله بن الصّمد ابن أبي داود)	٢٠٩
كُرْسُفُ	إشْعالِ	الخفيف	(عبد الله بن الصّمد ابن أبي داود)	٢١٠
فَفُؤادُ	بِالملالِ	الخفيف	بختَيْشوع	١٦٣
لاقَ	انْهِمالِ	الخفيف	(عبد الله بن الصّمد ابن أبي داود)	٢١٠
شَرِبَ	بِالإسْهالِ	الخفيف	بختَيْشوع	١٦٣
وَفُؤادي	احْتِيالي	الخفيف	بختَيْشوع	١٦٣
تَظَلُّ	يَذْبُلِ	الطّويل	مُزاحم العُقَيْليّ	٩٩
يُغْشَوْنَ	المقْبِلِ	الكامل	حسّان بن ثابت	٢٥١
فَمالَتْ	دَخْلِ	الطّويل	عبد الله بن العبّاس ابن الفضل بن الرّبيع	٢٢٠
وَلَمْ يَبْقَ	وَالبَذْلِ	الطّويل	عبد الله بن العبّاس ابن الفضل بن الرّبيع	٢٢٠
أطافَ	رُسْلِ	الطّويل	عبد الله بن العبّاس ابن الفضل بن الرّبيع	٢٢٠

أوّل البيت	كلمة القافية	البحر	الشّاعر	الصفحة
وَدَبَّتْ	الأَصْلِ	الطّويل	عبد الله بن العبّاس ابن الفضل بن الرّبيع	٢٢٠
غَرَسْتُ	الوَصْلِ	الطّويل	عبد الله بن العبّاس ابن الفضل بن الرّبيع	٢٢٠
يُديرُها	الكَفَلِ	المنسرح	أبو نواس	١٧٦
أَحْسَنُ	ثَمِلِ	المنسرح	أبو نواس	١٧٦
وَحَفَّتْ	بالحَمْلِ	الطّويل	عبد الله بن العبّاس ابن الفضل بن الرّبيع	٢٢٠

اللّام السّاكنة

أوّل البيت	كلمة القافية	البحر	الشّاعر	الصفحة
يا أَيُّها	السُّؤالْ	السّريع	عمرو بن عبد الملك الورّاق	١٨٥
النّاسُ	وَقالْ	السّريع	عمرو بن عبد الملك الورّاق	١٨٥

ـ قافية الميم ـ

الميم المضمومة

أوّل البيت	كلمة القافية	البحر	الشّاعر	الصفحة
لا يَغُرَّنَّكَ	حُسامُ	الخفيف	أبو الفتح البستيّ	١٦٦
أنا كَالوَرْدِ	زُكامُ	الخفيف	أبو الفتح البستيّ	١٦٦
أَظُلَيْمُ	ظُلْمُ	الكامل	(الحارث بن خالد المخزوميّ)	٢٤٨
لَوْ يَدِبُّ	الكُلومُ	الخفيف	حسّان بن ثابت	٢٥٢

أوّل البيت	كلمة القافية	البحر	الشّاعر	الصفحة
الميم المفتوحة				
إذا ما	الدّما	الطّويل	بشّار بن برد	١٩٠
وَلَنْ	يَتَهَدَّما	الطّويل	مجهول	٢٥٦
وَصَلْتُكَ	مُقَسَّما	الطّويل	مجهول	٢٥٦
الميم المكسورة				
وَلا	ضِرامِ	الكامل	أبو المؤيّد العنتريّ	١٦٧
واجْعَلْ	الطّعامِ	الكامل	أبو المؤيّد العنتريّ	١٦٧
إذْ يَتّقونَ	مَقْدَمي	الكامل	عنترة	٢٥٢
تَمَكَّنَ	خَصْمِ	الطّويل	يونس الجرجانيّ	١٥٤
وَعَلَيْكِ	بِتَكَلُّمِ	الكامل	مجهول	٢٥٦
إنّي	فَتَفَهَّمي	الكامل	مجهول	٢٥٦
ولَمّا	وَهْمِ	الطّويل	يونس الجرجانيّ	١٥٤

ـ قافية النّون ـ

النّون المضمومة

أوّل البيت	كلمة القافية	البحر	الشّاعر	الصفحة
وما اخْتَرْتُ	شؤونُ	الطّويل	مجهول	٢٥٥
جَرى	وَالسُّكونُ	الوافر	(أبو الفرج بن هندو) أو (أبو الخير الواسطي)	١٤٣
وَمَنْ	سَيَكونُ	الطّويل	مجهول	٢٥٥
جُنونٌ	الجَنينُ	الوافر	(أبو الفرج بن هندو) أو (أبو الخير الواسطي)	١٤٣

أنصاف الأبيات

٥ ـ فهرس الأرجاز(*)

الباء المكسورة

الدّال المكسورة

(*) أشرت إلى المشطور الملفق بمشطور آخر بالنظر إلى القافية الأخيرة من الرجز.
وأشرت بعبارة «مجهول» إلى الشاعر الذي لم أهتد إلى اسمه.

٦ ـ فهرس الأعلام(*)

ـ حرف الهمزة ـ

(*) اقتصرت على أعلام الأشخاص دون القبائل وأسمائها، ولم أعتبر لفظة «ابن» و«أبو» و«أمّ» و«ابنة» في الترتيب الألفبائيّ، ووضعت بين قوسين رقم الصّفحة التي وردت فيها ترجمة العلم، واقتصرت على أعلام متن الكتاب دون الحواشي إلّا الشّعراء الذين وردت لهم أبيات شعريّة، ولم أخصّص لآباء العلم أو أجداده حيّزاً خاصّاً في الفهرس.

ـ حرف الباء ـ

ـ حرف التّاء ـ

ـ حرف الثّاء ـ

ـ حرف الجيم ـ

ـ حرف الحاء ـ

ـ حرف الخاء ـ

ـ حرف الدّال ـ

ـ حرف الذّال ـ

ـ حرف الرّاء ـ

ـ حرف الزّاي ـ

ـ حرف السّين ـ

ـ حرف العين ـ

ـ حرف الغين ـ

ـ حرف الفاء ـ

ـ حرف القاف ـ

- حرف الكاف -

- حرف اللّام -

- حرف الميم -

ـ حرف النّون ـ

ـ حرف الهاء ـ

ـ حرف الواو ـ

ـ حرف الياء ـ

٧ ـ فهرس مصادر الكتاب ومراجعه

مرتّبة على التّسلسل الألفبائيّ لعناوين الكتب

أ ــ العربيّة

١ ـ **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**. المقدسيّ (محمّد بن أحمد) وضع مقدّمته وهوامشه وفهارسه الدكتور محمّد مخزوم، دار إحياء التراث العربيّ، الطّبعة الأوّلى، بيروت، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧م.

٢ ـ **أخبار الحمقى والمغفّلين**. ابن الجوزيّ (عبد الرحمن بن عليّ). المكتب التجاريّ للطباعة والنّشر، بيروت، د. ط. د. ت.

٣ ـ **أخبار أبي القاسم الزّجّاجيّ**. الزجّاجي (عبد الرحمن بن إسحاق). تحقيق الدكتور عبد الحسين بن المبارك، دار الرشيد، بغداد، د. ط. ١٩٨٠م.

٤ ـ **أخبار النّحويين البصريين**. السيرافي (الحسن بن عبد الله). تحقيق كرنكو، نشرات معهد المباحث الشرقية بالجزائر، المطبعة الكاثوليكيّة في بيروت وبول كتنر في باريس، د. ط. ١٩٣٦م.

٥ ـ **أدباء العرب في الأعصر العبّاسيّة**. بطرس البستاني. دار مارون عبود، بيروت، د. ط. ١٩٧٩م.

٦ ـ **أدب الجاحظ**. حسن السندوبي. المكتبة التجاريّة، الطّبعة الأوّلى، القاهرة، ١٣٥٠هـ ـ ١٩٣١م.

٧ ـ أدب الكاتب. ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم). تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، الطّبعة الثالثة، القاهرة، ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م.

٨ ـ أدب الكتّاب. الصّولي (محمّد بن يحيى). تحقيق محمّد بهجة الأثيري، ونظر فيه محمود شكري الألوسي، المطبعة السلفيّة، القاهرة، د. ط. ١٣٤١هـ.

الأذكياء = كتاب الأذكياء

٩ ـ الاشتقاق. ابن دريد (محمّد بن الحسن). تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، مؤسّسة الخانجي، القاهرة، د. ط. ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م.

١٠ ـ إصلاح المنطق. ابن السكّيت (يعقوب بن إسحاق). شرح وتحقيق أحمد محمّد شاكر وعبد السلام محمّد هارون، دار المعارف، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م.

١١ ـ الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. خير الدين الزركليّ. دار العلم للملايين، الطّبعة السادسة عشرة، بيروت، ٢٠٠٥م.

الأغاني = كتاب الأغاني.

١٢ ـ الألفاظ الفارسيّة المعرّبة. أدّي شير. المطبعة الكاثوليكيّة للآباء اليسوعيّين، بيروت، د. ط. ١٩٠٨م.

الألفاظ الكتابيّة = كتاب الألفاظ الكتابيّة.

١٣ ـ الإمتاع والمؤانسة. أبو حيّان التوحيديّ (عليّ بن محمّد). تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، المكتبة العصريّة، بيروت ـ صيدا، د. ط. ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣م.

١٤ ـ أمثال العرب. المفضّل الضّبيّ. قدّم له وعلّق عليه الدكتور إحسان

عبّاس، دار الرّائد العربيّ، الطّبعة الأولى، بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

١٥ - **أمراء البيان.** محمود كرد علي. دار الأمانة، الطّبعة الثالثة، بيروت، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.

١٦ - **الأمالي.** القالي (إسماعيل بن القاسم). المكتبة التجاريّة الكبرى، الطّبعة الثالثة، القاهرة، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م.

١٧ - **الأوائل.** أبو هلال العسكريّ (الحسن بن عبد الله). تحقيق الدكتور محمّد سيّد الوكيل، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلاميّة، الطّبعة الأولى، القاهرة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

١٨ - **بحار الأنوار لدرر أخبار الأئمّة الأطهار.** المجلسيّ (محمّد باقر). مؤسسة الوفاء، الطّبعة الثانية، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

البخلاء = كتاب البخلاء

١٩ - **البصائر والذخائر.** أبو حيّان التوحيديّ (عليّ بن محمّد). تحقيق الدكتور إبراهيم الكيالي، مكتبة أطلس ومطبعة الإنشاء، دمشق، ١٩٦٤م.

٢٠ - **البنائيّة في اللّسانيّات.** الدكتور محمّد الحنّاش. دار الرّشاد الحديثة، الدار البيضاء، د. ط. ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م.

٢١ - **بهجة المجالس وشحذ الذّاهن والهاجس.** القرطبيّ (يوسف بن عبد الله). تحقيق محمّد مرسي الخولي ومراجعة الدكتور عبد القادر قطّ، الدار المصريّة للتأليف والترجمة ودار الكتاب العربيّ، القاهرة. د. ط. د. ت.

٢٢ - **البيان والتبيين.** الجاحظ (بحر بن عمرو). تحقيق وشرح عبد السّلام محمّد هارون، دار الجيل، بيروت، د. ط. ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٢٣ ـ **تاج العروس من جواهر القاموس.** الزبيديّ (محمّد مرتضى بن محمّد). تحقيق الدكتور عبد الفتّاح الحلو ومراجعة عبد السّتّار أحمد فرّاج، وزارة الإعلام، الكويت، د. ط. ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٢٤ ـ **تاريخ بغداد.** الخطيب البغداديّ (أحمد بن عليّ). تحقيق الدكتور بشّار عوّد معروف، دار الغرب الإسلاميّ، الطّبعة الأولى، بيروت، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٢٥ ـ **تاريخ الرّسل والملوك.** الطّبري (محمّد بن جرير). تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧٥م.

التبصّر بالتجارة = كتاب التبصّر بالتجارة.

٢٦ ـ **تثقيف اللسان وتلقيح الجنان.** ابن مكّيّ الصّقليّ (عمر بن خلف). تحقيق الدكتور عبد العزيز مطر، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، القاهرة، د. ط. ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

٢٧ ـ **التذكرة الحمدونيّة.** ابن حمدون (محمّد بن الحسن). تحقيق إحسان عبّاس وبكر عبّاس، دار صادر، الطّبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٦م.

٢٨ ـ **التركيب اللّغويّ للأدب ـ بحث في فلسفة اللّغة والإستطيقا ـ** الدكتور لطفي عبد البديع. مكتبة النّهضة المصريّة، الطّبعة الأوّلى، القاهرة، ١٩٧٠م.

٢٩ ـ **التلخيص في علوم البلاغة.** القزويني (محمّد بن عبد الرّحمن). ضبطه وشرحه الأستاذ عبد الرّحمن البرقوقي، المكتبة التجاريّة، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٣٥٠هـ ـ ١٩٣٢م.

٣٠ ـ **التمثيل والمحاضرة.** الثعالبيّ (أبو منصور عبد الملك بن محمّد).

تحقيق عبد الفتّاح الحلو، دار إحياء الكتاب العربيّة، القاهرة، د. ط. ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.

٣١ - **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**. الثعالبيّ (أبو منصور عبد الملك بن محمّد). تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة، د. ط. ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م.

٣٢ - **الجاحظ**. حنّا الفاخوري، دار المعارف، بيروت، د. ط. ١٩٥٦م.

٣٣ - **الجاحظ - حياته وآثاره -** طه الحاجريّ. دار المعارف، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٩م.

٣٤ - **الجاحظ ومجتمع عصره**. جميل جبر. المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، د. ط. ١٩٥٨م.

٣٥ - **الجاحظ والحاضرة العبّاسيّة**. الدكتورة وديعة طه النّجم. مطبعة الإرشاد، بغداد، د. ط. ١٩٦٥م.

٣٦ - **جمع الجواهر في الملح والنّوادر**. الحصريّ (إبراهيم بن عليّ). تحقيق علي محمّد البجاويّ، دار إحياء الكتب العربيّة، الطّبعة الأولى، القاهرة، ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م.

٣٧ - **الجواري**. جبّور عبد النّور. دار المعارف، الطّبعة الثانية، القاهرة، د. ت.

٣٨ - **الجواري والمغنّيات**، فايد العمروسيّ، دار المعارف، القاهرة، د. ط. ١٩٦١م.

٣٩ - **خاص الخاص**. الثعالبيّ (أبو منصور عبد الملك بن محمّد) مطبعة السعادة، الطّبعة الأولى، القاهرة، ١٣٢٦هـ - ١٨٠٩م.

٤٠ - **الخصائص**. ابن جنيّ (عثمان بن جنيّ). تحقيق محمّد علي النّجار، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، الطّبعة الثالثة، القاهرة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٤١ ـ **دراسات في علم اللّغة**. كمال محمّد بشر. دار المعارف، القاهرة، د. ط. ١٩٦٩م.

٤٢ ـ **دراسات في فقه اللّغة**. الدكتور صبحي الصّالح. دار العلم للملايين، الطّبعة العاشرة، بيروت، ١٩٨٣م.

٤٣ ـ **ديوان امرىء القيس**. شرح أبي سعيد السكريّ، تحقيق الدكتورين أنور أبو سويلم ومحمّد الشوابكة، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربيّة المتحدة، الطّبعة الأولى، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٤٤ ـ **ديوان بشّار بن برد**. جمع وتحقيق وشرح العلّامة محمّد الطاهر بن عاشور، وزارة الثقافة بالجزائر، د. ط. ٢٠٠٧م.

٤٥ ـ **ديوان أبي تمّام**. (حبيب بن أوس). شرح الخطيب التبريزيّ، تحقيق محمّد عبده عزّام، دار المعارف، القاهرة، د. ط. ١٩٦٤م.

٤٦ ـ **ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب**. تحقيق نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، الطّبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٨٦م.

٤٧ ـ **ديوان حسّان بن ثابت**. تحقيق الدكتور وليد عرفات، دار صادر، بيروت، د. ط. ٢٠٠٦م.

ديوان أبي حيّة النميريّ = شعر أبي حيّة النميريّ.

ديوان صريع الغواني = شرح ديوان صريع الغواني.

٤٨ ـ **ديوان أبي العتاهية**. (إسماعيل بن القاسم) دار الكتب العلميّة، بيروت، د. ط. د. ت.

٤٩ ـ **ديوان عمر بن أبي ربيعة**. قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه الدكتور فايز محمّد، دار الكتاب العربيّ، الطّبعة الثانية، بيروت، ١٤٦١هـ ـ ١٩٩٦م.

٥٠ ـ **ديوان عنترة بن شدّاد.** شرح الخطيب التبريزي، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه مجيد طراد، دار الكتاب العربيّ، الطّبعة الثالثة، بيروت، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

ديوان قيس بن زهير = شعر قيس بن زهير.

٥١ ـ **ديوان كعب بن مالك الأنصاري.** دراسة وتحقيق سامي مكّي العاني، مكتبة النهضة، الطّبعة الأولى، بغداد، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

٥٢ ـ **ديوان أبي الفتح البستي.** تحقيق الأستاذين درّيّة الخطيب ولطفي الصقّال، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة بدمشق، الطّبعة الأولى، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

٥٣ ـ **ديوان الفرزدق،** ضبط معانيه وشروحه إليّا الحاوي، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، الطّبعة الأولى، بيروت، د. ط. ١٩٨٣م.

ديوان قيس بن زهير = شعر قيس بن زهير.

ديوان مزاحم العقيليّ = شعر مزاحم العقيليّ

٥٤ ـ **ديوان النابغة الذّبياني.** تحقيق كرم البستاني، دار صادر ودار بيروت، بيروت، د. ط. ١٩٦٠م.

٥٥ ـ **ديوان أبي نواس (الحسن بن هانئ).** تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربيّ، بيروت، د. ط. ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م.

٥٦ ـ **رحلة الشعر من الأمويّة إلى العبّاسيّة.** الدكتور مصطفى الشكعة. دار النّهضة، بيروت، د. ط. ١٩٧٣م.

٥٧ ـ **رسائل الجاحظ.** الجاحظ (عمرو بن بحر). تحقيق عبد السّلام محمّد هارون مكتبة الخانجي، القاهرة، د. ط. ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

٥٨ ـ **رسائل الخوارزميّ**. الخوارزميّ (محمّد بن العبّاس). دار ومكتبة الحياة، بيروت، د. ط. ١٩٧٠م.

٥٩ ـ **رسائل فلسفيّة**. الكنديّ (يعقوب بن إسحاق)، والفارابيّ (محمّد بن محمّد)، وابن باجة (محمّد بن يحيى)، وابن عديّ (يحيى بن عدي). تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس، الطّبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨٣م.

٦٠ ـ **زهر الآداب وثمر الألباب**. الحصريّ (إبراهيم بن عليّ). شرح زكي مبارك، تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجاريّة الكبرى، الطّبعة الثالثة، القاهرة، ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣م.

٦١ ـ **سمط اللآلي في شرح أمالي القالي**. أبو عبيد البكريّ (عبدالله بن عبد العزيز). تحقيق عبد العزيز الميمني دار الكتب العلميّة، د. ط. د. ت. [مصوّر عن الطّبعة المصريّة ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٦م].

٦٢ ـ **سنن ابن ماجة**. ابن ماجة (محمّد بن يزيد). تحقيق الدكتور بشّار عوّاد معروف، دار الجيل، الطّبعة الأولى، بيروت، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٦٣ ـ **سير أعلام النبلاء**. الذهبيّ (محمّد بن أحمد). تحقيق مجموعة من المحققّين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرّسالة، الطّبعة الثالثة، بيروت، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م.

٦٤ ـ **السياسة من كتاب الخراج وصناعة الكتابة**. قدامة بن جعفر. تحقيق الدكتور مصطفى الحيارى، الجامعة العمّانية، الطّبعة الأوّلى، الأردن، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٦٥ ـ **شرح ديوان صريع الغواني** (مسلم بن الوليد). تحقيق الدكتور سامي الدهان، دار المعارف، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧٠م.

٦٦ ـ **شعر أبي حيّة النّميريّ**، جمعه وحقّقه الدكتور يحيى الجبوري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الطّبعة الأولى، دمشق، ١٩٧٥م.

٦٧ ـ **شعر قيس بن زهير**، تحقيق عادل جاسم البيّاتي، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، د. ط. ١٩٧٢.

٦٨ ـ **شعر مزاحم العقيليّ**. تحقيق الدكتور نوري حمودي القيسي وحاتم صالح الضامن، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي. د. ط. د. ت.

٦٩ ـ **الشّعراء الصّعاليك في العصر العبّاسيّ الأوّل**. الدكتور حسين عطوان. دار الطّليعة، بيروت، د. ط. ١٩٧٢م.

٧٠ ـ **الشّعر والشّعراء**. ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم). تحقيق وشرح أحمد محمّد شاكر، دار المعارف، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٦م.

٧١ ـ **الصّاحبي في فقه اللّغة وسنن العرب في الكلام**. ابن فارس (أحمد ابن فارس). تحقيق مصطفى شويمي، المكتبة اللغويّة العربيّة ومؤسسة أ. بدران للطباعة والنّشر، بيروت، ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م.

٧٢ ـ **صالح بن عبد القدّوس**. عبد الله الخطيب. منشورات البصرة ـ بغداد، البصرة، ١٩٦٧م.

٧٣ ـ **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**. القلقشنديّ (أحمد بن علي). نسخة مصوّرة عن مطبعة الأميريّة، وزارة الثقافة والإرشاد القوميّ والمؤسّسة المصريّة العامّة للتأليف والترجمة والطّباعة، القاهرة، د. ط. د. ت.

٧٤ ـ **صناعة الكتّاب**. النّحّاس (أحمد بن محمّد). تحقيق الدكتور بدر أحمد ضيف، دار العلوم العربيّة، الطّبعة الأولى، بيروت، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠.

صورة الأرض =كتاب صورة الأرض.

٧٥ ـ **ضحى الإسلام**. أحمد أمين. دار الكتاب العربي، الطّبعة العاشرة، بيروت. د. ت.

٧٦ ـ **طبقات الأطبّاء والحكماء.** ابن جلجل (سليمان بن حسّان). تحقيق فؤاد سيّد، المعهد العلميّ الفرنسيّ للآثار الشرقيّة بالقاهرة، د. ط. ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م.

٧٧ ـ **طبقات الشّعراء.** ابن المعتزّ (عبد الله بن محمّد). تحقيق عبد السّتّار أحمد فرّاج، دار المعارف، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٨م.

٧٨ ـ **طبقات النّحويين واللغويين.** الزبيديّ (محمّد بن الحسن). تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار العروبة، الطّبعة الأوّلى، القاهرة، ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م.

العثمانيّة = كتاب العثمانيّة.

٧٩ ـ **العصر العبّاسيّ الأوّل.** الدكتور شوقي ضيف. دار المعارف، الطّبعة السادسة، القاهرة، د. ت.

٨٠ ـ **العصر العبّاسيّ الأوّل ـ دراسة في التاريخ السياسيّ والإداريّ والماليّ** ـ الدكتور عبد العزيز الدوري، منشورات دار المعلّمين العالية، بغداد، ١٣٦٣ هـ ـ ١٩٤٥م.

٨١ ـ **العقد الفريد.** ابن عبد ربّه (أحمد بن محمّد). تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنّشر، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م.

٨٢ ـ **العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده.** ابن رشيق (الحسن بن رشيق). تحقيق محيي الدّين عبد الحميد، المكتبة التجاريّة الكبرى، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م.

٨٣ ـ **علم اللّغة.** الدكتور علي عبد الواحد وافي. مكتبة نهضة مصر، الطّبعة الرابعة، القاهرة، ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م.

٨٤ ـ **علم اللّغة الاجتماعيّ عند العرب.** الدكتور هادي نهر. دار الغصون، الطّبعة الأوّلى، بيروت، ١٩٨٨م.

٨٥ ـ **علم اللّغة العربيّة ـ مدخل تاريخيّ مقارن في ضوء التراث واللّغات السامية** ـ الدكتور محمود فهمي حجازي. وكالة المطبوعات، الطّبعة الأوّلى، الكويت، ١٩٧٣م.

٨٦ ـ **علم اللّغة ـ مقدّمة للقارئ العربيّ**- الدكتور محمود السّعران. دار النّهضة العربيّة، بيروت. د. ط. د. ت.

٨٧ ـ **عيون الأخبار**. ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم). وزراة الثقافة والإرشاد القومي والمؤسّسة المصريّة العامة للتأليف والترجمة والطّباعة، القاهرة، ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م. (نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب).

٨٨ ـ **عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء**. ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم). تحقيق الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ط. ١٩٦٥م.

٨٩ ـ **غوامض الصّحاح**. الصّفدي (خليل بن أبيك). تحقيق عبد الإله نبهان، منشورات معهد المخطوطات العربيّة، الطّبعة الأولى، القاهرة، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م.

٩٠ ـ **فتوح البلدان**. البلاذريّ (أحمد بن يحيى). تحقيق عبد الله بن أنيس الطّباع وعمر أنيس الطّباع، دار النّشر للجامعيين، بيروت، ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م.

٩١ ـ **فجر الإسلام**. أحمد أمين. دار الكتاب العربيّ، الطّبعة الحادية عشرة، بيروت، ١٩٧٩م.

٩٢ ـ **فرق وطبقات المعتزلة**. الهمذانيّ (عبد الجبّار بن أحمد). تحقيق الدكتور علي سامي النشّار والأستاذ عصام الدين محمّد علي، دار المطبوعات الجامعيّة، القاهرة، د. ط. ١٩٧٢م.

٩٣ ـ **الفنّ ومذاهبه في النّثر العربيّ**. الدكتور شوقي ضيف. دار المعارف، الطّبعة الثالثة،القاهرة، ١٩٧١م.

٩٤ ـ **الفهرست**. ابن النّديم (محمّد بن إسحاق). المكتبة التجاريّة الكبرى، القاهرة، د. ط. د. ت.

٩٥ ـ **في الأدب العبّاسيّ**. محمّد مهدي البصير. مطبعة النّعمان، الطّبعة الثالثة، النّجف الأشرف، ١٩٧٠م.

٩٦ ـ **في اللهجات العربيّة**. الدكتور إبراهيم أنيس. لجنة البيان العربيّ، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٩٥٢م.

٩٧ ـ **القرآن الكريم**.

٩٨ ـ **قصّة الحضارة**. ول ديورانت. ترجمة محمّد بدران، دار الجيل، بيروت، د. ط. ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٩٩ ـ **الكامل في التاريخ**. ابن الأثير (عزّ الدين عليّ بن محمّد). تحقيق عبدالله القاضي ومراجعة الدكتور محمّد دقّاق، دار الكتب العلميّة، الطّبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٠٠ ـ **كتاب الأذكياء**. ابن الجوزيّ (عبد الرحمن بن عليّ). تحقيق أسامة عبد الكريم الرفاعي، مكتبة الغزالي، الطّبعة الأولى، دمشق، ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.

١٠١ ـ **كتاب الأغاني**. الأصبهاني (أبو الفرج عليّ بن الحسين). مصوّر عن دار الكتب المصريّة، المؤسسة المصريّة العامة للتأليف والترجمة والطّباعة، القاهرة، د. ط. ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م.

١٠٢ ـ **كتاب الألفاظ الكتابيّة**. الهمذانيّ (عبد الرحمن بن عيسى). ضبطه الأب لويس شيخو اليسوعي، مطبعة الآباء اليسوعيّين، الطّبعة الثامنة، بيروت، ١٩١١م.

١٠٣ ـ **كتاب البخلاء**. الجاحظ (عمرو بن بحر). تحقيق طه الحاجري، دار المعارف، الطّبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٧١م.

١٠٤ ـ **كتاب البلدان**. اليعقوبيّ (أحمد بن إسحاق). دار إحياء التراث العربيّ، الطّبعة الأوّلى، بيروت، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٠٥ ـ **كتاب التبصّر بالتجارة**. الجاحظ (عمرو بن بحر). تحقيق حسن الحسني عبد الوهّاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، د. ط. ١٩٦٦م.

١٠٦ ـ **كتاب الحيوان**. الجاحظ (عمرو بن بحر). تحقيق وشرح عبد السلام محمّد هارون، دار الجيل، بيروت، د. ط. ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٠٧ ـ **كتاب صورة الأرض**. ابن حوقل (محمّد بن علي). دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ط. د. ت.

١٠٨ ـ **كتاب الورقة**. ابن الجرّاح (محمّد بن داود). تحقيق الدكتور عبد الوهّاب عزّام وعبد الستّار أحمد فرّاج، دار المعارف، الطّبعة الثانية، القاهرة. د. ت.

١٠٩ ـ **لحن العوامّ**. الزبيدي (محمّد بن الحسن). تحقيق الدكتور رمضان عبد التوّاب، دار العروبة، الطّبعة الأوّلى، القاهرة، ١٩٦٤م.

١١٠ ـ **لطائف اللّطف**. الثعالبيّ (أبو منصور عبد الملك بن محمّد) تحقيق الدكتور عمر الأسعد، دار المسيرة، الطّبعة الثانية، بيروت، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٧م.

١١١ ـ **لطائف المعارف**. الثعالبيّ (أبو منصور عبد الملك بن محمّد). تحقيق إبراهيم الأبياري وحسن كامل الصّيرفي، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، د. ط. د. ت.

١١٢ ـ **اللّطائف والظرائف في الأضداد، واليواقيت في بعض المواقيت**.

الثعالبيّ (أبو منصور عبد الملك بن محمّد). جمعهما أحمد بن عبد الرازق المقدسي، المطبعة العامرة الشرفية، القاهرة، د. ط. ١٣٢٥هـ.

١١٣ ـ **كتاب العثمانيّة**. الجاحظ (عمرو بن بحر). تحقيق عبد السلام محمّد هارون، دار الكتاب العربيّ، القاهرة، د. ط. ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م.

١١٤ ـ **كتاب الوزراء والكتّاب**. الجهشياريّ (محمّد بن عبدوس). تحقيق مصطفى السّقّا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، الطّبعة الأوّلى، القاهرة، ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م.

١١٥ ـ **لسان العرب**. ابن منظور (محمّد بن مكرّم). نسّقه وعلّق عليه ووضع فهارسه علي شيري، دار إحياء التراث العربيّ، الطّبعة الأوّلى، بيروت، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١١٦ ـ **اللّسان والإنسان**. الدكتور حسن ظاظا. مكتبة الدراسات اللغوية، القاهرة، د. ط. ١٩٧١م.

١١٧ ـ **لغات القبائل الواردة في القرآن الكريم**. ابن سلّام (أبو عبيد القاسم). تحقيق الدكتور عبد الحميد السيّد طلب، مطبوعات جامعة الكويت، د. ط. ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

١١٨ ـ **اللّغة بين العقل والمغامرة**. الدكتور مصطفى مندور. منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، د. ط. د. ت.

١١٩ ـ **اللّغة بين المعياريّة والوصفيّة**. الدكتور تمام حسّان. مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، د. ط. ١٩٥٨م.

١٢٠ ـ **اللّغة العربيّة ـ معناها ومبناها ـ الدكتور تمام حسّان**. الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، د. ط. ١٩٧٣م.

١٢١ ـ **اللغة العربيّة في إطارها الاجتماعي**. مصطفى لطفي، معهد الإنماء العربيّ، الطّبعة الأوّلى، بيروت، ١٩٧٦م.

١٢٢ ـ **اللّغة والحضارة.** الدكتور مصطفى مندور. منشأة المعارف بالإسكندريّة، القاهرة، د. ط. ١٩٧٤م.

١٢٣ ـ **اللّغة وعلوم المجتمع.** الدكتور عبده الراجحيّ. القاهرة، د. ط. ١٩٧٧م.

١٢٤ ـ **اللّغة والمجتمع.** الدكتور علي عبد الواحد وافي. دار إحياء الكتب العربيّة، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م.

١٢٥ ـ **اللّغة والمجتمع ـ رأي ومنهج ـ الدكتور محمود السّعران.** دار المعارف، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٣م.

١٢٦ ـ **ليس في كلام العرب.** ابن خالويه (الحسين بن أحمد). تحقيق أحمد عبد الغفور عطّار، دار مصر للطباعة، القاهرة، د. ط. ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م.

١٢٧ ـ **ما تلحن فيه العامّة.** الكسائيّ (علي بن حمزة). تحقيق وتقديم وتعليق الدكتور رمضان عبد التوّاب، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، الطّبعة الأوّلى، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٢م.

١٢٨ ـ **مجالس ثعلب.** ثعلب، (أحمد بن يحيى). تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، دار المعارف، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٠م.

١٢٩ ـ **مجالس العلماء،** الزجّاجي. (عبد الرحمن بن إسحاق). تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، وزارة الإرشاد والأنباء، الطبعة الأولى، الكويت، ١٩٦٢م.

١٣٠ ـ **مجمع الأمثال.** الميداني (أحمد بن محمّد). تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجاريّة الكبرى، الطّبعة الثانية، القاهرة، ١٣٧٩هـ ـ ١٩٥٩م.

١٣١ ـ **مجمع اللّغة العربيّة في ثلاثين عاماً ١٩٣٢ ـ ١٩٦٢ ماضيه**

وحاضره. الدكتور إبراهيم مدكور، الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة، القاهرة، د. ط. ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م.

١٣٢ - **المحاسن والأضداد**. الجاحظ (بحر بن عمرو). دار مكتبة العرفان، بيروت، د. ط. د. ت.

١٣٣ - **المحاسن والمساوئ**. البيهقيّ (إبراهيم بن محمّد). تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، د. ط. ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م.

١٣٤ - **محاضرات الأدباء ومحاورات الشّعراء والبلغاء**. الراغب الأصبهانيّ (الحسين بن محمّد). دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ط. ١٩٦١م.

١٣٥ - **محاضرات في اللّغة**. عبد الرّحمن أيّوب. مطبعة المعارف، بغداد، د. ط. ١٩٦٦م.

١٣٦ - **المحتسب في تبيين وجوه شواذّ القراءات والإيضاح عنها**. ابن جنيّ (عثمان بن جنيّ). تحقيق علي النّجدي ناصيف والدكتور عبد الحليم النّجاّر والدكتور عبد الفتّاح شلبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، القاهرة، د. ط. ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

١٣٧ - **مختصر كتاب البلدان**. ابن الفقيه (أحمد بن محمّد). دار إحياء التراث العربيّ، الطّبعة الأوّلى، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٣٨ - **المخلاة**. بهاء الدين العامليّ (محمّد بن حسين). تحقيق محمّد خليل الباشا، عالم الكتب، الطّبعة الأوّلى، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

١٣٩ - **مروج الذّهب ومعادن الجوهر**. المسعودي (عليّ بن الحسين). تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجاريّة الكبرى، الطّبعة الثالثة، القاهرة، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م.

١٤٠ - **المزهر في علوم اللّغة وأنواعها**. السيوطي، (عبد الرحمن جلال الدين). تحقيق محمّد أحمد جاد المولى وعلي محمّد البجاوي

ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، الطّبعة الرابعة، القاهرة، ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م.

١٤١ ـ **المستطرف في كلّ فن مستظرف**. الأبشيهيّ (محمّد بن أحمد) دار الأمم، بيروت. د. ط. د. ت.

١٤٢ ـ **معجم الأدباء**. ياقوت الحموي (ياقوت بن عبد الله). راجعته وزارة المعارف، مطبوعات دار المأمون، القاهرة، د. ط. د. ت.

١٤٣ ـ **معجم البلدان**. ياقوت الحمويّ (ياقوت بن عبد الله). دار صادر ودار بيروت، بيروت، د. ط. ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

١٤٤ ـ **المعجم الفلسفيّ**. جميل صليبا. دار الكتاب اللبناني، بيروت، د. ط. ١٩٧٨م.

١٤٥ ـ **المعجم الفلسفيّ**. مراد وهبة، دار قباء الحديثة، الطّبعة الخامسة، القاهرة، ٢٠٠٧م.

١٤٦ ـ **المعرّب من الكلام الأعجميّ على حروف المعجم**. الجواليقي (موهوب بن أحمد). تحقيق أحمد محمّد شاكر، مطبعة دار الكتب المصريّة، القاهرة، د. ط. ١٣٦١هـ.

١٤٧ ـ **المعتمد في الأدوية المفردة**. يوسف بن عمر (الملك المظفّر). مطبعة الحلبي، القاهرة، د. ط. ١٣٢٧هـ.

١٤٨ ـ **مقامات الهمذانيّ**. بديع الزمان الهمذانيّ (أحمد بن الحسين). تقديم وشرح الشيخ محمّد عبده، دار المشرق، الطّبعة السادسة، بيروت، ١٩٦٩م.

١٤٩ ـ **المقدّمة**. ابن خلدون (عبد الرّحمن بن محمّد). تحقيق الأستاذ حجر عاصي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، د. ط. ١٩٨٨م.

١٥٠ ـ **الموسوعة العربيّة**. هيئة الموسوعة العربيّة في رئاسة الجمهوريّة العربيّة السوريّة، الطّبعة الأولى، دمشق، ٢٠٠٠م.

١٥١ ـ **الموسوعة الفلسفيّة العربيّة**. معهد الإنماء العربيّ، الطّبعة الأوّلى، بيروت، ١٩٧٨م.

١٥٢ ـ **نخبة الدّهر في عجائب البرّ والبحر**. شيخ الرّبوة الدمشقيّ (محمّد ابن أحمد) مكتبة المثنّى، بغداد، د. ط. د. ت

١٥٣ ـ **النّزعة الكلاميّة في أسلوب الجاحظ**. فكتور شلحت اليسوعيّ. دار المعارف، القاهرة، د. ط. ١٩٦٤م.

١٥٤ ـ **نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس**. عبّاس بن عليّ المكّيّ. المطبعة الحيدريّة في النجف، العراق، د. ط. ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

١٥٥ ـ **نقد الشعر**. قدامة بن جعفر. تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، د. ط. ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م.

١٥٦ ـ **نهاية الأرب في فنون الأدب**. النّويري (أحمد بن عبد الوهّاب). طبعة دار الكتب المصريّة، الطّبعة الأوّلى، القاهرة، ١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٣م.

١٥٧ ـ **هارون الرشيد** .أحمد أمين. دار الهلال، القاهرة، د. ط. د. ت.

١٥٨ ـ **هارون الرّشيد ـ دراسة تاريخيّة اجتماعيّة سياسيّة ـ** الدكتور عبد الجبّار الجومرد. مطبعة دار الكتب، بيروت، د. ط. ١٩٥٦م.

١٥٩ ـ **الوافي بالوفيات**. الصّفدي، (خليل بن أيبك). تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربيّ، الطّبعة الأولى، بيروت، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

١٦٠ ـ **الوساطة بين المتنبّي وخصومه**. الجرجاني (علي بن عبد العزيز). تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمّد البجاوي، دار إحياء، الكتب العربيّة، القاهرة، د. ط. د. ت.

١٦١ ـ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**. ابن خلّكان (أحمد بن محمّد).

تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، د. ط. ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

١٦٢ ـ **يتيمة الدّهر في محاسن أهل العصر**. الثعالبيّ (أبو منصور عبد الملك ابن محمّد). تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجاريّة الكبرى، الطّبعة الثانية، القاهرة، د. ط. ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م.

ب ـــ المترجمة

١ ـ **أصوات وإشارات**. ألكسندر كوندراتوف. ترجمة إدور يوحنا، وزارة الثقافة، بغداد، د. ط. ١٩٧١م.

٢ ـ **بلدان الخلافة الشرقية**. كي لسترنج. ترجمة بشير فرنسيس وكوكيس عوّاد، مؤسّسة الرسالة، الطّبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٥م.

٣ ـ **تاريخ الأدب العبّاسيّ**. نيولد نكلسن. ترجمة وتحقيق الدكتور صفاء الخلوصي، المكتبة الأهلية، بغداد، د. ط. ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

٤ ـ **تاريخ الحضارات العام (الجزء الثالث)**. إدوار بروي. ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، منشورات عويدات، الطّبعة الثانية، بيروت ـ باريس، ١٩٨٦م.

٥ ـ **تاريخ الزنوج في أميركا**. إينا كورين براون. ترجمة الدكتور م. عيسى، مؤسّسة سجّل العرب، القاهرة. د. ط. د. ت.

٦ ـ **تاريخ الشعوب الإسلاميّة**. كارل بروكلمان. ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكيّ، دار العلم للملايين، الطّبعة الثامنة، بيروت، ١٩٧٩م.

٧ ـ **الجاحظ في البصرة وبغداد وسامرّاء**. شارل بلا. ترجمة إبراهيم الكيالي، دار اليقظة دمشق، د. ط. ١٩٦١م.

٨ ـ **الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجريّ**. آدم ميتز. ترجمة محمّد عبد الهادي أبو ريده، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الكتاب ببيروت،الطّبعة الرابعة، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

٩ ـ **اللّغة**. جوزيف فندريس. ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمّد القصّاص، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، د. ط. ١٩٥٠م.

١٠ ـ **اللّغة بين الفرد والمجتمع**. أوتو جسبرسن. ترجمة وتعليق الدكتور عبد الرّحمن محمّد أيّوب، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، د. ط. ١٩٥٤م.

١١ ـ **اللّغة في المجتمع**. موريس م. لويس. ترجمة الدكتور تمام حسّان ومراجعة الدكتور إبراهيم أنيس، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د. ط. ١٩٥٩م.

١٢ ـ **محاضرات في الألسنية العامّة**. فردينان دو سوسر. ترجمة يوسف غازي ومجيد النّصر، دار نعمان للثقافة، الطّبعة الأولى، جونية، لبنان، ١٩٨٤م.

ج ــ الفرنسيّة:

1 - **La sociolinguistique.** J. GARMADI. PUF, Paris, 1981.

2- **Le parler ordinaire.** W. LABOV. traduit de l'americian ALAIN KIHM. les editions de Minuit, Paris, 1978.

3 - **Linguistique historique et linguistique generale.** A. MEILLET. Champion, Paris, 1975.

4 - **Materiaux pour une sociologie du langage.** M. COHEN. V1, Maspero, Imprimerie Corbiere et Jugain, Paris, 1978.

5 - **Sociolinguistique.** W. LABOV. Imprimerie Corbière et Jugain, les editions de Minuit, France, 1979.

٨ ـ فهرس المحتويات

اللغة والمجتمع عند العرب

(الجاحظ نموذجاً)

يندرج هذا الكتاب تحت إطار علم اللغة الاجتماعي. فالعرب لمسوا العلاقة المتجاذبة بين اللغة والمجتمع، وسجلوا ملاحظات دقيقة حولها.

والجاحظ أشار إلى تلك العلاقة في طيّات مؤلفاته، وكذا غيره من الأدباء، ما يجعلنا نقف على تأثير المجتمع في لغة الفرد والجماعة، وندرك الكثير من الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي سادت آنذاك من خلال اللغة.

من هنا فإن تراثنا الأدبي بحاجة إلى إعادة نظر في قراءته وفهمه استناداً إلى العلوم اللغوية الحديثة، وإلى ما ابتكره وأبدعه الفكر الإنساني من طرائق جديدة أسهمت وتسهم في تطوير مناهج البحث في الأدب واللغة والنتاج المعرفي العام، وصولاً إلى مفاهيم جديدة تساعد على فهم أعمق وأشمل للنصوص العربية.

ويمتاز هذا الكتاب بتشكيل متنه تشكيلاً تاماً، مع ما يمثّ
من مغامرة ومجازفة، حيث لا يخلو الأمر من هفوات الق
الطباعة.

ISBN 614-417-072-4
9 786144 170724

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع